إطلالة على العالم الفسيح

بين الشرق والغرب

(٣) من رحلات

حمد الجاسر

منشورات مجلة «العرب» هاتف ولاقط ٤٦٢١٢٢٣ ص ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١

المملكة العربية السعودية

إطلالة على العالم الفسيح

بين الشرق والغرب

(٣) من رحلات

حمد الجاسر

منشورات مجلة «العرب» هاتف ولاقط ٤٦٢١٢٢٣ ص ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١

المملكة العربية السعودية

ح دار اليمامة للبحث والنشر ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجاسر، حمد

إطلالة على العالم الفسيح - ج٣ - الرياض.

٣٨٢ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك ٢ -٢-٩١٩٧-٩٩٦٠

١- أدب الرحلات أ - العنوان

ديوي ٩١٠,٤١ ١٩/٠٨٥٨

رقم الإيداع : ١٩/٠٨٥٨

ردمك : ٢-٢-٩١٩٧-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م



وماذا في هذه الورقات ؟!

لم يَعْدُ الحقيقة الكاتب الكريم مشعل بن محمد بن أحمد السُّدَيْرِيُّ حين قال – عَرَضًا – في كلمة له نشرتها إحدى الصحف عما قرأه مما كنت أكتبه أثناء رحلاتي، عن وصف مشاهداتي بعض المدن التي رأيتها – قال ما معناه: (إنه يخلو من العمق الذي يبرز خصائص تلك البلاد، وما تمتاز به من مظاهر العمران، وتختص به من بدائع الفنون، ولا يَعْدُوْ أَنْ يكون تسجيلا لمظاهر أشياء يدركها كل سائح). انتهى.

حقًّا هذا فما كانت لديَّ الوسائل التي تمكنني من أن أُدْرِكَ خصائص تلك المدن ومميزاتها، فأنا لم أدرس تواريخها دراسة وافية، ولا أحسن اللغة التي يتخاطب بها أهلها، ولهذا فأنا لا أَستطيع إدراك ما ينبغي لمن يريد وصفها أن يقدمه للقراء، بصورة تُرْضِي ميولهم، وتشبع رَغَبَاتِهم، ومثل هذا لا يستطيعه إلا المتمكن من دراسة تاريخ تلك البلاد، مع الإقامة الطويلة بين أهلها، والتفاهم معهم بلغتهم، زَمَنًا يُمَكِّنُهُ من ذلك.

والأخُ السُّدَيْرِيُّ وغيره من القراء يدركون أن الإنسان عندما يسافر إلى بلاد أخرى خارج بلاده، تكون له غايات وأهداف وأغراض متنوعة، فهناك من يسافر لأجل العلاج، فهذا مشغول بنفسه، وبما يَتَهَيَّأُ له من الراحة والاطمئنان، باشتغاله بمراجعة الأطباء المتخصصين عمَّا عدا ذالك.

ومنهم من تكون غايته الترويح عن النفس، وذلك بالتنقل في البلاد، ومشاهدة مظاهرها، دون التعمق في البحث عن خصائصها أو ما تتمتع به من مظاهر العمران، أو مستحدثات الحضارة الحديثة.

وهناك من يسافر إلى البلاد التي يتوخَّى أن يستزيد منها علمًا ومعرفة بإحدى وسيلتين: إما بالاحتكاك بعلمائها، وهذا لا يتسنى إلا لمن يحسن اللغة التي يتخاطبُ بها أولئك العلماء.

والوسيلة الثانية : عندما يعلم بوجود مكتبات في تلك البلاد تحوي شيئًا من تراث العرب، الذي تسرب الكثير منه إلى خارج بلادهم، فيحرص على زيارتها، ليس له غاية سوى ذلك، لكي يتمكن من الاطلاع على محتوياتها من الكتب العربية، واقتناء ما يستطيع اقتناءه، إما بالتصوير أو بالنقل والاستفادة.

وأنا وإن كنت من هؤلاء إلا أنني أفردت الكلام عما هو من هذا القبيل في القسم الأول من رحلاتي الذي طبع بعنوان «رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث» عام ١٤٠٠ (١٩٨٠م).

أما من أراد من سفره هذا مجرد الترويح عن النفس، فإنه يتسنى له ذلك، ولو لم يحسن لغة البلاد التي يزورها، وهكذا كنت أتَوَخَّى في زياراتي، وقد لا أَعْدِمِ في هذه البلاد من أَستفيد من علمه ومعرفته بالوسيلة التي أَسْتطيعها.

إِذَنْ ما هذه الورقات التي تناولت بما كتبت فيها تسجيلَ بعض ما خطر لي أثناء أسفاري، ومروري بتلك البلاد التي تحدثت عنها، ما هي سوى لمحاتٍ حاولت أن أُسَجِّلَ بها ما خطر لي من أفكار وآراءٍ، تخطر مثلها لغيري من الناس الذين مروا بتلك البلاد، وقد أشرت في مناسبات إلى أن شهوة الكلام قد طغت عليَّ طغيانا كان من أثره تسجيل هذا الكلام الذي لن يجد فيه القارئُ ما يستزيد به معرفة أو يستفيد منه مايُعَدُّ طريفًا أو مفيداً.

وما كنت مع كل ذلك ممن يبخس القارئ حقه، أو يهضم قدره، فيقدم له ما يَضيع به وقته سُدًى، حيث يشغله بقراءة ما لا طائل تحته، ولكنها خطرات سنَحَتْ، فأبرزتها بصورة أنا راضٍ عنها يوما من الأيام، مع اعتقادي أن القارئ الكريم قد لا يشاركني هذا الرضا ولكن ماذا أعمل؟! إنها طبيعة الإنسان - أي إنسان كان - يرى في كل عمل من أعماله ما هو جدير بالإبراز والظهور، وهكذا كان:

وهل أَنَا إلاَّ من غَزِيَّة إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

حمد الجاسر

من الغـرب...

إلـى الشـرق...

بين ميونخ وفينا

ليستْ هذه أول رحلة أقوم بها إلى بلاد أوربية، بل سبقتها رحلات زرت خلالها كثيراً من تلك البلاد، أولها عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) حين قررت بعد عودتي من الولايات المتحدة الأمريكية هولندا وبريطانيا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا، وأعقبتها رحلات متعددة إلى تلك البلاد، وفرنسا، وبعض الدول الاسكندنافية، كالسُّويد، والنرويج والدانمرك، وتكررت الزيارات التي تحوي مكتبات عامة تعنى بالمخطوطات العربية في تركيا وبريطانيا وأسبانيا وفرنسا، وغايتي في أكثر تلك الرحلات البحث عن المخطوطات في التاريخ والجغرافية والأدب مما يتعلق بالجزيرة العربية، مما وصفت بعضه في القسم المنشور من رحلاتي(١).

أما سفري إلى (ميونخ) فقد كان للعلاج، إلا أنني بعد وصولها اضطررت لتزْجَية فراغ الوقت، انتظاراً لموعد مقابلة الطبيب فزرت المكتبة العامة في المدينة، فوجدت من حسن معاملة المشرف على استقبال الزائرين فيها، مع عدم معرفته للغتي ما قوّى الرغبة في التردد على تلك المكتبة - بعد تأثر من جراء مقابلة الطبيب، انتظاراً لموعد السفر، مما شغلت فيه ذهني بالمطالعة.

وفي أحد الأيام الأولى وجدت في الفندق كتاباً باللغة العربية من عالم جليل ألماني، يعبر فيه عن شعور كريم حملني على الاتصال به بالهاتف، ثم زيارته في منزله القريب من الفندق، فكان من حسن استقباله ما قوّى الصلة به، فتكررت الزيارات، والتعارف بيني وبين أحد تلاميذه، وهو عالم فاضل، والأثنان يعنيان بالتراث العلمي العربي، وهما الأستاذ باول كونيتش (Paul Kunitzsch) والأستاذ راينهارت فيبرت (Reinhard Weipert)، فلقد وجدت من لطفهما، وأحسست من سعة معرفتهما - كل في اختصاصه، الأول في علم الفلك، والثاني بسعة الاطلاع على التراث العربي بصفة عامة، ما قوّى صلتي بهما مدة إقامتي في ميونخ، واستمرت بيني وبين الأستاذ راينهارت تزداد وتجدد، لكثرة الاتصال بيننا، فكثيراً ما أرجع إليه للاستفادة من علمه.

---

(١) نشرته (جمعية الثقافة والفنون) سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) باسم «رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث».

ومع أنني عرفت بعض مشاهير المستشرقين معرفة صلة، كالحاج أبو بكر سراج الدين (مارتين لنجز) في لندن، وكريستوفر تُلّ من (جامعة أبسالا) في السويد، وشارل بلاَّ في باريس، ودلاَّ فيدا، وماريا نلّينو في إيطاليا، إلا أنني وقد عرفت الأستاذين كونيتش وفيبرت في وقت تأثر نفسي، فكان لالتقائي بهما لأول مرة، وأنا بتلك الحالة، ما أضفى على نفسي راحة واطمئنانًا، خلال إقامتي في تلك البلاد.

ثم كان السفر من (ميونخ إلى فينَّا) والبقاء فيها فترة من الوقت للاستجمام، سعدتُ خلالها بالالتقاء وبإخوة أحبَّة، أضفوا عليَّ من لطفهم ما تعجز في مقابلة قليله بما هو جدير به من شكر وتقدير، مما أبقى لهذه الرحلة من الأثر في نفسي ما دعا لتقديمها، وكان المناسب أن توضع محلها بين الرحلات إلى البلاد الأوربية الأخرى.

في ميونخ : يزداد تَشَبُّثُ المرءِ بالحياة بازدياد سِني عمره، إذْ يضعفُ في نفسه عدمُ الاكتراث من مجابهة المجهول، ويقوى تعلقه بما اعتاد، وأَلِفَ من وسائل البقاء. وحين كنت أقضي الصيفَ في جزيرة (ميورقة) قبل بِضْعِ سنوات [٢٣ / ١٢ / ١٤٠٣هـ - ١٣ / ٩ / ١٩٨٣م] وفي الساعة السابعة من مساء يوم ١٢ / ٩ / ١٩٨٣ - وأنا مُتَّجهٌ من مقهى في وسط المدينة إلى الفندق الذي أَحِلُّ فيه، ويقع فوق تلٍّ على شاطئ البحر - أَحْسَسْتُ كأن يداً قويةً تضغط على صدرِي بحيثُ توتَّرَتْ أعصابْ أصابع يدي. فتوقفتُ عن المشيِ نحو ثلاث دقائق فبدأَ يزول الألمُ تدريجًا، ثم حدث لي مرة أخرى مثل ذلك في الساعة التاسعة من ذلك المساء، وأنا متمدِّدٌ فوق السرير، وأحسستُ بضغط في أعلى البطن، ومَغْصٍ يسير في الأمعاء، وفي صباح اليوم الثاني - وبتوجيه من أم محمد بالهاتف من الرياض لابنتيها وكانتا معي - كان تأجيلُ السفر لاستشارة أحد أطباء القلب، فتمَّ ذلك بمساعدة الأخ عبدالله العثمان، وهو من خير مَنْ عرفته في جزيرة (ميورقة) من إخواننا من أهل شقراء، وفي مستشفى المدينة، ولدى أشهر أطبائها في أمراض القلب، وبعد تخطيطه وفحصه بدقَّةٍ، قَرَّر أن ماحدثَ لي كان نوبة قلبية، ولكنها ليست شديدة، ولاتستدعي التأخر عن السفر بالطائرة، ولكن يلزُم عند وصول الرياض إجراءُ فَحْصٍ شاملٍ من قبل طبيب مختص، كما ينبغي استعمالُ حبوب كتبها لي خمسة أيام في الأسبوع.

كان الترددُ على (مستشفى الملك فيصل التخصصي) وإجراء أنواع من الفحوص الطبية، بإشراف الدكتور جلال زيادي، رئيس قسم أمراض القلب في المستشفى، ثم كان أن قرر (بتاريخ ٢٠ محرم ١٤٠٤ - ٢٦ أكتوبر ١٩٨٣م) حدوثُ مرضٍ في القلب نشأ عنه ضعفُ عمله، وتأثُّر شريانَيْنِ من شرايينه، ووصفَ لي العلاج الذي داومتُ على استعماله من ذلك التاريخ، ممَّا يوسع الشرايين، وينشط حركة القلب.

وفي إحدى زياراتِي لِمصْرَ وُصِفَ لي الدكتور عبد العزيز الشريف، بأنه من أشهر أطباء القلب، فزرته [في مساء ٢٨ / ٥ / ١٤٠٤ - ٢٩ / ٢ / ١٩٨٤م] فَأَيَّدَ ماقرره الدكتور جلال زيادي، وأمر بالاستمرار في تناول ماوصفَ من أدوية.

غير أنِّني بتأثير ماأُحِسُّ به من آلامٍ في الرقبة والكتفين، وفي أسفل المتن الأيمن، مع مايقابله من الصدر بمحاذاة الثَّدْيَ كنت أَتَوَهَّمُ أنَّ ماحدث لي من آلام في صدري، وماأُحِسُّ به في بعض الأوقات من وَخَزَاتٍ خفيفةٍ فيه، قد يكون منشأُ ذلك مرضًا لاصلة له بالقلب، ولهذا سارَعْتُ عندما ذُكِر لي طبيبٌ مشهور في مستشفى جامعة ميونخ في المانيا - بالذهاب إليه. غير أنه بعد إجراء الفحوص المعتادة قرر [بتاريخ ١٣ / ١١ / ١٤٠٤ - ٩ / ٨ / ١٩٨٤م] وفق ماقرره الدكتور الزيادي، وأوصى بالاستمرار في استعمال ماوصفه من دواء.

كنت - فيما مضى - أَتَشَبَّثُ بالأَمَلِ بِأَنَّ القلب السليم، أما الآن فقد داخلني الوهم بعد إيضاح الدكتور الألماني أنَّ الحاجة تدعو لتغيير اثنين من شرايينه - فَتَوَهمت بأن الأمر يستدعي اهتمامًا مِنِّي فوق ماأَتَصَوَّرُ، وأنَّ من عادة الأطباء - في الغالب - محاولة تقوية روح التفاؤل في نفوس مرضاهم، ولو أَدَّى ذلك إلى عدم مكاشفتهم بحقيقة أمراضهم، وإِذَنْ فلابُدَّ من البحث عن طبيب يمنحني من الثقة ماأَطْمَئِنُّ به، وعَلى أية حال كان ذلك المرض.

وصديق العمر الشيخ عبد الله الخيَّال - رحمه الله - الذي عرفته وصادقته منذ أكثر من ستين عامًا - من عام ١٣٤٦هـ - كان يشكو من قلبه مثل ماأشكو، ولكثرة تردده على الأطباء أصبح ذَا معرفةٍ بكثير منهم في أشهر مستشفيات العالم، وقد ارتاح بمراجعة أحدهم

في مستشفى في مدينة (ميونخ) يقال عنه: إنه يمتاز على غيره بمقدرة أطبائه، وحسن معاملته، فليكن الذهاب إلى تلك المدينة، بعد تحديد موعد زيارة ذلك المستشفى.

وعلى متن إحدى طائرات الخطوط النمساوية، وفي الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق من صباح يوم الإثنين [غرة رمضان ١٤٠٧هـ - ٢٧ / ٤ / ١٩٨٧م] كان الإقلاعُ من (مطار الملك خالد في الرياض) وفي الساعة الثالثة كان الهبوط في مطار (لاَرْنَكَا) في قبرص، وكان الطيران مريحًا، والمعاملة حسنة، إلا أنَّ البقاءَ في الطائرة ساعة وربع الساعة كان مُملاً، وكان المفروض أنه لايزيد على ٤٥ دقيقة، فتجاوز الساعة والربع.

لم نبلغ مطار (فينا) إلا الساعة السادسة والنصف، ولم يزد المكثُ فيه على نصف ساعة، بحيث كان الوصول إلى (ميونخ) بعد خمس وأربعين دقيقة.

وكان النزول في فندق (شرَتُون) وأُجْرَةُ الغرفة - بعد المماسكة - ٢٣٠ (ماركا) أي مايقارب مئة وخمسين دُوْلارًا، فقيمة الدولار منخفضة هذه الأيام (الدولار = ١,٧ من المارك) وكان الجو معتدلاً، لاقَرٌّ ولا حَرٌّ، والغرفةُ في الدور العشرين تُطِلٌّ على المدينة فتبدو معالمها، بل تَبْدُو المدينة كُلُّهَا كَغَابةٍ تزدان بانتشار الحدائق التي تكثر فيها الأشجار الباسقة، تَتَخَلَّلُهَا الميادين الفسيحة، فتبدو شوارع المدينة الطويلة المتعرجة في المساء رائعة الحسن، بما ينتشر فيها من المصابيح الكهربائية القوية الإضاءة واللمعان.

كنت عرفتُ بأن في (مكتبة الدولة في ميونخ) مخطوطات عربية، من بينها نسخة ناقصة من كتاب «الجوهرتين» للهمداني - وصفتها في مقدمة الكتاب الذي نشرته هذا العام[1]، اعتماداً على مصورة كان (المركز الألماني للدراسات الشرقية في بيروت) ساعدني في الحصول عليها، وهي تقع أثناء مجموع رغبتِ الاطلاع عليه كاملاً، فكان الذهابُ إلى تلك المكتبة في صباح يوم الثلاثاء [أول رمضان ١٤٠٧هـ - ٢٨ / ٤ / ١٩٨٧م].

كان استقبالُ السيدةِ التي تشرف على قسم المخطوطات كريمًا، وتدعى (رِنَّر RENNER) فقد سارعتْ إلى البحث عن المخطوط الذي أردتُ مطالعته، فأحضرته،

---

(١) : ١٤٠٨ (١٩٨٧م).

وأخبرتني بتغير رقمه القديم، ثم كتبت لي بطاقة - حين علمت برغبتي بالتردد إلى المكتبة - تهيئ لي ذلك عامًا كاملاً، وقدمت لي فهرسًا ألفه (منش وجوزيف هومر) مطبوعًا سنة ١٨٦٦ يحوي أغلب مافي تلك المكتبة من مخطوطات عربية، وقد أُضيفَ إليها مخطوطات أخرى أُفْرِدتْ في فهرس غير مطبوع.

وبَدَا لي من عنايتها واهتمامها بي وبغيري من زُوَّار هذا القسم ماأزال اكتئابًا في نفسي، لعلَّه نشأ عن الإحساس بالغربة في هذه المدينة، ظَلَّ ينتابني ساعة وطئت أرضها، وأنني سَأهْرَعُ إلى هذا المكان الهادئ، لأجد فيه الراحة والاطمئنان والاستفادة، وذكرتُ من جرَّاء كلام استقبال هذه السيدة الفاضلة ماحدث لي في مناسبة مماثلة، مع إنسان عرفني حقَّ المعرفة، ولكنَّ موقفه معي كان على النقيض، لجهله بغاية ماأُسْنِدَ إليه من عمل.

كان المجموع ذو الرقم ١٢٦١ يحوي ثلاثة كتب أولها كتاب «سيرة عمر بن عبد العزيز» رواية مالك رحمة الله عليهما - على ماكتب في طرته، وفي الصفحة الثانية بعد البسملة (.. وبه نستعين: قال أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد الحكيم (كذا): حدثني أبي عبدالله بن الحكم، قال: حدثني مالك بن أنس) الخ، وهو الكتاب الذي نشره الأستاذ أحمد عُبيد الدمشقي - صاحب المكتبة العربية - سنة ١٣٤٥ بعنوان «سيرة عمر بن عبدالعزيز» على مارواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، تأليف أبي محمد عبدالله بن عبدالحكم المتوفى سنة ٢١٤، رواية ابنه أبي عبدالله محمد المتوفى سنة ٢٦٨ - رحمة الله عليهم أجمعين، ثم أعاد نشره سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) في القاهرة. وقام الدكتور عبدالله عسيلان بتحقيقه ونشره سنة ١٣٩٩هـ.

وهذه المخطوطة لم يطلع عليها الأستاذ أحمد عُبيد، ومع اعتماده على مخطوطات بينها مخطوطتان أجود منها وأقدم زمنًا إلا أنَّ من الممكن الاستفادة منهما في تصحيح كلمات لم يتضح للناشر الكريم وجه الصواب فيها.

والكتاب الثاني: كتاب «الجوهرتين».

والثالث: كتاب في الطب، لم يُسَمَّ، يظهر أنه نُقُولٌ من عدة كتب، ولم يذكر جامعه، وهو يمني كما يدل على ذلك نوع كتابته، وفي الصفحة الأولى من المجموع

مايفيد أن عيسى بن لطف الله بن المطهر طالعه في ٥ رجب سنة ١٠٣٧ - وعيسى هذا مؤرخ يمنيٌّ مشهور، كان ضالعًا مع الأتراك حين استيلائِهم على اليمن، وأَلَّفَ لأحد وُلاتِهم كتابٌ «روح الروح، فيما جرى بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح» ابتدأه بذكر حوادث سنة إحدى وتسع مئة، وانتهى فيه إلى ذكر بعض حوادث السنة التاسعة والعشرين بعد الألف - على مافي النشرة اليمنية من سلسلة (مشروع الكتاب) التي تصدرها وزارة الإعلام في (الجمهورية العربية اليمنية) وعيسى من أحفاد الإمام شرف الدين، وقد ترجمه الشوكاني في كتابه «البدر الطالع» ١/٥١٦ - وذكر أنه توفي سنة ثمان وأربعين بعد الألف، وأنه كان شاعراً، وأورد نماذج من شعره.

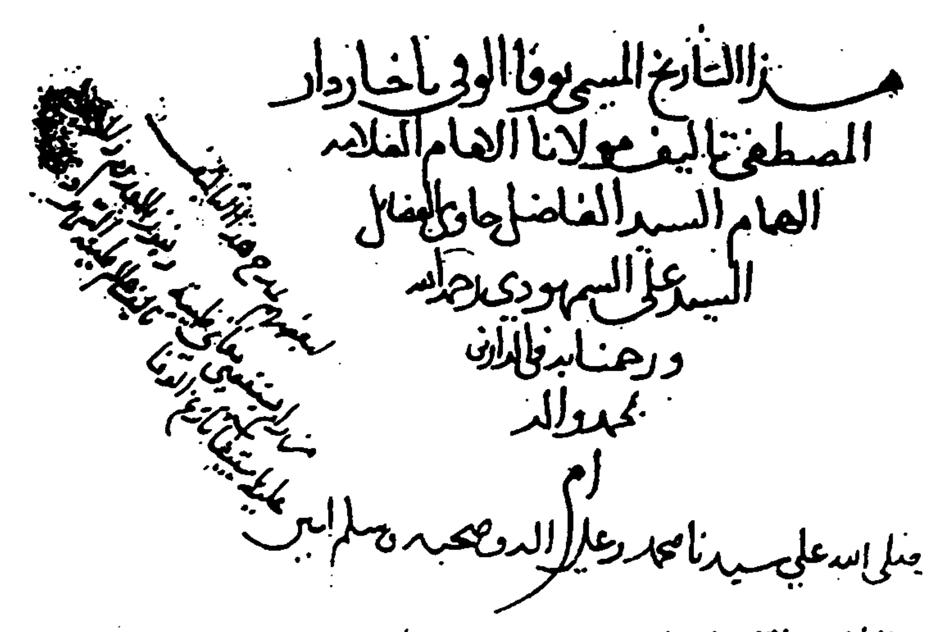
لم يكن الفهرسُ وافيًا من حيث وَصْف مايحويه من أسماء الكتب، ولكنني رأيت من بينها مارَغَّبني في زيارة المكتبة مرة أخرى، بعد أن نقلت أسماء ماأردت الاطلاع عليه.

وفي صباح يوم الأربعاء [٢/٩/١٤٠٧هـ - ٢٩/٤/١٩٨٧م] كانت الزيارة الثانية للمكتبة العامة - التي قيل لنا: إنها تحوي من الكتب نحو ثلاثة ملايين، وفي القاعة المخصصة لمطالعة المخطوطات - بأية لغة كانت - مايزيد على الخمسين من شيوخ وشباب، من الجنسين، أما المخطوطات العربية الموصوفة في الفهرس فعددها ٩٣٧ - ولكن المكتبة تضم أكثر من ألفي مخطوط عربي على ماقيل لي - لم تفهرس كلها.

قَدَّمْتُ للسيدة المشرفة على ذلك القسم أسماء خمسة كتب، فأخبرت الأستاذ عبدالله - باللغة الإنجليزية - بأنَّ إحضارها من المخزن يستدعي الانتظار وقتًا قد يبلغ الساعة، وقدمت لنا ثلاثة كتب مطبوعة تحوي نماذج مصورة من المخطوطات الشرقية من عربية وفارسية وعبرية وغيرها، في مكتبات متفرقة في العالم - لكي نطالع فيها حتى نُؤْتَى بالكتب التي طلبنا.

والكتبُ الخمسة التي رغبتُ الاطِّلَاعَ عليها هي:

١ - "خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى" : للسمهودي: هو الكتاب المعروف في تاريخ المدينة، وقد طبع مراراً، ورقم هذه المخطوطة (٨٣٢) وورقها (٢٠٥) وتاريخ كتابتها ٦ ربيع الثاني سنة ٩٧٦هـ (ست وسبعين وتسع مئة) وكاتبها


هذا التاريخ المسمى بوفا الوفا باخبار دار
المصطفى تاليف مولانا الهمام العلامة
الهمام السيد الفاضل حاوي الفضائل
السيد علي السمهودي رحمه الله
ورحمنا به في الدارين
بمحمد وآله

الصفحة الأولى والأخيرة من كتاب "وفاء الوفاء"

يدعى عبد الرحيم بن أحمد الشيرازي بن علي بن ابراهيم بن يوسف العجمي الشافعي، وليس فيها مايضيف جديداً على المطبوعة، على ماظهر لي مما تصفحت من أوراقها.

٢ – "وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى" : للسمهودي أيضًا: والكتاب كما هو معروف طبع مرتين، وهذه النسخة تقع في (٢٣٥) وتاريخ نسخها ٢٢ رجب سنة ١٠٥٢هـ وليس فيها اسم الناسخ، ولكنها منسوخة في المدينة المنورة، وممن ملكها أحمد بن سليمان الحسني السمهودي الشافعي، ورقمها (٣٨١)، وميزتها على المطبوعة تَمْيِيْزُ أسماءِ المواضع التي زادها المؤلف السمهودي على من قبله بكتابة حرف (ز) بعد ذكر الاسم مباشرة، وفي مخطوطة مكتبة الحرم المكي مثل هذا ولكنها أتقن وأقدم من مخطوطة مكتبة ميونخ.

٣ – "التبيين، في أنساب الصحابة القرشيين" : والكتاب طبع حديثًا طبعة تحدثت عنها في مجلة «العرب» س١٨ ص ٤٣١ /٥٥٣ وس ١٩ ص ١٠٧ / ١٨٨ / ٣٨٨ / ٥٢١ / ٦٩١ / ٧٨١، وهذه النسخة حسنةُ الكتابة، وتاريخ نسخها ١٣ صفر سنة ٨٦٩، وكاتبها يدعى عيسى بن عبد الله بن عيسى، ورقمها (٥٥٣) وقدْ عَبِثَ في كتابة عنوانها عابثٌ لعله أرادَ ترويجها، فصار (كتاب غاية الكمال، في سائر الأمثال، وأنساب العرب الجاهلية، والتبيين في أنساب الصحابة القرشيين، شيخ الإسلام موفق الدين اسماعيل (؟) أبو محمد عبدالله أحمد بن قدامة المصري (؟) قدس الله روحه) وكان حرف الباء من كلمة (كتاب) ممدوداً فاتسع لاضافة الاسم الملحق، وألحق قبل الاسم الصحيح حرف (و) – انظر الصورة –.

٤ – مجموع أشعار، برقم (٥٧٧) : لاعنوان لهذا الكتاب، ولارابطة بين مايحويه من قصائد لشعراء قدماء ومحدثين، ومن بينهم من المتأخرين من الجزيرة من ورد ذكرهم في مؤلفات القرن الثاني عشر الهجري، وتاريخ نسخه (ختام عاشورا المحرم سنة ١٢٢٨) والكاتب عبدالله بن ناصر بن دبيان، ولم أر فيه ماهو جدير بالذكر أو النقل.

٥ – أما الكتاب الخامس فقد أخطأت في كتابة رقمه وهو (٧٩١) فكتبته حين طلبته (799) فكان أن أُحْضِرَ فإذا هو جزء في تعليم حروف الهجاء، مايُعْرف باسم (قاعدة بغدادية) والمطلوب كان في الفهرس بعنوان (رسالة أحمد بن الواثق إلى المبرد) وسيأتي الحديث عنها.

معجزة وهي في اهل الحجاز روى عنه زيد بن اسلم وابنه سعد بن نفادة يزيد بن حذيفة
وابنه زر بن يزيد الاسديان ثبتا في الاسلام حين ما كان من امر طليحة ما كان ذكر
ابن اسحق اميمه بنت قيس بن عبد الله الاسدي كانت مع ام حبيبه بارض الحبشه
زر بن حبيش بن حباشه بن اوس بن هلال ابو هلال الاسدي يكنى ابا مريم وقيل ابا مطرف
ادرك الجاهلية ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم وهو من جلة التابعين وكبار اصحاب عبد الله بن
مسعود وادرك ابا بكر وروى عن عمر وكان عالما بالقرآن قاريا فاضلا روى عن عاصم
قال كان زر بن حبيش اكبر من ابي وائل فكانا اذا اجتمعا جميعا لم يحدث ابو
وائل مع زر بن حبيش وقال اسماعيل بن ابي خالد رايت زر بن حبيش في المسجد
تختلج لحياه من الكبر ويقول انا ابن مائة وعشرين سنة قال اسماعيل وعاش زر مائة
وعشرين سنة وتوفي سنة ثلاث وثمانين سنة بدير الجماجم وقيل مات سنة احدى
وثمانين ابو وائل شقيق بن سلمة الذي يروي عن ابن مسعود كان جاهليا اسلاميا
ر[illegible] بن جدرا استعمله عمر على الثغور وكان عابدا زاهدا له اخبار حسنة قبيصة
بن جابر الاسدي له صحبة وهو القايل حين بايع طلحه عليا اول يد بايعت هذا الرجل
من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يد شلا والله ما ارى ان هذا الامر يتم قبيصة
ابو جابر بن وهب بن مالك بن عميرة بن جدار روى عن عمر رضي الله عنهما [illegible] بن [illegible]
ابن معاوية بن سفيان بن منقذ بن عمير بن ابي اسامة ابن نصر كان شيدا ابو سماك
البراء بن سمعان وربيع بن جعفر بن ساحق كانا من رؤساء بني اسد يوم القادسية
اسلم بن الاخنف من اسرا واهل الشام سماك بن مخرمة بن حمين بن ثعلبة بن الهالك صاحب
مسجد سماك بالكوفة خال سماك بن حرب وبه سمي وكان سماك بن حرب ذهليا
نعيم بن دحاحة الاسدي البراء بن ناجية الكاهلي روى عن علي عبد الله بن الزبير الاسدي
الشاعر بنو الزاي ابو حصين من العلماء عثمان بن عاصم بن حصين ومن مواليهم يحيى بن وثاب
مولى لبني كاهل كان يومهم وكان قاريا فلما قدم الحجاج قال لا يؤمكم الا عربي اللسان فوثبوا بابن
وثاب وقالوا نعزله عن امامه فبلغ الحجاج فقال ويحكم انما قلت عربي اللسان فابى ابن وثاب
ان يصلي بهم سليمان بن مهران الاعمش مولى لبني كاهل ولدانهم قتل الحسين وشهد ابي عين الوردة
مع سليمان بن صرد فقتل ابو بكر واكثر الشعرا من الفقهاء ابو دلامة وابو عطا السندي
الشاعران

والحمد لله [illegible] وصلى الله على سيدنا محمد [illegible] وسلم

وكان الفراغ [illegible]

٨٦٩

الصفحة الأخيرة من كتاب "التبيين"

وفي الفهرس وصف لنسخة من كتاب «مجمع الأمثال» للميداني، رقمها (٦٤٣) مخطوطة سنة ٦١٥ لم أطلع عليها، إذ الابن الكريم الدكتور أحمد بن محمد الضُّبَيْب وهو الحَفِيُّ بهذا الكتاب، المعني بالبحث عن مخطوطاته القديمة لن تخفى عليه هذه النسخة.

زيارة الأستاذ الدكتور (باول كونيتش PAUL KUNITZSCH):

بعد العودة من المكتبة – في المساء – قُدِّمَ لي كتابٌ جاء فيه: لقد علمت، عند مروري في قاعة مطالعة المخطوطات، صباح هذا اليوم، بوجود سيادتكم داخل المكتبة وكم وددت ان اقابلكم... إلا أنني امتنعت عن إزعاجكم خلال عملكم، ولجأتُ إلى تدوين هذه السطور لأقدم لكم نفسي، وأعرض عليكم كلَّ مافي وسعي من مساعدة وتسهيل خلال اقامتكم في ميونخ. اسمي باول كونيتش، أستاذ الدراسات العربية في جامعة ميونخ، ولي تجارب سعيدة موفقة في التعارف على المملكة – وأشار إلى مشاركته في (الندوة العالمية الثانية لدراسات الجزيرة) عام ١٣٩٩ / ١٩٧٩م، وأضاف: ومازلت أحافظ خير الذكريات لهذه الزيارات. ولو كان لديكم فراغ، والرغبة في الحديث أو أي طلب – يمكنني ان اساعدكم على تحقيقه، فأرجو الاتصال بالهاتف على رقم ٩١٦٢٨٠ في ميونخ – في بيتي – مع العلم أنه عندي فراغ في كل من الأربعاء والخميس والجمعة صباحًا، وأما بعد الظهر أو مساء فحسب الظروف، وأَتشرف بأن أتمنى لكم اقامة ناجحة سعيدة في ميونخ، ومواصلة سفركم في كل أمان، وتمام الصحة، وعودة سليمة إلى الوطن الحبيب، مع فائق الاحترام والتقدير – انظر الصورة في الصفحة بعد هذه.

لم يسبق لي أن اجتمعت بالدكتور كونيتش، ومع شهرته في البلاد العربية، واختصاصه في عصرنا على ماعرفتُ – بمعرفة علم الفلك عند العرب – بعد المستشرق الايطالي (كارلو نلينو ١٢٨٨ / ١٣٥٧هـ) لاأعرف عنه أكثر من أنه هو الذي أَعَدَّ فهرسَ كتب ذالك العلم المصورة في (معهد المخطوطات) في القاهرة، وأنه شارك في

Prof. Dr. P. Kunitzsch
Davidstr. 17
8000 München 81

يوم الثلاثاء، ٢٨/٤/٨٧

الشيخ حمد الجاسر المكرم،

لقد علمت، عند مروري في قاعة مطالعة المخطوطات، صباح هذا اليوم، بوجود سيادتكم داخل المكتبة وكم وددت أن أقابلكم وأعرض عليكم كل مساعدة من طرفي لتسهيل أعمالكم الجارية هنا في ميونيخ، إلا أني من الناحية الأخرى، امتنعت عن إزعاجكم خلال عملكم، ولجأت إلى تدوين هذه السطور لأقدم لكم نفسي وأعرض عليكم كل ما في وسعي من مساعدة وتسهيل خلال إقامتكم في ميونيخ. اسمي باول كونيتش، أستاذ الدراسات العربية في جامعة ميونيخ، ولي تجارب سعيدة موفقة في التعارف على المملكة (كما ترون من هذه الورقة نفسها) وما زلت أحافظ خير الذكريات لهذه الزيارات. ولو كان لديكم فراغ والرغبة في الحديث أو - دون ذلك - أي طلب يمكنني أن أساعدكم على تحقيقه، فأرجو الاتصال بالهاتف على رقم 916280 في ميونيخ يعني في بيتي، مع العلم أنه عندي فراغ في كل من الأربعاء والخميس والجمعة صباحا، وأما بعد الظهر أو مساء حسب الظروف.

وأتشرف بأن أتمنى لكم إقامة ناجحة سعيدة في ميونيخ ومواصلة سفركم في كل أمان وتمام الصحة وعودة سليمة إلى الوطن الحبيب

مع فائق الاحترام والتقدير،

Paul Kunitzsch

انموذج لخط الدكتور باول كونيتش

ندوة (دراسات تاريخ الجزيرة) التي عقدت في جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ (نيسان سنة ١٩٧٩م) ببحث عنوانه : (ملاحظات عن احتمال علاقات مابين الجزيرة العربية القديمة والحضارات المجاورة، مما هو موجود في بعض الأسماء القديمة للنجوم) نُشِر باللغة الانحليزية في الكتاب الثاني لـ « دراسات تاريخ الجزيرة العربية » ص 201 - 205. وكانت المبادرة كريمة من الأستاذ، فأنا بحاجة إلى معرفة أمثاله من العلماء، وأتُوقُ إلى الاجتماع بهم، ولَدَي فسحة من الوقت قبل الذهاب لميعاد الطبيب المقرر صباح يوم الخميس.

كان الاتصال، وتحديد وقت الاجتماع في بيت الأستاذ الساعة التاسعة غداً (الأربعاء ٢/٩/١٤٠٧ – ٢٩/٤/١٩٨٧م) والبيت لايبعدُ عن الفندق سوى كيلين اثنين، وخارج المنزل عند وصولي أنا والأستاذ الخيال وجدنا الأستاذ في استقبالنا، ولقد كان على غاية من اللطف والبشاشة، واستعمال عبارات الترحيب الرقيقة، بلهجة عربية فصيحة، وهو في الثامنة والستين من عمره (ولد سنة ١٩٢٠م) على ماأخبرني.

كان يعيش وحدَهُ في بيتٍ حسنِ الترتيب، منه غرفة أُعِدَّت مكتبة، تحوي طائفة من الكتب العربية وغيرها، ويظهر أنَّ الأستاذ يهوي العزف ففي المدخل آلته الموسيقية (البيان) ومع أن كثيراً من الكتب العربية التي تحويها مكتبته تشتمل على علوم منوعة إلا أن اختصاصه (علم الفلك) كما يتضح مما أكرمني بتقديمه لي من أبحاثه، ومن بينها مؤلف باللغة الالمانية نشر سنة ١٩٨٦م بعنوان : Peter Apian und Azophi Arabisch Sternbilder in Ingolstadt I6. Jahrundert

عن تأثر عالم فلكي ألماني يدعى (بتر أپيان PETER APIAN) بعالم فلكي عربي هو الصوفي، كما نشر في مجلة « الورود » اللبنانية في تشرين الثاني سنة ١٩٨١م (س٣٤ ج١١، ١٢) بحثًا بعنوان : (مساهمة العرب في التسمية والاصطلاح الفلكيين) وألقى في الندوة التاريخية التي عقدت منذ بضع سنوات في (المنامة) بحثًا عن (جزيرة البحرين) اعتماداً على وصف الربَّان النجدي أحمد بن ماجد لهذه الجزيرة في كتابه.

ونشرتْ مجلة «معهد الدراسات الإسلامية» في مدريد عام ١٩٧١م في مجلدها السادس عشر له بحثًا بعنوان (آثار التراث العربي في اللغة الألمانية).

ولعلماء الألمان – بصفة عامة – من الاهتمام بالدراسات العربية[١] مايفوق اهتمام غيرهم من العلماء الغربيين، وخاصة في نشر كثير من المصادر العلمية القديمة محققة، كتاريخ الطبري و«معجم البلدان» و«تواريخ مكة» و«معجم ماستعجم» وغيرها.

ولقد تكرر الاجتماع بالأستاذ كونيتش، فكان له فضل تعريفي بعالم ألماني ذي عناية بالأدب العربي القديم، وبالشعر منه خاصة هو الأستاذ (راينهارت ڤيپرت REINHARD WEIPERT ومع أن هذا الأستاذ عمل في (المعهد الألماني للأبحاث الشرقية) في بيروت أثناء إقامتي في هذه البلاد، ومع صلتي بهذا المعهد فلم يكن من بين من عرفته أثناء ترددي عليه.

كانت أطروحة الأستاذ (راينهارت) لنيل إجازة درجة (الدكتوراه) عن الشاعر النُّمَيْرِيِّ وعنوانها: (STUDIEN ZUM DIWAN DES RA I) وشعر الراعي النميري جمعه الدكتور ناصر الحاني، وصدر في مطبوعات (مجمع اللغة العربية بدمشق) سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) ثم نشر في بغداد بتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي والأستاذ هلال ناجي في مطبوعات (المجمع العلمي العراقي سنة ١٤٠٠هـ(١٩٨٠)[٢].

وللأستاذ اعتناءٌ قوي بدراسة آثار المقلين من متقدمي الشعراء، فقد نشر في مجلة «الأبحاث» التي كانت تصدر عن (الجامعة الأمريكية) في بيروت [س٢٨ عام١٩٨٠م] بحثا عن (أُنيف بن حكيم النبهاني) حين كان أستاذنا الدكتور إحسان عباس يرأس تحريرها جاء فيها: (حققت الدراساتُ والأبحاثُ حول الشعر الجاهلي

---

(١) انظر "الدراسات العربية في ألمانيا – تطورها التاريخي ووصفها الحالي" للأستاذ البرت ديتريش – أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة جوتنجن.

(٢) يحسن الرجوع إلى البحث الممتع الذي نشره الدكتور خليل أبو رحمة من جامعة اليرموك في مجلة "معهد المخطوطات" في الكويت [م ٣٠ ج١ تاريخ جمادى وشوال سنة ١٤٠٦ ص ٣٩١/٤٢٨] – عن الراعي النميري وشعره.

والإسلامي المبكر تَقَدُّمًا على مستويات شتى في عقود السنين الأخيرة، ويعود ذالك إلى حد كبير إلى اكتشاف مخطوطات لمجموعات شعر قديمة أهمها وأوسعها كتاب « منتهى الطلب » لمحمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، انتهى ابن ميمون من تصنيف مجموعته عام ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، لكن مخطوطاتها للأسف لم تصل إلينا كاملة، ولكنها رغم ذالك كانت المستند الرئيس لباحثين كثيرين في مجال ضم شتات (شعر) بعض الشعراء في دواوين كبيرة، تحتوي على حوالي الألف بيت، وأخرى متوسطة الحجم يبلغ ماتحتويه قرابة الخمس مئة بيت، أما الشعراء (الْمُقِلُّون) ممن لم يصلنا من أشعارهم غير قصيدة أو قصيدتين، وليس لهم ذكر في المصادر فإنهم لم يلقوا اهتمامًا كافيًا باستثناء محاولة ظهرت في مجلة « المورد » العراقية. والحَقُّ أنَّ هاؤلاء (المقلين) هم الذين ينبغي توجيه النظر إليهم الآن، إذ أَنَّ المعروفين والمكثرين من الشعراء ظهرتْ دواوينهم ومجموعاتهم وتراجمهم كما ظهرت دراسات عن أكثرهم. لقد أكثر العلماء من الاستشهاد بهاؤلاء المقلين في اللغة والنحو، لكن الغموض يحيط بكثير من هذه الشواهد لاختلاف روايات الأبيات وتضاربها أحيانًا.

وَإِذَا كان الاهتمامُ بهاؤلاء الشعراء (الصغار) سائغًا بل ضروري، فإن الانشغال بهم ليس بالأمر السهل. والمثل الأقربُ على مانعنيه هنا تلك الصعوبة البالغة التي واجهتنا في التعرف على الشاعر المقل الذي اخترناه هنا واستخرجنا شعره من « منتهى الطلب » إنه أُنيف النبهاني. وبدايات القضية فيما يتصل به محاولة تحديد الحقبة التي عاش فيها، فمع أن القليل الذي وصلنا من شعره لايدع مجالاً للشك في أنه شاعر إسلامي، غير أن الفترة التي عاش فيها تبقى صعبة التعيين.

وقد اقترح فؤاد سزكين اعتباره من شعراء صدر الإسلام، وهو أمر ممكن لكن ليس هناك من شعره أو أنباءِ المصادر عنه مايجعل هذه الفرضية مرجحةً. وما يقال عن عصره يمكن أن يقال عن نسبه القريب، بيد أن قبيلته معروفة بالنسبة لنا، فقد كان الشاعر ينتمي إلى بني نبهان بن عمرو، وهم بطن من بطون قبيلة طَيِّءٍ، وفي « حماسة » أبي تمام

و« منتهى الطلب » أن أباه اسمه حكيم، لكن رواية متأخرة لابن جنِيٍّ تجعل اسم الأب (زبان) بينما يبقى اسم جده الأدنى مجهولاً، وكذا بقية سلسلة النسب التي تصله ببطنه القبلي.

إن هذه المعلومات الضئيلة عنه هي كل مايمكن استمداده من المصادر حتى الآن. وكما لم يكن هناك اهتمام بشخصه من جانب رجال التراجم، وكذالك لم يكن هناك اهتمام بشعره من جانب اللغويين، ولذا فإن ماوصلنا منه قليل جدًّا. إن المثل الوحيد على شعره تلك القصيدة الفريدة التي وصلتنا منه) انتهى.

ثم أورد القصيدة المشار إليها في مجلة « العرب » – س١٩ ص ٨٢١ وس٢٠ ص٤١٩ – موضحًا ماوقع من الاختلاف في بعض ابياتها وماضيف إليها مما ليس منها. ولقد أشارت مجلة « العرب » س١٩ ص٨٢٧ إلى أن تحديد زمن الوقعة الوارد ذكرها في قصيدة أنيف ومنها:

أَلاَ هَلْ أَتى أهلَ المدينة عرضُنَا خِصَالاً مِنَ المَعْرُوفِ يُعْرَفُ حَالُها

وإلى التعريف بأمية الوارد اسمه في القصيدة وانه ابن عبدالله بن عمرو (المُطْرَف) بن عثمان الذي قتل يوم قُدَيْدٍ سنة ثلاثين ومئة (١٣٠) وأن يوم المنتهب وهو يوم الوقعة، حدث قبل ذالك في عهد إمارة عبدالواحد بن سليمان للمدينة الذي تولى الإمارة سنة ١٢٩ وهرب بعد وقعة قُدَيد، وعلى هذا فالوقعة حدثت سنة ١٢٩، وقائل القصيدة شاعر إسلامي لاشك في هذا وإن اختلفت الرواية في اسمه هل هو انيف أم معدان؟

وللأستاذ (رينهارت) بحث آخر عن (مُعَقِّر البارقي) باللغة الألمانية في مجلة المانية سنة ١٩٨٠م، وله ملاحظات على كتاب « تاريخ التراث العربي » للدكتور فؤاد سزكين في طبعته الألمانية نشر بعضها في مجلة « تاريخ العلوم العربية والإسلامية » التي تصدر عن (معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية) في جامعة (فرانكفورت) سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م) ص ٢٣٥ إلى ٢٧٦ – باللغة الألمانية – حول المؤلفات المتعلقة بمتقدمي الشعراء.

وقد رأيته – حين أكرمني أنا والأستاذ عبدالله – بدعوته إلى بيته يُعْنَى بتحقيق كتاب « قلائد الجمان » المخطوط الذي سيأتي الحديث عنه.

ورأيت مكتبته حافلة بالمؤلفات العربية، بَلْ هِيَ جُلُّ مافيها، وكان جَمَّاعَةً للكتب اللغوية والأدبية، بحيث يندر أن تخلو مكتبته من أي مؤلف مطبوع في اللغة أو الأدب القديم، مما هو معروف، وهو يجيد اللغة العربية، ويتحدث اللهجة اللبنانية بطلاقة، وزوجه سيدة لبنانية فاضلة متعلمة، وهي على جانب كبير من اللطف والأدب درسا وخلقا، وتساعد زوجها في دراساته، ولهما ابنة في الخامسة من عمرها.

معرض الحضارة والفن اليمني : ولأبي فهد الشيخ عبدالله الخيال صديق ألماني من وجهاء مدينة ميونخ، وقد أخبره بأنه في مساء هذا اليوم [الأربعاء ٢ / ٩ / ١٤٠٧ – ٢٩ / ٤ / ١٩٨٧م] سيفتتح (معرض الحضارة والفن اليمني على مدى ثلاثة آلاف سنة) الذي أقامته الحكومة الألمانية، وشاركت فيه اليمن بتقديم كثير من معروضاته، وحضر افتتاحه نائبُ رئيس وزراء اليمن ووزير الخارجية فيه السيد عبد الكريم الارياني، ووزير الزراعة الأستاذ حسين العمري، وقد حبذ الصديق الخيال زيارة المعرض في هذا المساء، ثاني يوم من افتتاحه، وتوقعتُ أن أرى الأستاذ حسين العمري الذي عرفته حين كان يعمل في سفارة بلاده في دمشق، ويعنى بتحقيق كتاب في « تاريخ صنعاء »، إلا أنني لم أر هناك من أعرفه، ولم أستفد من هذه الزيارة سوى مرافقة الصديق الكريم، وتعريفي بمستشرق نمساوي مشهور، ذي عناية بالدراسات الأثرية في جنوب الجزيرة، وقد عمل في جامعة الرياض – مع الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الأنصاري – فترة من الزمن، ولكن لم يسبق لي الاجتماع به، وهو الأستاذ (دوستال). وعلى ذكر هذا الأستاذ فقد علمت حين مررت بمدينة (فينا) أنه لايزال ذَا صلة بالدكتور الأنصاري، كما علمتُ أن أحدَ مرافقيه في رحلاته إلى نجران للدراسة، أعدَّ بإشرافه رسالة لنيل درجة (الماجستير) إلا أن هذا التلميذ حين طبع الرسالة تجاهل

موقف الأستاذ (دوستال) من توجيهه في تلك الدراسة – على ماسمعت من الدكتور حسن محمد الشماع.

والأستاذ دوستال WALTER DOSTAL ممن شارك في (ندوة تاريخ الجزيرة العربية) التي نظمتها كلية الآداب في جامعة الرياض في جمادى الأولى سنة ١٣٩٧هـ (نيسان سنة ١٩٧٧م) ببحث عنوانه : (نحو بناءِ هيكل للتطور الحضاري في الجزيرة العربية) نشر في الكتاب الثاني من « دراسات تاريخ الجزيرة العربية » ص 185 - 191 باللغة الانجليزية.

كان الْجَوُّ دَاخِلَ المعرض يبعث في النفس الانقباضَ، وكان الصعود إلى مكان الاجتماع حيث تلقى الأحاديث متعبًا، والتحدث باللغة الألمانية التي نجهلها، ومع ذالك فقد استدعى الأمرُ تَكَلُّفَ الإنصات على مَضَضٍ، خلال فترة من الزمن تجاوزت ساعة. كدتُّ أن لااستطيع القيام من الكرسي، فقد أُصِيبتْ رجلي اليمني بِعُقَّالٍ شَدَّ ركبتها، وخَدَّرَ قدمها، فنزلت بمعونة أبي فهد وصاحبه، وحَرَمْتُ الأستاذَ من مشاهدة مافي المتحف من معروضات يمنية، نُقِلَتْ وأُحْضِرَتْ من اليمن ومن بعض المتاحف الألمانية لعرضها في هذه المناسبة.

ومع أنني كنت حريصًا على زيارة المعرض في مساء اليوم الثاني حين سمعت من سيدة يَبْدُو من سُحْنَتِهَا ومظهرها وملامحها أنها من أبناء اليمن الأقحاح – سمعتها تَعِدُ بإِلقاء محاضرة عن (اليهود في اليمن) ولكنني خشيت أن تكون بلغة لاأفهمها، واستبعدتُّ أن يتحدث أحد باللغة العربية في مكان لم أرفيه عربيًا سوى ثلاثة أُدْخِلُوا عند بَدْءِ إلقاء المحاضرة الأولى من مدير المتحف، وأُجْلِسُوا أمام المحاضرين في جانب من صدر المكان. تبدو أجسامهم لاتختلف عن بعض المنحوتات الصخرية المعروضة في جوانب المكان، إلا أن اختلاف أزيائهم أبرزَهُمَ أبعد مايكونون عن التناسق في مظاهرهم وحداثة بعض مايَلْبَسُون، ولَمْ أُدْرِك الغاية مِنْ حَشْرِ هاؤلاء الإخوة المساكين، ليَزداد بهم عدد التماثيل المنحوتة من الصخر، أو المصنوعة من الطين، مع عدم التناسق بين هذه

وأولئك، وعدم مراعاة ماينبغي لأولئك الإخوة من الارتفاع بهم عن مستوى الجمادات.

في المكتبة العامة أيضًا : وكانت الزيارة الثانية للمكتبة، فكان مما اطلعت عليه:

١ – مجموع رقمه (٨٨٥) – فيما يحوي – بعض رسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومن محتوياته:

١ – قصيدة بعنوان (مرثية لبعضهم):

لو كان ينفعني عليك بكائي لَجَرَتْ سوابقُ عبرتي بدماءِ

في نحو أربعين بيتًا، ويظهر أنها في رثاء الشيخ أحمد بن تيمية، كما يفهم من بعض أبياتها، وتقع في ثلاث صفحات.

٢ – فتوى للشيخ في السفر لمجرد قبور الأنبياء (من ق٢ ب إلى ٢٣ أ) مخطوطة في ٢١ جمادى الآخرة سنة ٧٣١ بدمشق.

٣ – نقول منوعة من كلام الغزالي وغيره ليست من كلام الشيخ، ولاتوافق مشربه من حيث الاعتقاد (من ق ٢٣ ب إلى ٤٠).

٤ – مسألة العُلوّ – للشيخ ابن تيمية (٤١ / ٥١).

٥ – رسالة للشيخ في السفر إلى غير المساجد الثلاثة (٥٢ / ٦٨) آخرها: فكان يرد عليهم فأولئك سلموا عليه – ثم بياض في آخر الصفحة مما يدل على أن الرسالة ناقصة.

٦ – رسالة للشيخ أولها بعد الخطبة : فصل فيما جعل الله للحكام أن يحكموا فيه، ومالم يجعل لواحد من المخلوقين الحكم فيه (٦٩ / ٨٩) مخطوطة بدمشق في سلخ شعبان سنة ٧٣٥.

٧ – بعد البسملة والحمد له: صورة الفتاوي المرسلة من بغداد إلى دمشق في أواخر سنة ست وعشرين وسبع مئة، لما حُبس شيخ الإسلام، الإمام العالم، تقي الدينَ، أبو العباس أحمد بن تيمية، بسبب فُتْيا أُنْكِرَتْ عليه (٩٠–١٠١)، وفي الصفحة الأخيرة: فتوى لتقي الدين.. عن امرأة ذهبت في يوم العيد إلى قبر بنتها.. والرجال الفسقة دائرون بين القبور، يتفرجون على النساء المسلمين..

٨ – كتاب «من عاش بعد الموت» لابن أبي الدنيا (من ق ١٠٢ / ١٢٢) مخطوطة سنة ٧٣٩ . ثم ورقتان تحويان أَشْعَارًا وأَخْبَارًا، وورق المجموع ١٣٤ وكتابته بالخط النسخي الجيد في ٢٦٨ صفحة صغيرة، في كل صفحة خمسة عشر سطرًا.

٢ – "قلائد العقيان، في أدب الإخوان" : كذا ورد الاسم في طرة الكتاب، وتحته: مما عُنَي بجمعه الشيخ الفقير إلى ربه، المعترف بذنبه، أبو العز بن اسماعيل الجبَّاس، عفا اللّه عنه بكرمه. وتكرر الاسم في مقدمة الكتاب إذ ورد: (قال الشيخ الفقير إلى رحمة ربه المستغفر من ذنبه، أبو العز ابن اسماعيل المعروف بالجباس) . ويكاد الكتاب أن يكون شاملاً للآداب الإسلامية يورد الآيات والأحاديث والأقوال المشهورة والأشعار المأثورة، والحكايات الطريفة.

وجاء في آخره: ووافق الفراغ من نسخه العبد الفقير إلى اللّه تعالى، المعترف بذنبه، محمد بن علي بن عبدالرحمن بن عبدالمنعم المقدسي، وذالك في يوم الأربعاء العشرين من شهر ذي القعدة سنة إحدى وسبع مئة، بمدرسة الملك الصالح بالقاهرة المحروسة – انظر الصورة في الصفحة التالية.

ويقع الكتاب في ١٤٤ ورقة (٢٨٨ صفحة) من القطع الكبير، في الصفحة ٢٣ سطرًا، والخط نسخي حسن، وكثير من الكلمات مشكلة بالحركات، والعناوين بالقلم الثلث، وفي الهوامش كلمة (بلغ) مما يدل على مقابلة النسخة بأخرى، مع تصحيح بعض الكلمات بشطبها وكتابة غيرها. ورقمه في الفهرس (٦٠٣) .

٣ – رسالة أحمد بن الواثق إلى الْمُبَرِّد : رقم هذه الرسالة (٧٩١) وقد كتب في طرتها المزوقة بالذهب في أعلى الصفحة: (لخدمة سيدنا الوزير الأعز شرف العلي) وفي أسفلها: (أبي القاسم بن مولانا فخر الملك أطال اللّه بقائهما وأعز نصرهما وسلطانهما) وبين الكتابتين في وسط الصفحة: (رسالة أحمد بن الواثق إلى أبي العباس محمد بن يزيد الثمالي، يسأله عن أفضل البلاَغَتَيْن شعرًا أَمْ نَثْرًا، وجواب أبي العباس عنها) .

كتاب قلائد
العقبان في أدب الإخوان
مما جمعه الشيخ الفقير إلى ربه اللطيف ... بذنبه
أبو العز بن إسماعيل الجباس عفا الله عنه بكرمه

قيل إن هذه الأبيات للشيخ ... رحمه الله

رأيت خيال الظل أعظم عبرة ... لمن كان في أوج الحقيقة راقي
شخوص وأشباح تروح وتنقضي ... وتفنى جميعا والمحرك باقي

رضي الله عنه بن حنبل يقول في سجوده اللهم إني سائل فقير فأغنني
من سعة فضلك وإني خائف مستجير فأجرني من عذابك
وقال الأصمعي كان عطاء بن أبي رباح يقول في دعائه اللهم
ارحم في الدنيا غربتي وعند الموت صرعتي وفي القبر وحدتي وذل
مقامي غدا بين يديك / وعن العتبي أنه قال قال عبد الرحمن
بن زياد اشتكى ابن لعبد الملك بن عبد الله يسأله أن يدعو له
إليه حتى لمن يعمل ذنبا لا عذر له فيه وخاف قول لا بد له منه
أن يكون مشفقا ساد عقولك ولست أرجو أن تستجاب لي بتوبتي
عمل ولا براءة من ذنب وقال العتبي كان عبد الملك بن
مروان يدعو على المنبر فيقول يا رب إن ذنوبي قد كثرت وجلت
عن أن توصف وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني / وعن أنس
بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من تقلب
في ليله من جنب إلى جنب يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله أتى
يوم القيامة مع من صام وقام ليلة ومن قال لا إله إلا الله ...
محيت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر تم الكتاب بحمد
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد
أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين
ووافق الفراغ من نسخه العبد الفقير إلى الله تعالى المعترف
بذنبه محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدسي وذلك
يوم الأربعاء العشرين من شهر ذي القعدة
من شهور سنة إحدى وتسعمائة
بمدرسة الملك الناصر بالقاهرة المحروسة

الصفحة الأولى والأخيرة من «قلائد العقبان»

ثم في الصفحة الثانية : (بسم الله الرحمن الرحيم كتب أحمد بن الواثق إلى أبي العباس محمد بن يزيد الثمالي النحوي: أطال الله بقاك، وأدام [ق : ٢] عزك، أحببتُ – أَعَزَّكَ الله – أَنْ أعْلَم أيّ الْبَلاَغَتَيْنِ أبلغ، أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب، الكلام المنثور والسجع، وأيهما [ق : ٢ب] عندك – أعزك الله – أبلغ، عرفني ذالك إن شاء الله.

فكتب إليه: أطال الله بقاك، وأدام عزك، سألت – أعزك الله – عن [ق : ٣] البلاغتين في الشعر المرصوف، والكلام المنثور أيَّتُهُمَا أولَى بانْ تكون المُقَدمة، وأحَقُّ أَنْ تكون على الكمال مشتملة [ق : ٣ب] والذي سألت عنه – أعزك الله – من مسائل العقلاء الفضلاء، وكل ذالك فأنت ذُرْوَتُهُ وسَنَامُهُ، فزادك الله ولانقصك [ق : ٤] وأعلاك ولاوضعك، الجواب فيما سألت: أَنَّ حق[1] البلاغة إحاطةُ القولِ بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم [ق : ٤ب] حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدةً شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول، فإن استوى هذا الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعراً فلم[2] يفضل أحدُ القِسْمَيْنِ صاحبه.

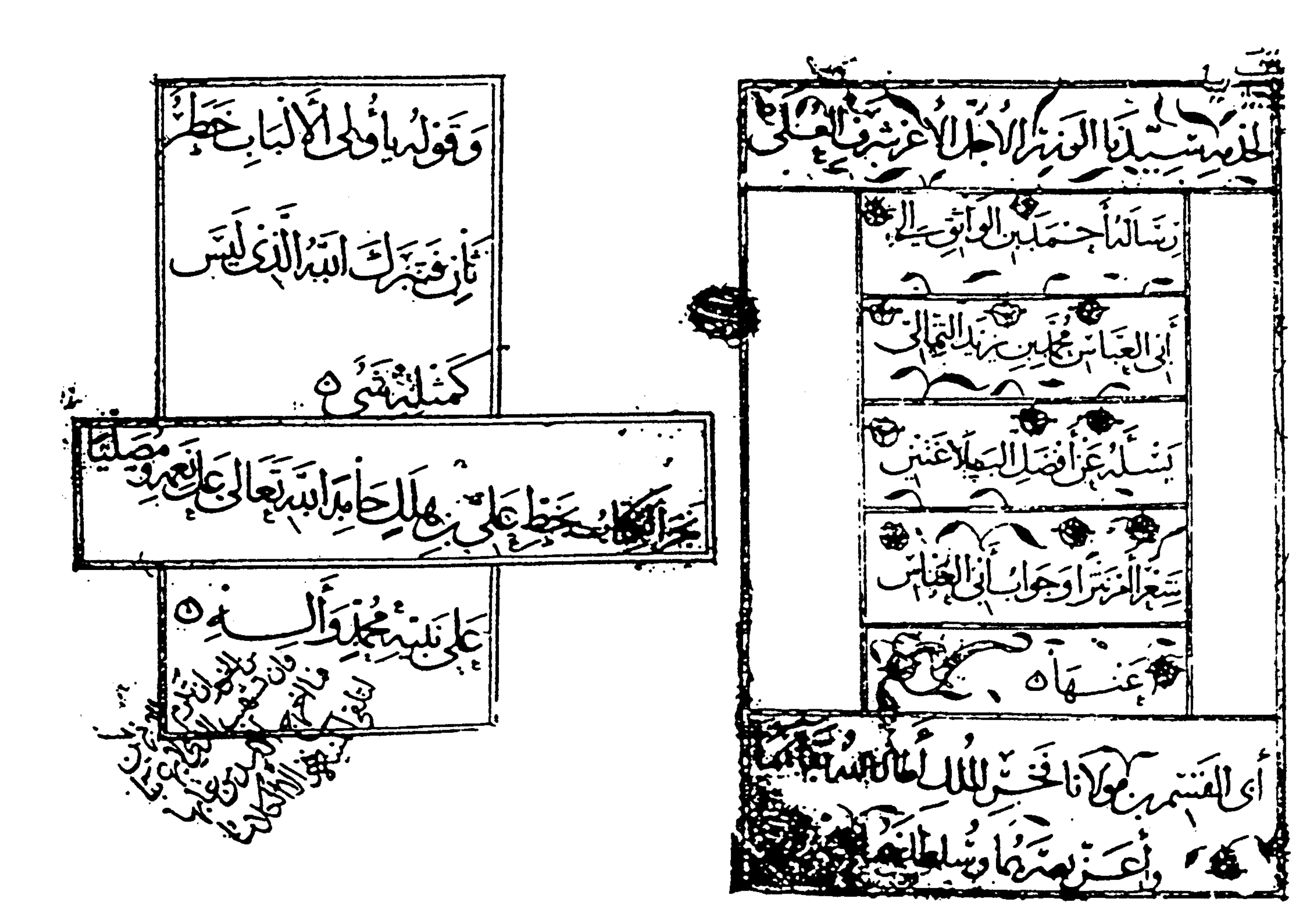
فصاحب الكلام المرصوف [ق : ٥ب] أحمد، لأنه أتى بما أتى به صاحبه، وزاد وَزْنًا وقافيةً، والوزن والقافية تضطر إلى الحيلة، وبقيت بينهما [ق : ٦] واحدة ليست مما توجد عند استماع الكلام منهما، ولكن يُرْجَعُ إليهما عند قولهما فَيُنْظَرُ أيُّهُمَا أشَدُّ على الكلام اقتداراً [ق : ٦ب] وأكثر تَسَمُّحًا، وأقلُّ مُعَانَاةً، وأبْطَأُ معاسرةً، فَيُعْلَم أنه المُقَّدم...

وآخر الرسالة : [ق : ٢٣ ب] قوله : ياأولي الألباب خَطَرٌ ثانٍ، فتبارك الله الذي ليس كمثله شيءٌ. نجز الكتاب بخط علي بن هلل، حامداً لله تعالى على نعمه، ومصلياً على نبيه محمد وآله – انظر الصورة في الصفحة التالية.

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب (أن حد البلاغة).

(٢) كذا ولعل الصواب (لم يفضل).



لخزانة سيدنا الوزير الأجل الأعز شرف المعالي

رسالة أحمد بن الواثق إلى

أبي العباس محمد بن يزيد الثمالي

يسأله عن أفضل البيت الذي لا غنى

شعر المزني وجواب أبي العباس

عنها

أي القسمين مولانا فخر الملك

وأعز نصرهما وسلطانهما

وقوله يا أولي الألباب خطاب

نار فتبارك الله الذي ليس

كمثله شيء

تم الكتاب بخط علي بن هلال حامدا الله تعالى على نعمه ومصليا

على نبيه محمد وآله

الصفحة والأولى والأخيرة من رسالة أحمد بن الواثق

والخط من نوع الثلث الجميل، والكلمات مشكلة، والصفحات الثلاث الأولى مذهبة الفواصل، ومزينة بنقوش أزهار مذهبة، والصفحة الأخيرة مقسمة بخطوط مستقيمة مربعة مذهبة، وتقع الرسالة في ٢٣ ورقة (٤٦ صفحة) في الصفحة خمسة سطور، وقد كتب في أحد الهوامش بخط مغاير لكتابة الأصل : (بخط علي بن هلال استاذ ياقوت المستعصمي) وما أرى هذا صحيحاً، وإنْ بَدَا خطّ الرسالة على درجة من الأناقة والجمال، إلا أنني لا استبعد أن ناسخها حاكَى أو قلد خط ابن هلال.

وتكررت زيارة المكتبة للحصول على صور من مخطوطات "وفاء الوفاء" و"التبيين" ورسالة المبرد، وكتاب "قلائد العقيان" فدفعت ما طُلِبَ مني دَفْعُه، ووُعدتُّ بإرسال الصور – على شريط (ميكروفلم) إلى الرياض، فكان ذالك في خلال مدة لم تتجاوز الشهر.

٤ – ولفت نظري – في الفهرس – اسم « ديوان صفي الدين الحلِّي » فتوهمته ماحققه أستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر، خلطت الذاكرة بينه وبين « ديوان الطغرائي » الذي حققه الدكتور مع الدكتور يحيى الجبوري، ونُشر مرتين آخرتهما سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) – وديوان الحِلِّي قد نشر في دمشق ثم في بيروت قبل مئة عام – لابأس، لقد طالعت « ديوان الحلي » ورقمه في الفهرس (٥٢٧) فوجدته مجلداً يحوي (٢٨٩) ورقة من القطع الكبير، مبدوْءاً بالبسملة ثم (الحمد للّه الذي علم الانسان البيان . . . وبعد : إني كُنْتُ قبل أن أَشبَّ عن الطوق، وأعَلمَ مادواء الشوق، لَهِجًا بالشعر للكسب بالتعريض، إذ دَيْدَني أن لاتتسخ يدي (؟) . . . – ثم ذكر أنه نظم قصائد مجملة ومفصلة، فالمجملة ماجعله كتاباً مفرداً كالديوان، لكونه تسعة وعشرين قصيدة كل قصيدة منها تسعة وعشرون بيتًا على حروف المعجم وسماه « دُرَرُ النُّحُوْرِ، في مدح الملك المنصور » وسَمَّى بالملك المنصور : السلطان نجم الدين أبي الفتح غازي، والمفصلة ماانتخب أحسنها واودعه هذا الديوان، الذي يضم أثنى عشر بابا في ثلاثين فصلاً هي :

الباب الأول : في الفخر والحماسة، والتحريض على الرياسة، وهو فصلان.

الباب الثاني : في المدح والثناء، والشكر والهناء، وهو فصلان.

الباب الثالث : في الطرديات، وأنواع الصفات، وهو فصلان.

الباب الرابع : في الإخوانيات، وصدور المراسلات، وهو فصلان.

الباب الخامس : في مراثي الأعيان، وتعازي الإخوان، وهو فصلان.

الباب السادس : في الغزل والنسيب، وطرائف التشبيب، وهو فصلان.

الباب السابع : في الخمريات، والنبذ (؟) والزهريات، وهو ثلاثة فصول.

الباب الثامن : في الشكوى والعتاب، وتقاضي الوعد والجواب، وهو ثلاثة فصول.

الباب التاسع : في الهدايا والاعتذار، والاستعطاف والاستغفار، وهو ثلاثة فصول.

الباب العاشر : في التعريض والألغاز، والتقييد (؟) للايجاز، وهو ثلاثة فصول.

الباب الحادي عشر : في الملح والأهاجي، والإحماض في التناجي، وهو ثلاثة فصول.

الباب الثاني عشر : في الآداب والزهديات، ونوادر مختلفات، وهو ثلاثة فصول.

ثم (الباب الأول، في الفخر والحماسة، والتحريض على الرياسة، وهو فصلان: الفصل الأول في الفخر والحماسة.

لَئِنْ ثَلَمَتْ حَدِّي صُرُوفُ النوائِبِ فَقَدْ أَخْلَصَتْ سَبْكِي بِنَارِ التَّجَارِبِ

– ثم الاستمرار في سَرْدِ تلك الأبواب مُرَتَّبةً بقصائد ومقطوعات – إلى الورقة الـ٢٣٢ ففي أولها: وقال في المواليات، مما اخترعوه (؟) أهل واسط، من بحر البسيط(؟):

مابَين أكناف راكسْ منحما التسليم شرقي حزوى البازات الغضا ترسيم (؟)

ودون آرام حاجر بسيف التسليم   نَبْلٍ يشق المراير من لحاظ الرّيم

– كذا والخط رديء، أكثر الكلمات محرفة (راكس) و(حُزْوا) و(غضا) و(حاجر) .

وأشعار من هذا النمط إلى الورقة الـ (٢٤٩) ففي أثناء صفحتها الأولى : (رسالة الامتحان، في مناظرة الجواري والغلمان) – وبعد البسملة : حدثنا مازح بن مجان . . . إلى الورقة الـ (٢٥٤) وهي رسالة مشحونة بالمجون .

ويأتي الديوان المرتب على حروف الهجاء في مدح الملك المنصور، المتقدم ذكره من (٢٥٤ إلى ٢٧٨) في (١٩ ورقة) وألحق به ورق من كتاب « العاطل الحالي » – من ٢٧٨ إلى ٢٨٩ – آخر الديوان وفي الصفحة الأخيرة : وافق الفراغ في شهر ذي القعدة سنة ثمانين وسبع مئة، على يد الفقير . . . عبدالرحمن بن إبراهيم بن عبدالنبي بن ابراهيم زين العابدين . . . والكتابة سيئة، مشحونة بالأخطاء، والناسخ – فيما يظهر – لايحسن القراءة .

٥ – كتاب « العاطل الحالي، والمرخَّص الغالي » : رقمه في الفهرس (٥٢٨) كتب تحت اسم الكتاب في المخطوطة : (تأليف الشيخ الإمام الأديب الكامل صفي الدين عبدالعزيز بن سرايا الْحلِيِّ، فسح اللّه في مدته) .

وقد أشار الْحلِّيُّ – في مقدمة ديوانه – الذي تقدم الحديث عنه إلى هذا الكتاب بقوله : (وقد أَعْرَيْتُ هذا الكتاب عن كلِّ ماأُعْرِيَ من الإعراب، والفنون الأربعة التي لَحْنُهَا إِعرَابُهَا، وخَطَأُ نَحْوِهَا صَوَابُهَا، وجعلتها جُزءاً بمفرده، خارجًا عمَّا نحن بصدده) .

وقال في مقدمة الكتاب : (فإني كنت أضفْت إلى ديوان أشعاري فنّي المُوشح والدُّوْبيت لِتَحلّيْهمَا بالإِعراب، ونَسْجهمَا على منْوالِ لفظ الأعراب، وأعْربته من الفنون الأربعة التي لحنُها إِعْرابُها، وخَطأُ نَحْوِها صوابُها، ووعدت في خطبته أن

أجعلها جزءاً بمفرده، . . . وهي الزجل، والمواليا، والكان كان، ومجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون، لااختلاف في عددها بين أهل البلاد، وإنما الاختلاف بين المشارقة والمغاربة في فَنَّيْنِ منها . . . والسبعة المذكورة هي عند أهل المغرب ومصر والشام الشعر القريض، والموشح والدُّوبيت، والزجل، والمواليا، والكان كان، والحمَّاق، وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها، والحمَّاق بالحجازي، والقوما، وهما فَنَّان اخترعهما البغاددة للغناء بهما في سحور ليالي رمضان خاصة، في عصر الخلفاء من بني العباس – إلى أن قال– : وسميته بـ « العاطل الحالي، والمرخص الغالي » لكونه عاطلاً من الإعراب، خاليًا (؟) من المعاني والآداب (؟) مرخصًا بين ذوي الخلاعة والهزل، غاليًا على ذوي الجِدِّ والجزل، وجعلتُ كتابة كلِ ماأشكل من لفظه على صورة النطق به والتلفُّظِ، لا على قاعدة الضبط والتحفُّظ، اقتداء بما فرضه أربابه من الفروض، واتباعًا لأئمة علم العروض، إذْ كان غرضهم تصور المنظوم، وصحة الوزن المفهوم.

وفي الصفحة الأولى من الورقة الـ (٧٧) : هذا آخر العاطل الحالي، والمرخص الغالي، نقل من أصل نقل من خطٍّ مصنفه، ونجز على يد الفقير إلى اللّه الغني محمد بن أحمد بن معمر المعري (؟) البغدادي عفا اللّه عنه، في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة سبع وأربعين وسبع مئة هلالية هجرية.

وصفحات الكتاب (١٥٤) في الأولى عنوان الكتاب والأخيرة خالية من الكتابة، وفي الصفحة ١٩ سطراً، والخط حسن واضح، إلا أنه لايخلو من التحريف والخطاء.

عودة إلى الأطباء :

مع ما وصف لي الشيخ عبدالله الخيال من مقدرة أكبر أطباء (مستشفى القلب) في ميونخ، فقد كانت النتيجة خلاف ما كانت متوقعة، وسيأتي تفصيل هذا في موضع آخر.

في مدينة فِيَنَّا

وفي صباح الخميس العاشر من رمضان ١٤٠٧هـ (٧ / ٥ / ١٩٨٧م) كان الوصول إلى فِيَنَّا، والنزول في فندق (دي فرانس) ومع أنَّ الصديق الكريم الأستاذ عبدالله الخَيَّال ممن عرف هذه المدينة حقَّ المعْرفة، إذ أقام فيها سنوات سفيراً لبلادنا، وتردد عليها في كثير من رحلاته وأسفاره، إلا أنَّ اختيار ذالك الفندق ينطبق عليه قول المعري :

وقَدْ يُخْطِئُ الرَّأْيَ امْرُؤٌ وهْوَ حَازِمٌ كَمَا اخْتَلَّ في وَزْنِ القَرِيْض عَبِيدُ

لَمْ نُطِق الْبقاءَ فيه سوى الليلة التي اضطرنا عدمُ وجودِ غيرِه لقضائها فيه، وفي الصباح كان الانتقالُ إلى فندق (هِلْتُنْ) ولاتَسَل عن أُجور الفنادق في هذه المدينة، بل عن ارتفاع تكاليف المعيشة فيها بصفة عامة بالنسبة للبلاد الأوربية .

وذُو الشَّوْقِ الْقَديمِ وإن تَسلَّى ! ! :

وفي الطريق إلى الفندق – وقبل اختيار المنزل – كان المرورُ بالمكتبة العامة .

كنت قد عرفُت هذه المكتبة قبل بضعة عشر عامًا، واطَّلَعْتُ على بعض مخطوطاتها، بل صُوِّرَ لي منها مجلدٌ يحوي القسم الثالث من رحلة عبدالغني النابلسي « الحقيقة والمجاز » وهو القسم المتعلق بالحجاز، ونَشَرْتُ مقتطفاتٍ منه في مجلة « العرب » س ٢ ص ٤٨٦ ، ٦٥٢ ، ٨٣٦ – ثم علمت أنَّ زميلي في مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة الأستاذ عارف النكدي يقوم بتحقيق الرحلة كاملة، فتوقفت عن الاستمرار بنشر ماأردتُ نَشْرَهُ، وبعد وفاة الأستاذ عارف – رحمه الله – قبلَ بروز عمله فيه اقترحتُ على أخي الأُستاذ عبدالعزيز الرفاعي صاحب (دار الرفاعي للطباعة والنشر) القيامَ بنشر ذالك القسم، وقَدَّمْتُه له، بعد تحقيق الأصل بمقابلة نسختي منه بأجودِ مخطوطتين اطلعتُ عليهما من الكتاب، هما مخطوطة مكتبة الحرم المكي، ومخطوطة المكتبة العامة في فِيَنَّا، ومع أنَّ الكتابَ نُشِرَ مصوراً عن مخطوطة دار الكتب المصرية – بعد ذالك – إلا أنه لايزال بحاجة إلى نشرة محققة، يرجع فيها إلى المخطوطتين المذكورتين اللَّتَيْن هُمَا – بِدُون شكٍ – أتقنُ وأصحُ من مخطوطة دار الكتب المصرية .

حين مررتُ بالمكتبة العامة عاودني الحنينُ إلى ماألِفْتُهُ، وإنْ كنتُ قد فَقَدتُّ الآنَ كثيراً من بواعث ذالك الحنين، وضَعُفَتْ في نفسي الرغبةُ القوية التي كثيراً ماحفزتني ودفعتني إلى إرهاق الجسم، وتَحَمُّلِ كثيرٍ من المشقات في سبيل الوصول إلى إحدى المكتبات التي قد أجدُ فيها ماأتطلع للاستفادة منه من مؤلفات:

وذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإنْ تَسَلَّى مَشُوقٌ حين يَلْقَى الْعَاشِقِيْنَا

اهْتَدَيْتُ إلى باب المكتبة التي انتقلتْ من مقرها القديم إلى مكان بجواره، وكان المُرشدُ إنساناً فاضلاً، فلم يتركني – حين علم بأنني أَبْحَثُ عن القسم العربي من المكتبة – حتى أوصلني إليه في الدور الثاني. فإذا الذي فتح لي البابَ أخٌ عربي، مرحبا، مشيراً بالجلوس على كرسي في مدخل الغرفة، ولما أَوضحتُ رغبتي في الاطلاع على فهرس المخطوطات العربية سألني عن اسمي، وبعد ذكره قال: لقد أخبرني الأستاذ عبدالله بن حسين الملحق الثقافي السعودي بقدومك، فأجبته: ولكنه لم يرني بَعْدُ، ولم يعلم بمجيئي، فأنا لم أصل إلا أمس، فقال: إنه علم بأنك في (ميونخ)، وستأتي إلى فينا.

كان الأستاذُ الدكتور طَرِيف السَّمان بي حَفِيًّا، ومعي كريمًا، فقد قَدَّمَ لي الفهرس المكون من مجلدات اكتيفتُ بمطالعة الجزء الذي يحوي أسماء المؤلفات الجغرافية والتاريخية، ولما رغبت الاطلاع على بعض الكتب ذَهَبَ بي إلى المكان الْمُعَدِّ للمطالعة، وهناك ساعدني بسرعةِ إحضارِ ماأردتّ.

وقبل ذالك اتصل بالابن الكريم الأستاذ عبدالله بن عبدالعزيز بن حسين – ملحقنا الثقافي في هذه البلاد – فأخبره بأنني موجود عنده، وسرعان ماأتى إلينا، فازداد به الأُنس والسرور، فقد توطدت المعرفة بيني وبينه حين كان موظفًا في المكتب التعليمي في بيروت قبل احتراقها.

كان اليومُ يَوْمَ جُمعة، وسيذهب الأخوانِ الكريمان لصلاتها في مسجد المركز الإسلامي، فاكتفيت بما اطلعتُ عليه من المخطوطات وكان منها:

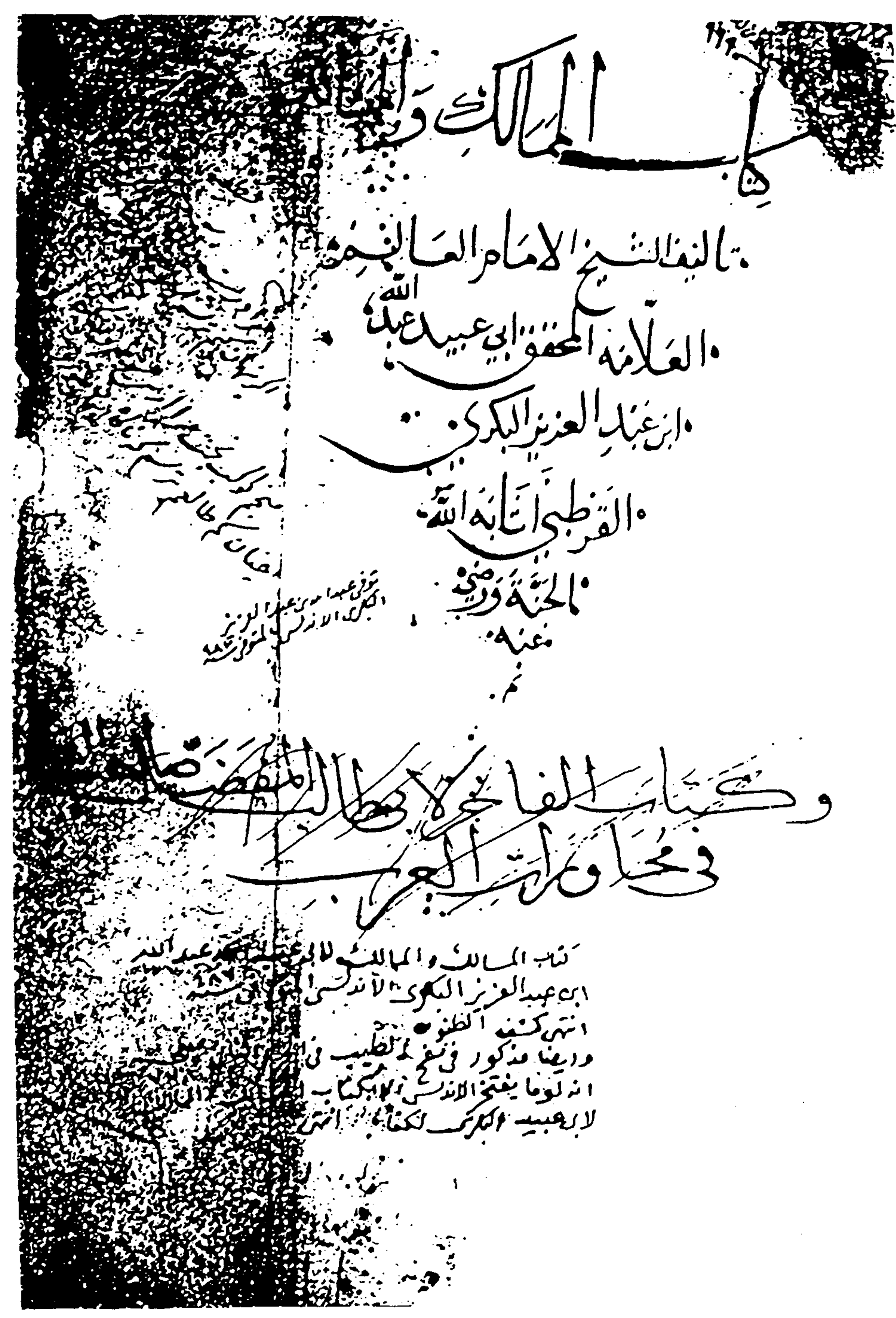
١ – كتاب «المسالك والممالك» لأبي عُبَيْد البكري المتوفى سنة ٤٨٧هـ ورقمه

(MIXT 779) نسخة حديثة الكتابة (مخطوطة سنة ٩٨٩) تقع في (١٥٧) ورقة - يبتدئُ القسم المتعلق بالجزيرة من الورقة الـ (١٢٨) - ذكر ملوك اليمن - وهذا القسم قد حققه الابن الكريم الأستاذ الدكتور عبدالله بن يوسف الغنيم، ونشره سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧هـ) واعتمد في نشره على مخطوطات أقدم من هذه المخطوطة وأجود، والدكتور عبدالله بحاثة طلعة، ولاأستبعد أن يكون اطلع على هذه النسخة، ومع ذالك فقد توقعت أن أجد في مطالعتها ماقد يفيد، إِذْ يَرِدُ في بعض المؤلفات نقولٌ عن كتاب البكريِّ هذا لم ترد في مطبوعة الدكتور عبدالله مع تَقَصِّيْهِ، واستجادته لما اعتمد من الأُصول.

ومع سوء كتابة هذه النسخة وكثرة التحريف فيها إلا أنني أردت التأكد من قيمتها في وقت متسع، فكان ذالك حين زرت المكتبة مرة ثانية، عند عودتي من ضاحية (هوف) في ناحية (سولزبرج) في النمسا إلى فينا، في يوم الأربعاء ٩ محرم ١٤٠٨هـ (٢ / ٩ / ١٩٨٧م)، ثم بعد ذالك أكرمني الأخ الدكتور طريف السمان بصورتها، وها هو وصفها في طرتها: « كتاب الممالك والمسالك » تأليف الشيخ العلامة المحقق أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري القرطبي، أثابه الله الجنة ورضي عنه - وفوق هذا في هذه الصفحة: (وفي نوبة العبد الفقير محرم بن أسد الحسيني القادري .... ذي القعدة سنة ٩٩٩هـ- وفوق العنوان - في الهامش - كتابة فارسية يظهر أنها بيتان من الشعر، عنوانها (قطعة) - انظر الصورة -.

وفي الصفحة : (توفي عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي المتوفى (؟) سنة ٤٨٧) ثم عنوان كتاب مضروب عليه هو: (وكتاب « الفاخر» لأبي طالب المفضل صاحب الفرا في محاورات العرب).

ثم : (كتاب « المسالك والممالك » لأبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧ انتهى « كشف الظنون » وأيضًا: مذكور في « نفح الطيب » في الجزء الثاني صفحة ٣٧٨ - أنه لو مايفتخر الأندلس إلا بكتاب « المسالك والممالك » لأبي عُبَيْدٍ البكري لكفاه. انتهى.


كتاب الممالك والمسالك
تأليف الشيخ الإمام العالم
العلامة المحقق أبي عبيد عبد الله
ابن عبد العزيز البكري
القرطبي أثابه الله
الجنة ورضي عنه
ثم
وكتاب الفاخر لأبي طالب المفضل بن سلمة
في محاورات العرب

كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد عبد الله
ابن عبد العزيز البكري الأندلسي
انتهى كشف الظنون
وأيضاً مذكور في نفح الطيب في
أنه لو ما يفتخر الأندلس إلا بكتاب
لأبي عبيد البكري لكفاه انتهى

[الصفحة الأولى من كتاب "المسالك" لأبي عُبيد البكري الأندلسي]

وأول الكتاب (ص ٢ بعد البسملة) : وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت، القول في مدة عمارة الأرض: عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس – رضي اللّه تعالى عنهم –: أنَّ ذالك ستة آلاف سنة، وكذالك قال أهل الكتاب، وأخَذُوا ذالك أَخْذاً شرعيًّا، أبو صالح عن كعب: ألفي سنة، ابن معقل عن وهب مثله. قال ط والأول الصواب، لرواية ابن عمر عن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم: «أجلكم في أجل مَنْ كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغيب الشمس» وقوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ أنا والساعة كَهَاتَيْنِ» وجَمَعَ مابَيْنَ السَّبابةِ والوُسْطَى، وصَحَّ عنه – مع ذالك – مارواه ابنُ وهبٍ يرفعه إلى أبي ثعلبة الخُشَنيِّ أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «لَنْ ينقُصَ اللّه هذه الأُمَّةَ من نصفِ يوم» يُرِيْد اليوم الذي هو مقدار ألف سنة، وإذا كان ذالك كذالك كانَ معلوماً أنَّ الماضي إلى ظهور الإسلام ستة آلاف سنة، وقد رُوِي عنه صلى الله عليه وسلم قولٌ يدلُّ على صحة هذا القول الآخر، وأصحُّ مارُوي في التاريخ على ماذكره ط س أنَّ من الطوفان إلى مولد إبراهيم إلى...[1] عليه السلام ألف وتسع وسبعون سنة، ومن مولد إبراهيم عليه السلام إلى خروج موسى من مصر ببني اسرائيل إلى التِّيه الذي مات فيه، خمس مئة سنة وخمس وستون سنة، ومن ذالك الوقت إلى أربع من ملك داوود وهو وقت ابتدائه لبناء بيت المقدس إلى ملك الاسكندر سبع مئة سنة وسبع عشرة سنة، وبين مولد المسيح إلى بعث محمد صلى اللّه عليه وسلم خمس مئة سنة، وإحدى وستون سنة) إلى آخر ماذكر – انظر الصورة –. وآخر النسخة (الورقة ١٥٦ /أ).

والتِّيهُ مقدارُ أربعين فرسخًا، وقيل: إنه تسع فراسخ في مثلها، وأول حَدِّه مابين قبر أبي حمير وبطْن نَجْدٍ[2]، وفيه مات موسى وهارون – عليهما الصلاة والسلام – وبطن نجد قرية ليس فيها ولاشجر[3]، يسكنها نفرٌ من الناس، ويقال لها أيضًا: بطن نخل،

(١) كلمة ليست واضحة وكأنها (خروج).

(٢) كذا والصواب (قبر أبي حميد) بالدال وهو المعروف الآن بقبر الشيخ حميد. و(نَخْل) وسيأتي.

(٣) كذا والكلام ناقص ولعله (ليس فيها نبات).

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله عليه توكلت

[illegible]

[illegible] سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم ان ذلك
ستة الاف سنة . ولذلك قال اهل الكتاب واخذوا ذلك اخذا
عنهم . ابو صالح عن كعب الف سنة . بن معقل عن وهب مثله
[illegible] والاول الصواب لرواية بن عمر عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم اجلكم في اجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغيب
الشمس وقوله عليه الصلاة والسلام بعثت انا والساعة كهاتين . وجمع
ما بين السبابة والوسطى . وصح عنه مع ذلك ما رواه بن وهب
يرفعه الى ابي ثعلبة الخشني انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول لن يعجز الله هذه الامة من نصف يوم يريد اليوم الذي هو
مقدار الف سنة فاذا كان ذلك كذلك كان معلوما ان الماضي
الى ظهور الاسلام ستة الاف سنة . وقد روي عنه صلى الله
عليه وسلم قول يدل على صحة القول الاخر . واصح ما روي
في التاريخ [illegible] ما ذكره [illegible] ان من الطوفان الى مولد ابراهيم
الى خروج عليه السلام الف وتسع وسبعون سنة . ومن مولد
ابراهيم عليه السلام الى خروج موسى من مصر ببني اسرائيل
الى التيه الذي مات فيه خمس مائة سنة وخمس وستون سنة
ومن ذلك الوقت الى اربع من ملك داود وهو وقت ابتدائه لبناء بيت
المقدس الى ملك الاسكندر سبع مائة سنة وسبع عشرة سنة
وبين مولد المسيح بن مريم الى المبعث محمد صلى الله عليه وسلم

[الصفحة الأولى من كتاب "المسالك" للبكري]

مصر في عمران المدينة وصلاحها فعاجله عمرو وهو القلزم
فكان سعر المدينة كسعر مصر ولم يزل ذلك مصرا لاصلاحها
والبينة مقدار اربعين فرسخا وقيل انه تسع فراسخ في مثلها واول
حده ما بين قبر ابي حمير وبطن بحدود فيه مات موسى وهارون
عليهما الصلاة والسلام وبطن بحدود فيه ليس فيها ولا شجر
يسكنها نفر من الناس ويقال له ايضا بطن نخل السواني سقي
في الناس فيه تراب رقيق كانما نخل بمنخل • كمل بحمد الله •
وعونه ولطفه ومنه وجوده وفضله وتوفيقه •
وحوله وقوته وكرمه وكان الفراغ من كتب هذه النسخة •
يوم الاحد المبارك عشرين شهر شوال
من شهور سنة تسع وثمانين وتسعمائة •
من الهجرة النبوية على الحدود •
وحسبنا الله ونعم الوكيل •
ولا حول ولا قوة • في نوبة سيدنا ونبينا
الا بالله العلي • سمي امام المرسلين
العظيم • وسبطه
• • • • • • •

[الصفحة الأخيرة من كتاب "المسالك" لأبي عبيد البكري]

لسواقي تسقي[1] على الناس فيه تُرَاب دقيق كأنما نُخِلَ بمنخل.

كمل بحمد اللّه وعونه، ولطفه ومنّه، وجوده وفضله وتوفيقه، وحوله وقوته وكرمه، وكان الفراغ من كتب هذه النسخة يوم الأحد المبارك، عشرين شوال من شهور سنة تسع وثمانين وتسع مئة من الهجرة النبوية والحمد للّه وحده، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل ولاحول ولاقوة إلا باللّه العلي العظيم.

ثم في آخر الكلام : (في نوبة سيدنا ومولانا سمي إمام المرسلين وسبطه) - انظر الصورة -.

ويقع الكتاب في ١٥٧ ورقة (٣١٤) صفحة في الصفحة ٢١ سطراً سوى الأولى ففي طرتها عنوان الكتاب، والأخيرة ليس فيها سوى ١٦ سطراً بخط النسخ الحسن والصفحة الثانية - أول الكتاب - مزوقة - مذهبة - بنقش في أعلاها، ومحاطة بخط عريض مذهب.

وكان مما طالَعْتُ من مخطوطات هذه المكتبة في المرَّة الأولَى حين زُرْتُها:

٢ - كتاب «ترويح القلب الشجي، في مآثر عبداللّه باشا الجِتَهْ جَي» كتاب رقمه (1156) في ٧٧ ورقة من القطع الصغير، ومؤلفه عمر بن محمد بن إبراهيم الوكيل، والنسخة حديثة الخط.

وقد حفزني لمطالعة هذا الكتاب تعلّقُهُ بأَحد أمراء الحج الشامي، من ولاة الأتراك في القرن الثاني عشر الهجري، وهو عبداللّه باشا (جِتَهْ جي) - أي الفارس - الذي كان واليًا لدمشق سنة ١١٧١ ومات أو قتل سنة ١١٧٤ وقد تولى إمارة الحج الشامي سنتي ١١٧١ و١١٧٢هـ وكان سَيِّئ المعاملة للعرب الذين تقع مناهلهم وبلادهم في طريق الحج، وقد نشرت في مجلة «العرب» س١٢ ص٣٥٣/ ٣٩٦ - رسالة عنوانها «النَّفْحُ الْفَرَجِي في الفتح الجِتَهْ جِي» للسيد جعفر بن حسن البرزنجي المدني المتوفى سنة ١١٧٧ - تتعلق بأمير الحج المذكور، وتَصِفُ جوانبَ من مواقفه مع العرب، مما هو من صميم تأريخ بلادنا - كهذه الرسالة -.

---

(١) كذا والصواب (لسوافي تسفي فيه ترابًا دقيقًا) - بالفاء -.

٣ - وطالعت مخطوطًا عنوانه: «البدر الطالع من الضوء اللامع» ومؤلفه أحمد بن محمد بن محمد بن عبدالسلام المنوفي الشافعي يقع في ٢٣٧ ورقة، في التراجم ورقمه (133) لخص فيه مؤلفه تراجم من كتاب السخاوي، ولم يُضِفْ جديداً.

٤ - كما اطلعت على كتاب بعنوان: «البدر السافر وتحفة المسافر» في التراجم أيضًا، يبتدئ بالأسماء المبدوءة بحرف العين، في ٣٠٩ من الورق، جاء في آخرِه: (وكانت وفاته بالاسكندرية، في السابع عشر من شعبان سنة ٦٦٢، وقد اتفق في هذا التصنيف شيء عجيب، ابتدأته بصالح وختمته بصالح، فكان من الاتفاق الغريب، وأنا استغفر اللّه فيما فرط... فرغت من تأليفه يوم عرفة سنة ٧٤٢ بالمدرسة الصالحية، في القاهرة المعزية..).

أبو هريرة وكوجكا: لاصلة لهذا باسم الصحابي الجليل عبدالرحمن بن صخر الدَّوسي الزهراني، ولابرواية الكاتب التونسي محمود المسعدي «قال أبو هريرة» وإنما هو اسم قصة كتبها أديب عراقي معروف، هو ذو النون أيوب، وهي تصور فترةً من حياته، عاشها متنقلا بين مدينتي (براغ) و(فينا) فوصف ماعانى من صروف الدهر وتقلباته، ومن تغير أنماط الحياة في هاتَيْنِ المدينتين، واختلاف النظم الاجتماعية فيهما، ولهذا أضاف إلى العنوان (قصة مدينتين).

ما كنت أهوى قراءة القصص، ولقد حاولت ذالك أثناء الدراسة في (المعهد السعودي) في مكة في عشر الخمسين من القرن الماضي، فاقتنيت مجموعة من قصص جرجي زيدان (روايات تاريخ الإسلام) وحاولت أن أُكْمِلَ قراءة بعضها، فكان يدركني السأم فألقي بالقصة لأتناول كتابًا غيرها، فلماذا أكملت قراءة هذه، لهذا الكاتب العراقي، بل حرصت على الاجتماع به؟!

في مساء هذا اليوم (١١/٩/١٤٠٧هـ - ٨/٥/١٩٨٧م) زارنا الأستاذ طَرِيْفٌ السمَّان، وله بالأستاذ عبداللّه سابقُ معرفةٍ، وهو ذو صلة بالمركز الإسلامي في فينا الذي كان للشيخ عبداللّه حين كان سفيراً في هذه البلاد أثرٌ قويٌّ في الإسهام في إنشائه،

فجرى الحديث بينهما حوله، فكان أن ذكر الشيخ الخيال أنَّ لديه مجموعة من الكتب، ومن بينها عددٌ من المؤلفات باللغة الألمانية، اشتراها مع أثاث المنزل الذي اشتراه، ولايعرف محتواها، وهو يرغب إهداءها للمركز الإسلامي، لتضم إلى مكتبته، ودعا الدكتور السمان للاطلاع عليها، فكان أنْ ذهبتُ في صباح اليوم الثاني مع الشيخ عبدالله للاطلاع على تلك الكتب وغيرها، فوقع نظري على مجلد صغير، غريب في مظهر غلافه، وفي شكل طباعته، فقد طبع بطريقة التصوير بعد كتابته بخط اليد، كتابةً ليست جيدة، وزُيِّنَ برسوم غير متقنة، على ورق خشن غير صافي اللون، وبينما أنا أقلب صفحاته إذْ التقى نظري بجملة – استوقفتني – بل شَدَّتْني إلى الاسترسال في مطالعة الكتابة هي: (لقد أخذتُ أَتَصَيَّدُ الأدوية الحديثة المقاومةَ لِتَخَثُّرِ الدَّم، الفاتحَةَ للأوعية والشرايين إلى: (إنَّ التفكير في أمور الدنيا وتَوَقُّعَ الأذى، وكَثْرَةَ الْحَذَرِ هي التي تَنْخَرُ جسمَ الإنسان وعَقْله كما ظهر لي). آه! لقد كان ماقرأت ينطبق عليه المثل العربي القديم (حَرِّكْ لها حُوَارَهَا تَحِنَّ). إنَّ الكاتب مثلي مُصَابٌ بمرض القلب، ثم هو يَتَصَيَّدُ الأدويةَ لعلاج ماأصابه كما أتصيدها، وفوق ذالك فله من تجاربه الطويلة ماقد يفيد أمثالي لمقاومة ذالك الداء.

لم أَضَعِ القصةَ من يدي حتى اسْتَرَحْتُ إلى أنني بحاجة إلى إكمالها، إذْ وجدتُّها ذاتَ أُسلوبٍ يغاير مااعتاد القصَّاصون إبرازَ قصصهم به من حيث الإغراب في الخيال، والتَّعمُّق في الرمزيَّة، والبعد بالقارئ عما ألفه من واقع حياته، إنَّها أقربُ إلى سَرْدِ حوادثَ أقربَ ماتكون إلى الواقع، بعبارات واضحة، فهي أشبه بالمذكرات اليومية منها بالقصص الخيالية، بل هي كذالك، لولا ماتصوره من بعض جوانب حياة كاتبها، فتبدو تلك الجوانبُ أغربَ من الواقع المألوف، وماكان هذا الكاتب مُبْعِداً عن الحقيقة إذ قال – وهو يتحدث عن هذه القصة –: بأنه أهداها للأستاذ الخيال، فأسهرته ليلة كاملةً، ولم يستطع إلقاءها من يده حتى أكملها، وطالب كاتبها بِدواءٍ ضِدَّ أَرَقِه تلك الليلة[1].

---

(١) "ذو النون أيوب: قصة حياته بقلمه" القسم السابع – ص: ٢٢ –.

ولعل من بواعث الرغبة في إكمال قراءتها تلك اللمحات التي تَبْدُوْ من خلال شرح مواقف الكاتب أثناءَ إصابته بالمرض، أو اتِّصاله بأحدِ الأطباء الذين كان يسخر من النصائح المشددة التي يوجهونها إليه، فيقرأ في بعض الكتب بطلانها، حتى وُفّقِ لطبيبٍ حذَّرَهُ من الإفراط في أي شيء، وأكد له أَنَّ الإنسان الْحَذِرَ العاقَل يستطيع أن يعالجَ نفسَهُ أكْثَرَ مِنْ الطبيب، إذا زُوِّدَ بالمعلومات الكافية عن مرضه، ونصحه بإزالة مايشعر به من قلق، ومايعتريه من كثرة الهموم، وبممارسة أيِّ عمل يهواه للتخلص من التفكير فيما يزعجه، فاختار الرسم والكتابة، فنصحه بالاشتغال بهما، قائلاً: ربما كانا لك أحسنَ من كل دواء. ثم وصف مااعتراه من الاطمئنان بقبول نصح هذا الطبيب.

لأَدَعَ هذا الجانب من القصة الذي قد يكون ألصق جوانبها بنفسي، إنها تصور حياة رجل كان في صغره يألف القطط، ويُعْنَى بتربيتها، وقَلَّ أن يشاهده أحد من لِدَاتِهِ في صغره إلا ومعه واحدة منها، ولهذا لزمه لقب (أبي هريرة) ثم طَوَّحَتْ به الحياة خارج وطنه في مدينة (براغ) فعرف إحدى فتياتها، وهي في سِنِّ إحدى بناته، ولكنهما تآلفا حتى توطَّدَتِ العلاقة بينهما بالزواج، مع مابينهما من الفوارق الاجتماعية والفكرية، ولكن السعادة لاتخضع غالبًا لما هو متعارف بين عالم الإنسان من فوارق، وحاول كاتبُ القصة أن يَجْلُوَهُ للقارئ خلالَ استعراضِه لحياتهما حقبةً طويلة من الزمن، متنقلا بين مدينتين تخضعان لنظم من الحياة في غاية التغاير والاختلاف، فلم تؤثِّر فيما بينهما من تآلفٍ وتَوَاؤُمٍ وسعادةٍ، ولايزالان ينعمان بكل ذالك.

لقد اجتمعت ليلة الثلاثاء (١٥/٩/١٤٠٧هـ - ١٢/٥/١٩٨٧م) في فندق (هلتُنْ) بالأستاذ ذي النون أيوب، ومعه أليفةُ حياته وقرينته، التي دعاها (كوجكا) أي قطة فغبطت الرجل على مايبدو به من تفاؤل ومرح - مع كونه في عشر التسعين من عمره[١] - وعلى ماتحوطه به زوجته من الرعاية والعناية، وعلمتُ أنَّ حكومته - بعد

(١) ولد في الموصل سنة ١٩٠٢، وذو النون من الأسماء المألوفة في تلك البلاد فهو لقب النبي يونس بن متى عليه السلام وهو من أهل نينوي التي هي الآن داخل عمران مدينة الموصل، وقد توفي بعد فترة قصيرة من الزمن.

أن ذاق من تقلب الحكومات في بلاده ماذاق من قطيعة وحرمان من الحقوق – شملته برعاية خاصة، أعادت لنفسه الطمأنينة في حياة رخيَّة، كما نَشَرَتْ جميع آثاره التي طبعها بين سنتي ١٩٣٦ و١٩٧٠م في أربعة مجلدات الثلاثة الأولى تضم مجموعة من القصص والروايات، والرابع يحوي مختارات من مقالاته المنشورة، وله كثير غير ذالك من القصص المؤلفة والمترجمة مما لم ينشر، وهو دؤوب على الكتابة، ويرى هذا استمراراً لبقائه، وأنه لامعنى للحياة بدون ذالك، وهذا مادفعه إلى محاولة إيجاد الوسيلة التي تمكنه من نشر مؤلفاته في (فينا) حيث اقتنى آلة طبع صغيرة، من نوع ماكان يعرف باسم (البالوظة) التي تطبع بواسطة التصوير، فَيُكْتَبُ مايراد طبعه بصورة واضحة، ثم يصور بطريقة خاصة يسهل بها إبراز نسخ عديدة منه، وكذا فعل بقصته « أبو هريرة وكوجكا » وببعض مؤلفاته، ومنها بعض أجزاء مذكراته « ذو النون أيوب، قصة حياته بقلمه » وقد نشر منها سبعة أجزاء صغار، عن ذكريات طفولته من سنة ١٩٠٨م حتى سنة ١٩٥٨م.

ومن الطريف أن الأستاذ ذا النون كان تلك الليلة يبدو مسروراً مبتهجًا، فقد زاره منذ أيام الأستاذ إسماعيل عارف[١] وهو من أصدقائه، ومعه ثَرِيٌّ عراقِّي معروفٌ، يدعى حَمِيد نجيب، فوعده الثريُّ بأنه سيتولى نشر جميع مؤلفاته ومؤلفات صديقه الأستاذ عبدالحق فاضل، أحد أدباء العراق المعروفين – إذ سينشئ مطبعة في إحدى المدن الأوربية لتلك الغاية، ويقدم المؤلفات مطبوعة للأديبين ليستفيدوا بريعها.

عودة إلى المكتبة العامة في فِينَّا : ومن أنفس ماطالعت في هذه المكتبة من المخطوطات مجموعٌ يضم رسائل للأصمعي ومعها رسالة لقُطْرُب، كان الأستاذ الدكتور طَريف السَّمَّان قد تحدَث عن هذا المجموع في كُتَيِّبٍ (كتالوج) أُصْدِرَ عن معرض للفن

---

(١) اسماعيل عارف كان وزير الثقافة (أو المعارف) في عهد عبدالكريم قاسم، وهو من رجال الجيش، وكان على جانب كبير من دماثة الخلق، وقد عرفته أثناء حضوري (مهرجان الكندي ومرور ألف عام على إنشاء مدينة بغداد) وقد صدر له حديثًا مؤلف عن (ثورة ١٤ تموز) أطراه الأستاذ ذو النون أيوب كثيراً.

الإسلامي الذي اقامته المكتبة في فينا منذ بضع سنوات، ونُشِرَ في الكتيب نموذج مصورٌ لإحْدَى صفحاته، فاستهواني حسن الخط وقدمُهُ للاطلاع على ذالك المجموع، فإذا هو على درجة من الأهمية بحيث استرسلت في تصفحه كاملاً، ولم اقنع بالوصف الوارد له في الكتيب الذي اتحفني به الدكتور السمان، ولكنني سأورد بَعض مافيه: (أوراق شرقية قديمة بنية اللون سميكة ٧٥ ورقة (١٤٩ صفحة) مقاس ١٦٢X١٤٠م م بخط النسخ المتطور من الكوفي في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري، مشكل بالحركات والنقط، ونهاية الجمل مميزة بدائرة بداخلها نقطة.

وقيمة هذا المجموع لاتكمن في كونها علمية هامة، ولكنها كبيرة من ناحية الخط، إذ خط هذه المجموعة يُعَدّ مثالاً هامًا لتطور الخط من الكوفي القديم إلى الخط المستدير النسخي). هذا ملخص ذالك الوصف.

وأضيف إليه : إن الكتابة مع جودتها وعناية الكاتب بتشكيل الكلمات قد يقع فيها بعض الأخطاء مما صُحِّحَ بعضُه في الهامش، وقد يخالف الكاتب القاعدة الإملائية المعروفة في كتابة بعض الكلمات كإلحاق الألف بعد واو الفعل وإن لم تكن واوَ جماعةٍ، وعدم كتابة الهمزة في الكلمات المهموزة، وغير ذالك مما سيلاحظه القارئ من النماذج المصورة هنا، وأعود لِتصفح المجموع:

صفحته الأولى تحوي بعد ذكر أحد ملاكه وهو (عبدالقادر بن عمر البغدادي الكيلاني) ولعله العالم المعروف صاحب « خزانة الأدب » وغيرها من المؤلفات، ثم (هذا مجموع فيه كتاب خلق الإنسان، وفيه كتاب الوحوش، وفيه كتاب الْفَرْق، وفيه كتاب الإبل، تأليف عبدالملك بن قُرَيب الأصمعي، وفيه أيضا كتاب ماخالف فيه الإنسان، البهيمة لِلْقُطُرب، وفيه أيضا كتاب الأضداد عن الأصمعي). وهذه الصفحة كتابتها تغاير كتابة الأصل، فهي حديثة.

أَمَّا الأصل فيبدأ بعد البسملة بجملة: (مايُذْكَرُ من حَمْل المرأة وولادتها والمولود، قال أبو سعيد عبدالملك بن قُرَيْبٍ الأصمعيُّ: يقال للمرأة في أول ماتَحْمِلُ: نَسِئَتْ

وهي نِس[١]، كما تَرىَ، فإنِ اشْتَهَتْ على حَمْلِها شيئًا فهي وَحْمَى، والمصدر الْوَحَمُ) (انظر الصورة).

ثم في الورقة الـ (٤٠) : (وفي الرِّجْلِ الْعَرَجُ والْقَزَلُ، فَالْقَزَلُ أَسْوَأُ الْعَرَجِ، يقال : عَرِجَ يَعْرَجُ عَرَجًا، إذا حدثَ فيه عَرَجٌ، وعَرَجَ يَعْرُجُ عَرَجَانًا، إذا مشى مشيةَ الْعُرْجَان . تمَّ كتابُ "صفة خلق الإنسان" .

هذا كلام ذكره الأصمعي في أخر صفة خلق الإنسان : (ومما يكون في النساءِ دونَ الرِّجَالِ الإسكَتَانِ والأَشْعَرَانِ وهما مايلي الشَّفْرَيْنِ . .) ألخ .

وبعد خمسة أسطر في الورقة الـ (٤١) : (وهي جلدةٌ فيها ماءٌ ينشقُّ على رأس الولد عند خروجه، وهو من الناقة السُّخف، والسَّابِيا، والمخاض في البهايم والناس، ولايكون الطَّلْقُ إلا في الناس) .

آخر الكتاب : قال أبو سعيد : (الضَرْبُ من الرجال الخفيف) . وبعد ثلاث صفحات ونصف الورقة الـ (٤٢) : (وقال رؤبة :[٢] :

وعاش لو سألته أمه ألوسا أو أخته لم يعطها دريسا

ياليته لم يعط هلبسيسا وعاش أعمى مقعداً سريسا

حَتَّى يَضُمَّ الْوارِثُونَ الْكِيسَا

الألوسُ : الشيء اليسير . والدريس : الثوب الخلق، والجميع دِرْسانٌ، ويقال : ماله هَلْبَسِيْسٌ أي ماله شيء[٤]، وهذه كلمة تقال في النفي لايقال : له هلبسيس، إنما يقال : ماله هلبسيس . هذا كتاب "أسماء[٥] الوحوش وصفاتها" .

هذه صفة الحمار، قال أبو سعيد الأصمعي : هو الحمار والعير والمِسْحَل) . . . الخ .

---

(١) كذا بدون همزة في الأخيرة، وبإثباتها في الأولى، وكأنها مضافة بعد كتابة الأصل.

(٢) كذا (وعاش) وبها ينكسر البيت، وليست في الديوان، وكأنها مضروب عليها.

(٣) في "ديوان رؤبة" – ٧٢ – : . . . لم يَكْسَها دَرِيْسَا.

(٤) بدون همزة.   (٥) كذا (يقال).

[صورة الصفحة الثانية من المجموع]

وفي الورقة الـ (٥٢) : (وقال عمرو بن معدي كرب الزبيدي :

لَهُ السِّرحَان مفترشًا يَدَيْه كَأَنَّ بَياضَ لَبَّيته الصَّدِيْعُ

تَمَّ كتاب الوحوش عن الأصمعي .

كتاب الفَرْق عن الأصمعي .

هذا كتابُ ماخالفَ فيه الإنسانُ البهائَم والسِّباع عن الأصمعي .

قال : يقال فَمُ الإنسان، وفيه ثلاث لغات فَمٌ وفُم وفِم) .

ثم في الورقة الـ (٥٨) : (تم كتاب الفرق عن الأصمعي) .

هذا كتاب ماخالف فيه الإنسان البهيمة من قَرْنِه إلى قَدَمِه عن قطرب (ثم كلمة غير واضحة كأنها محمد) .

وفي الهامش بخط قديم مغاير لخط الأصل : (بدأ بقراءة هذا الكتاب كتاب الفَرْق يوم الثلاثاء لثمان بقين من شوال سنة احدى وستين وثلاث مئة على الشيخ أبي سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي صاعد بن. . . بن زهرون الصابي وسمع اسحاق بن أحمد ابن عبدالرحمن الكاتب، والحسن بن ابراهيم) .

وفي الهامش ايضا : (حدثنا الفقيه أبو سعيد قراءة عليه، قال : اخبرنا أبو بكر أحمد ابن موسى بن العباس بن مجاهد، قال : اخبرنا محمد بن الجهم أبو عبدالله، قال : سمعت قطربا النحوي بإملائه علينا سنة خمسين (؟) ومئتين : قالوا في مثل الفم من الانسان الفَمُ الفُم والْفِمُ) ثم الاسترسال في الكتاب . (انظر الصورة) .

وفي الورقة الـ (٩٠) : (وأنشد للطرماح :

كَأُمِّ الْحُبيْنِ لا يَـرَى النَّـاسُ غَيْـرَهَا وغَاب حُبَيْنٌ حيث زَاغَتْ بنو سعد

فأخل الألِفَ واللام .

تَمَّ كتابُ ماخَالَفَ الانسانُ البهيمةَ وأحوالها عن قطرب والحمد للّه رب العالمين) .

وفي أول الورقة الـ (٩١) بعد البسملة : (تقول العربُ : قد بان الأمرُ، وأبان، ونال وانال إذا حان، وقد نار الأمر، وأنار إذا وَضَح وتبين، وقد عاضه وأعوضه إذا عَوَّضَهُ شي من شي[١]. إلى الصفحة الثانية من الورقة الـ (٩٤) فتلك الصفحات تحتوي على مجموعة من الأفعال الماضية المجردة التي لايتغير معناها إذا زيدت في أولها الألِف، كما تحوي كلامًا حول مخارج الحروف، مثل (إذا جاءت السين وبعدها الطاء أو قاف أو غين أو خاء وإن كان بينهما وبين السين حرف أو حرفين (؟)، انقلبت السين صاداً في لغة بني العنبر من تميم، والعلة في ذالك أن السين من مخرج الصاد وهما من حروف الصفير، غير أن الصاد) . . . الخ .

وفي أول الصفحة الثانية من الورقة الـ (٩٤) بين السطور بخط مغاير لكتابة الأصل : (بدأ بقراءتي على الشيخ أبي سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي النحوي وأنا أنظر في كتابي وأصل الشيخ الذي قرأته على أبي بكر بن دريد يُنظر (ثم كلمات غير واضحة) الطوسي يوما الثلاثا لسبع خلوان من ذي القعدة سنة احدى وستين وثلاث مئة وسمع محمد بن اسحاق الطوسي، وابن سكرة الهاشمي، ومحمد بن علي الصبريني (؟) .
ثُمَّ كتاب "الإبل" عن الأصمعي .

قال أبو سعيد عبدالملك بن قُريبٍ الأصمعيُّ : أجودُ وَقْتٍ يُحْمَلُ فيه على الناقة أَنْ تُجَمَّ سنةً ويُحْمَلَ عليها فيقال : قد أُضْرِبَتِ الْفَحْلَ، وأَضْرَبَهَا الْفَحْلُ) . . . الخ .

وفي الورقة الـ (١٣٥) : (ويقال فَرَسٌ حَتٌّ إذا كان سريعا .

تم كتاب الإبل من تاليف أبي سعيد عبدالملك بن قُرَيب الأصمعي، والحمد للّه كثيرا .

كتاب الأضداد عن الأصمعي) .

ثم في أول الورقة الـ (١٣٦) : (قال الأصمعي : اْلقُرْو[٢] عندَ أهلِ الحجاز الطُّهْرُ، وعند أهلِ العراق الحيض، وقال أبو عَمْرِو بنُ العلاءِ : يقال : دفع فلانٌ إلى فلانة جاريةً

(١) كذا (عوضه شيء من شيء) ولعل الصواب (عوْضه بشيء عن شيء) .

(٢) كذا (القرو) بدون همزة .

يُقَرءيها[1]، مهموزة مشددة يعني تحيض عندها وتَطْهُر إذا أراد أن يشتريها) .

وآخر المجموع في الورقة الـ (١٤٦) : (قال امرؤ القيس في الناهل :

إذْ هُنَّ أَقسـاطٌ كَـرِجْلِ الـدَّبَا   أَوْ كَقَطَا كَاظمَـةَ النَّاهِـلِ

أَقْسَاطٌ : قِطَعٌ من الخيل . والناهلُ هاهنا : العطشان . والشفُّ : الفضل ، يقال . . .[2] غلاما على الشف أي على الربح والفضل ، ويقال : فلان أَشَفُّ من فلان ، أي افضل منه وأكبر سِنًّا ، وتقول : لاتُشِفَّ بعضَ الورقِ على بعضٍ ليكون رِبًا) . ثم ينتهي المجموع . (انظر الصورة) .

وفي بعض صفحات حواشي منها :

١ - ق ٦ : (قال الشيخ أبو محمد الحسن بن علي) .

وكذا في (ق ١٣) : (قال الشيخ أبو محمد) .

٢ - ق ٤٢ : (والمحق الطويل) وفي الهامش : (قال أبو محمد : انما هو المِحق بكسر الميم) .

٣ - ق ٤٣ :(والبرِم الذي لايأخذ في الميسر) أبو محمد : إنما هو الذي لايدخل في الميسر.

٤ - ق ٦٨ : (بلغت قراءة أبي منصور صاعد بن زهرون الصابي) .

٥ - ق ٧١ : (بلغت قراءة أبي منصور صاعد بن زهرون الصابي وسمع أحمد بن محمد الخلال ومحمد بن عبد الصمد . . والمحسن بن إبراهيم الصابي) .

٦ - ق ٧٣ : (بلغت قراءة صاعد بن زهرون واسحاق بن أحمد بن محمد الخلال والمحسن بن إبراهيم وعلي بن محمد الهاشمي ومحمد بن أحمد الخلال ومحمد بن علي الصربني والحسن بن ساب و . . . وعبدالواحد بن أحمد وابنه محمد) .

ولاتفوت الإشارة إلى أنَّ رسائل الأصمعي التي في هذا المجموع قد نُشِرَتْ باستثناء الكتاب الأخير، فلا أعرف شيئًا عنه، ولكن مما لاشك فيه أن قِدَمَ خَطِّ هذا المجموع، وصحة ضبط كتابته، مما يعين على تصحيح كثير من النصوص المنسوبة إلى الأصمعي في معجمات اللغة المشحونة بالنقول عنه، ومن هنا تبرز قيمة ذالك المجموع .

---

(١) كذا والمراد (يُقَرِئُهَا) .

(٢) كلمة لم تتضح في التصوير .

واكافه بالبين حين يبينه لبالهسلام وثنى اشد افه جونه

اي سوء ابقول من بعد البين المتبعة ... وقال غيره اشد افه كلمه

جون ايقول كلمع الجمر وكسجع القبح قال ابو زيد الناهل في كلام العرب

العطشان والناهل الذي قد شرب حتى روي   قال الشاعر

الطاعن الطعنة يوم الوغى ينهل منها الاسل الناهل

وروي منه العطشان وقال الاصمعي الانثى ناهلة والجميع نهال ورجال منهم

اي معطش وابل نهال اي عطاش تكثير من بها من العطش ويقولون هذه ابل

ناهلة في المنهل الشرب الاول يقال للذي شرب اول شربة ولم يعد ناهل انهل

وانهل الرجل ابله قال وسموا المنهل منهلا مفعلة من قولهم ... ومنهلة

وال الله جل ثناؤه فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب اي بمنجاة وكقولهم

للمهلكة مسلمة والسليم اللديغ تفاؤلا   قال امرؤ القيس في الناهل

... اقساك حين ... الامر بأنا وكنتما كأنه الشام

... تجمع للجميل والناهل ها هنا العطشان ... فقال ...

... على الشف اي على الربح والفضل ... فلان اشف من فلان اي

... منه ... بعض الورق ... ليكون ...

[صورة الصفحة الأخيرة]

لم أكُنْ على درجة من الصحة تمكنني من التردد على هذه المكتبة التي تحوي نفائس من المخطوطات.

واطمأننت حين أخبرني الأخ الدكتور طَرِيف السمَّان أن الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب سبق أن زار هذه المكتبة حين كانت يتولى عِمَادة شئون المكتبات في (جامعة الملك سعود)، وأنه اختار مجموعة من مخطوطاتها، فصورت على أشرطة (ميكروفلم) ضُمَّتْ إلى مكتبة الجامعة - اطمأننت أن الدكتور الضبيب - وهو الخبير بنفائس المخطوطات - لم يدع منها ماله قيمة دون أن يصوره.

ولن أنسى ماقابلني به الأخ الدكتور طريف السمان من كريم العون والمساعدة، فقد اكرمني - اكرمه الله - بتصوير ثلاثة من الكتب هي:

١ - «المسالك والممالك» للبكري النسخة الأولى قبل اطلاعي على النسخة الثانية.

٢ - «ترويح قلب الشجي». ٣ - المجموع الذي يحوي مؤلفات الأصمعي.

حول مدينة فينا: لم يدع الابنُ الكريم الأستاذ عبدالله بن عبدالعزيز بن حسين الملحق الثقافي - لم يدع وسيلة يستطيعها، من وسائل إكرامي أنا والأستاذ الشيخ عبدالله الخيال إلا بذلها، فقد تجول بنا في ضواحي المدينة، بحيث شاهدنا أبرز معالمها، كالجبل الذي وضع فوقه الأتراك المدافع أثناء محاصرة مدينة فينا، وشارع (تابور) الذي بلغته عساكرهم، كما أزارنا بعض القرى النائية الجميلة، وشاهدنا هناك القلعة التي حبس فيها (ريشارد قلب الأسد) القائد المعروف في الحروف الصليبية، فعوقب حين هزمه صلاح الدين بالحبس، حتى مات في تلك القلعة التي تثير مشاهدتها من الذكريات مايعصر القلب ألَمًا وحزنا حين يذكر المرءُ قوة المسلمين في ذالك العهد وضعفهم في عصرنا الحاضر. لندع هذا لإيجاز ماأفضل به الابن الكريم وماأكثره، فهو الذي عرَّف الدكتور السمان بي بحيث يسر لي الحصول على ماأردت الحصول عليه من تلك المصورات، كما أفضل - زاده الله فضلا وتوفيقا - بايصالها إلي. وبالإجمال فمهما عبرت عن شكره إزَاءَ ماغمرني من فضله فلن يفي بحقه، وفقه الله ورعاه.

من الرياض إلى لندن (*)

الخميس ٢٩ رمضان ١٣٩٦ (٢٣/٩/١٩٧٦م): الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان الاقلاع من مطار الرياض إلى لندن، وكان الطيران مريحًا لهدوء الرياح، وسكون الجوّ وفي الساعة الثالثة قدّم طعام السّحور لجميع المسافرين، وبعد الانتهاء من تناوله أطفئت أنوار الطائرة، فاسترخى كلّ انسان في كرسيه، بل استغرق أكثرهم في النوم، وأنا أحدهم، فلم أستيقظ الاّ حينما أنتشر نور أشعّة الشمس داخل الطائرة، عند النّداء لربط أحزمة المقاعد للهبوط في مطار لندن، وقد بلغت الساعة التاسعة بتوقيت الرياض فمضت سبع ساعات في الطيران في غاية الراحة والهدوء. وكان الهبوط في مطار لندن الساعة السابعة والربع حسب توقيتها، (التاسعة والربع بتوقيت الرياض) ودرجة الحرارة احدى عشرة درجة.

عنز الصعلوك : من أمثالنا: (الذّيب مسلّط على عنز الصعلوك) فمنذ أربعة أشهر قدمت من روما وكنت أنا وأمّ محمد قد وضعنا معطفينا في المكان المعد لوضعهما في الطائرة وكانا خير ما بقي لنا مما كان معنا عندما حللنا مدينة روما، فأتى أحد اللصوص على كل نفيس وغال نحمله.

لقد شدهت أثناء النزول في مطار الرياض عن أخذهما، ولم أشعر بذلك إلا بعد الوصول إلى البيت فأسرعت الرجوع إلى المطار، ولما أخبرت الموظّف المكلف بشئون الأمتعة (العفش) قال: أقلعت الطائرة إلى جدة، وسأبعث الآن برقية إليّ بعد غد. بعد أن أخبرته باسمي وبما طلب مني الاخبار به، ولكنني فوجئت حينما رجعت إليه في اليوم الثالث بأن وجّه إليّ الأسئلة التي كنت أجبت عنها في أول يوم، وبأنه لابدّ من احضار تذكرة الرحلة وأظهر لي أنه لا يعرف شيئًا عن الموضوع وأن (قلبه ما هو كتاب) فعرفت أنه لم يبرق إلى جدة كما أخبرني أول ما قابلته، فرجعت إلى المنزل وأحضرت التذكرة ولما قدمتها له: كتب أمامي كتابة لا أحسن قراءتها ولما أردت أن

(*) : «العرب» – س ١٤ ص ٣٢١ –.

أوضّح له اسمي كاملاً أجاب : ما يحتاج، ان شاء الله بعد أسبوع تراجعنا. ويعلم الله الآن كم أسبوع مضى عليّ بعد ضياع معطف كنت أراه أجمل ما اقتنيته من أنواع الألبسة، أما معطف أم محمد فمما زاد أسفها عليه هو أنّه هدية من احدى صديقاتها حين قدمت من باريس. وللهدية في نفس المرء منزلتها.

وفي آخر شهر رمضان سنة ١٣٩٥ (١٥ سبتمبر١٩٧٥م) قدمت من جدة إلى الرياض وكانت امتعتي ملابس قليلة ومعي اضبارات تحوى قسما من كتاب أشتغل في تأليفه عن بلادنا، يتعلق بتحديد المواضع وبأنساب السكان فجمعت الملابس والاضبارات في كيس صغير وضعت فيه حبّات من الليمون وما معي من نقود، وكانت قليلة ولله الحمد وربطته ربطًا محكمًا وخشيت ان أنا حملته معي داخل الطائرة أن أنساه كما نسيت المعطف، فسلمته للموظف المكلف بالأمتعة فأخذه ورماه بعيداً فخشيت أن ينفك الرباط فرجوته الحرص عليه، فنظر إليّ مبحلقًا، ثم أعطاني قسيمة بطاقة حمله إلى الرياض، ولكنه أعنى الكيس لم يصل إلي حتى هذا اليوم ولا أزال أعلل النفس بوصوله إليّ كما يعلّل المرء الذي فقد أعز أحبابه بلقياه :

أعلّل النّفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !!

وفي مطار لندن كان الدكتور محمد الصائغ واقفًا بقرب أحد موظفي الجوازات، حين تقدمت إليه إذ علم من الصديق الدكتور يوسف الحميدان[١] بوقت وصولي. وفي مكان الأمتعة تناول مني - أكرمه الله - بطاقة الحقيبة، وصرت أبالغ في ذكر أوصافها، وأقص عليه المثل، حتى رأيت حقيبة مماثلة لحقيبتي في اللون والصفة والحجم فقلت للدكتور : ان كان فوق ظهرها كتابة فهي حقيبتي، فقد علقت في مقبضها بطاقة كتبت اسمي فيها بالحروف العربية، وبالحروف اللاتينية، ولم أكتف بذلك بل كتبت اسمي أيضًا على ظهرها، فلما أبصرنا الكتابة لم نشكّ أنها هي. وفي الفندق لم نجد غرفة مهيّأة فأبقينا الحقيبة لدى الموظف المكلف بحفظ الودائع. ولم أذكر إلا قبيل الإفطار، حين كرم أخي الأستاذ عبد العزيز التركي[٢] بزيارتي في الفندق، فطلب

(١) توفي يوم السبت ١١ شعبان ١٤١٧هـ.

(٢) توفي - رحمه الله -.

احضارها لي، ولكنني لم أحتج إليها إلا في صباح اليوم الثاني، وهو يوم العيد لتغيير ملابسي، غير أنّني فوجئت بثقلها أوّلاً فعللت ذلك بأن أحد الاخوان قال لي بأنه سيرسل معي حاجة إلى لندن لأحد اخوانه فقد يكون وضعها داخل الحقيبة ونحن في المطار. غير أنني صدمت حين أبصرت ما في داخلها من أحذية قديمة وأشياء غريبة في أعلاها أدوات نجارة ومفاتيح من حديد وغيرها فأعدت ربطها. ولما انعمت النظر فيما كتب فوق ظهرها أتّضح لي أنها تحمل اسماً غير عربيّ فتيقنت أنها ليست حقيبتي.

في فندق (كمبرلند): في هذا الفندق كان لي أقارب يسكنون فيه أيام العيد، فأظهرت للدكتور الصائغ رغبتي في أن أكون قريبًا منهم فكان نزولي فيه، في غرفة صغيرة لا بالنسبة إليّ بل بالنسبة لمظهر الفندق وسعة أبهائه ولارتفاع أجرتها (١٩ جنيهًا = ١٣٥ ريالاً).

لقد اعتدت أن أسكن في أي فندق نظيف من الفنادق المتوسطة، ما لم أضطّر إلى غير ذلك، فقد أكون مع رفيق يختار الفندق هو، أولا أجد مكانًا ملائمًا. أما إذا رجع الأمر لاختياري فانني أفضّل الوسط في كل أموري. وأذكر أنني سافرت إلى مصر ممثلاً لصحافة بلادنا في وفد ضم ممثلين عن وزارة الدفاع وعن الإدارة العامة للإذاعة والصحافة والنشر لحضور احتفالات الجلاء. فكان النزول لجميع أعضاء الوفد في فندق (سميراميس) ولكنني استأجرت غرفة في فندق صغير مطل على حديقة الازبكية بخمسة وثلاثين قرشًا يدعى (جرين أوتيل) وأذكر أنّ (وزارة الإعلام) دعت الصحفيين إلى جدة وهيّأت لمن لا مساكن لهم فيها النزول في (فندق قصر الكندرة) ولكنني فضلت السكن في (فندق الحرمين) الصغير، الواقع في منطقة باب شريف، ولا أعتقد أن في عملي هذا ما يصح أن يوصف بالشذوذ أو الخروج عن المألوف، بل أرى الأمر بعكس ذلك فالمرء لا ترتاح نفسه وتسكن وتطمئن إلا إذا عاش بين أناس يجانسونه في مختلف أحوالهم، وسكان الفنادق العالية غالبًا ما يكونون من طبقة خاصة في مظهرهم وسلوكهم. وهذا مما لا يحتمله كل أحد. وأنا أستغرب من اناس

يحشرون أنفسهم في مجتمعات لا تلائمهم. وما ذلك إلاّ ليقال بأنهم كانوا يسكنون في أفخم الفنادق وما الحياة سوى راحة النفس، ولا تتم إلا لا يكلف نفسه ضدّ طباعها، ولا يحملها على غير ما ألفت ويخرجها عن عادتها. وهذا هو غاية الشذوذ والخروج عن المألوف.

وأذكر بهذه المناسبة أنّ الأستاذ عبد الله بلخير حينما كان المدير العام للإذاعة والصحافة والنشر ذهب إلى وزير الخارجية في جدة، وكنت معه وكان الأستاذ ابراهيم السويل[1] – رحمه الله – وبعد السلام عليه أخبره بأن فيصلا – رحمه اللّه – أمر بأن أسافر مع وفد صحفي إلى باكستان سنة ١٣٨٢ وطلب الأستاذ بلخير من الأستاذ السويل الأمر باعطائي جواز سفر خاصّ فتعلّل بأنه لم يبلّغ بهذا. فأقنعتهما بأنني لن أسافر إلا بالجواز الذي اعتدت السفر به وأنني لا أقبل غيره، وما حضرت إلا للسلام على معالي الوزير، ظنّا مني بأن لديه ما سيبلغني به يتعلق بسفري.

وللجواز الخاص حديث خاص في الكلام عن الجزائر لحضور مؤتمر أدباء العرب العاشر.

يوم العيد ١ / ١٠ / ١٣٩٦: (٢٤ / ١١ / ١٩٧٦م) : من المعروف أنّ المرء لا يحسّ بالعيد في بلاد لا تحتفل به، فهو كغيره من الأيّام. وقد أردت الذهاب في صباح هذا اليوم إلى المسجد الذي يؤدي المسلمون في لندن فيه صلاة العيد فقيل لي: انهم لم يعيّدوا هذا اليوم، بل تأخروا إلى غد (السبت) وكنت أشعر بأثر برد أصابني في الليل، لأنني تركت نافذة الغرفة مفتوحة، واغتسلت في الصباح بماء بارد، وتلك عادتي منذ سبع عشرة سنة لا أستحم إلاّ بالماء البارد صيفًا وشتاءاً إلا عندما أحتاج إلى تنظيف جسمي بالماء الدافيء فإنني أستعمله ثم أعقبه بالماء البارد. كان هذا اليوم هو ميعاد الذهاب إلى طبيب العيون فذهبت مع الدكتور محمد الصائغ إليه، وكان الوقت المحدد للزيارة الساعة الرابعة بعد الظهر وقد استغرب الدكتور الصائغ مرور ثلث ساعة بعد ذلك الوقت غير أنه زال استغرابه أثناء المقابلة فقد تبين أن الطبيب عاش في مصر زمنًا طويلاً، بحيث أتقن اللغة العربية واذن فلا غرابة في أن يتخلق ببعض أخلاق

[1] توفي في سنة ١٣٩٧هـ.

الشرقيين هكذا استنتجت أنا، وقد أكون مغاليًا أو مبالغًا من حيث اعتقادي بأن الغربيين أشدّ محافظة على الوقت من الشرقيين.

والواقع أنّ الناس هم الناس في كلّ زمان ومكان، مختلفون في أخلاقهم وعاداتهم فلا يصح التعميم في أيّ أمر من الأمور.

كنت حرصت على زيارة الصديق الأستاذ عبد اللّه عبد الجبار، فقد عرفته أول ما عرفته أثناء الدراسة في القاهرة سنة ١٣٥٨ (أي قبل ٣٨ عامًا) ثم قويت الصلة حين كان مراقبًا للبعثات العلمية في القاهرة، ثم بعد ذلك حين أصبحت داره منتدى أدبيًّا يرتاده الأدباء المثقفون من مختلف الأقطار العربية ممّن يفد إلى القاهرة فيجدون في رحابة صدر الأستاذ وسعة علمه ووفرة ما تحويه مكتبته من الكتب ما يطلبون.

وكان ينزل في لندن، في مكان متّصل بمكتب الملحق الثقافي السعودي، فمرت به ليلة العيد بعد خروجي من منزل الصديق الأستاذ عبد العزيز التركي فلم أهتد إلى منزله. وقد علم الأستاذ عبد الله عبد الجبار بذلك فزارني مساء يوم العيد وليلة السبت، وكرم فدعاني للعشاء في مطعم شرقي (تركي) كان جميع ما قدم لنا من أنواع الطعام مما ألفناه واعتدنا تناوله.

ثم كان الذهاب لزيارة الأستاذ الرفاعي[١] وكان يمضي دور النّقاهة في لندن، حيث عولج باستئصال المرارة، فارتاح للعلاج وعوفي من المرض، وكانت ليلة أنس وسرور غمرها الاستاذان الجليلان بأدبهما وفضلهما ونبل أخلاقهما حتى تمنيت أن تزداد طولاً (وليالي السرور قصار).

والمرء في لندن – أثناء الليل – يدرك صعوبة المواصلات، فسيارات الأجرة لا تتوفر في كل مكان وفي كل وقت، فبعد خروجنا من المطعم انتظرنا برهة من الزمن نبحث عن سيارة أجرة حتى مرت بنا سيارة صغيرة يدعونها (مني كاب) يسوقها عربيّ مصريّ فأوصلنا إلى منزل الأستاذ الرفاعي، ولما خرجنا منه وقد انتصف الليل وجدنا الجوّ قد اكفهرّ وتغير فجأة، فسقطت الأمطار غزيرة، وصارت الأسواق تجري فيها السيول

---

(١) توفي عام ١٤١٤هـ (١٩٩٣م).

كالشعاب القوية، فاتقينا المطر تحت إحدى النوافذ، وانتظرنا برهة من الوقت حتى مرت بنا سيارة أجرة أوصلت كل واحد منّا إلى منزله، ولكنني لم أسلم من أثر البرد تلك الليلة مما ضاعف ما كنت شعرت به في الليلة التي قبلها، وبقي الأثر معي أيامًا، ولا أزال أستعمل ثيابي التي لبستها في الرياض، والأيام أيام عيد!!

الحقيبة الحقيبة : لم أتمكن يوم العيد من الاتصال بأحد من موظفي الخطوط لمعرفة شيء عن حقيبتي التي استبدلت غيرها بها خطأ، ولم يدخر الدكتور محمد الصائغ جهداً للبحث عنها وقد أكد لي بأنها لن تضيع ووعد بأن يبعث إلى المطار من يبحث عنها، ولكن صاحب الحاجة أحفى بها ولهذا اتصلت بالصديق الكريم أبي خالد وهو من خير من يعوّل عليه لقضاء حاجات اخوانه في هذه المدينة :

نميل على جوانبه كأنّا نميل إذا نميل على أبينا

فبعث إليّ ابننا الكريم خالد بن عبد العزيز فكان أن وجدنا الحقيبة في المطار وأعددنا ما يلزم اعداده للرحلة إلى باريس، ولم يتركني أكرمه الله وجعل اليمن حليفه في كل أحواله – إلا بعد أن دخلت المكان المخصص للمسافرين.

وقد يدفع الفضول بعض القراء للسؤال عما تحويه تلك الحقيبة العتيدة!! لا شيء سوى حلة (بدلة) أنهكتها في اللبس شهوراً، ثم نظّفت وهيئت للتجمّل بها أثناء هذه الرحلة وملابس خفيفة قليلة تقوّم بدارهم معدودة لو كانت جديدة، وآلة حلاقة ألفتها ثلاث عشرة سنة، ومن أصعب الأمور على المرء فقدان ما ألف ووريقات دونّت فيها بعض معلومات احتاجها عند كتابة موضوعات أعددتها لمجلة «العرب» ولا شيء غير ذلك.

أما صاحب الحقيبة التي وصلت إليّ خطأ فلم يكن أسعد حظّا مني فهو فيما يظهر سافر من الرياض إلى (روما) فقذفت الأقدار بتلك الحقيبة حتى وقعت في مطار لندن، ولم يجد حذر صاحبها وحرصه وكتابة اسمه وعنوانه ورقم هاتفه في روما في أبرز مكان منها من أن يحسّ بلوعة فقدها ثلاثة أيام على أقل تقدير ولكنها ستصل إليه ان شاء الله.

إلى باريس

لم تكن الرحلات إلى (هيوستن) وهي المدينة التي كنت قررت السفر إليها من لندن متيسرة كل وقت، ولهذا عزمت على السفر بطريق باريس يوم الأحد (٣/١٠/١٣٩٦ - ٢٥/٩/١٩٧٦م) لكي أقابل حفيدتي صبا (صبا نجد) ووالديها القادمين من أمريكا، في طريقهم إلى الرياض، فوجدتهم في المطار فبتنا جميعاً في فندق ألفنا سكناه ويدعى (يونيون أوتيل أتوال Hotel Etoile Union) في شارع (امولان Hamelin) وقد أعددنا العدّة للسفر في الصباح فبكرنا إلى المطار، قبل موعد السفر بثلاث ساعات وبقينا فيه حتى موعد سفري، وكان الساعة العاشرة والنصف (وتقدّرون فتضحك الأقدار) : ذهبت إلى باب الوصول إلى الطائرة الساعة العاشرة والربع وعنده سألت ميّ ابنتي الرجل الذي يتناول الحقائب من المسافرين لتفتيشها عن موعد اقلاع الطائرة إلى (هيوستن) ففهمت منه أنه لم يحدّد بعد، فطلبت مني أن أجلس في المقهى ألاحظ (صبا) وهي تغطّ في نومها داخل عربتها الصغيرة، وذهبت أمّها لكي تبحث عن غرض لتبعثه معي لإحدى أخواتها ولكنها استغرقت في البحث داخل المعرض زمناً حتى أقلعت الطائرة، حقًا لم أتأثر إلاّ حينما رأيت تأثرها وانفعالها، لأنّها قد اتصلت باخواتها فأخبرتهن بأنني سأصل على تلك الطائرة التي سافرت، كما أنّ حقيبتي ذهبت فيها، وهي تخشى من أنني قد أتعب فلا أجد من يهيّئ لي وسائل السفر لأنني لا أحسن شيئًا من اللغات سوى العربية، فهيأت لي السفر إلى (نيويورك) بطائرة تتجه إليها الساع الواحدة وكان موعد سفرها هي وزوجها وابنتها قد حان فودعتهم، وجلست أمام الموظفة التي تعدّ لي تذكرة السفر، فرأيت على مقربة منّي رجلاً توسّمته عربيًا فلم يخب حدسي أنه من مصر ويدعي الدكتور يوسف البدراوي، وله صلة قوية برجال مشهورين في بلادنا، وكان يقيم في كندا منذ عام ١٩٥٢م وهو الآن عائد إلى مصر، فكان لي نعم الرفيق حتى آن وقت اقلاع الطائرة إلى نيويورك الساعة الواحدة بتوقيت باريس.

ومن يدري فقد يكون في التأخر لي خيراً فاستمرار الطيران أكثر من عشر ساعات من باريس إلى هيوستن متعب وممل، أما إلى نيويورك فلا يزيد على الثمان تعقبها استراحة نحو ساعة في مطار نيويورك.

بين نيويورك وهيوستن

لم يستغرق زمن الطيران من باريس إلى نيويورك الزمن المحدد إلاّ أنّ المرور بموظفي الجوازات ثم بموظفي الجمرك في مطار نيويورك ثم الاتصال بخطوط الطيران لتأكيد السفر استغرق زمنًا طال ففاتتني الطائرة التي سجّل اسمي مع ركابها وكان اقلاعها من مطار نيويورك الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر. وهي من طائرات (دلتا) فبقيت في المطار نحو ساعة.

وسافرت الساعة السادسة والنصف على احدى طائرات (ايسترن) فبلغت (هيوستن) بعد أربع ساعات وبقيت في المطار نحو ساعة للبحث عن حقيبتي التي سبقتني، وبعد أن أطمأننت على وجودها وأنها ستسلم لي صباح غد كانت بنّياتي وأمّهن قد حضرن إلى المطار بعد أن اتّصلت بهن.

الحقيبة مرة أخرى : عدت إلى مطار (هيوستن) في الصباح، للبحث عن الحقيبة، ولم يستغرق الأمر كبير الجهد، أو طويل وقت بعد ابراز البطاقة التي تحمل رقمها. ولكن كان ما لم يكن في الحسبان. كان الذي يتولى تفتيش الأمتعة انسان يصدق عليه قول المتنبي في هجو كافور :

من كلّ رخو وكاء البطن منفتق　　　لا في الرّجال ولا النّسوان معدود

فالمظهر والشراسة والزي تبرز ذلك الانسان رجلاً وما هو – في الواقع سوى حيزبون مسترجلة، لم تدع في الحقيبة شيئًا إلا فلته فليًا، حتى الظروف التي تحوي أوراقًا خاصة، كانت تركّز نظرها داخلها مستوضحة مستريبة آه! لقد فغرت فاها وتصلّب وجهها، فقد وجدت حقًا أصغر من حجم الكف، ملفوفًا بخرقة لنا محكمًا، فأطبقت غطاء الحقيبة وأزاحتها إشارة إلى إنتهائها مما في داخلها، واتجهت إليّ مشيرة إلى الحق مستوضحة عما في داخله، فأرادت أن أزيد من إثارة فضولها فتبالهت، ولكنها سرعان ما أزالت لفافته، فانكشف الغطاء عن مسحوق ذي رائحة حادّة، ولون غريب أشهب، فوضعت الحقّ بعيداً عنها – كمن يحاذر ضرراً، أو يتوقع شرًّا من شيء أمامه – وأمرتني

بإعادة الغطاء واللّفافة على الحق كما كانتا، وأن أضعه فوق منضدة أمامها، ثم جلست على كرسيّها وتحدثت حديثًا مهموسًا بهاتف بين يديها، وانصرفت عني للكتابة في أوراقها، ولم يمض طويل وقت حتى حضر شاب توسمت فيه اللطف حين بدأني بالتحيّة وحمل حقيبتي، وأشارت إليّ لأحمل الحقّ وأتبعه، إلى مكتب قريب من المكان، وبعد الجلوس سألني عن اللغة التي أتحدث بها غير اللغة العربية، فأفهمته بأنني لا أحسن سواها، فسأل – مشيراً إلى ما بداخل الحقّ – لقد أدركت الآن أنني وقعت في ورطة ولكن سرعان ما فتحته وقبصت منه بأصابعي الثلاثة قبصة وضعتها في فمي وبلعتها، وتناولت مثلها، وقربتها من فم (الحيزيون) فصرفت وجهها عني، وقهقه الشّابّ حين رآني أشير بيديّ إلى أن هذا يقوي الجسم ويعيد الشباب حتى أماثله في القوة والصحة.

لقد حدثني الأستاذ خير الدين الزركلي – رحمه اللّه – عن فوائد (الزّعتر) حين رأيته يكثر استعماله حديثًا حملني على أن استغنى به عن جميع الأباريز مع الأكل، فكان أن ملأت منه هذا الحقّ الصغير منه، ونسيته داخل الحقيبة.

جرؤ الشاب على إدخال أصابعه في الحق، وأدخلت المفتّشة قلما طويلاً داخله، وبعد حديث بينهما ممزوج بضحكات قدّم لي الشاب الحقيبة مشيراً إليّ بالخروج.

أما الحقّ فقد أبقيته بيد (الشَّهْرَبَة) حين رأيتها تطيل النّظر إليه، حتى الساعة!!

ولا أدري ماذا فعل اللّه به. مع أن الشاب أشار إليّ لأعود وقتًا آخر لآخذه.

أول زيارة لي للولايات المتحدة: من الأمثال التي تدور على ألسنة الناس : (يا داخل مصر غيرك ألوف) يُضرب للأمر الذي ألفه الناس وعرفوه، وأكثروا منه . ولهذا فإن حديثي عما شاهدته أثناء زيارتي للولايات المتحدة قد يُعَدُّ من الأحاديث المكرورة التي لا جديد فيها، غير أن المرء اعتاد أن يتحدث عن بعض ما انطبع في ذهنه، أو بعض ما شاهده من الأمور التي استرعت انتباهه، وقد يكون من ذلك ما قد يُذهب عن القارئ سأم القراءة مما لا يكلفه تفكيراً، أو تعمقًا في تَفهُّمِ ما يقرأ .

كنت زرت الولايات المتحدة في شهر ربيع الأول ١٣٨٠هـ (آب، أيلول ١٩٦٠م) أي قبل تسع وثلاثين عامًا، وتجولت في أنحَائها ما يقرب من شهرين شاهدت أشهر مدنها، ولكنني لم أكتب شيئًا عن تلك الرحلة، مع أنني كنت شديد التأثر بما شاهدت في ذلك الوقت من مظاهر العمران في تلك البلاد . ولم يبق في ذاكرتي من آثار تلك الرحلة سوى لمحات قصيرة . فما زلت أذكر أنني أثناء عبور الطائرة فوق المحيط، وكان رفيق الرحلة الأستاذ حسن عبد الحي قزاز، وقد اعتدت أن أنام أثناء الطيران وهكذا كان، وإذا بالأخ الأستاذ حسن يهز الكرسي الذي كنت نائمًا فوقه، ويصرخ بي قائلاً : يأستاذ نحن فوق المحيط وأنت تغط في نومك!! قُمْ! قُمْ! ألا تخاف من سقوط الطائرة؟ فأجبته : سقوطها وأنا نائم أسهل منه وأنا يقظان فدعني أنام . وقد اجتازت الطائرة المحيط من (شنن) إلى (جلدر) في سبع ساعات تقريبًا، وكانت تدعى (الغزال) وهي من طائرات (شركة الزيت العربية الأمريكية) التي وَجَّهت الدعوة إلى عدد من الصحفيين لم يسافر منهم سوانا .

ومن الذكريات الممتعة التي أحفظها للرفيق الكريم أنه أراد أن يكرم أحد رفقاء الرحلة فقدم له نوعًا من الطيب، وضع منه قليلاً في طرف فراء ثمين كان يلبسه، فتأثر ذلك الرفيق بل غضب غضبًا أثار ضجةً أيقظتني من النوم .

---

(١) مجلة «العرب» – س١١ ص٣ – .

ومما لا أنساه عناية شركة الزيت بنا وتوفير جميع وسائل الراحة، فالإسكان كان في أحسن الفنادق والسيارات المعدة لتنقلنا من أجود الأنواع، وتوفير سبل الراحة مع إطلاعنا على كل ما نريد الإطلاع عليه كل ذلك كان مُهَيَّأً لنا.

وقد حدث أن شاهدت صبيحة يوم من الأيام التي كنا خلالها مقيمين في أحد فنادق نيويورك (ديوك هوتيل) شاهدت العلم الإسرائيلي فوق الفندق، فدعوت أحد رفاقنا في الرحلة ممن عهدت إليهم الشركة تنظيمها، وطلبت منه الاتصال بإدارة الفندق لإنزال العلم الإسرائيلي أو خروجنا منه إلى فندق آخر، فكان أن حضر أحد موظفيه مُبَرِّراً رفع العلم بأن من عادة الفندق إذا نزله وزير أن يرفع علم دولة ذلك الوزير، وأنه رُفع بالأمس العلم العراقي، لوجود وزير خارجية العراق، وقد رُفع اليوم لوجود وزيرة خارجية إسرائيل (قولدا ماير). غير أنني لم أقبل هذا الاعتذار. فانتقلنا من الفندق إلى فندق آخر، هو (ولدورف استوريا) وكان مطلاً على حديقة (سنترال بارك) وكان من عادتي أن أستيقظ مبكرًا في الصباح فأسير ماشيًا قرابة ساعة، وبينما كنت أسير في تلك الحديقة التي يبلغ طولها بضعة أكيال إذا برجل يمرُّ بي مُحَيِّيًا باللغة الإنجليزية فلم أجبه، فحياني باللغة العبرية. فقلت ظنًّا أنه لا يعرف العربية: خاطبني باللغة التي أستطيع أن أرد على تحيتك بها فحياني باللغة العربية. ولما قلت له: لماذا خاطبتني بالعبرية وأنت تعرف العربية؟ فقال: ظننتك يهوديًّا إذ من عادة بعض اليهود إرخاء اللحية، ثم عرفت منه أنه منهم ممن انتقل من مصر، وذكر لي المحلة التي كان يسكنها من القاهرة، ولما قلت له: ما رأيك بخطاب الرئيس جمال عبد الناصر الذي ألقاه في هيئة الأمم أمس؟! شتمه أسوأ شتيمة، وكشف عن نفسه بأنه صهيوني، فَلُذْتُ عنه وانصرفت.

ومما لا أنساه من ذكريات الرحلة أن إحدى السيدات الأمريكيات وتدعى (تِنْكِرِزْلِي) وقد نسيت اسمها الأول، وكانت عظيمة الثراء، ولها مزارع واسعة ودارات جميلة تتخلل تلك المزارع وعندها اسطبل كبير لتربية الخيول العربية، وكانت في ولاية (ماريلاند) الواقعة شمال مدينة واشنطن بما يقرب من مسيرة ساعتين للسيارة، ودعتنا هذه السيدة الفاضلة للغداء، أو أن الشركة هي التي رتبت تلك الدعوة، فأمضينا

سحابة ذلك اليوم في ضيافتها وشاهدنا عدداً من الخيل في اصطبلها الذي سمته (المرح AL MARAH) وكانت مغرمة بتربية الخيل العربية، وبلغ من اهتمامها بها أنها أنشأت متحَفًا يحوي كل ما يتعلق بالخيل من الأدوات كالسرج واللجام والعنان وغير ذلك، بل قد وضعت فيه بعض الجماجم والعظام لأفراس عربية ماتت فحفظت بعض آثارها، وجمعت طائفة من الكتب عربية وغيرها مما يتعلق بالخيل، وكان أن تحدثت معها عن بعض المؤلفات في هذا الموضوع فسرَّها ذلك، وأهدت إلي صورة كتاب مخطوط هو: "قطر السيل في أمر الخيل" للبلقيني الشافعي ولما ذكرت لها رحلة الليدي (آن بلنت) إلى نجد للبحث عن الخيل أخرجت تلك الرحلة قائلة: لقد تمزقت من كثرة قراءتي فيها، ولقد سافرت إلى لندن مراراً، وفي كل مرة لا يفوتني الذهاب إلى بيتها وقد توفيت، ولكنني أشاهد آثارها مما أحضرته من نجد حينما زارته. وقد كتبت السيدة (تنكرزلي) في طرة صورة الكتاب كلمة إهداء وصفتني فيها بأنني خبير بالخيول العربية، وذو معرفة بها، وأنا في الحقيقة من أجهل الناس بهذا الموضوع، وكتبت معي كتاب توصية للمشرف على منزل السيدة (آن بلنت) في لندن، ولكنني لم أزر ذلك البيت.

ولقد كان من أثر اهتمام تلك السيدة الفاضلة وعنايتها بالخيول العربية ما حفزني إلى تأليف معجم دعوته "معجم خيل العرب"(١) وكنت بعد عودتي من تلك الرحلة أبعث إليها بما أحصله من كتب تتعلق بالخيل، غير أنني لم أتلق منها منذ عدت من رحلتي في تلك السنة إلى يومنا هذا ما أعرف به شيئًا من أحوالها(٢).

ولقد أعجبت بنظام (مكتبة الكنقرس) في نيويورك، وبسرعة إحضار ما يطلبه الزائر من الكتب وغيرها من وسائل المعرفة. وكان فيها في ذلك العام على ما قيل لي ما يقرب من ثلاثة ملايين بين كتاب وشريط مصور أو مسجل، ولكنها من أفقر المكتبات بالكتب العربية، وخاصّة المخطوطة، أما أغنى مكتبة في الولايات المتحدة بها فهي مكتبة جامعة (برنستن) فقد اشترت مكتبة تبلغ آلاف المخطوطات من عربية وغيرها من مستشرق يهودي يدعى (دودا) وقد زرت تلك المكتبة، وأهدت لي الجامعة بعض

---

(١) طبع عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) عن (دار اليمامة).

(٢) ثم علمت من كتاب بعثته إليَّ بتاريخ ٥ شوال ١٤١٤هـ (١٧/٣/١٩٩٤م) أنها نقلت الاصطبل إلى (أريزونا).

مطبوعاتها، وكان من بينها الجزء الثامن من كتاب "الإكليل" للهمداني، تحقيق الدكتور نبيه أمين فارس، ورأيت فيها الدكتور صلاح الدين المنجد، يعد فهرسًا يحوي أسماء نوادر مخطوطاتها.

وفي مدينة (شيكاغو) دعانا للعشاء ثريٌّ أرمني يدعى (جورج مرديكيان)، وكان العشاء شرقيًا من المأكولات اللبنانية، كبّة ومرقوق (قرصان) وتبُّوْلة وغيرها من أنواع الأطعمة الشرقية، وكان ذلك الرجل قدم إلى الولايات المتحدة هاربًا مما كان جرى للأرمن في (تركيا) فركب إحدى البواخر وعمره يقرب من عشر سنوات، وكان لا يملك أجرة الركوب، فقبل منه أصحاب الباخرة أن يقوم بتنظيف ظهرها مقابل إركابه. ثم اشتغل ببعض الأعمال اليسيرة حتى أصبح من أعظم أثرياء الولايات المتحدة، بحيث كان يملك عدداً من محطات المرناة (التليفزيون) بل كان متعهداً لقسم كبير من الجيش الأمريكي بتوريد ما يحتاج إليه من الأغذية، وكان محبًّا للعرب، ينشر في بعض الصحف الأمريكية مقالاتٍ في الدفاع عن حقوقهم، وقد اطلعت على بعض ما كتب في مجلة « ريدرزدايجست » وقرأت مؤلفًا عنه باللغة العربية، ألفه كمال الملاخ الكاتب المصري المعروف. وقد أنشأ ذلك الثري الأرمني مدرسة ومتحفًا للأرمن في بيروت، وكان كثير المساعدات لبني قومه.

وأذكر أنني أثناء دخولنا في مطعم في مدينة (شيكاغو) وكان مُطِلاً على المدينة يشاهد منه ما حولها من البحيرات الجميلة، وأثناء الجلوس خاطبني أحد القائمين بتقديم الطعام باللغة العربية، وكان شابًا. ولما أظهرت استغرابي من معرفته تلك اللغة قال لي: أنا ورفيقي الذي تراه واقفًا هناك من بغداد واسمي أحمد العبيدي، وصاحبي محمد الصفار، ونحن ندرس في إحدى الجامعات، ولكن الطلاب العراقيين ليسوا كالطلاب السعوديين، فالإعانة التي تقدم لنا لا تفي بمتطلبات الحياة، ولهذا فنحن نعمل ساعات في الأسبوع لقاء أجْرٍ يعيننا على البقاء هنا للدراسة. ثم أردف: وهل في هذا عيب؟! فأجبته: لا والله بل هذا من الأمور المحبوبة شرعًا وعقلاً، والدراسة لا تنحصر في ما يلقي على الطلاب من المحاضرات، ولكنها تشمل الحياة العملية بكل مظاهرها.

ولما مررنا بمدينة (هيوستن) في ولاية (تكساس) طلبت من مضيفينا أن يكون الغداء في ضاحية من ضواحي المدينة، خارجها، وسررت حين وجدت في المطعم الذي تغدينا فيه شابًّا مصريًّا، بلغ السنة الثالثة في كلية الصيدلة، وأبوه وكيل الزراعة في مصر وهو من أهل حلوان، وكان ذلك الشاب يعمل في المطعم ليستعين بما يتقاضاه من أجر على طلب العلم.

كان رئيس المسلمين في الولايات المتحدة أثناء زيارتنا يدعى (جيمس خليل) وقد أقاموا لنا حفلة تكريم في ولاية (مشيجن) واجتمعنا بعالم جليل لبناني الأصل يدعى محمد جواد شري، ولما زرنا المسجد في تلك المدينة رأينا فيه ما يقرب من عشرين رجلاً، فقيل لنا: إنهم قدموا حديثًا من اليمن للبحث عن عمل، فأسكنوا في المسجد حتى تتهيأ لهم أعمال، ويقوم أهل الخير من المسلمين بمساعدتهم.

وكنت أتصور أن الحمام الذي يألف الحرم الشريف بمكة المكرمة، خاصًا بالحرم، على حدّ قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

وما أدركت أن الإلفة تنشأ عن عدم الإيذاء والتعرض، في كل مكان، حتى شاهدت الحمام أثناء زيارة البيت الأبيض في واشنطن يقع على بعض الأيدي لالتقاط الحبّ، ومثل ذلك في حديثة (لكسومبرج) في الحي اللاتيني في باريس.

ورغبت ونحن في مدينة نيويورك زيارة (حيّ جرينتش فيلج Village Greenwich) حينما قيل لي: إنه مجتمع الفنانين والشعراء وبعض المفكرين وبعض المصابين بشيء من الهوس، ولعل المشرفين على الرحلة لم يريدوا أن أطلع على كل ما سمعته عن ذلك الحي، فاختاروا الذهاب صباحًا، فذهبت مع شاب من موظفي الشركة يدعى ماجد، ولكنني لم أشاهد في ذلك الحي ما كنت أتصور مما قيل لي عنه، وأثناء العودة لمحت كتابة عربية هي جريدة «الهدى» فطلبت زيارة تلك الجريدة وقابلت صاحبتها وهي لبنانية تدعى (ماريا مكرزل) وعرفت عندها رجلاً من الشام كان صاحب وكالة أنباء نسيت اسمه، وكتبت لتلك الصحيفة كلمة إجابة لرغبة صاحبتها. وفي أثناء العودة منها إلى الفندق لمحت اسم

مطعم يدعى (مطعم مكة) ولكنه مكتوب بالحروف اللاتينية : (Mecca Restaurant) وفي المساء استغرب الرفاق عندما قلت لهم : سنتعشى في مطعم مكة، ومن بينهم من أقام في نيويورك سنوات وقالوا : هنا مطاعم لبنانية وشامية ولكن ليس من بينها ما يحمل اسم مطعم مكة، ولكن أحدهم دفع ثمن ما تناولناه من طعام في ذلك المطعم، الواقع في الدور الرابع من بيت مطل على الشارع الحادي عشر، لقاء اصراره على الإنكار. والجميل حقًّا في مدينة نيويورك وفي كثير من المدن الأمريكية سهولة الاهتداء إلى الأمكنة الواقعة بقرب الشوارع الرئيسة لامتداد تلك الشوارع، وكونها تعرف بالأرقام المتسلسلة لا بالأسماء، وخاصة في الأحياء العظيمة والضواحي، وقد تسمى الشوارع الكبيرة بأسماء بعض المشاهير القدامى، ولكن ما يتفرع منها من الشوارع تعرف بأرقام متسلسلة تبدأ من قلب المدينة وتستمر مقاطعة للشوارع الكبيرة حتى تنتهي مهما بلغ عددها.

زرنا مستشفى عظيمًا تابعًا للجيش الأمريكي تستخدم فيه الذرة في علاج بعض الأمراض، وكان يرافقنا طبيبان مصريان يشرحان لنا بعض ما نشاهد، وقبل خروج الزائر من المستشفى يقف في مكان مخصص للوقوف، وفوقه آلة كالساعة فإذا وقف وتحرك أحد عقاربها كان دليلاً على أن الزائر قد تلوث بشيء من الأشعة، وحينما وقفت صار العقرب يضطرب بسرعة، فدهش الطبيبان، واتصلا بالهاتف بإنسان جاء مسرعًا ولما نظر إليَّ طلب أن أَمُدَّ يدي اليسرى، فمددتها فأبصر فيها ساعة فيها مادَّة من النوع الذي يوضع في الساعات الليلية فتنير، من مادة (الفوسفور) ولما نزعها من يدي عاد العقرب المتحرك إلى موضعه ثابتًا.

وفي أثناء زيارتنا قام عمال الطائرات بإضراب فاضطررنا أن نقطع المسافة من شرق الولايات المتحدة الشمالي إلى جنوبها الغربي بواسطة القطار السريع، وفي رحلة استغرقت ٧٢ ساعة حتى بلغنا ولاية كاليفورنيا وأتينا إلى مدينة (بيركلي Berkeley) استجابة لدعوة موجهة من (اتحاد طلبة العرب) وقد رغبت أن يكون نزولنا في أحد البيوت المخصصة للطلبة لنعرف شيئًا عن حياتهم في مساكنهم، فأنزلت أنا ورفيقي في

غرفتين من الغرف المعدة للطلاب، وبينما كنت متمدداً فوق سرير صغير إذا بصاحبي الأستاذ القزاز يناديني بأعلى صوته، وغرفته تقابل غرفتي وبينهما ممر إلى الحمامات: (أنظر أنظر يا أستاذ!! هؤلاء الذين لا يستحون)!! فأجبته بالآية الكريمة: ﴿ (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾. والحق أن الأستاذ القزاز رفيق رحلة يملأها أنسًا وبهجة وسروراً، ولا أنسى حينما مررنا بمزرعة واسعة فرأينا فيها ثوراً ضخم الجثة تتدلى أنثياه كالدلوين الصغيرتين، والأستاذ القزاز صحفي لَمَّاحٌ، فطلب الوقوف عند هذا الثور وأمر المصور أن يصورنا بجانبه، ولم يُجْدِ التعلل بضيق الوقت وبالرغبة في السير بسرعة إلى المكان الذي كنا نقصد، وقد رأيت تلك الصورة في جريدة «البلاد» التي كان الأستاذ القزاز يسجل فيها أنباء تلك الرحلة أولاً بأول، وصورتا الصحفيين العتيدين تحيطان بصورة ذلك الثور المُتَدَلِّي الأُنثيين !!.

وفي مدينة بيركلي أقام الطلاب العرب لنا حفلة تكريم، وكان أول الخطباء أحد أساتذة الجامعة في تلك المدينة وهو الأستاذ (جورج لنشوفسكي) وبعد أن رحب بالضّيف كان فيما قال في الحديث عن الجامعات الأمريكية ما ترجمته: (وها أنتم الآن تشاهدون الجامعات في الولايات المتحدة مفتحة الأبواب لجميع الطلاب العرب، ولسنا كدول الستار الحديدي الذين لا يمكنون من دخول جامعاتهم إلا من يريدون) وكان المترجم أحد الطلاب العرب ويدعى أحمد الخطيب، وبعد إلقاء الكلمات طُلب مني أن أعقب عليها، وبعد أن شكرت الطلاب العرب على كريم دعوتهم، وعبرت عن سرورنا جميعًا بما شاهدناه من الأساتذة من عناية واهتمام بطلابنا. أردفت قائلاً: وليسمح لي الآن الأستاذ (جورج لينشوفسكي) في التعقيب على كلمته بعد إسداء الشكر الجزيل له: لقد كنت أود أن تكون الكلمة التي قالها عن قبول الجامعات للطلاب العرب بطريقة الأمتنان، كنت أود أن تكون قد صدرت من رجل سياسة لا رجل علم له أثر في توجيه أبنائنا، ذلك أن العلم هو تراث بني الإنسان جميعهم، من إغريق وفرس وهنود وعرب وعبرانيين وروم وغيرهم من بني الإنسان، ولهذا فإن من حق كل إنسان أسهمت أمته في ذلك التراث من حقه أن ينال نصيبه كاملاً غير منقوص، وأن لا يمتن

عليه أحد في ذلك، أو يعتقد بأنه تفضل عليه، إذ هو حق له يجب أن يأخذه، ولو جاز الامتنان لجاز القول بأن جامعات العرب في الأندلس وفي بغداد وفي مصر وفي الشرق، كانت مفتحة لجميع الطلاب من مختلف الأجناس حينما كان الغربيون يغطون في سباتهم العميق، ولكن العلم يجب أن يُبْذَلَ دون امتنانٍ، وأن يتمتع كل إنسان بنصيبه منه أي إنسان كان، وهذا ما ينبغي أن يعيه أبناؤنا الطلاب وأن لا يجهله أساتذتهم.

قلت هذا أو ما هو في معناه وبعد فراغي طلب الأستاذ (لنشوفسكي) التعقيب قائلاً ما معناه: كنت أظن أنني أتحدث إلى صحفيين قد لا يتعمقون بما يسمعون، ولكنني أعتذر الآن، وأقرر أن ما قاله فلان هو الحق، وأن الإنسان يجب أن ينال نصيبه من العلم وألا يَمُنَّ عليه أحد بذلك.

ثم كان ما جرى سبب تعارف بيني وبينه والأستاذ المذكور، وله مؤلفات منها ما يتعلق بنفط الشرق الأوسط مما نشر له في «اليمامة» إذ ذاك، وقد زار المملكة -على ما بلغني-.

وممن عرفته أثناء تلك الرحلة مؤلف أمريكي يدعى (جاك بتلر J. Butler) حدث التعارف بيننا ونحن في هولندا - توضح صورته - وترافقنا في الرحلة إلى نيويورك، فنزلت فيها وواصل سفره إلى (لوس أنجلس) وقد أخبرني بعنوانه هناك، وبرقم هاتفه، فلما زرت المدينة اتصلت به فدعاني إلى منزله، ولما سألني عن أحسن ما رأيت في تلك البلاد أجبته إجابة مزجت فيها الجد بالهزل فقلت: (المغاطس) التي رأيتها فيما نزلت فيه من الفنادق فقد كنت أمضي جزءاً من الوقت جوف المغطس (البانيو) متلذذاً بحرارة الماء، لأنني أحسُّ بآلام في الركب وفي القدمين (روماتيزم) فأرتاح لذلك. فقال لي: الماء الحارُّ لا يصلح لمعالجة ما ذكرت من آلام، وإنما الذي يصلح الماء البارد، ثم أمر زوجته بأن تدعو أباها بواسطة الهاتف، فجاء، وهو شيخ قوي البنية طويل القامة، فقال الأستاذ (جاك) بعد أن جلس: هذا صهري كان مصاباً بآلام المفاصل سبع سنوات، ظلّ طريح الفراش، ولم ندخر وسعاً في علاجه فلم يُشْفَ من مرضه حتى جاءنا طبيب أمرنا بأن نصب على مفاصل رجليه الماء الباردَ شيئاً فشيئاً، وسرعان ما



VISITOR OF FOURTH ESTATE IN SAUDI ARABIA is Shaikh Hamid Al Jasir, left, who arrives in Pacific Palisades tomorrow on one part of his month's tour of the United States. Editor of Al Yamameh, one of Saudi Arabia's leading newspapers, he will visit in home of Grant C. Butler, 568 Chautauqua boulevard. Butler one of the United States' top authorities on Near Eastern affairs, here is shown with the Arab newsman aboard the official Port of Amsterdum yacht in Holland.

(صورة ج. بتلر مؤلف كتاب «ملوك وجمال» وحمد الجاسر في إحدى الصحف الأمريكية

بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠م)

اندفع يحرك رجليه، ثم شفي شفاءً تامًا باستعمال الماء البارد، وهو الآن لا يستعمل سواه صيفًا ولا شتاءً فقلت: إذنْ سأجرب. وما أَشَدَّ دهشتي حين صرت أرتاح بالماء البارد، ومنذ ذلك الوقت أصبحت لا أستعمل سواه إلا حينما أريد تنظيف جسمي، وخَفَّتْ عني جميع الآلام التي كنت أشعر بها في مفاصل رجليَّ.

ولما قابلت أحد أطباء الأعصاب في مستشفى (كليفلند) في رحلتي الثانية، وكنت أشكو آلامًا في الظهر ويدعى الدكتور (ما كنزي) نصحني باستعمال الماء الحار، فأخبرته بما تقدم، فقال: الأجسام تختلف وكذا الأمراض، ولهذا لا أنْصَحُ كُلَّ مريض بالأعصاب باستعمال الماء البارد، وما دمت مرتاحًا منه فأنا لا أنهاك عن استعماله ولكنني أشير بأن تستعمل الماء الساخن في ظهرك ورقبتك وما تحس به من آلام في يديك.

سيقول بعض القراء: وما أجمل ما رأيت هناك مما أعجبك؟! والجواب أنني بعد أن أستثني المكتبات العامة وسهولةَ الاستفادة منها، واهتمامَ القائمين عليها بمراجعيها، أذكر أنَّ أبرز ما لا يزال عالقًا بذاكرتي، جمال مدينة (شيكاغو) عند طلوع الشمس حيث تكون أشعتها ساطعة على وجه مياه تلك البحيرات القريبة منها، وكان الجوُّ إذ ذاك معتدلاً لا قَرٌّ ولا حَرّ.

أما مدينة (ديزني لند) التي أمضينا فيها نهارًا كاملاً فلقد كانت في نظري إحدى عجائب الدنيا. ولن أتحدث عما شاهدته فيها:

ما أراني أقول إلا معارا أو معادا مردّدًا مكرورا

ولا شكَّ أن المرء تنطبع في مخيلته صور ما يشاهد أول مرة ثم لا تلبث أن تتغير، فقد كنت في تلك الرحلة عندما مررت بمدينة واشنطن أعجبت بجمالها ونظافة شوارعها وما يحيط بها من الحدائق، ولكنني عندما شاهدتها في رحلتي الثانية وكان الفصل شتاء وجدتها تغيرت كثيرًا عما انطبع في ذهني عنها في رحلتي، فليست شوارعها، بتلك الشوارع الجميلة الواسعة، وليست نظافتها بالقدر الذي كنت أتصوره، ورأيت فيها من الأبنية الخربة والأسواق الضيقة ما كنت لأصدق بأن مثله يوجد في هذه المدينة العظيمة. وقد يكون هذا ناشئًا عن كون المرء في أول مشاهدته لأية مدينة

تكون انطباعاته عنها قائمة على ما كان في ذهنه من تصورات، فيتأثر بها تأثراً يجعله لا يبصرها على حقيقتها أول مرة، وقد يكون لذلك سبب آخر هو أن المشرفين على الرحلة الأولى أرادوا أن يبرزوا لنا محاسن تلك البلاد فتَحَيَّنُوا من الأوقات أنسبها.

ويبالغ بعض الكتاب حينما يتحدث عن جمال المدن الغربية ونظافتها، مبالغة تتعدّى الحقيقة. أذكر أننا تغدينا في أحد المطاعم الكبيرة في مدينة (نيويورك) وكنت قد سمعت أن الذباب لا يوجد في هذه المدينة، ففوجئت بخلاف ما كنت أتوقّع، ولما قلت لأحد رفاق الرحلة: - ويدعى فخري ابو زنّاد من موظفي شركة الزيت العربية الأمريكية في ذلك العهد - كيف تبالغون في وصف نظافة هذه المدينة وها هو الذباب يتهافت على الطعام؟! فقال: وما كان مؤدّباً: لعله حضر معنا!! ولو قال: هذا نادر، والنادر لا حكم له لأصاب وسلم من العتاب! ولا أظن أحداً مَرَّ بمدينة (روما) في فصل الصيف ولم يشاهد باعة البطيخ في ساحة المحطة ورآى أسراب الذباب تكاد تغطي ما يعرضون، أما شوارع مدينة (باريس) وحدائقها العامة فإن تلويثها بأوساخ الكلاب مما يقزّز نفس كل من اعتاد التجول فيها مشياً على قدميه، وقلّ من يفعل ذلك!! إذ السائحون لم يعتادوا ذلك، ولا يرتادون إلا كل موقع جميل. وفي وسط مدينة لندن بقرب (المتحف) شاهدت فئراناً كباراً تخرج من ثقوب المجاري في الشارع العام!!

هذه لمحات مما علق بالذاكرة عن الرحلة الأولى. أما الرحلة الثانية إلى الولايات المتحدة فقد كانت للعلاج فقد أحسست بآلام في ظهري ورقبتي ويدي اليمنى، وكنت مع ذلك أعاني ثقلاً في السمع وضَعفاً في البصر، فأشار عليَّ من إشارته غُنْمٌ بالسفر إلى تلك البلاد بعد أن أكرمني -أكرمه الله بسعادة الدارين[1] - بالأمر بتهيئة ما يلزم لي في تلك الرحلة من نفقة وأجر علاج وركوب في الطائرة. فكان السفر من جدة في إحدى الطائرات السعودية في اليوم التاسع عشر من شهر محرم سنة ١٣٩٦هـ (٢٠/١/١٩٧٦م) إلى (لندن) وكانت الرحلة متّصلة ومدة الطيران ست ساعات، ومع طولها فقد كانت مريحة.

---

(١) هو الملك خالد بن عبدالعزيز - رحمه الله -.

من عادتي إذا وصلت مدينة (لندن) المبادرة لزيارة (المتحف البريطاني) للبحث عن المخطوطات فمكتبته من أغنى المكتبات بها، ولكنني كنت في هذه الرحلة في حالة عزوف عن المطالعة فمنذ آخر شهر رمضان وأنا منصرف عن القراءة والكتابة والمطالعة، ومشغول بنفسي، ولهذا كانت الأيام الخمسة التي أمضيتها في مدينة (لندن) مملة، لولا سويعات تتخللها يزورني فيها الأخ الصديق الأستاذ عبد العزيز المنصور التركي، (عمدة المعارف) كما كنت أسميه، وأعني بالمعارف أوسع مدلول لهذه الكلمة. وكان رفاق الرحلة أمُّ محمد وبناتنا الثلاث اللواتي أُلحقن بالبعثة في الولايات المتحدة.

لم تكن مدينة (لندن) في نظري أثناء هذه الرحلة بالمدينة التي تحدثت عنها حينما زرتها قبل ست عشرة سنة - ربيع الثاني ١٣٨٠هـ، تشرين أول ١٩٦٠م وفي زيارتي الثانية قبل بضع سنوات، ومعروف أن المرء كلما تقدمت به السنُّ تغيرت نظرته إلى الحياة، وأصبح لا يحس بكثير من مباهجها، وتتغير أكثر فأكثر عندما تعتريه بعض الصدمات النفسية. ولهذا فقد كانت الأيام القليلة التي أمضيتها في (لندن) طويلة حقًّا مما دعاني إلى السفر إلى باريس لكي تكون الرحلة منها إلى مدينة (هيوستن) في ولاية (تكساس) من الولايات المتحدة مقر الملحق الثقافي الذي يتولى ترتيب شؤون الطلاب.

وكان الوصول إلى باريس في اليوم الرابع والعشرين من محرم ١٣٩٦هـ (٢٥ / ١ / ١٩٧٦م) والبقاء أربعة أيام، ولا أنسى فضل أحد أبنائنا الأستاذ أبي رائد عبد اللّه الطويل الملحق الثقافي، حيث جعل بأنسه وبشره وحسن استقباله تلك الأيام تمر قصيرة (وأيام السرور قصار) وأذكر لسفيرنا الأستاذ محمد علي رضا فضله وتواضعه فقد كرم بزيارة الفندق وكتابة كلمة رقيقة يواسيني فيها، وقد كنت خرجت للاستعداد للسفر الذي كان لأبي رائد أكبر الأثر في تيسير وسائله.

ولقد كان الوصول إلى مدينة (هيوستن) مساء بعد طيران متواصل، استغرق أكثر من عشر ساعات، ولم نسلم في المطار من استغلال أحد أبناء (العم حام) الذي أخرج لنا أمتعتنا إلى سيارة الأجرة، ولا لسائق السيارة وهناك لابدّ من نفح سائق سيارة الأجرة هبة مع أجرته.

لم تكن أجور الفنادق في أوربة ولا في الولايات المتحدة مرتفعة، وخاصة المتوسطة منها، أما امتيازها بالنظافة وبحسن الترتيب عن الفنادق الأخرى فمن الأمور المعروفة. بتنا في مدينة (هيوستن) ليلة الخميس الثامنة والعشرين من شهر المحرم ١٣٩٦هـ (٢٩ / ١ / ١٩٧٦م) وما أشد دهشتنا في الصباح أثناء تناول طعام الإفطار في مطعم الفندق حين أبصرنا الأستاذ عبد العزيز المنقور يدخل المطعم للبحث عن أحد أبنائه من الطلبة، فكان اللقاء والذهاب إلى المكتب، وترتيب ما ينبغي ترتيبه لإلحاق البنيات بإحدى جامعات ولاية (أريجن) في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة، وفي اليوم الثاني مساءاً كان السفر من (هيوستن) والمرور بمدينة (دلس Dallas) بعد طيران ساعة تزيد، ثم مواصلة الرحلة منها بعد نصف ساعة إلى مدينة (بورتلاند Portland) من ولاية (أريجن) حيث كان الوصول بعد خمس ساعات ليلاً، وما أشد دهشتنا بل ما أعظم سرور البنيّات وأمهن حين شاهدن عدداً من أقاربهن عند باب الطائرة، ومن معارفهن وأخواتهن.

فلقد كانت هذه الولاية من أولى الولايات الأمريكية التي يكثر الابتعاث إلى جامعاتها من أبناء بلادنا.

في مدينة بورتلاند : تنتشر هذه المدينة في سفوح تلال مرتفعة ويخترقها نهر تمتد شوارعها الكبيرة مستطيلة من ضفته الغربية حيث توجد الجامعة على مقربة من ذلك النهر، في سفح أحد التّلال المكسوة بالأشجار، وليست هذه المدينة كبيرة فالمرء يستطيع التجول بين جميع شوارعها الستة عشر التي هي وسط المدينة في أقل من ساعة مشيًا على الأقدام، ويلحق بها كثير من الضّواحي الواسعة المتباعدة، وأبرز ما يشاهد المرء فيها كثرة الجسور فوق طرقها المتقاطعة الكثيرة، وهي على مقربة من شاطئ المحيط الهادئ، وليست كثيرة السكان، فهم لا يبلغون نصف مليون وفنادقها قليلة، بخلاف مصارفها (البنوك) وأهم ما فيها من المعالم جامعتها، وفيها عدد غير قليل من الطلاب الشرقيين.

والعرب في هذه المدينة - من لبنانيين وسوريين وفلسطينيين - كثيرون، ممن هاجروا إليها منذ زمن طويل، ولهم كلمة مسموعة ومنهم أطباء ومحامون ونوّاب.

ولهم نادٍ خاص بهم، وبلغ من نفوذهم في هذه المدينة أن أحدهم وهو لبناني مسيحي مرشح لوظيفة حاكم للولاية (ولاية أريجن) ويدعى فكتور عطية من سورية، وهو الآن رئيس الحزب الديموقراطي، ويرجح أن يفوز بذلك لكثرة مؤيديه.

وقد افتتحت فيها إذاعة عربية في يوم السبت ٦ ربيع الأول ١٣٩٦هـ (٦ آذار ١٩٧٦م) تذيع كل يوم أحد ساعة واحدة.

وأذكر أنني في أحد الأيام وكنت غالبًا أجول المدينة ماشيًا وفي إحدى جولاتي احتجت إلى الاستراحة فعرّجت إلى أقرب مقهى أستريح فيه، وبعد أن جلست وتناولت فنجانًا من القهوة رأيت معلقًا في المكان صوراً إسلامية، صورة الكعبة وأحد المساجد وكتابة بالحروف العربية ولكنها فارسية، فحاولت أن أستوضح من الرجل الذي قدم لي القهوة لماذا علقت الصور والكتابة هنا؟ وما أشد دهشتي حين عرفت أنه عربي لبناني تخرج في جامعة بورتلاند الواقعة في وسط المدينة، ثم فتح هذا المحل مطعمًا ومقهى دعاه (جنة دمشق Damascus Gurden) ويدعى شوقي الخال، وهو يدرِّس اللغة العربية في (مركز دراسات الشرق الأوسط) بتلك الجامعة التي تخرج منها بدرجة ماجستير في العلوم السياسية، وهو من قرية تدعى (عمارة الحصن) من قضاء (تل كلخ) محافظة حمص.

في زيارة المكتبة العامة : يجد المرء في كل مدينة من المدن الأوربية أو الأمريكية صحيفة تصدر في تلك المدينة أسبوعية توضح كل ما يتطلع السائح إلى زيارته، وفيها مصوَّرٌ جغرافي (خريطة) يحدد الأماكن المذكورة، ولهذا فكثير من السائحين لا يحتاجون إلى من يرشدهم ويعرفهم بما يريدون زيارته من المواضع، وكذا الحال في هذه المدينة على صغرها، ولهذا كنت أمضي وجه النهار في التجوال بين معالمها، فكان أن مررت بالمكتبة العامة واسمها (Multnomah County Library) فدخلتها فأستقبلتني فتاة عرفت أنني أهوى المطالعة، فأوصلتني إلى قسم التسجيل حيث قدم لي هذا القسم بطاقة تمكنني لا من المطالعة في المكتبة فحسب، بل من استعارة ماأريده من الكتب والخروج بها إلى المكان الذي أنزل فيه، والغربيون يفهمون حقًّا ماتقوم به المكتبات في

MULTNOMAH COUNTY LIBRARY

1910
HAMAD M AL JASSER
1414 SW 6
PORTLAND, OR 97201
22L-1611



2 1168 00007 5119

I accept responsibility for all material charged on this card.

Please report immediately if lost or stolen

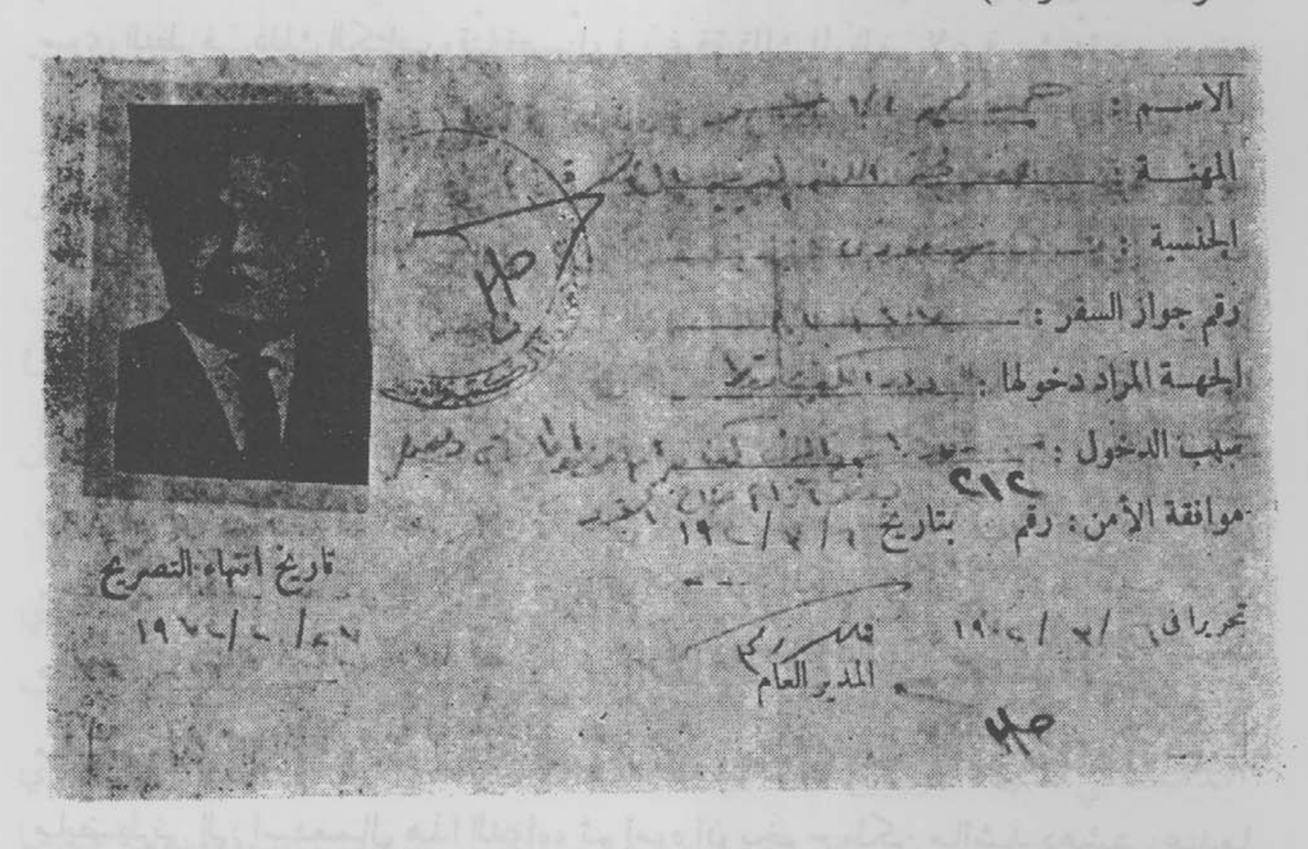
(صورة بطاقة المطالعة والاستعارة)

سبيل نشر الثقافة، ولهذا فهم يحرصون على أن يسهلوا جميع الوسائل ليكثر المستفيدون من المكتبات، أما في كثير من البلاد العربية والشرقية على وجه العموم فإن حصول المرء على بغيته من المكتبة يتوقف على مكانته، ومنزلته عند أصحاب تلك المكتبة، وأذكر أنني كنت أمضيت زمنًا طويلاً كانت (دار الكتب المصرية) هي أحب مكان إلى نفسي حينما أزور القاهرة، وقد عرفت فيها كثيراً من ذوي العلم والفضل والأدب، واستفدت من ترددي عليها ومطالعة بعض مخطوطاتها أعظم فائدة، وكنت أجد من القائمين على أمورها من وسائل التسهيل ما قلَّ أن أجد مثله في غيرها من دور الكتب، غير أن الزمان دار دورته فتغيرت الحال، فانتقل كثير ممن كنت أعرف إلى رحمة اللّه، وأحيل آخرون إلى التقاعد، وحل محل أولئك أناس لا أقول عنهم أكثر من أنهم يجهلون الغاية التي تنشأ لها المكتبات، فكان الدخول في تلك الدار يستلزم الحصول على بطاقة توقع من الأمن العام، ثم من إدارة الدار، بعد اتخاذ طرق ووسائل ليس في مستطاع كل إنسانًا اتخاذها. وليت الأمر يقف عند هذا الحد لقد عمل (مجمع اللغة العربية) في القاهرة ما ينبغي عمله لكي ييسر لي الاستفادة مما في تلك الدار من نفائس المخطوطات ونوادر الكتب فذهبت في صبيحة يوم من أيام شهر صفر ١٣٩٣هـ (آذار ١٩٧٣م) مدلاً بالبطاقة التي أحملها، - انظر صورتها في الصفحة ٧٨ - ولكنني صدمت أسوأ صدمة عندما

قدمني أحد موظفي الدار ممن كنت أعرفه إلى الموظف المشرف على قسم المخطوطات وهو شاب (درعمي) أي من خريجي دار العلوم ويدعى محمود جالي، فأبديت له رغبتي في الاطلاع على مخطوطة تتعلق بوصف منازل الحج من كتب (الخزانة التيمورية) المضافة إلى دار الكتب، فقدم لي ورقة مطبوعة (استمارة) ملأت ما فيها من استيضاحات، واكتفيت بعد ذكر المؤهلات بكلمة (عضو مجمع اللغة العربية) فلما قرأها قال لي : (الكلمة دي ما تنفعش ايه الشهادات اللي تحملها) : فقلت له : يابني لاداعي لذكر الشهادات فأنا أحد رجلين جاهل يريد الاستفادة أو عالم يريد الاستزادة، والأمران هما وظيفة هذه الدار، ولكنه قابلني بوجه عابس قائلاً : لابد من أن تكتب هنا الشهادات التي تحملها فقلت له : لا أحمل شيئًا ولكن هذا الأخ الذي عرفك بي يعرف أنني قد عرفت هذه الدار، واستفدت منها منذ ما يقرب من ثلاثين سنة، ولكن هذا الموظف المحترم كتب فوق تلك الورقة (ترفع إلى مقام سيادة المدير)، ورفض أن يقدم لي ماطلبت لكي أنظر فيه أمامه . حقًّا إن الكتب المخطوطة لايسمح بإخراجها من المكتبة، ولكنني أنا لم أطلب سوى النظر في ذلك الكتاب وقتًا قصيرًا، في غرفة ذلك الموظف لأعرف شيئًا عن نسخته وعن عدد صفحاتها فيما لو أردت تصويرها . ولقد كان موقف مدير دار الكتب معي موقفًا كريمًا فقد خرجت متأثرًا من سوء معاملة ذلك الموظف، وذهبت مسرعًا إلى مكتب مدير الدار وبعد أخذ ورد بيني وبين حاجبه (سكرتيره) دخلت عليه، وكان ذلك الحاجب قد عرف ما جرى بيني وبين ذلك الموظف فسرعان ما أدخله على المدير، ولما استقر به المجلس طفق يهذو بكلام مختلط مشيرًا إليَّ في حركات لا توصف بالوقار، وبعد برهة من الزمن التفت إليَّ المدير وقال : ماذا حدث؟ فقلت : إذا سمحت بتوجيه سؤال موجز هو : هل من اللائق أن يتولى الإشراف على زوار الدار من العلماء والباحثين مثل هذا الأخ الجالس أمامك ولاأزيد على هذا؟ فكان جواب المدير : (لا والله!) ثم أخرج من أحد أدراج منضدته حبوبًا بيضاء قائلاً : ولهذا تجدني أقاسي من هذا وأمثاله مايضطرني إلى استعمال هذا الدواء، ثم أمره أن يخرج ولكن ماأشد دهشتي عندما

زرت بعد وقت ليس بالطويل الصديق الدكتور ناصر الدين الأسد مدير (الإدارة الثقافية بالجامعة العربية) فذهب معي ليطلعني على أسماء بعض المخطوطات التي صورتها بعثة المعهد من (الخزانة الملكية في مدينة الرباط) فإذا بصاحبنا قد خرج من دار الكتب إلى معهد المخطوطات بوساطة أخينا الأستاذ صالح أبو رقيقة، ولكن صاحبنا - عفى اللّه عنه - انزوى جانبًا ولعله فعل ذلك خجلاً وأخيراً أبدى أعتذاره، وكان من خير من يساعدني حين أزور (معهد المخطوطات) .

وأعود للحديث عن المكتبة العامة في بورتلاند . لما أبديت رغبتي في مطالعة بعض الكتب العربية سارت بي إحدى الموظفات إلى مكان الكتب الشرقية غير إنني لم أجد من بينها كتاباً عربيًا أتوق إلى مطالعته، ولم أر فيها سوى كتاب واحد عن حياة المسيح عليه السلام، ولما أظهرت استغرابي عن فقر تلك المكتبة وخلوها من الكتب العربية قالت لي تلك الفتاة : يحسن أن تذهب إلى مكتبة الجامعة أو إلى (مركز الشرق الأوسط للدراسات الشرقية) فكان ذلك .


الاسم :
المهنة :
الجنسية :
رقم جواز السفر :
الجهة المراد دخولها :
سبب الدخول :
موافقة الأمن : رقم بتاريخ
تحريرا في
المدير العام
تاريخ انتهاء التصريح

في مستشفى (كليفلند) :

وكانت لفتة كريمة من الملك الطيب الذكر، خالد بن عبد العزيز – رحمه الله – حين رآني عندما عُدتُ من بيروت، أثناء حوادثه المحزنة أَنْ قال لي : أنت بحاجة إلى العلاج .

ثم أمر – رحمه الله – بتهيئة وسائل سفري إلى مستشفى (كْلِيفْلَنْد) في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) .

وكانت وزارة المعارف قد قررت إلحاق بناتي في مدارس أمريكية لإكمال دراستهن التي بدأنها في (الجامعة الأمريكية) في بيروت، فسافرت الأسرة الأب والأم والبنات، من جدة إلى لندن، فباريس، فمدينتي هْيُوسْتِنْ فَدَلَسْ فَبُورتْلاَنْد، حيث قُرِّرَ أن تكون دراسة البنات في إحدى جامعاتها .

ومن (بُورتْلاَنْد) كان سفر الأَبَوَين إلى (واشنطن) والوصول إليها مساء الجمعة ١٣ / ٢ / ١٣٩٦هـ (١٣ / ٢ / ١٩٧٦م) والنزول في فندق فخم المظهر، سَيِّئَ المخبر، قيل لنا : إنه من فنادق الدرجة الثانية، وما صدق القائل .

وفي صباح السبت كان الذهاب إلى (السفارة) فقابلت موظفة أخبرتها بأنني أحمل معي كتابًا من صاحب الجلالة، يتعلق بإدخالي مستشفى (كْلِيْفَلْنْد) فكتبت اسمي بورقة ارسلتها إلى السفير وكان الشيخ علي عبد الله رضا[١]، فبعث إليَّ شابًا يدعى محمد عالم، قال لي : يسلم عليك معالي السفير، وهو مشغول الآن، ولكنك ستجد الأمر مرتبًا حين تصل إلى (كليفلند)، فقلت : وأمر السفر إلى هناك وأمر السكن هنا للراحة؟! فذهب ثم عاد فكرر لي كلامه الأول وانصرف، ولكن شهمًا كريمًا من موظفي السفارة هو عيسى بن نويصر رأى تأثري وامتعاضي مما حدث، فدعاني إلى مكتبه، واتصل بأحد الفنادق فهيأ لي فيه سكنًا، وطمأنني بأنه سيرتب لي أمور السفر ودخول المستشفى، فأفضل وأكمل، وكان الوصول إلى (كليفلند) في يوم ١٧ / ٢ / ١٣٩٦هـ (١٧ / ٢ / ١٣٩٦م) حيث كان البقاء في ذلك المستشفى مايقرب من شهرين، والعلاج

---

(١) علي عبدالله رضا توفي في منتصف جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ (آذار) مارس ١٩٨٤م) .

لايستلزم المكث على السرير، بل يتطلب مني كثرة الحركة وخاصة المشي.

ولهذا كنت حين أسأم من البقاء في المستشفى وخاصة في أوقات الصباح، اخرج مبكراً، وكان المستشفى يقع في ضاحية تبعد عن وسط المدينة بما يقارب خمسة عشر كيلاً، وكانت المدينة واسعة، واقعة في سهول ممتدة، والمواصلات بين ضواحيها منظمة، فكنت إذا تعبت من المشي أركب إحدى الحافلات إلى وسط المدينة، حيث أزور بعض معالمها.

ثم اهتديت إلى مكتبتها العامة عن غير قصد، فوجدت سهولة في دخولها بعد أن ابرزت بطاقة المستشفى التي احملها معي لقسم الاستعلام فيها، فقدم لي بطاقة تهيئ لي فرصة التردد على المكتبة خلال شهر.

وعلمت أن المكتبة تفتح من الساعة التاسعة صباحًا حتى الساعة الخامسة كل يوم، سوى يوم الأحد، ولقد وجدت في ترددي على هذه المكتبة مادفعني إلى الاستفادة من الوقت الذي كنت أستطيله، سأماً وعدم ارتياح، فكنت أستعير بعض الصحف العربية كمجلة "العربي" وبعض الجرائد اللبنانية والمصرية، وأعيدها قبل الوقت المحدد لإعادتها، مما كان سبباً في تسهيل معاملتي.

وفي أحد الأيام سألت الموظف الذي أعتدت أن أقابله: ألا يوجد في المكتبة كتب عربية مخطوطة؟ فلم يفهم السؤال، ولكنه ذهب بي إلى الدور الثالث في المكتبة، وادخلني على رجل عرفت من سحنته أنه شرقي، فسألني ماذا أريد؟ باللغة العربية، فأخبرته، فقال: نعم لدينا كتب قليلة، واطلعني على الصوان الذي رتبت فيه بطاقات أوصافها، وقال: إنه مستعد لمساعدتي فيما أحتاج فيه إلى مساعدة لإطلاعي على ماأريد الاطلاع عليه من هذه الكتب، وأخبرني أنه مسلم وأن اسمه (رياض أحمد).

كان مما طالعت من اسماء تلك الكتب:

١ - **كتاب «من تاريخ ثغر عدن»**: وفي البطاقة: تأليف... الطيب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة، وهذه النسخة مرتب (؟) من الأصل بتقديم وتأخير في التراجم وحذف بعض التراجم المختصرة.. ورقمها في المكتبة (W, 091 - 9927. T 139T) ويقع

هذا الكتاب في (١٢٤) ورقة، جاء في الصفحة الأخيرة منه: (الورقة ١٢٤ /أ): فأرسل المجاهد جريدة من العسكر نزلوا بوالدة الطاهر إلى عدن ليطلق الشيباني بقية من الناس الذي عنده في حصن يمين (؟)، فاطلقهم، وذلك في شهر رجب سنة تسع وعشرين وسبع مئة، ولم أدري (؟) ما كان أمر حسن المذكور بعد ذلك، ولم أقف على ترجمة له مخصوصة وإنما ماذكرته هنا من ترجمة المجاهد والله سبحانه وتعالى أعلم منقول من كتاب ثغر عدن للطيب... (الورقة ١٢٤ /ب): وكان الفراغ من نساخة هذا الكتاب المسمى كتاب الثغر يوم الحد (؟) ٢٣ شهر القعدة سنة ١٢٦١ بقلم... عبد الرازق بن علي بن أحمد بن علي الحويرث...).

وهذا الناسخ عامي، والنسخة كثيرة التحريف، وكتاب "تاريخ ثغر عدن" معروف، طبع مقتطفات منه المستشرق السويدي (اسكار لوفجرين) في كتاب "تاريخ عدن" ويوجد من كتاب بامخرمة نسخة في مكتبة الاسكندرية رقمها (٣٦٣٢٠ج) وهي مخطوطة سنة ١٢٩٥، وآخر ما فيها من الحوادث تنتهي إلى سنة ٩٢٢، وفي دار الكتب المصرية مختصر منه باسم "المختار من تاريخ عدن" لبامخرمة، رقمه (٥٥١٥ تاريخ) وهي نسخة أحمد زكي باشا.

٢ - **«حكاية السندباد البحري»**: وجدت في المكتبة برقم (W 385) بعنوان "كتاب في التاريخ" ولكنني لما طالعته قرأت في طرته: (هذه حكاية السندباد البحري نقلت من العربية إلى الأفرنجية على يد الفقير إلى ربه فرنسيس المكنى بالصليبي ذي اكروس القاري، المدرس في المدرسة الملكية السلطانية باللغة العربية، عفى الله عنه سنة ١٧٠١ بمحروسة باريس). فلم أعر هذا الكتاب اهتماماً.

٣ - **كتاب «تعبير الرؤيا» لابن غنام**: رقمه (091. 9927 AB91T) مؤلف هذا الكتاب كما في هذه المخطوطة ابو طاهر ابراهيم بن يحيى بن غنام الحنبلي، وفيها ان الفراغ منه يوم الجمعة ست وعشرين ذي الحجة سنة ألف ومئة وعشرين.

٤ - **كتاب «فتوح افريقية» للواقدي**: رقمه (WI39F091. 9927.W) طالعت هذا الكتاب الذي يقع في ٢٤٤ ورقه (٤٨٨ صفحة) في الصفحة سبعة عشر سطراً والخط مغربي، ولم

يظهر لي أنه من تأليف الواقدي.

ومكتوب بورقة ملحقة : (كتاب "فتوح افريقية" فرغ من نسخه سنة ١١٨٢هـ، والمحتمل أنه نفس الكتاب في فتوح افريقية المنسوب إلى الإمام الواقدي الذي طبع في مدينة تونس سنة ١٣١٥).

وأوله : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه. قال الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ الحجة – ثم كلمات لم استطع قراءتها – الدين لطار (؟) بن مليح الأفريقي رحمه الله ورضي عنه : الحمد لله مانح النعم فضلاً من عنده) إلى أن قال : (أما بعد فنحمد الله على فضله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله، فإني قصدت في هذا المختصر الأجر والبراكة (؟) بفضل الله وحسن عونه إن شاء الله.

مما استفتحه الصحابة وأولادهم عقبة بن عامر، صاحب رسول الله ﷺ).

وهذا أهم ما برز لي من عناوينه واسماء رواة اخباره :

أوله : (قال المؤلف رحمه الله تعالى : لما سميت القيروان . . .).

وفي الورقة (٢٥ ب) : (قال : وحدثني سعيد بن ظافر قال : أخبرني أويس بن شداد . . .).

وفي الورقة (٢٩ب) : (ذكر فتوح سوسة، قال صاحب الحديث : ثم أمر الأمير عقبة عبد الله بن جعفر).

وفي الورقة (٣٨أ) : (قال : وحدثني سعيد بن عبد الرحمن قال : أخبرني شداد قال : أخبرني حنظلة الغساني وكان في عصر فتوح أفريقية وحضر ذلك (؟) الوقعة مع أهل الزايد . .).

وفي الورقة (٣٨ ب) : ذكر فتوح مدينة سيبة (؟)، قال صاحب الحديث : صم ارتحلوا (؟) المسلمون).

وفي الورقة (٣٩أ) : (قال : حدثني ظافر بن كثير قال : أخبرني أويس بن سعيد . . .).

وفي الورقة (٤٣ب) : (ذكر قدوم الحاجب وهو حاجب الملك الأكبر إلى قتال المسلمين . . .) .

وفي الورقة (٥١ب) : (ذكر قدوم ابن الملك صاحب المهدية . . .) .

وفي الورقة (٧٣) : ذكر فتوح مسبة (؟) : قال صاحب الحديث . . .) .

وفي الورقة (٧٧) : (ذكر فتوح شربنار : قال صاحب الحديث . . .) .

وفي الورقة (٨١) : (ذكر فتوح حيذرة : قال صاحب الحديث . . .) .

وفي الورقة (٨٨ب) : (ذكر فتوح قسطلة : قال صاحب الحديث . . .) .

وفي الورقة (٩٠ب) : (ذكر فتوح تست : قال صاحب الحديث . . .) .

وفي الورقة (٩٦ب) : (ذكر فتوح قسنطينة : قال صاحب الحديث . . .) .

وفي الورقة (١٠١) : (ذكر فتوح باجة : قال صاحب الحديث . . .) .

وفي الورقة (١٠٢) : (ذكر فتوح المعلقة وهي ميدنة الملك الأكبر لعنه الله) .

وفي الورقة (١٣٨ب) : (ذكر فتوح الزايب (؟) . . .) .

وفي الورقة (٢٠٦ب) : (ذكر فتوح مدينة الحمراء وهي التي ملكها سطاليش الملك الأكبر) .

وآخر الكتاب : (وهذا ما بلغنا من الأخبار من القيروان إلى آخر المغرب وصلى الله على سيدنا محمد . . . وكان الفراغ منه صبيحة يوم الإثنين ١٦ جمادى في عام اثنين وثمانين ومئة وألف) .

٥ - كتاب « تاريخ الدولة الأيوبية » : ومما طالعته من تلك المكتب كتاب عنوانه "تاريخ الدولة الأيوبية" يقع في (٢٥٥) ورقة ولكن بعد مطالعته اتضح لي أنه ليس مخصصًا لتاريخ الدولة الأيوبية، ولكنه عام في تاريخ حكام مصر، وها هو نص ماطالعته عنه مما يدل على ماذكرت - جاء في أول تلك المخطوطة - وقد يكون الكلام مضافًا إلى الأصل ليفهم منه أن الكتاب كامل وهو فيما أرى جزء من مؤلف - : (أما بعد فهذا تاريخ جليل الشأن، يتضمن اخبار ملوك العصر ورؤساء الدهر، يفيد أكثر

الناس، لمعرفة أحوال من ساس، أخباره صادقة، وكلماته بالصدق ناطقة، والمسؤول من صدقات ذوي الأدب، البالغين في البلاغة أعلى الرتب، أن يسبلوا ذيل الإغضاء، وينظروا بعين الإفادة إليه، وبالله المستعان.

ذكر سلطنة الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر، يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان الكردي، وأصلهم من أذربيجان، من جهة بلاد الكرج، وهم أكراد، كانوا في خدمة زنكي، ثم من بعده في خدمة ابنه نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وهو الذي أرسلهم إلى الديار المصرية).

وآخر الكتاب : (ذكر سلطنة الملك الظاهر أبو (؟) سعيد قانصوه، من قانصوه الأشرفي، وهو خال السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباي.

تسلطن في يوم الخميس ١٧ ربيع الأول سنة ٩٠٤ وذلك في أواخر الساعة الرابعة وهي لزحل، ولقب بالملك الظاهر، ونودي باسمه في مصر والقاهرة، وخطب باسمه في ذلك اليوم، ودقت له البشائر ثلاثة أيام، وباسوا له الأمراء الأرض، ولبس خلعة السلطنة، من الحراقة التي بالاصطبل، وطلع إلى القصر الكبير، والاتابكي أزبك حامل الغاشية الذهب على رأسه، وذلك لعدم القبة والطير في الزردخانة - الورقة: ٢٥٥ب - فلما طلع إلى القصر جلس على سرير الملك وباسوا له سائر الأمراء الأرض طائعين، ثم أخلع على الخليفة المستمسك بالله يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز، وأخلع على الأتابك أزبك أمير كبير.

وفيها في يوم الخميس سادس صفر حضر المقر السيفي جان بلاط نائب الشام، فلما حضر أخلع عليه السلطان، واستقر به أتابك العساكر المصرية، عوضاً عن الأتابكي أزبك من ططخ، فنزل من القلعة بموكب عظيم، وتوجه إلى بيت الأتابكي أزبك الذي في الأزبكية، فسكن فيه.

وفيها قبض السلطان على القاضي علاء الدين بن الطابوني ناظر الخاص، واستقر القاضي شهاب الدين بن الرملي في نظارة الخاص.

وفيها يوم الثلاثاء حادي عشر رجب، قبض السلطان على القاضي بدر الدين مزهر،

كاتب السر، واستقر بأخيه القاضي كمال الدين عوضًا عنه، واستمر أخيه (؟) القاضي بدر الدين بالترسيم سبب مال قرر عليه . وهذا آخر ماانتهى إلينا من أمر التاريخ) . انتهى .

٦ - **«مخ البعوض في علم العروض»** : ومما طالعته في هذه المكتبة، رسالة عنوانها طريف هو "مخ البعوض في علم العروض" ورقمها (W 892. 7. SA31) وتقع هذه الرسالة في عشرين ورقة، وقد جلد معها ثلاث رسائل مطبوعة في القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ.

أما الرسالة فهي مخطوطة في سنة ١٣٠٥هـ كما يتضح من آخرها .

جاء في أول تلك الرسالة : (قال العبد المفتقر إلى ربه الباري، أبو الصفا مير أحمد شاه الرضواني الفشاوري : هذه قصيرة من طويلة، وغانية جميلة نادرة، في فن العروض، كأنها مخ البعوض، مشتملة على تحقيقات الأجلة العظام، ملخصة من كتب الجهابذة الأعلام، كمفتاح السكاكي، وقسطاس الزمخشري، ونهاية الأرب للأسنوي، وعروض ابن جني، والأندلسي، والخزرجي، والبهرامي، وابن قطاع، وابن الحاجب، وابن فارس، ومعيار الطوسي، وحدائق ابن قيس، ورسائل أخرى، ومصنفات عظمى) .

وآخرها : (خاتمة : الإعنات - ويسمى لزوم ما لا يلزم - : التزام حرف الدخيل المعين، وهو فضيلة كالتزام الواو والياء في الردف مثل (كامل) و(عامل) .

النصب : سلامة القوافي من الفساد، تم الكتاب لثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٠٥هـ في اندور كاتبه مؤلفه الرضواني، ثم ختم مكتوب فيه : بير أحمد شاه الرضواني) .

كدت ... ولكن الله لطف :

أنا مصاب بضعف النظر، فإحدى عيني لا تبصر، والأخرى نظرها ضعيف لأنها مُصابة بأرتفاع الضغط الماء الأزرق (الجلوكوما) - وعند إجراء الكشف الطبي العام حين دخول المستشفى أخبرني طبيب العيون بأن ضعف بصري لا يتحمل العلاج

الجراحي (عملية) خشية فقدانه، فيما لو لم ينجح العلاج، ونصحني بالمواظبة على استعمال القطرة المخصصة لذلك (CARPINE) في أوقاتها . ويظهر أنني في أوقات انهماكي في المطالعة أَنْسَى استعمال القطرة، وفي أثناء مطالعة رسالة "مخ البعوض" وقبل إكمال كتابة وصف مخطوطات المكتبة، فوجئت وأنا منكَبٌّ على القراءة بصفرة تحول دون إبصار الورقة التي كنت أطالعها، فظننت الأمر عارضًا، ولكنه استمر بحيث صرت لا أبصر سوى النور القويّ، وكان معي أحد الإخوة الذين عرفتهم في المستشفى، فلملمت أوراقي بمساعدته وعدت إلى الفندق .

وقد لاحظت أم محمد ارتباك حالتي، وأدركت أن بصري متغير، ففي الصباح قالت : لابُدَّ من الذهاب إلى طبيب العيون وكنت أحاول إخفاء ماأصابني وأتظاهر بأن بصري لم يتغير، خوفًا من علاج لاينجع، حتى بعد أن ذهبنا إلى الطبيب، وكنت أنكر قوله بارتفاع الضغط بدرجة سيئة، ولكنه أكد بأنه بلغ الـ (٢٦) ولهذا فقد وقع مايُخْشى من وقوعه، ولابُدَّ من العلاج الجراحي (إجراء عملية) وأخيرًا أَصَرَّ على ذلك وقال : بأنَّ من غير الممكن الخروج من هذه الغرفة إلا لمكان العلاج، وكان ذلك بعد استعمال وسائل مختلفة، لمحاولة خفض ارتفاع الضغط من تقطير في العين وحقن بأدوية في العروق، وحضور عدد من الأطباء، وبلغ الأمر أنني أصبحت لاأبصر حتى النور القوي، فَصِرْتُ بحالة من التأثر أشبه ماتكون باليأس، فاستسلمت فحملت الساعة الخامسة إلى غرفة الجراحة، ولم أشعر إلا أثناء الليل والضِّمَادُ فوق عيني . وما أَشَدَّ سروري في صبيحة اليوم الرابع حينما أزال الطبيبُ ذلك الضماد، فإذا بي أتبين وجهه ووجوه من حولي .

وفي غمرة ذلك السرور، كان أول من خطر ذِكْرُهُ في ذهني المحسن الكريم الذي كان له – بعد الله سبحانه – الفضل في تهيئة جميع الوسائل التي مكنتني من الوصول إلى هذا المستشفى، ومن البقاء فيه حتى تَمَ لي الشفاء، فأبرقت إليه – لا أقول : لأشكر يَدَهُ الكريمة عليَّ، فهي فوق شكري، بل لأُعَبِّرَ عن عجزي عن ذلك، فكان أن أجابني – تغمده الله بواسع رحمته – بما صورته :

western union **Telegram**

1976 APR 10 PM 2:20

CLB116(1422)(2-147440G101)PD 04/10/76 1421
ICS IPMIIHA IISS
IISS FM RCA 10 1421
HMS CLEVELAND OH
WUD8013 ITC047 KYR704 704
URNX CO SJRI 023
RIYADH 23 10 2200
ETAT
ALSHAIKH HAMAD ALJASIR CLEVELAND
OHIO
SARRANA MA ZAKARTOM AN NAJAH ALAMALEYAH NAHMADOLLAH ALA ZALIK
WANARJO MIN ALLAH LAKOM ASHHAFA
KHALID BEN ABDULAZIZ
COL 23 NIL
NNN
SF-1201 (R5-69)
NNNN

أصبحت أكتفي بزيارة بعض من عرفت من المرضى، والمشي في حدائق المستشفى، والإقلال من المطالعة إلا عند الضرورة.

كان ممن عرفت من المرضى هزاع بن بدر الدويش من رجال البادية المعروفين، وكان على جانب من معرفة حوادث البادية وأخبارها، مُتَحَدِّثًا بارعا. لا يكاد جليسه يملُّ حديثه.

وهو من أسرة (الدوشان) شيوخ قبيلة مُطَيْر، وقد قال لي: إنْ الدوشان هم أبناء محمد الجد السابع له، فهو هزاع بن بدر بن محمد بن الْحُمَيْدِي بن فيصل بن وَطْبَان بن محمد. وفيصل بن وطبان خلف اثنين هما محمد والْحُمَيْدِي، والحميدي خلف ثلاثة: سلطان، وماجدا، ومحمدا.

فسلطان هو أبو فيصل الدَّويش المعروف، ولفيصل ابنان هما: بندر، وعبد العزيز – ولهما أبناء.

أما محمد بن الْحُمَيْدِي فابنه بدر أبو هزاع المتحدث، ومحمد أخيه.

وأما محمد بن فيصل بن وطبان فله ثلاثة أبناء شُقَيْر – جد حاكم بن تُرَيْحِيْب بن بندر بن شُقَيْر. وعُمَر، جَدّ محمد بن بندر بن وَطْبَان بن عمر ولمحمد بن فيصل ولد ثالث هو مُصْلَط.

وسألته عن ابن الْجَبْعَا، أليس من الدُّوْشان؟ فقال: بَلاَ، هو مطلق بن مطلق بن زيد ابن حشر وحَشْر هذا يتصل نسبه بمحمد الدَّويش أبي وطبان.

وكان يحدثني عن بعض الوقائع التي جرت بين القبائل، في أول القرن الماضي، ولكنني ماكنت أحرص على تسجيل مايحدثني به إلا ما يتعلق بالشعر الذي ترد فيه أسماء المواضع، ومن ذلك ماحدثني عن يوم (دُخْنَّة) قال: إنه لقبيلة مُطَيْرِ على قبيلة قحطان، وكان رئيس مُطَيْر سلطان بن الحُمَيَّدي الدويش، وفي ذلك اليوم طُعِن حزام بن خالد بن حَشْر شيخ قحطان، فَحُمِل من (دُخْنَّة) إلى (نفي) فمات هناك، فقال ابن مسعر يرثيه:

رحْنَا وخَلَّيْنا زُبونَ الْحَفَايا ... على (نفي) في قاعَةَ الْحَزْم نَزَّالْ[1]

لا واجَمَلْنَا اللِّي يِشيَل الرَّوايا ... الْيَا نَوَّخوا للشَّيْلُ وَثْنات الأَجْمَالْ[2]

لَيْته مْشا وِرْني واسُوقَ الْفدَايا ... بِمْغَفَّلاَت مايشيْلنَّ الاَثْقَالْ[3]

عِقْبه سْمَانُ وكنّهِنَّهْ معَايَا ... واللاَّشْ ما يَنْفَعْ سنامهْ، ولَوْ طَالْ[4]

وقال ناصر بن عمر بن قرملة في يوم (دخنة):

يوم على (دِخْنَةْ) علينا تَهَيَّا ... يَوْمٍ قصَا الْفرسَانْ والْمسْتحيْنِ[5]

ردّيْتْهَا لعْيُونٌ (بَجْدَا) و(هَيَّا) ... وأم الْحْوَار اللِّي تجرَّ الْحَنيْنِ[6]

أيمانـنا تِطْلِقْ مْنَ الشَّر سَيَّا ... وأيْسَارْنا تِرْخِي حْبَالَ الْجِرِيْنِ[7]

---

(١) زبون الحفايا: حامي الخيل والابل المغيرة على الأعداء، التي يصيبها الحفا من كثرة الغارات.

(٢) يشيل: يحمل. الروايا: قِرَبُ الماء الكبيرة - جمع راوية، والمقصود أنه كالجمل يحمل عن قومه الأمور الثقال. اليا: إذا. وثنات: ثقيلات. الاجمال: الجمال، جمع جمل. الشيل: الحمل. نوخوا: أناخوا.

(٣) مغفلات: الابل المعفاة من الركوب والحمل.

(٤) كنهنة: كانهن. اللاش: الذي لا نفع فيه من كلمة (لا شيء). المعايا: جمع معي وهي الهزيلة.

(٥) تهيا: وقع. المستحين: جمع مستحيى أي الخائف من وصفه بالجبن فيما لو لم يبد شجاعة.

(٦) بجدا وهيا: من أسماء النساء. أم الحوار: الناقة. أي أنني رددت فرسي للدفاع عن نسائنا وابلنا.

(٧) أيماننا: نرمي بها الأعداء بالرصاص والرماح، وهي أدوات الشر السيّء وأيدينا اليسرى نمسك بها أعنة الخيل، الجرين: العنان.

في مدينة لندن مرة أخرى(*)

كان الأولى أن يكون عنوان هذا الكلام (نَوْعٌ مِنَ الْهَذَيان، في بلاد الأمريكان) فهو كلام لاطائل تحته، غير أن كثيراً من القراء أصبحْوا لايقبلون على قراءة ما خُصِّصَتْ هذه المجلة وأمثالها لنشره، مالم يجدوا فيه مايستهويهم ويحملهم على القراءة مما يرون فيه خروجًا عما اعتادوا الاطلاع عليه، أو يتوقعون أن يجدوا شيئًا غير ذلك، وهذا ما استطاعت المجلة تقديمه لقرائها، وما على من لا يروقه هذا النوع من الكتَابَةِ إلا أنْ يُفْضِلَ – مشكوراً – بتجاوز هذه الصفحات القليلة، لعله أن يجد فيما بعدها مااعتاد أن يقرأه من بحوث حول ماعنيت "العرب" بتقديمه في خلال ثلاثة عشر عامًا.

وتعدّدت الرحلات إلى الولايات المتحدة(1)، ولكنها كغيرها من الرحلات التي أقوم بها إلى بلاد لاأعرف لغات أهلها – قليلة الجدوى، بالنسبة لمثلي. فلن يتغلغل في فهم كل ما ينبغي فهمه عمّا يشاهده من أحوال الأمم وطبائع السكان، في مختلف أنحاء المعمورة، إلا من أمتزج بجميع طبقات الناس، وعاشرهم وخالطهم أثناء أعمالهم، وعرف طرائق حياتهم، ولا يتسنّى ذلك لمن لايتقن لغاتهم.

ولهذا فإنّ ما أحاول التعبير عنه ما هو سوى انطباعات خاصّة يحسّ بها أو بمثلها كل إنسان شاهد من البلاد ماشاهدت، وكان على مستوى من عدم التعمق في إدراك مختلف أحوالها مثل ماأنا عليه.

من القاهرة إلى لندن : كانت الرحلة من القاهرة، فقد اتصلت بالخطوط السعودية فقابلت – وأنا أسأل عن الأخ الصديق عبد الرحمن المقبل مديرها – شابًّا سبق أن عرفته، فعلمت منه بأن الأخ المقبل غائب، وأظهر استعداده لمساعدتي، فأفضل وأجمل وأكمل، إنه الأخ أحمد حميد الجحدلي(2) من بلدة (تول) بقرب بلدة رابغ.

(*) "العرب" س ١٤ ص ١٦٢ –.

(١) انظر "العرب" س ١١ ص ١٨/٣.

(٢) انظر مجلة "اقرأ" ع (٢١١) ١٣٩٩/٣/٢٥ – ١٣٧٩/٢/٢٢هـ.

قدمت له تذكرة السفر وطلبت منه المساعدة في تهيئة الرحلة إلى (لندن) ومنها إلى (دلس) في ولاية (تكساس) في أميركا بأسرع وسيلة، على أن أعود إليه غداً لأعرف ميعاد السفر، فكان ذلك، ووجدت في مكتبه شابًّا عرفت منه أنه من بيت الجدّاوي، من مصر، وكنت عرفت من هذا البيت الأستاذ ياسين الجدّاوي وكيل شركة (بواخر البوسطة الخديوية) في ينبع، عرفته فيما بين سنتي ٥٣ و١٣٥٧ – أي قبل أربعين سنة – وكان من خير من عرفت من الرجال أدبًا وخلقًا، وعندما علم بعزمي على السفر إلى مصر للدراسة زودني بكتاب توصية لابنه الذي كان يدرس في ذلك العهد. وعرفت من هذا البيت –بطريق القراءة – الأستاذ حسن الجداوي المحامي – وكان من الكتاب البارزين في مصر، في منتصف هذا القرن.

علمت من الأخ الجحدلي أنه تم (الحجز) بواسطة الأخ الجداوي أحد موظفي الخطوط الجوية البريطانية إلى لندن صباح الغد (أي يوم الخميس: ١٧ / ٣ / ١٣٩٩ – ١٥ / ٢ / ١٩٧٩) وسأبيت ليلة في لندن – بطريق المرور (ترانزيت) وأن الأخ الجدّاويّ سيخبر مكتب الخطوط البريطانية في لندن ليقوم بترتيب جميع شؤونك، منذ وصولك إلى المطار حتى تغادر لندن إلى دلس في صباح يوم الجمعة الساعة الحادية عشرة.

ولما أظهرت له أنني لا أعرف إلاّ اللغة العربية، وكثيراً ما أجد مشقّة وتعبًا من جراء ذلك، وأخبرته بشيء عما حدث لي في رحلة قمت بها إلى لندن، حيث لم تصل إليّ حقيبتي إلاّ بعد أسبوع. قال: سلم حقيبتك في مطار القاهرة لمكتب الخطوط، وأخبر الموظف المختص بتسلم الحقائب بأنك لاتحتاجها إلاّ في (دلس) وهو يتولّى شأنها.

شكرت الأخ الجحدلّي، وألحت على الأخ الجدّاوي بأن لا ينسى الاتصال بمكتب الخطوط البريطانية لكي أجد من يساعدني في إتمام الرحلة، فأكّد، وبالغ في التأكيد بأنه الآن سيفعل، فاطمأننت، وزادني اطمئنانًا ما قيل لي من أن ركّاب (الدرجة الأولى) ينالون عناية خاصّة، ولعل هذه هي المرة الأولى التي أكون من بين أولئك.

بكرت في الذهاب إلى المطار، في صباح يوم الخميس، ومن عادتي التبكير، سيراً على قاعدة: (من تقدّم لم يتندّم) وعملاً بالأثر "بورك لأمّتي في بكورها".

كنت مسافراً للعلاج، فأخذت معي مبلغًا من النقود (دولارات) وفي مطار القاهرة حين قدمت من الرياض سجلتها بورقة ختمت لي عند مشاهدة حقيبتي.

وتقدمت لموظف الخطوط البريطانية – والموظف سيدة – فأفهمتها رغبتي بعدم تسلّم حقيبتي إلاَّ في (دلس) ولكنّها لم توافق على هذا وقالت: من لندن تسلّمها وتَصَّرفْ فيها كما تشاء!! وهذه أولى البوادر التي ساورتني بعدها الظنون بأن (أخانا الجداوي) – سامحه الله – ما كان واثقًا مما قال، ولا محل ثقة بما وعد، وهكذا كان!

عند الدخول إلى صالة السفر جرى تفتيش للحقائب الصغيرة بالآلة المعدة لذلك، وتلميس للأجسام باليد، وعند الخروج من هذه الصالة (فتشت الحقائب) مرة ثانية وفتح كل ماتحتوي عليه، وكان مما تحويه حقيبتي (الدولارات) التي كانت معي حين قدمت من الرياض، في داخل ظرف مع أوراق من بينها الورقة التي ختمت لي في مطار القاهرة، فلما فتح المفتش الظرف وأبصر النقود أخرجها بسرعة، وأشار إليَّ بأن أخرج من صفِّ المتجهين للطائرة جانبًا، ووقف بجانبي وترك لصاحبه الاستمرار في تفتيش حقائب الخارجين إلى المطار. ورأيت من تصرفه ماحملني على أن أظهر له تذمّري واستغرابي من عمله، وكان يقابلني بابتسام الماكر المستخفّ والنقود معه، فأبرزت له الورقة المختومة، فلما قرأها قال: (إزّاي ماسلمتها للجمرك عند الخروج)؟ فقلت: لم تطلب مني، ولو سلمتها ماذا سيكون موقفي معك؟! فالتفت صاحبه موجهًا الكلام إليّ – بعد أن تهامسا بكلام لم أسمعه: (ماعليش ياسمو الأمير حنسيبك تخرج بها)!! فأجبته بانفعال: لست أميرًا، ولاحقّ لكم بأن تتصرفوا معي هذا التصرف. فمدّ إليَّ النقود قائلاً: خذ عدّها! فأدخلتها الحقيبة واتجهت إلى باب الخروج، لاأكاد أبصر طريقي من شدة الانفعال من سوء معاملة هذين المفتشين.

كان إقلاع الطائرة من مطار القاهرة الساعة الأولى ظهر يوم الخميس (١٧ / ٣ / ١٣٩٩هـ) وكان الجلوس على كرسي بجوار رجل ضخم الجثة، قد ملأ

كرسيّه، وفاضت أطراف من فضول جسمه ومن لباسه منه، ويظهر أنّ صغر كرسيّه بالنسبة لضخامة جسمه دفعه إلى إمالة جلسته، بإدارة وجهه لجاره - وهذا ليس غريبًا ولامهمًّا - لقد كان الرجل شديد العطاس، كثير السّعال، وكان لايخمّر وجهه ولاينحرف عندما يفعل ذلك، وكنت حديث عهد بالإبلال من مرض أصابني من جرّاء برد أصبت به فيما يسمى (المحجر الصحي في مطار القاهرة) فخشيت أن يعاودني، فما كان مني إلاّ أن أنحرفت في جلستي في الكرسي وولّيت ظهري وجه جاري، مما دفع المضيفة إلى أن تبدي استغرابها بكلام لم أفهمه، فنطقت بكلمة (انفلونزا) ومثلت بصوتي العطاس والسعال بشدة، مشيراً إلى جاري، فانفتلت وما أسرع ما عادت بكوب فيه ماء وبحبّتي دواء. وقدمت ذلك لي. فأشرت إليها لتقدمه لجاري فأنا لاأحتاج إليه. ففعلت، ولكنه قابلها باستغراب، وبوجه مكفهر، فصارت تشير إليّ، فما كان مني إلاّ أن تناولت مافي يدها و(بلعته) من قبيل: (الوقاية خير من العلاج) أو على حدّ قول النابغة الذبيانّي:

وحمّلتني ذنب امرئ وتركته ... كذي العرّ، يكوي غيره وهو راتع

وكان الوصول إلى مطار (لندن) في الساعة الخامسة بتوقيب القاهرة (الثالثة بتوقيت لندن) وكان الجوّ بارداً، وكان الثلج قد غطّى الأرض، ولا يزال يتساقط غزيراً. وكان أحد الإخوة من المصريين الذين في الطائرة قد أعدّ لي بطاقة الجواز، وكانت المعاملة في هذا المطارُ أسهل معاملة وأسرعها في أي مطار مررت به.

حملت حقيبتي فوق عربة، متّجهاً إلى باب الخروج من المطار، مارًّا بجمع من الناس واقفين يستعرضون القادمين، وكثير منهم قد حملوا أوراقًا رفعوها فوق عصيّ طويلة تحوي عناوين وأسماء عربية وغير عربية، وكنت أتوقع أن أجد أحداً من موظفي الخطوط - على ماذكر لي مندوبها في القاهرة - فلم أر اسمي بين ماقرأت، ولم أسمع به عند سماعي أسماء كثيرة، ولهذا فعليّ أن أتصرف في أموري على هدي قول الشاعر:

وإنّما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدّنيا على رجل

كان عليّ أن أؤكد الحجز للسفر غداً، وهذا يستلزم الاتصال الآن بالخطوط البريطانية، التي كان الحجز بواسطة مكتبها في القاهرة، وكنت أحسست عندما قربت من باب المطار الخارجي بشدّة البرد، فانتحيت جانبًا، وفتحت حقيبتي وأخرجت منها ملابس (ركمتها) فوق جسمي حتى أحسست بالدّفء.

اهتديت إلى مكتب الخطوط، فوجدت الأخ المصريّ الذي رأيته في الطائرة واقفًا، فرجوته أن يخبر الموظف بأنني سأسافر غداً، وأن على هذه الخطوط أن تهيّئ لي الوسائل لذلك، فما كان من هذا الأخ إلا أن صار يوجه إليّ عبارات التأنيب: إزّاي تسافر وأنت ماتعرف انجليزي؟! أنت حتضيع!! أصل دول مايعرفوش المساعدة والإحسان زينا!! مما دفعني إلى أن أقاطعه: اسكت! اسكت! لاحاجة إليك! وقدمت تذكرة السفر لذلك الموظف مشيراً إلى موعد السفر غداً ومعبّرًا بجملة (آي ترانزيت) فأشار لي بالتّريّث، وسمعته وهو يتحدث أمام آلة بين يديه، ويملي حروف اسمي. ثم دعا فتاة كانت جالسة على مقربة منه، وقدم لها تذكرة السفر، فأتت تعدو نحوي، وكانت خفيفة الحركة، ويظهر أنها خفيفة العقل أيضًا، فهي عندما تبصر هذا الإنسان الذي أبرزته الملابس التي ركمها فوق جسمه أشبه شيء بالكرة التي ليست كاملة التكوير، عندما تبصره تستغرق في القهقهة بدون حياء أو خجل، والمنظر حقًّا قد يكون من بواعث الاستغراب، ولكن لا إلى حدّ السخرية.

أخذت الحقيبة الصغيرة من فوق العربة، وأومأت لي بأن أتبعها بعربتي. فما كدت ألحق بها إلا وقد وقفت في أعلى سلّم متحرك، أسرعت في قفزه حتى كادت تختفي عني، وأنا لم أبدأ بصعوده، فعادت، فأشرت لها بأنني لا أحسن القفز فوقه ومعي العربة التي أحمل فيها الحقيبة، فأخذتها وسارت متأنية فوق الدرج الثابت، وانتظرتني عند أعلاه حتى وصلت، فلما خرجت من الباب إذا الثلج ينهمر بغزارة فوق رأسي، فتناولت منها الحقيبة الصغيرة واتقيت بها الثلج، بعد أن أخرجت منها لفافة أدرتها حول عنقي

إلى أذني حتى لم يبد من وجهي سوى جزء يسير، فحملقت في بعينين سوداوين صغيرتين جداً، شديدتي الحركة ينطبق عليها الوصف : (كحبّات مسك ركبت فوق زئبق) وأطلقتها قهقهة لا أعراف لها سبباً، وصارت تنفض غدائر شعرها بحركة رأسها فيتساقط الثلج على وجهها ورقبتها والمكشوف من صدرها.

لم نسر كثيراً في العراء في المطر، بل انحرفنا ذات اليسار بعد الخروج من أحد أبواب المطار إلى مكتب متّصل به، ففتحت الباب وأشارت إليّ بالدخول، ووقفت أمام سيدة جالسة في ذلك المكتب، وقدمت لها ورقة كتبها صاحبها الذي أرسلها معي – أو أرسلني معها – ثم أشارت إليّ والقهقهة تدوي خلفها وقد خرجت مع الباب مسرعة وكنت فكرت في مكافأتها على حملها حقيبتي، وعلى مساعدتي، ولكن سرعتها حالت دون ذلك.

علمت بأنني سأنتقل من هذا المطار مطار (هيثرو Heathrow) إلى مطار (جت ويك Gat wick) بواسطة طائرة صغيرة، وسيكون المبيت في فندق قرب المطار الأخير، الذي سيكون منه السفر صباحاً الساعة الحادية عشر، وحدد الوقت الساعة ١٩,٠٠، أي بعد ساعة من حضوري إلى هذا المكتب. ثم أُدخلت إلى صالة السفر بعد التفتيش، جسماً وحقيبة. أما الحقيبة الكبيرة فقد أخذت مني، وأعطيت تذكرة الرحلة، وقسيمة بطاقة ألصقت بها وعلمت أنها ستسلّم لي بعد الوصول إلى (دلس).

بقيت وحدي داخل الصالة، أشاهد على مدخلها رجلاً منهمكاً في مطالعة صحيفة، وهو الذي تولّي تحسّس جسمي عند الدخول، وبجواره امرأة بين يديها خيوط من صوف مشغولة بنسجها، وهي التي قامت بتفتيش حقيبتي، ويظهر أنّهما زوجان، لأن الأحاديث بينهما فاترة، وقليلةٌ ولأنّ أحدهما عندما يتناول من آلة على مقربة منهما شيئاً من الأكل أو الشراب لايشرك الثاني، بل ولا يعرض عليه.

وكانت فتاة يظهر من سحنتها أنها شرقية، كثيرة التّردّد بين الصالة وبين غرف المكتب، وتتولّى تنظيفها، فأبصرتني أسعل من جرّاء ماأصابني من لفح الهواء وإصابة

الثلج حين خرجت من المطار، فما شعرت إلا وقد أحضرت لي كوبًا من الشاهي وحبة (اسبرين) فشكرتها، ومددت لها ورقة من النقود فرفضت أخذها.

انتهى الوقت المحدّد للرحلة في التذكرة التي قدمت لي، ولم يبد لي مايدلّ على قربها، فأحسست بكثير من السّأم لجلوسي وحدي في هذا المكان. لا أعرف من مستقبل أمري شيئًا، فاتجهت نحو الباب الذي دخلت منه، فما كان من المفتشين الجالسين بقربه إلاّ أن أشاروا إليّ بالرجوع، ولكنني لم أُطِقْ صبرًا على طول البقاء فتحيّنت انشغالهما بالتكلم بالهاتف، ولكن عند خروجي من الباب انبعث منه رنّات متوالية، فلحقت بي السيدة، وأمسكت بالحقيبة التي بيدي فتركتها معها، ودلفت إلى المرأة التي قدمت لي تذكرة السفر، ولكنها حين أبصرتني أشارت إليّ لكي أعود إلى مكاني، فلما أردت الرجوع من الباب الذي خرجت منه قام الرّجل فأعاد تحسّس جسمي كله، كالمرّة الأولى، ثم بعد نحو نصف ساعة أعدت الكرّة، فخرجت بعد أن وضعت الحقيبة فوق منضدة داخل الباب، والمرأة المفتشة تبصرها، غير أنني لم أجد صاحبة المكتب في مكانها، بل لم أر حولي سوى المفتشين اللذين تبدو حركاتهما وكأنهما يتأهّبان لمغادرة المكان، فتقدمت إلى الرجل بعد أن وضعت أصبعي على الأرقام التي تحدّد زمن الرحلة في بطاقة السفر، فنظر إليّ ماطًّا شفتيه، مشيرًا بيده بأن أعود إلى مكاني، فكان ذلك حتى بلغت الساعة الحادية عشرة - أي بقيت نحو ست ساعات - فما شعرت إلاّ برجل يتناول حقيبتي وقد كاد النعاس يغلبني بعد أن أخلدت إلى الراحة وأحسست بالدّفء، وكان المكان دافئًا فلما أمسكها تركها، وأمسك بيدي لكي أتبعه إلى خارج المكان، مع الباب الذي دخلت منه، وليس إلى داخل المطار، فأظهرت بعض التّردّد، ولكنّ المفتشين أشارا إليّ لكي أسير معه، فلما مررت بالمكتب أبصرت حقيبتي مطروحة، ثم لما خرجت منه فتح لي الرجل باب سيارة كانت عند الباب، لكي أركب معه، فذكرت تلك الحقيبة المتروكة في المكتب، وعدت لإحضارها، فلحق بي، فلما رآني أحاول حملها، وجّه إليّ كلامًا توهمته استيضاحًا منه

هل هي لي؟ فأبرزت له قسيمة البطاقة التي فوقها، فحملها إلى السيارة التي تولى قيادتها، متجهًا إلى مدينة لندن، لايحدّ من شدة سرعته سوى تراكم الثلج، وازدحام سير السيارات في الطريق من جراء ذلك.

وعند (محطة فكتوريا) بعد أن صعد بي إلى مكتب في الدور الأول، تحادث مع فتاة كانت هناك، ومضى، فأخذتني إلى القطار بعد أن دفعت لها ثمن بطاقة الركوب ولم تدعني إلاّ بعد أن استقرّ بي الجلوس، ووضعت حقيبتي بجواري، وكانت نزلت بها معي من مكتب بطاقات الركوب في الدور الأول، إلى موقف القطار، وكان من أصعب الأمور عليّ السّير مع السلالم المتحركة. وقد فهمت منها أنني ذاهب إلى مطار (جت ويك Gat wick) حيث تتم اجراءات السفر هناك.

لم أجد في مكاتب شركة الطيران البريطانية أحداً – مع كثرة موظفيها – فالساعة الآن قد قاربت الواحدة من صباح يوم الجمعة، فحملت حقيبتي على عربة صرت أتنقل بها بين مكاتب الطيران، وأعرض تذكرة السفر حتى اهتديت إلى مكتب (برانف Braniff) وهي الخطوط التي تمّ لي الحجز – في القاهرة – للسفر إلى لندن إلى دلس بطريقها، وبعد تأكيد الحجز أخذت إلى فندق يقع بقرب المطار، لايبعد عنه أكثر من نصف ميل، ويدعى (The Post Hous Hotel) وكان فيه المبيت، ولكنها كانت ليلة (نابغية) : سهر وتعب، وبرد، وجوع، فقد فات وقت العشاء، فاكتفيت بقطعة من الخبز مع قليل من الجبن، ولم يكلفني هذا بأكثر من أربعة دولارات!

لقد حدد موعد اقلاع الطائرة من مطار لندن الدقيقة الـ ٤٥ بعد الساعة الحادية عشرة صباحًا، ومن الفندق سيارة (حافلة) لنقل المسافرين بصفة مستمرة كل نصف ساعة.

لم أنس – في الصباح وقد آلمني البرد أثناء سيري خارج المطار – محاولة تدفئة جسمي بكثرة الملابس، حقًّا إن الأطباء ينهون عن تكديسها فوق البدن، ويرون من مراعاة وسائل الصحة الاقلال منها ما أمكن ذلك، غير أن هذا يختلف باختلاف الأجسام، وباختلاف الأعمار أيضًا، إذ الفتى يتحمل جسمه من البرد ما لا يتحمله

الكهل، بل ما لا طاقة للشيخ بالقليل منه، وكنت قبل بضع سنوات لاأستحم صباحًا - صيفًا أو شتاء - إلا بالماء البارد، في أيّ بلاد كنت، وكنت أذكر أنني أسير في أحد شوارع مدينة (الاسكوريال) صباح يوم شديد البرد، والثلج ينهمر غزيرًا على رأسي ووجهي، وأنا أقطع المسافة من محطة القطار إلى (المكتبة) سيرًا، فأشعر به حارًا حين يصيب ما برز من جسمي، وعندما أدخل المكتبة، وأخلع المعطف أحسّ بالحرارة تنبعث من جسمي.

بحثت في الصباح في المحل الذي تباع فيه الأشياء داخل الفندق عن غطاء للرأس، فعرضت عليّ البائعة قبعة لم أرتح للبسها، ورأيت نوعًا من الصوف مما يلبس فوق الرأس، وقد يستر الرقبة وأكثر الوجه، له (ربذة) كبيرة في أعلاه (كثلة) أشبه بما كان معروفًا قبل خمسين سنة في نجد باسم (التّوبي) فاستوضحت من البائعة - بالاشارة - هل هو صالح لي؟! فما كان منها إلا أن اختارت واحدًا من ذلك النوع، وألبستني اياه، وصارت تردد كلمات الاستحسان، فنقدتها الثمن، وتركته فوق رأسي.

كنت جالسًا - بعد أن تهيّأت للذهاب إلى المطار - بين عدد من المسافرين، وبجواري سيدة كبيرة السّن، وكانت تكثر النظر إليّ مما أثار في نفسي الاستغراب، فصوّبت نظري إليها. فإذا هي تشير إلى رأسي وتتحدث بكلمات لم أفهم منها إلا كلمة (بيبي) فتوهّمت أنها تقول: هذا اللباس خاصّ للأطفال الصغار، فحاولت أن أستر جهلي فقلت: (آي أولد بيبي - يو أولد بيبي) فاكفهرّ وجهها وقهقه رجل كان جالسًا بجانبها، ولا أردي هل أخطأت في التعبير عما قصدت وهو: أنا طفل كبير السن، وأنت طفلة كبيرة السن. وعلى كل حال فقد عرفت بأن هذا اللباس لايصلح لمثلي، وانما يصلح للصغار، ولكنّي خدعت به، ومع ذلك فقد أدفأ رأسي، وسيستر صلعته التي ستتعرض بعد قليل للفح الهواء ولتساقط الثلج فوقها.

والواقع أنني عندما أبصرت صورتي في المرآة لم أتمالك من الضحك فقد بدت أشبه ماتكون بصورة (أبي نواس) التي تعرض في الإعلان عن نوع من الشاهي في مصر.

وقد ذكرت بهذه المناسبة ماوقع لي في شهر جمادى الأولى ١٣٨٠ (تشرين ثاني ١٩٦٠) وكنت في مدينة (روما) خارجًا من مكتبة (الفاتيكان) الساعة الثانية عشرة صباحًا، فرأيت بين أنواع الفاكهة والخضر في أحد الدكاكين نوعًا أصفر اللون، مستديرًا[١]، أشبه مايكون بالطماطم (البندورة) إلاَّ أن لونه أصفر، فأعجبني منظره، فاخترت منه حبّة كبيرة أخذتها معي إلى النزل الذي كنت ساكنًا فيه ويدعى (رجّي بنسيون) ولما حان وقت الغداء، حضرت إلى المطعم ومعي مااشتريت ظنًّا أنّها من نوع الطماطم، فطلبت من النّدل غسلها واحضارها، وكان قد أحضر لي الغداء، فأخذت السكين ولما أخذت في تقطيعها فوق طبق (المكرونة) اتجهت أنظار القريبين مني إليّ، وأتى إليَّ النّدل (الجرسون) مسرعًا ليقول لي : إن هذا نوع من الفاكهة، غير أنني حاولت أن أستر جهلي، فصرت أزدرد ما في الطّبق، فأجده حلوا أشبه بطعم المهلبيّة، وأنا أكرر للندل كلمات الاستحسان، فانقلب استغرابه خجلاً مني واعتذارًا، وظن هو وغيره ممن حولي أن من الناس من يستعمل هذا النوع من الطعام ويستلذه، ومن يدري فقد يكون من هو بهذه الصفة؟!.

من لندن إلى مطار دلس

وفي المطار – وقد حضرت إليه مبكرًا – أخذت إلى مطعم في أعلاه وحدي، ثم تقاطر المسافرون حتى أوشك المكان على سعته أن يمتلئ، وقد أزف الوقت ولم أشاهد أية حركة تدل على التأهب للسفر، فسألت رجلاً قريبًا مني : هل أنت مسافر إلى دلس؟! ومتى الوقت؟ فأفهمني أنّ الموعد تأخر إلى الساعة الثانية والنصف، وأنه مسافر في الطائرة التي سأسافر فيها.

ظاهرة قد تُعَدُّ في بلادنا غريبة وهي أنني لم أر بين ما يقرب من عشرين انسانًا من ليس في يده كتاب أو صحيفة. أما المتحدثون – على قلّتهم – فلا يكاد يسمع لهم صوت، وإنما يتهامسون، أو يخفضون أصواتهم.

---

(١) هو ما يعرف باسم (كاكي) في لبنان وهو نوع من الفاكهة.

تناولت حبتين من نوع (الأسبرين) بعد كوب من الشاهي فغلبني النعاس، ولم أستيقظ إلاّ بمن يمسك بيدي، وإذا إحدى الفتيات تأمرني بالقيام، وتسير بي نحو باب الخروج إلى الطائرة، والظّاهر أنها أوصت بي المضيفة التي أجلستني فوق أقرب كرسي إلى الباب، حيث مكرّ الهواء البارد، ولما حاولت تغيير المكان أفهمتني بأنه المقعد المخصص لي، ووضعت غطاء سميكًا على رجليّ وآخر فوق رأسي.

وفي الساعة الثالثة كانت الطائرة تحلّق في الجوّ، فوق البحر (المحيط الهادي). وكانت المضيفة (فتنامية) كثيرة العناية بي، وكثيراً ماتعرض عليّ أنواعًا من الفاكهة، والشاهي، حتى أظهرت لها أنني بحاجة إلى الاسترخاء في الكرسي، فأصلحته، فغطيت وجهي وأغفيت، ولكنني لم أشعر بعد زمن قصير إلا بالكرسيّ قد أعيد إلى وضعه، وبيدي المضيفة وقد ربطت جسمي على المقعد. فنظرت في الساعة فإذا هي الخامسة والنصف، أي لم يمض على مغادرة الطائرة مطار لندن سوى ثلاث ساعات، وقد قيل لنا: إن الرحلة تستغرق عشر ساعات، فماذا حدث؟!

لقد جلست المضيفة فوق مقعدها - بجواري - وربطت الحزام، فلما استوضحت منها - بالإشارة - ماذا حدث؟! لم أفهم سوى كلمة (ايربرت لندن) فأخذت ورقة ورسمت فيها خطًّا مستقيمًا متجهًا إلى كلمة (دلس) ممتدًّا من لندن، ولكنها رسمت الاتجاه منعكسًا إلى لندن، فلما بالغت في الاستيضاح فتحت فاها ووضعت سبّابتيها تحت جفنيها، ومطّت الجفنين، إلى الخدّين، وأتبعت ذلك بقهقهة باردة، ولم تزد. ذكّرتني بفعلها طريقة تخويف الأطفال عندنا. ونسمّيها (السُّعْلُوَّة) ونقول: فلانة تسعلو عليّ، إذا دلعت لسانها وفتحت عينيها بأصبعيها، تشبّها بالسّعلاة، الحيوان الخرافي عند قدماء العرب.

لم يتأثر كثير من المسافرين وهم يسمعون نبأ الرجوع إلى لندن، بل ازداد صخبهم وضحكهم، ولعل هذا راجع إلى أن كثيراً منهم قد غلبه الشراب، أو أنهم يدركون أن لافائدة من التأثر فـ (المقدّر كائن، والهمّ زيادة)!!

بلغنا مطار لندن – سالمين – الساعة الثامنة، وكان في الطائرة خلل أصلح، والمسافرون في مكان الانتظار، على مقربة منها، قدّمت لهم أكواب الشاهي والقهوة وأقراص من (البسكوت) محلّ وجبة الغداء. وكان يجلس بجواري رجل رآني لم أذهب للمزاحمة للحصول على ماقدم للمسافرين، بعد أن عاد بنصيبه، فقدمه لي، فشكرته، وأظهرت عدم حاجتي إليه، ولكنه ذهب وأتى لي بمثل مامعه، ووضعه فوق المنضدة أمامي.

ووقفة قصيرة عند ذكر هذا الرجل الذي ظلّ خلال الرحلة، بل حتى بعد وصولي إلى مطار دلس – يوليني كثيراً من عنايته، لاشكّ أن الإنسان مدنيٌّ بطبعه، ميّال لتقوية أواصر الألفة بأبناء جنسه، والمترافقون في أمر ما، كثيراً مايؤلفون بينهم مجتمعًا صغيراً. ويظهر أنّ الغربيين لايقلّون عن الشرقيين في ذلك إن لم يفوقوهم، فإذا أنا قارنت حالة هذا الرجل معي بحالة الأخ الذي رغبت منه أن يترجم لموظف مكتب الخطوط في مطار لندن تبيّن الفرق.

ثم إن المرء لا يلاحظ لدى من يحتكّ به من الغربيين شدّة التّطلّع والشّره في الحصول على مكافأة على عمل ما، كما يلاحظ ذلك لدى الشرقيين، فأنت في أحد مطارات البلاد العربية لايقف الأمر عند مضايقة الحمالين وإلحاحهم عليك لكي تزيد لهم ماقدمته من أجرة هي – في الغالب – ضعف مايستحقون، بل قد يتطلّع إلى أن تمدّ يدك له وهو لم يساعدك في أيّ أمر من أمورك، سوى أن تركك تدخل إلى مكتب الطيران بعد أن تحقق من كونك من المسافرين، وقد يصارحك بحقّ (القهوة) وأذكر أنني كنت مسافراً إلى بيروت، فأنهيت كل وسائل السفر، واتجهت إلى موظف الجوازات ومنه أخرج إلى (صالة السفر) وكنت قد سلمت حقيبتي، وأخذت قسيمة بطاقتها. وأردت فتحها لموظف (الجمرك) ولكنّه أظهر لي أنني (ذو مقام) جدير بالاحترام، ولم يتركني أفتحها. ولكنني فوجئت وأنا واقف أكتب بطاقة الجواز بحمال يقول لي : (أهي شنطتك ياشيخ العرب حاوصلها للطائرة)!! مظهراً تطلّعه

لكي أدفع له شيئًا. غير أنني خفت أن تذهب الحقيبة وما سأدفع، فرجعت منفعلاً إلى مكتب خطوط الشرق الأوسط، وأظهرت للموظفة التي تسلمت مني الحقيبة استغرابي من هذا التصرف. ومرّة أخرى على هذه الخطوط وأنا مسافر إلى بيروت، كانت معي لفافة (كرتون) يحوي كتبًا بالإضافة إلى حقيبة ملابسي التي لاتحوي إلاّ ما لا يُؤْبَهُ بِهِ، ولايطمع فيه. وعند المرور بـ(الجمرك) همس في أذني أحد الحمالين: (حاجة للمفتش)!! فقلت: ليفتش فلن يجد شيئًا ذا بال. وفتحت له اللفافة. أما الحقيبة فأشار إلى عدم فتحها، ولكنها لم تصل إلى مطار بيروت إلاّ في اليوم الثاني.

وثالثة عندما أردت الدخول إلى مكتب الخطوط السعودية للسفر إلى الرياض من القاهرة أبرزت الجواز وتذكرة السفر لرجل عسكري يتولى إدخال المسافرين، فهمس في أذني، فرددت عليه: ينبغي أن تحترم هذا الزيّ الذي تتزيّا، فما كان منه إلاّ أن أمسك جوازي بيده، وانصرف عني وصار يوالي ادخال المسافرين، وأنا يدفعني كل ما تقدمت للدخول، حتى كادت الرحلة تفوتني، لولا أنني رأيت أحد موظفي الخطوط فدعوته وأخبرته بما فعل الرجل، فأخذ الجواز منه بسرعة وجرّني للدخول! ولو حدثت بهذا لم أصدق!!

أصلح خلل الطائرة وعدنا إليها، وبعد استمرار الطيران قدّم الطعام – في الساعة العاشرة بتوقيت لندن من ليلة السبت – وهو طعام الوجبة الثانية بعد طعام الإفطار في فندق المطار، وكان بارداً أو غير شهيّ، فاكتفيت بالفاكهة والخبز، ثم تدثّرت واسترخيت في الكرسي، فاستغرقت في النوم، ولم أستيقظ إلاّ بركلة رجل أحد المارّة بدون قصد تصيب قدمي، فلما نظرت من نافذة الطائرة إذا بي أبصر أنواراً علمت من المضيفة أنها أنوار مدينة (نيويورك) أي أننا قد تجاوزنا (المحيط الهادي) وبلغنا قارة أمريكا الشمالية.

تولّت المضيفة (الفيتنامية) ملء بطاقتي الجوازات و(الجمرك) فأنا لا أحسن الكتابة الإنجليزية وبطاقة الجمرك قدمت لي لأول مرّة. وأثناء استيضاحها وهي تملأ فراغ هذه

البطاقة جرى على لسانها كلمة (فروت) فظننتها تستوضح منّي هل أنا بحاجة إلى فاكهة، فأجبت بالإيجاب. فأسرعة فتاة أخرى كانت تسمع كلامها فأحضرت حبتي تفاح وبرتقال، فتناولتهما. وشرعت في أكل التفاحة، واستغربت تقديمهما بغير طبق. فاستغرقت الفتاتان في الضحك، وأحضرت إحداهما طبقًا وسكينًا، ثم أخرجت التي تتولى الكتابة حقيبتي الصغيرة من تحت الكرسي الذي أجلس فوقه، وأشارت إلى داخلها فعلمت أنها تسأل: هل في حقيبتي فاكهة؟ ففهمت منها أن الفاكهة مما لايسمح للمسافر إدخاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية!! ومن ذا الذي يتصور أنّ مسافراً يقدم من شرق الكرة الأرضية إلى غربها حاملاً معه قليلاً من الفاكهة داخل حقيبته؟

بعد عشر ساعات كاملة هبطنا مطار دلس، وكنت قد تحادثت مع الرجل الذي ذكرته في الحديث عند عودة الطائرة إلى لندن، بل تفاهمت معه، فأنا لاأحسن الحديث، فعرف أنني عند الوصول إلى المطار سأتّصل بالهاتف – وأريته رقمه – ببناتي وهنّ يدرسن في (جامعة آرلنجتن) وسيستقبلنني، وقبل النزول من الطائرة أفهمته أنني سأبحث عن فندق قريب من المطار، لأنزل فيه حتى الصباح، اذ السّاعة الآن – بحسب توقيت دلس – قاربت الواحدة، فأفهمني بأنه يعرف فندقًا قريبًا من المطار، سيرشدني إليه. ولعله أوصى المضيفة (الفتنامية) فقد حملت حقيبتي وأخذت بيدي عند النزول من الطائرة، وتركتني واقفًا عند موظف الجواز، ودخلت فأحضرت فتاة أخرى وقفت بجواري حتى دخلت ساحة تسلّم الأمتعة، وأشارت إلى مكتب غير بعيد فهمت أنها تجلس هناك فيما لو احتجت إلى مساعدتها.

وقفت بقرب الدائرة المتحركة التي تتلّقى الأمتعة، ثم تدور بها أمام أصحابها، فما شعرت بصاحبي إلا وقد أحضر عربتين قدم لي إحداهما. وقد تأخر وصول حقيبتي فأفهمني بأن أمتعة ركاب الدرجة الأولى لم تصل كلها. لقد حمل أمتعته فوق عربته، ووقف بجواري ينظر إلى رقم قسيمة بطاقة الحقيبة، ويتفحص الحقائب، حتى لم يبق

في المكان سوانا، ويظهر أن سبب حضوري في مطار لندن مبكرًا، وتسلّم الحقيبة مني في ذلك الوقت هو الذي جعلها آخر ما يصل من الأمتعة.

تقدمنا لمفتش الجمرك، فلم يفتح شيئًا من أمتعة صاحبي، وكانت في ثلاث حقائب، أما أنا فلم يغادر - حتى ظروف الورق المقفلة - من الفتح، والتطلع في الصور، وجاء دور (الدولارات) لعن الله الدولارات[1]! لقد كنت وضعتها داخل ظرف صغير مقفل، فلما فتحه أشار إلى الورقة التي كتبت في الطائرة وقدمتها له، فلم أفهم مايقول، فأسرع صاحبي وترك حقائبه، وكان قد عرف من بين الركاب رجلاً يحسن اللغة العربية، رآني أحادثه، وهو مهندس يعمل في قسم الصيانة في (الخطوط السعودية) في جدة، وهو لبناني يدعى وليد مؤمنة، فأتى به، فسألني: ماذا أريد؟ فأظهرت له استيائي من تصرف الموظف الذي لم يترك حتى الأوراق المغلقة. فحادثه فقال لي: انه يقول لك: لم لم تذكر عدد النقود التي معك في الورقة، فأفهمته بأنني لاأحسن ماهو مكتوب فيها، وماكنت أعرف أن المرءَ لايسوغ له إحضار نقود أمريكية إلى أمريكا وماكنت أدري أن الدولارات غير مرغوب فيها حتى عند أهلها، وليست هذه أول مرة أقدم إلى هذه البلاد، ولاأذكر أنني شاهدت - في أي بلاد من بلاد العالم التي زرتها - كهذه المعاملة - فسألني عن عددها فقلت: ليعدّها هو فهي بين يديه، فلما عدّها قال: انها تزيد على خمسة آلاف دولار، والقادم إلى هذه البلاد لايسمح له بأكثر من خمسة آلاف. فقلت: ليأخذ الزائد - وكان قليلاً - أو ليحفظ لي وديعة حتى أرجع. فقام المفتش وذهب إلى مكتب قريب منه وأحضر رجلين، وبعد تداول الكلام بينهم قال لي الأخ اللبناني: - بعد أن طلب مني التوقيع على ورقة قدمت لي وأخبرني أنها اقرار بأنني دخلت بتلك النقود - قال: إنهم يقولون: إننّا اتَّخَذْنَا ما

---

(١) يقول الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى - وان عظمت -   ويبتلي الله بعض القوم بالنّعم

وقد ابتلاني من جرّاء (الدولارات) ببلوى تحدثت عن جانب منها في مجلة "العرب" س ٧ في الكلام على السفر من تونس إلى القاهرة.

أتخذنا معك خوفًا عليك وها هي نقودك كاملة، خذها معك، ولكننا لن نسمح لك أن تذهب وحدك الآن. فقال لهم الرجل الذي لايزال واقفًا ليرشدني إلى الفندق كلامًا طلبوا مني على أثر سماعه رقم هاتف بناتي، ودعوا الفتاة التي كانت استقبلتني وأرشدتني إلى مكتبها، فأمروها بالاتصال بذلك الهاتف، وقال صاحبي اللبناني: إنهم قالوا لها بأن لاتتركك حتى تتحقق من وصولك إلى بناتك، أو إسكانك في فندق مأمون، وهذه من قبل الخطوط التي قدمنا على إحدى طائراتها.

جرّت الفتاة العربة التي وضعت فوقها حقيبتي بعد ذلك التفتيش الذي لم أشاهد له مثيلاً، وتبعتها إلى مكتب خال فأجلستني على أحد الكراسي فيه، وأنا لاأكاد أبصر ماحولي من الانفعال، والتعب، والصّداع، وقد عرضت عليّ - بعد أن أفهمتني بأن إحدى بناتي ستحضر - أن تقدم لي شيئًا من الأكل أو الشرب، إذ الثلج قد تراكم في الطرقات، مما يسبب إبطاء السير فيها، وقد يستغرق الوقت نصف ساعة. فشكرتها ولم أقبل شيئًا مما عرضت.

لقد شغلت بنفسي عن توديع صاحبي الذي استمرّ واقفًا يرقب مايجري معي حتى أخذتني الفتاة من مكان التفتيش، فلحق بي، وقدم بطاقته، وأشار إلى رقم الهاتف لكي أتّصل به، ولم أعرف الغاية من ذلك، وأرى من قبيل الجميل لهذا الرجل - بعد أن أذكر اسمه - أن أعبّر عن عميق شكري، واعترافي بفضله، انه على ما في تلك البطاقة.

(Madison Gil Langhorne)
Vice President
Marketing Refining & Transoprtation Hunt Oil Company
2900 First National Bank Bldg Dallas, Texas 75202
(214) 744 - 7936
Telex 730239
(Residence 368 - 7583)

رئيس قسم التسويق والتصفية في شركة (هنت للنفط في (دلس).

وقد اتصلت إحدى بناتي - في الصباح - بمنزله، فعلمت أنه أراد أن يطمئنّ على وصولي، ولا شيء غير ذلك.

في مدينة آرلنجتن Arlington

أمضيتها سبعة أيام في شبه راحة تامّة. وهي مدينة ككثير من مدن ولاية تكساس – فسيحة الأرجاء، متباعدة المنازل، لها أسواق في أمكنة منعزلة منفصلة عن المساكن، وطرقها لايستطيع المرء – مثلي – السير فيها لكثرة مايسير فيها من السيارات بطريقة من السرعة تبعث الرعب في النفس، ثم إن الأمطار والثلوج كانت طيلة تلك الأيام تهطل متواصلة، حتى كوّن الثلج طبقة سميكة فوق الأرض. بل فوق كل ماوصل إليه حتى سلّم البيت الذي سكنت فيه مع أهلي وبناتي، بحيث كنت أخشى الانزلاق عند النزول، وأنا من أسوإ صفاتي شدة الخوف، فأنا جبان، ولاعيب على الإنسان من الاعتراف بما يتصف به، وكل ماتقدم السن بالمرء قويت في نفسه عوامل الضّعف.

وقد حدث لي في إحدى الرحلات أمور من هذا القبيل، يذكر بعضها الصديق الكريم الأستاذ الشيخ عبد الله الخيال[١] . فقد كنا في إحدى الليالي سائرين في أحد شوارع إحدى المدن الأوربية، وكان الثلج مرتفعًا على طِوَاري الشارع المخصصّين للمشاة، فهم يتحاشون السير فيهما، ويسيرون متعرضين لسير السيارات وسط الشارع، فدفعني الخوف – بعد أن تحسّست بقدميّ قوّة ذلك الثلج المتراكم – إلى السير فوقه، تحاشيًا من التعرض لخط السيارات، غير أنني بعد أن استرسلت في المشي مرتاحًا إليه، انفتلت قدمي اليسرى بسرعة فسقطت ولم أحسّ من شدة ماأصابني من ألم السقوط إلا وأنا محمول بين يدي رجلين، ساعداني حتى وصلت الفندق وكان غير بعيد، فأمضيتها ليلة ليلاء، ولم تخفف من آلامها وسائل الإسعاف الأولى، وفي الصباح أخذت إلى المستشفى حيث اتضح أن في ذراع يدي اليمنى كسرين – لاواحدا – وأنّ في رجلي أيضًا رضوضًا. وجاء دور تجبير اليد، فما شعرت إلا برجل ضخم الجثة قوي العضلات، قد دخل عليّ في الغرفة وبيده حبال متينة طويلة، فلما علمت بأنه سيقوم بتربيطي فوق السرير، ليتسنّى مدّ يدي حتى يعود عظم الذراع إلى طبيعته مستقيمًا،

(١) توفي يوم الأحد ٢١ شوال ١٤٠٨ – انظر «العرب» س٢٤ ص ١٢٣.

رفضت بشدّة، وحاولت الخروج من المستشفى، فما كان من الطبيب إلاّ أن دعا بفتاتين وقفتا أمامي، وصارتا تمسحان الذراع المكسور برفق، وبينما أنا مرتاح لعملهما إذا بإنسان يضمني من الخلف وبالفتاتين تمسكان ذراعي بشدة، ثم لم أفق إلاّ وأنا مجبّر فوق السرير.

كنت – ولاأزال – معتاداً المشي صباحًا، عملاً بنصيحة طبية مشهورة تدعي (أنّا أصلان) وإذا لم أمارس هذه الرياضة يومًا واحداً أحس بفتور في جسمي وضعف في كل قواي، حتى في تفكيري وشعوري، فكنت إذا حاولت في أحد تلك الأيام السبعة الخروج من المنزل – وهو في الدور الأول والدرج الموصل إليه معرّض للثلج، وقد تراكم فوقه – أطلب من إحدى بناتي النزول قبلي لإزالة الثلج من مواضع أقدامي . والواقع أنني بقيت (رهين المحبس) سوى يومين اثنين من تلك الأيام استطعت فيهما الذهاب إلى فندق لايبعد عن المنزل أكثر من ميل عرفت فيه فتى ايرانيًا، يحسن كلمات عربية قليلة، ويحفظ سوراً من القرآن، ولكنه لايفهم مايقرأ، ولا مأأقول، ووسيلة التفاهم تلك الكلمات القليلة مصحوبة بكثير من الإشارات التي قد لانتفق في فهم مدلولها، أمضي جزءاً من الصباح جالسًا أو ماشيًا في هذا الفندق أو حوله حتى يحين وقت الغداء، فأعود إلى المنزل، أبقى داخله إلى الغد .

كانت اثنتان من بناتي تدرسان في (جامعة آرلنجتن) التي تُعَدّ من ضواحي مدينة تكساس، وقد نشأت بقيام الجامعة فيها، ولهذا فهي مدينة جامعية، أما مدينة تكساس فتعدّ أكبر مدينة في ولاية تكساس، غير أنّ قاعدة الولاية هي مدينة (أوستن) وقد زرتها عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) فرأيتها مدينة جميلة، وأعجبت بمكتبتها العامّة، من حيث سهولة الاطلاع على مايرغب المرء الاطلاع عليه من الكتب بأسرع وقت. ولاأزال أذكر ذلك الشاب العراقي المتحمّس لعروبته – وقد رأى فتاة تعرض عليّ وعلى من معي أحدث ماوصل إلى المكتبة من المؤلفات المتعلقة بالشرق – فما كان منه إلاّ أن همس في أذني قائلاً : (إنها صهيونيّة وأكثر هذه الكتب دعاية لقومها) ! .

وقيل لي إذ ذاك : انّ اختيار (أوستن) لتكون القاعدة لايرجع لكبرها ولا لكثرة سكانها، فإن مدينة (هيوستن) أكثر سكّانًا منها، ومدينة (دلس) أكبر منها، ولكن روعي في ذلك أن تأخذ نصيبها من التقدم العمراني، وأن لاينحصر هذا في المدن الكبيرة.

وقيل أيضًا: بأن جوّ شمال هذه الولاية قريب الشبه بجو بعض المناطق في بلادنا. وحقًا فإنني أثناء تلك الزيارة – وكانت في فصل الربيع – أحسست كأني في منطقة الطائف، فهذه الجبال السود تذكر بجبال تلك المنطقة، والتربة السوداء، وما يتخلّلها من مزارع، قيل لنا : إنّها تسقى بواسطة رشّها بالماء، وأنه غير متوفر في جميع المزارع. وأتى إلينا أنا ورفاقي ونحن نشاهد أحدها رجل يحمل بطيخة بين ذراعيه (جرو أصفر) فلما تعجبنا من كبرها قال: إنّها من بذرة أحضرها من (الخرج) وكان قد عمل في مزارعه، حين أنشأها الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية.

أما عن طبيعة هذه البلاد – على وجه العموم – فأرضها سهول واسعة منخفضة، تكثر فيها التلال، والأودية، وتكاد تنعدم الجبال في جهتها الجنوبية، وفيها بحيرات وأنهار، وكثير من الغابات. وقد زرتها في أحد فصول الخريف، فكنت أحدث بعض من معي من الإخوة المقيمين فيها مستغربًا من جدب أرضها بحيث تذكّر بمناظر الصحاري القاحلة في بلادنا. فقال لي: إنك لو زرتها في فصل الربيع لتغيرت نظرتك إليها. وحقا ماقال: فأنا الآن أعجب من كثرة الغابات، واخضرار الأرض بمختلف النبات، بينما كانت قبل وقت قصير جرداء شهباء.

ويصف الأخ الأستاذ حسن عبد الحي القزّاز أهل هذه الولاية بشدّة تعصّبهم لعنصريتهم، فقد حدث أننا حين استقبلنا في مطار (أوستن) من قبل موظفي شركة (الزيت العربية الأمريكية) كانت سيارتان قد أعدّتا لركوبنا إلى الفندق، فتقدم الأخ القزاز فركب إحداهما وركبت في الأخرى، وسرنا يتقدمنا الأخ حسن، وبعض موظفي الشركة في سيارة ثالثة خلفنا، ويظهر أن حسنًا تحادث مع الرجل الذي رافقه في السيارة، وقدم له بطاقة اسمه مكتوبًا بالحروف اللاتينية، مما دعا ذلك الرجل إلى

إيقاف السيارة، والنزول منها عند لحاقنا، وسؤال أحد المترجمين الذين معنا عني، فأتيا إليّ وطلبا مني الركوب محلّ الأستاذ حسن، فقد خصّص لكل واحد منا سيارة، فرفضت، وألححت بأن يبقي كل واحد منا حيث هو، ولكن الأخ تأثر من هذا التصرف، واعتبره نوعًا من التمييز (العنصري)!! واستمرّ طيلة إقامتنا في هذه المدينة متأثرًا.

وكنت طعمت في مدينة (شيكاغو) في تلك الرحلة لحم حيوان يدعى في سواحل الحجاز الشمالية (أبو جلنبو) وقد يكون اسمه (السرطان) فاستطبته، وأثناء العشاء ونحن في (أوستن) قال لي الذي تولى الدعوة ماترجمته: علمنا أنك تحب لحم (لابستر Lobester) وبلادنا هذه تمتاز على غيرها بهذا النوع من اللحم. فطلبت من المترجم أن يقول له مايحكى من أن الخليفة هارون الرشيد اختلف مع زوجته السيدة زبيدة في نوعين من الحلوى أيّهما ألذّ؟! وهما (الفالوذج) و(اللوزينج)[1] فاتفقا على تحكيم رئيس القضاة أبي يوسف، فلما سألاه: قال لهما: لايسوغ للقاضي أن يحكم على شيء لايعرفه، فأحضرا له النّوعين، فكان يأخذ من هذا لقمة ومن الآخر لقمة حتى اكتفى وهما يتطلعان إلى حكمه، فقال: كلّ ماأردت أن أحكم على أحدهما أدلى الآخر بحجّة أقوى من حجّة الأول، فتساوت الحجتان، فلم أجد دليلاً اعتمد عليه في الحكم. وأنا لاأستطيع أن أفضل نوع لحمكم حتى أذوقه، إذ لايصح الحكم على غائب من الممكن حضوره، فما كان أسرع من وضع طبق أمامي، يحوي نوعًا من ذلك الحيوان لم أر أكبر منه، بحيث كان يقارب حجم الكفّين بطول الذراع – لقد طال الاستطراد.

كان مما لفت نظري اختلاف سحنة سكان ولاية تكساس عن سكان الولايات الشمالية والغربية من الولايات المتحدة، فاللون الأسمر، وقصر القامات، والبدانة – حتى في النّساء – من الصفات البارزة بين السكان. وقيل لي: إن هذا يرجع إلى أسباب منها انتشار الحركة الصناعية في هذه الولاية بحيث نزح إليها كثير من

(١) يعرفان الآن في لبنان بالبالوظة واللوزيّة.

العمال من مختلف الولايات، وهؤلاء في الغالب من السود، فحدث الاختلاط، ثم لقربها من بلاد المكسيك، وسكان هذه البلاد يتصفون بالقصر وصفرة الألوان أو سمرتها.

ماكانت الإقامة في مدينة (آرلنجتن) مقصودة، غير أن زوجتي أم محمد عندما عزمنا على السفر إلى أمريكا، وتمّ ترتيب كل مايتعلق بالرحلة، وكنت قد تلقّيت دعوة من (جامعة الإمام محمد بن سعود) لحضور (المؤتمر الأول للجغرافيين المسلمين) ثم أكرمني رئيس لجنة التحضير لذلك المؤتمر بالزيارة، مؤكّداً تلك الدعوة، فلم يسعني سوى القبول، مع تأجيل سفري، فتقدّمت أم محمد بالسفر لحضور حفل إكمال إحدى بناتي مرحلة الدراسة الجامعية الثانية[1]، وكانت في جامعة (آرلنجتن) هي وإحدى أخواتها، ثم لحقت بهنّ بعد انتهاء ذلك المؤتمر، ثم كان السفر من تلك المدينة إلى (هيوستن) والمدينتان متقاربتان، والمسافة بينهما تقطعها السيارة بنحو ست ساعات، والطائرة بأقل من ساعة. ففضلنا - وكنّا ثلاثة - وكان الجوّ بارداً والسماء ليست صحواً، ولايؤمن نزول الثلج وتأثيره في طرقات السير فضّلنا السفر جوّا.

وتمّ تسجيل اسمائنا بين ركاب طائرة تسافر الساعة الثامنة والنصف من ليلة السبت (٢٧ ربيع الأول ١٣٩٩ - ٢٤/ ٢/ ١٩٧٩م) وكان الحضور وتسليم الحقائب والجلوس بين المسافرين استعداداً للسفر، غير أننا عندما أردنا الدخول إلى المطار، لم تكن معنا البطاقات المخصصة لدخول المطار، فكان التأخر إلى وقت إقلاع طائرة أخرى ثم تسجيل أسمائنا بين ركابها، ولم نصل إلى مطار هيوستن إلاَّ وقد قاربت الساعة الثانية عشرة - منتصف الليل - ولقد ذكرت ماحدث لي حين زرت (برلين) قبل تسعة عشر عامًا - أي في سنة ١٣٨٠ (١٩٦٠م) - وكنت بدعوة من وزارة الإعلام في (ألمانيا الاتحادية) لقد كنت في خلال تلك الرحلة وهي الأولى إلى بلاد أوربية - أحاول دائمًا أنّ أتثبت من كل ما يتعلق بأمور سفرِي، وقد أحرج الآخرين بكثرة

---

(١) لنيل إجازة (الماجستير).

الأسئلة، حتى أطمئنّ، ولكنني أثناء إقامتي في برلين كنت واثقًا بأنّ جميع شؤون الرحلة تولّى ترتيبها إنسان كلّف بذلك من قبل تلك الوزارة، وكان يدعى (الدلقموني) من الطلاب الأردنيين، وهكذا كان، فلم يدعني إلا وأنا داخل الطائرة التي ستوصلني مطار (فرانكفرت) أو هكذا كان متوقعًا، ولكن قبيل تحركها من المطار بدا بين مضيفيها حركات غير معتادة، فصارموظفو الطائرة ينظرون في تذاكر سفر كل من فيها، ولما جاء دوري لم أشعر إلا بفتاتين حملت إحداهما حقيبة كانت معي، وأخذت الأخرى بيدي حتى نزلت من هذه الطائرة التي اتضح لي أنني أركبت فيها خطأ من صاحبي، إلى طائرة كانت على وشك الإقلاع، وقد أغلق بابها.

وها نحن ثلاثة كان من جرّاء اعتماد بعضنا على بعض، فحدث ماحدث لنا من تأخّر، وكما قيل:

وإنّما رجل الدّنيا وواحدها ... من لا يعوّل في الدنيا على رجل

وما أرى هذا الشاعر – وهو الطغرائي في قصيدته المعروفة بـ (لاميّة العجم) أراد أيّ تعويل كان، وإنّما قصد عدم اكتراث المرء بأي أمر من أموره اعتماداً على غيره، إذ هو أعقل من أن يجهل قيام حياة المجتمع الإنساني من جميع نواحيها على التّعاون، وبدونه لاتستقيم هذه الحياة:

النّاس للنّاس، من بدو وحاضرة ... بعض لبعض – وان لم يشعروا – خدم

في هيوستن Houston

وهذا الاسم يقولون إنه يطلق على مدينة تُعَدُّ أعظم مدن ولاية تكساس من حيث كثرة السكان، وعظم الحركة الصناعية. والنشاط الاقتصادي وما هي – في الواقع سوى مساحة واسعة من الأرض، تمتد طولاً وعرضًا عشرات الأميال، مع اتصال المساكن والمتاجر والمصانع، في جميع هذه المساحة، وانتشار الفنادق والمستشفيات وغيرها من مظاهر حياة المدن ومتطلباتها في سهل فسيح من الأرض، ممتد من ساحل بحر المكسيك شمالاً وغربًا، على مقربة من بحيرة كانت قطعان من البقر الوحشي المعروف باسم (....) تتكاثر حولها حتى عرفت بها.

وعند بدء عمران هذه الناحية في العصور الحديثة قضي على هذا النّوع من الحيوان حتى أوشك أن ينقرض. ويقيم سكان الإقليم احتفالاً سنويًا في آخر فصل الشتاء للتباري في قتل البقر، أثناء استعمال وسائل تهييجه بأبشع صور الشدّة والعنف والوحشية.

أما المدينة فحديثة التأسيس – ككثير من مدن الولايات المتحدة – فقد أنشئت منذ قرن ونصف تقريبًا (سنة ١٨٣٦م) وعرفت باسم رجل تولّى قيادة جيش حارب المكسيك، حتى فصل هذه الناحية من حكمهم ويدعي (سام هيوستن) ويقدّر عدد سكانها بنحو مليونين.

أما وسط المدينة فليس على درجة من الضخامة تتلاءم مع حالتها، مجموعة من الأبنية الشامخة الداكنة الألوان، فنادق، ومصارف، ودور شركات ودوائر حكومية، ومتاجر، تكثر بينها مواقف السيارات، والمقاهي والمطاعم، كلها في رقعة من الأرض يستطيع الماشي أن يقطعها طولاً وعرضًا في أقل من ساعة.

ذهبت ذات مرّة من فندق (هولداي إن) من ذلك المكان في سيارة أجرة إلى (المكتب التعليمي) فبلغته في نحو ربع ساعة. وعدت منه مع الأستاذ عبد الحفيظ القاري في سيارته، من طريق آخر، فلم نبلغ الفندق إلا بعد أن مضى على خروجنا ساعتان إلاّ ثلثًا.

وأردت تصوير أوراق، فعرضتها على مصوّر في سوق قريب من الفندق، ففهمت منه أنها ستبقى لديه أسبوعًا، فلما أظهرت له استعجالي، كتب لي عنوان مصور غيره فذهبت إليه في سيارة أجرة أبلغتني المكان في خلال عشر دقائق، وعند العودة، لم أجد سيارة توصلني، وكنت أشاهد أبنية وسط المدينة شامخة، ويتراءى للناظر أنها قريبة، غير أنني سرت ساعة ونصفًا سير المجد الخائف أيضا، والخوف في هذه المدينة من أمور الحزم على ماقيل لي، وقوّاه في نفسي أنني منذ خرجت من محل ذلك المصور، وأنا أسير في أحياء سكانها من العمال وأكثرهم من السود، وأكثر من مساكنها تتسرّب منه المياه القذرة، وتكثر في طرقاتها الأوساخ، وقد تتخلّلها حدائق، وقطع من الأرض غير معمورة، تتّخذ مواقف للسيارات، ولكنّها توحي بالبؤس والوحشة.

ومن أجمل ضواحي هذه المدينة - وكلها ضواحي - الناحية التي يقع فيها (المركز الطّبيّ) حيث المستشفيات المتنوعة الكثيرة، تحيط بها ميادين واسعة تفضي إليها طرق تتخلّل غابات من الأشجار، وعلى مقربة منها تقع حدائق عامّة، فيها أمكنة للرياضة، وللعب الأطفال، وهناك حديقة للحيوانات واسعة، فيها أنواع مختلفة من الحيوانات والطيور، تتخللها البرك الواسعة، وتزدان بحسن تنسيق جوانبها وساحاتها بمختلف النباتات والزهور الجميلة. والدخول في تلك الحدائق أيام الآحاد والأعياد والعطل العامة مجّانًا، وقد هُيِّئَ فيها للزوار مايحتاجون إليه، حتى وسائل إصلاح الطعام لمن أحضره معه، مع وجود أمكنة تحوي أنواع المأكولات والمشروبات للبيع.

ويرتاد حديقة الحيوان في العام نحو مليون ونصف من الزّوار - على ما قيل لي -

وفي هيوستن (متاحف) أربعة للعلوم وللفنون الجميلة والحديثة وغيرها وفيها جامعات من أشهرها (جامعة رايز) ويقال انها - على صغرها - من أقوى الجامعات مع قلة فروعها. أما (جامعة هيوستن) فمن أشهر الجامعات الأمريكية، وفيها عدد كبير من الطلاب العرب.

ويقول الأستاذ عبد الحفيظ القاري - من موظفي (المكتب التعليمي) في هيوستن:

ان المكتبات العامة، باستثناء مكتبات الجامعات، قليلة. وقد شاهدت في وسط المدينة عدداً من المكتبات الدينية العامّة.

المكتب التعليمي : وفي الولايات المتحدة الأمريكية من أبنائنا نحو إحدى عشر ألفا، ونحو نصف هذا العدد يتلقون أنواعًا خاصّة من التعليم، من مبعوثي وزارة الدفاع والطيران وغيرها من الوزارات.

ويتولّى الاشراف على مختلف شؤون الطلاب (المكتب التعليمي) في هيوستن، سوى طلاب وزارة الدفاع والطيران، ولهذا المكتب خمسة فروع فتح منها فرع في (نيويورك) وآخر في (لوس أنجلس).

وقد زرت هذا المكتب مراراً. فسعدت حقًّا بالاجتماع بالإخوة الذين يعملون فيه، زرته قبل ثلاث سنوات، وكان الأستاذ عبد العزيز بن محمد المنقور يتولّى إدارته، والطلاب لايتجاوز عددهم خمسة آلاف، وأكثر موظفي المكتب من الأمريكان، ثم زرته مرة أخرى كان الأخ المنقور غائبًا - ويتولى عمله الأخ عبدالمحسن (أبا نميّ).

ثم زرته في هذه الأيام حيث يقوم الأخ الدّكتور رضا علي الكابلي بالإشراف على إدارة جميع شؤون الطلاب في أمريكا وكندا. وقد وجدت منه ومن جميع الإخوة الذين قابلتهم في هذا المكتب وفي الرحلتين الأوليين من حسن الاستقبال مالا أنساه، في هذه الرحلة، وفي الرحلتين الأوليين.

كنت أمضيت أسبوعًا في أحد مستشفيات (هيوستن) أحسست خلاله كأني أعيش في عالم آخر، فكنت في حاجة بعد خروجي من المستشفى إلى راحة نفسيّة ذهبت أنشدها بزيارة ذلك المكتب، والاجتماع بمن عرفت فيه من الإخوة، فكان أن غمروني بلطفهم، وأفضلوا عليّ بما احتجت من عونهم ورعايتهم، كالأخ الدكتور الكابلي والأستاذ الأخ عبد العزيز السلامة وغيرهما من كرام الإخوة.

ومن الإخوة الذين حظيت بكثير من عظفهم، من أبنائنا موظفي المكتب التعليمي

الأستاذ عبد الحفيظ القاري، وقد عرفت هذا الشّاب الكريم الخلق حين كان يتحف قراء مجلة "العرب" قبل ثماني سنوات بدراسات جادّة عميقة، حول مخطوطات في مكتبات المدينة المنورة، وكانت تنشر بتوقيع (أبو عاصم الطيبي) وكنت حين أقرأها – قبل أن أعرف كاتبها، أتصور ذلك الكاتب قد شارف النهاية دراسة وتحصيلاً، مع تقدّم في السّنّ، ولكنني فوجئت يومًا من الأيام بفتى غضّ الإهاب، في ريعان الشباب، يقدم لي نفسه – وكان ذلك في عام ١٣٨٨هـ وكنت في مكتب "العرب" في بيروت.

لقد سررت برؤيته في (هيوستن) ولكنني حزنت حقًّا حينما علمت أنه اتجه الآن في دراسته وجهة بعيدةً أشدّ البعد عن ميوله الأولى المتعلقة بالتّراث. ومن يدري فقد يكون اتجاهه الأخير منعطفًا يتلاقى مع روافد دراساته القديمة، أو أنّ هذا الاتجاه أعظم جدوى وأعمّ نفعًا في هذا العصر.

ولاقيت أحد أبنائي – حينما كنت مديراً لكليتي اللغة العربية والعلوم الشرعية في الرياض – وهو الأستاذ منصور الدّخيل – من موظفي المكتب التعليمي – وكاد بلطفه وكرمه ورقّة أخلاقه أن يثني عزمي عن سرعة العودة إلى البلاد، ولكن اللّه سلّم.

ومما يحمد لأبناء بلادنا أنهم حين يعيشون خارج بلادهم يكوّنون مجتمعات أشبه ماتكون بالمجتمع الذي ألفوه وعاشوه في بلادهم، وأنهم يقوّون أواصر الأخوة والمحبّة بينهم، وقد أشرت إلى جانب من ذلك في إحدى رحلاتي(١)، وهكذا وجدت موظفي المكتب التعليمي في هيوستن، فقد كرم الأخ الأستاذ سليمان بن ابراهيم الوابل بدعوتي للعشاء، فاستجبت للدعوة، بعد أن رجوته بأن تكون خالية من التكلّف، ولكّن أبا بندر أراد أن آنس بلقاء إخوة عرفت أكثرهم لماما حين مررت بالمكتب، وكلّ واحد منهم مشغول بعمله، فكان أن دعى الجفلى(٢) حتى ازدان البيت بالمدعوين، وبكرام عقائلهم وأبنائهم، ولكل مجلسه من الرجال، ولكل واحدة من السيدات عملها داخل البيت في اعداد الطعام، أما الأطفال – وهم زينة الحياة – فكانوا يملأون البيت بهجة وسروراً بمرحهم وحيويتّهم.

---

(١) انظر مجلة "العرب" س ٧ ص ٤٩٧ في الكلام على (الجزائر).

(٢) الدعوة الجفلى العامّة.

ودارت الأحاديث وكانت ذات شجون، فهذا أحد طلاب (المعهد العلمي) في الرياض، حين كنت من موظفيه يستعيد بعض الذكريات، وكان من بلدة المجمعة، وأخ من أبها يعلّق على حديث لي عن (التعقيد) والنفاثات في العقد، وشاب من جازان يبدو من أحاديثه أنه من هواة الصحافة، وأنه عمل في "المجلة الشرقية"، ولايفوته أن يوجّه إليّ عتبًا رقيقًا لأنني (هاجمت) تلك المجلة! وحين أستوضح منه يغرب في الجواب فيقول: في مقال نشرته مجلة "الدعوة" وعندما أكدّت له أنني لم أكتب في هذه المجلة سوى مقال واحد، في ترجمة أحد علماء الحديث، وفي وصف مخطوط من مؤلفاته، يعود فيقول: إنك وصفت أحد أعدادها مستعرضًا مافيه من مقالات، وأنك (ركّزت) الوصف على بعد محتوى تلك المقالات عن مجتمعنا. فذكرني بكلمة لم أخصّصها للحديث عن المجلة المذكورة، ولكنني أوردتها عرضا حين تحدثت عن زيارتي (حديقة الحيوان) في الخرطوم، فوجدت فيها مكانًا لبيع الصحف، طلبت من صاحبه أن يقدم لي آخر ماوصل إليه من الصّحف السعودية، وكنت مرهقًا من كثرة المشي، فأخذت ماقدم لي من صحف في تلك الحديقة أطالع بعضها، وكانت أوّل مرّة أطلع فيها على تلك المجلة الفخمة المظهر، فكان أن وصفتها عرضًا لاقصداً، في مقال نشرته بعنوان: (مع الإخوة في السّودان، بين الخرطوم وأم درمان)[١] ولعل رئيس تحرير مجلة "الدعوة" استهواه الوصف، فنشره، ولكن ألا يستحسن – إن لم يجز التعبير بكلمة أقوى من الاستحسان – أن تبعث المجلة إليّ بما نشرته من كلامي!! لندع هذا إلى مانحن فيه – لقد كانت ليلة ذكرتني لابكرم الداعي، وبما قدم من الطعام الشهيّ المختلف الأنواع فحسب، بل بالأنس، بأولئك الإخوة أنسا أنسانا ماحولنا حتى كاد الليل أن ينتصف.

وليلة أخرى سعدت فيها بلقاء بعض الإخوة، ومنهم من لم أجتمع به قبل، في بيت الأخ الأستاذ عبدالله السّليمي – من بلدة شقراء – وكنت عرفت عمّه عبد العزيز في

---

(١) : "العرب" س ١١ ص ٤٨١ / ٥١٦.

سنة ١٣٤٦ من كبار طلبة العلم في مدينة الرياض. إنها ليلة لاتقلّ عن سابقتها أنسًا وسروراً، أما الطّعام فكنت في الليلة الأولى قد اخترت من بين صنوفه (الجريش) وحسبك بإجادة هذا الصّنف من يد صَنَاعٍ (قصيميّة) وهذه الليلة اخترت نوعًا آخر، مما امتاز بعمله ربّات البيوت (الوشميّات) أو هكذا كنت أتصور، إذ أمّ محمد منهنّ، إنّه (مراصيع غالي) كما يسميّه بعضهم، وآخرون يدعونه (مطازيز) أمّا ابننا سعد المفيريج فخلط بينه وبين نوع آخر من الطعام يدعى (المرقوق) فقال: اسمه (الحليج) وفرق بين النوعين. لقد جدح الأخ الكريم عبد العزيز السلامة في طبقي - عندما عرف أنني بعيد العهد بأكله - مادفعني إلى أن أشرب أكوابًا من الشاهي للاستعانة بها على الهظم، كما فعل في الليلة التي قبلها، حيث انتهى جميع الاخوة من الأكل، وأردت أن أدلّل على صدق محبتي للداعي (والأكل على قدر المحبة) حتى أتيت على جميع ما في الطبق من (الجريش) وما معه! وعلى ذكر الأكل - حين مررت بمدينة (نيويورك) قبل بضعة عشر عامًا - سنة ١٣٨٠ (١٩٦٠) - أُخِذْنا إلى أحد المطاعم أنا والأخ حسن القزاز، وعند الخروج منه قدم لكل واحد منا ورقة كبيرة مزركشة، فسرّ الأخ حسن بها سروراً عظيمًا. وبالغ في العناية والاهتمام بها، فالتفت إلى مترجم كان معنا يدعى السيد فخري أبو زنّاد، وقدمت له الورقة ليترجم ما فيها. فقهقه ضاحكًا. وقال: يقدم هذا المطعم لبعض زوّاره شهادات، فقلت: على ماذا؟! قال: على الشراهة في الأكل. وفي هذه الورقة يقرر المطعم بأنّك أكول - أي كثير الأكل، ولم يسمع حسن ماقال المترجم، وكان يدّعي بأنه يحسن اللغة الانجليزية، فالتفتّ إليه وقدّمت له ورقتي وأظهرت له عدم رغبتي بها، ولم أبين له السبب، ولاأدري متى استبان له ذلك، ولكنه ذكره فيما نشر عن تلك الرحلة.

إلى (مايو كلينك) : من آخر رحلاتي للعلاج رحلة إلى هذا المستشفى في أمريكا استغرقت شهراً من ٢ / ٣ / ١٤١٨ (٦ / ٧ / ١٩٩٧م) إلى ٨ / ٤ / ١٤١٨ (١١ / ٨ / ١٩٩٧) سأتحدث عنها بإيجاز في موضع آخر.

جولة في بعض البلاد الأوربية

في هولندا

كانت أولى رحلاتي إلى خارج البلاد إلى أمريكا، استجابة لدعوة وجهتها شركة الزيت العربية الأمريكية أرامكو إلى عدد من الصحفيين كنت أحدهم، وذالك في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٨٠ (نيسان سنة ١٩٦٠م)، نحو شهر، شملت تلك الزيارة أهم المدن في الولايات المتحدة، من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، وقد تحدثت عن مشاهداتي في هذه الرحلة وفي رحلات أخرى إلى هذه البلاد للعلاج، وللإشراف على إلحاق بناتي بالبعثة السعودية في تلك البلاد للالتحاق ببعض جامعاتها، حيث سبق لهن أن درسن في الجامعة الأمريكية في بيروت فحالت الحوادث التي جرت دون إكمال دراستهن، وقد تحدثت – فيما تقدم – عن تلك الرحلات، وبعد عودتي من أول رحلة فكرت في زيارة عدد من كبريات المدن الأوربية بمفردي، لكي أنظر هل في استطاعة المرء تحقيق ذالك وهو لا يحسن سوى لغته، فهل تكفي الإشارة لغة للتخاطب، مع محاولة موظفي (آرامكو) المشرفين على الرحلة مساعدتي في ذالك، مع ابراز الأمر بصورة من الصعوبة لإضعاف عزيمتي ولكنني بعد أن عبرت لهم عن تقديري وشكري، صممت على ما فكرت فيه.

من نيويرك إلى هولندا: في يوم الأربعاء (١٥) ربيع الثاني سنة ١٣٨٠هـ (٥أكتوبر سنة ١٩٦٠م) – الساعة الثالثة بعد الظهر بحيث توقيت نيويرك، أقلعت الطائرة التي كنت من ركابها فهبطت في مطار (جلدر) في كندا، الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين بتوقيت (جلدر) ومدة الطيران أربع ساعات إلاً ربعًا، وبعد ساعة غادرنا هذه المدينة، فوصلنا مطار (أمستردام) في التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً حسب توقيتها، – أي بعد أن قضينا في الجو بين (جلدر) وهذه المدينة ما يقرب من تسع ساعات، وكانت الساعة حين وصولنا (أمستردام)، في نيويرك الثالثة والدقيقة الخامسة والعشرين – الفرق خمس ساعات، وخمس وعشرون دقيقة، كانت المعاملة في مطار أمستردام مريحة، لم تتجاوز وضع إشارة

على الحقائب من أحد موظفي الجمرك إذ القدوم على طائرة أرامكو، وطائراتها تعامل معاملة خاصة في جميع الإجراءات المتعلقة بالقدوم أو السفر، وكان النزول في (فندق أوروبا) في مدينة (لاهاي)، التي تبعد عن المطار نحو خمسين كيلاً، وتسمى هذه المدينة (دَنْ هيج) وحين كان الوصول إليها لم أستطع معرفة اسمها، رغم محاولتي مع سائق السيارة الذي لا يفصح بنطقه على وجهه الصحيح، فهو ينطقه (ذي هغ) ولكنني تبينت صحة الاسم مكتوبا في لافتات الطريق (دن هيج) وقد ينطق خلاف ما هو مكتوب ككثير من الكلمات الإفرنجية.

استقبلنا – وأنا اعبر عني وعن رفيقي في الرحلة الاستاذ حسن قزاز الصحفيين اللذين تمكنا في الاستجابة لدعوة (أرامكو) لزيارة الولايات المتحدة – استقبلنا السيد جان فان أُس – مندوب (أرامكو) عند باب الفندق، فلم نستطع التفاهم معه لجهلنا اللغة الإنجليزية، وكان ممن عرفنا أثناء مرورنا شاب أردني فلسطيني يدعى السيد هاشم عقيل، يتولى الإشراف على القسم العربي في الإذاعة، فطلبنا من السيد جان الاتصال به هاتفيا لكي يكون واسطة تخاطب فيما بيننا، غير أنه اعتذر باشتغاله بإعداد محاضرة عن (الموسيقى العربية) يريد إلقاءها في (معهد الدراسات الاجتماعية في لاهاي) غدا – باللغة الانجليزية – وذكر لصاحبنا اسم شاب فلسطيني أردني هو (منذر فائق عنبتاوي) من نابلس، فاتصل به جان فان أُس فحضر سريعاً وذهبنا إلى مطعم اندونيسي، تناولنا فيه طعام الغداء، وكان الطعام شرقيا، فكان شهياً، لطول العهد بتناول مثله أثناء الرحلة، والاستاذ منذر يدرس القانون الدولي، وهو الآن يحضر لنيل (الدكتوراه) رسالة موضعها : (القومية العربية وأثرها من ناحية القانون الدولي).

وفي مدينة (لاهاي) حيث تقع (محكمة العدل الدولية) توجد مكتبة تابعة للمحكمة، تضم – على ما يقول السيد منذر – أهم مصادر الدراسات القانونية الدولية، وتحتوي على ما يقرب من نصف مليون مجلد، وقد زرت المكتبة، فوجدت فيها استاذاً مصريا يدعى محمود حافظ أبو الشهود، يدرس القانون منذ

سنتين، وهو ابن أخ لسفير الجمهورية العربية في جدة الأستاذ حافظ أبو الشهود، زرت المكتبة الساعة الرابعة من هذا اليوم - يوم الوصول إلى بلدة لاهاي - ثم بعد أن جلت مع صاحبي الهولندي والعربي في أبهاء القصر الفخم (قصر السلام) وفي حديقته الكبيرة الجميلة حضرنا إحدى جلسات المحكمة، وهذا القصر قد قام بإنشائه على أفخم طراز غربي السيد (كارينجي) أحد الأثرياء الأمريكيين، وقد ازدانت أبهاؤه بتماثيل منحوتة لبعض الرجال الذين لهم أثر في الدعوة لأن تسود روح المحبة والسلام بين الشعوب، ولم نشاهد فيه من تماثيل رجال الشرق سوى تمثال (غاندي) . وكانت الزيارة سريعة حيث أبدينا الرغبة بحضور إحدى جلسات (محكمة العدل الدولية) فقيل إنها ستعقد في وقت قريب .

كانت الجلسة في موضوع خلاف ين دولتي (أندراوس) و (أرجواي) حول الحدود - على ما قيل لنا، مع جهلنا لما بينهما من صلة - وقد حضر القضاة الستة عشر، وقبل أن يدخلوا قاعة المحكمة من الباب المفضي إلى مكان اجتماعهم للتداول فيما بينهم، أعلن بدء الجلسة فقام الحاضرون، وهم مندوبو الدولتين ومحاموهم، وثلاثة من الصحفيين، وأربعة زوار، أنا أحدهم ورفيقاي، والأستاذ أبو الشهود .

توسط رئيس القضاة المنضدة الكبيرة في صدر القاعة، وجلس عن يمينه نائبه السيد ظفر الله خان ثم أحد القضاة، ثم الدكتور بهجت بدوي، وجلس الباقون عن يمين الرئيس وعن شماله، وبعد أن أعلن الرئيس افتتاح الجلسة قام أحد محامي (أرجواي) فتقدم إلى المنصة المعدة للترافع، فقرأ قسماً من دفاعه، والقضاة بين مستمع إلى كلامه، وبين مطالع في أوراق أمامه قد تكون ترجمة ما يقول المحامي، ومن هؤلاء السيد ظفر الله فقد كان غارقًا في مطالعة ما بين يديه من أوراق، أما الدكتور بدوي فقد وضع يده تحت خده متكئًا عليها، وأنصت باهتمام إلى ما يقوله المتحدث، ومن بين القضاة من شغله إصلاح شارة المحكمة المعلقة فوق صدره

زمنا ليس بالقصير !! بحيث كان بين آونة وأخرى لا يفتأ أن ينظر إليها ثم يصلح نشرها فوق صدره، مما لا يستطاع تصوره، أو تصديق حدوثه من قضاة عالميين، لهم منزلتهم ومكانتهم !!

لم أفهم ما قال المحامي، ولم أحاول أن أفهم شيئا منه، إذ كنت بحاجة إلى الراحة فالجلسة - بالنسبة لي- كانت مَملّة، لولا ماشابها من حركات طريفة، ولهذا فعندما شرع أحد المترجمين بنقل كلامه إلى اللغة الفرنسية خرجت مع صاحبي.

وفي الساعة الثامنة - بعد الظهر - زرت بيت الطلبة في (لاهاي) لكي اجتمع ببعض الطلاب العرب، وبيت الطلبة يضم ما يقرب من مئتي طالب، وفيه من العرب عشرة طلاب، وهذا البيت مخصص لطلاب (معهد الدراسات الاجتماعية) وقد اجتمعت فيه بتسعة طلاب يدرسون دراسات مختلفة اجتماعية وهندسية، هم زيادة عبد الهادي ومحمود الحمصي، وناهدة إبراهيم حلمي - من العراق - ومنذر عنبتاوي، وأحمد خليفة، وخير الدين المعاني - من الأردن، فلسطين - وأبو بكر الصديق من مصر، وعاصم عطا الله من لبنان، وقد أمضيت مع هؤلاء ما يقارب الساعتين، وكان الحديث عاماً عن الشؤون العربية، ومن بين الحاضرين سيدة هولندية تتولى إدارة منزل الطلبة، وقد سألتني عن السيد حمزة غوث قائلة إن ابنه خالدا كان هنا، سألتني قائلة - حسبما فهمت من المترجم - إنها تعرف بأن للسيد سبعة عشر ولداً فعسى أن يكون اكتفى بذلك، فأجبتها بأنه لا علم لي بهذا ولكن الذي أعلمه أن السيد حمزة غوث يتمتع بصحة جيدة. وحاولت أن أمزج الجد بالهزل، فقلت مامعناه : العرب قليلون، ولهذا فهم بحاجة إلى ما يزيدهم، بخلاف الغربيين الذي يقللون من الأبناء لكثرة عددهم!

***

إلى لَيْدن(*)

تُعد مدينة (ليدن) من أهم مراكز (الاستشراق) في بلاد أوربة، وفيها في مطبعة (بريل) التي هي أقدم مطبعة عربية وشرقية في الغرب طبع بها كثير من المؤلفات العربية، ولا تزال هذه المطبعة تقوم بطبع كثير من مؤلفات المستشرقين كـ«المعجم المفهرس لألفاظ الحديث» باللغة العربية و«دائرة المعارف الإسلامية» باللغة الإنجليزية، وغيرهما.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ١٧ ربيع الثاني ١٣٨٠ - ٧أكتوبر ١٩٦٠ - ذهبنا إلى مدينة ليدن من لاهاي، وتقطع السيارة المسافة بين المدينتين في عشرين دقيقة، وكان صاحبنا الهولندي السيد جان فان أُس - مندوب (أرامكو) قد اتصل ببعض المعنيين بالدراسات العربية والشرقية للتعريف بي وبمرافقي، فلما وصلنا المدينة كان أول مكان زرناه هو بيت المستشرق (سنوك هر غرونيه) المستشرق الهولندي المعروف الذي أتى إلى مكة متنكراً في زي حاج، وتسمى باسم (عبد الغفار) منذ ٧٦ عامًا وأقام فيها خمسة أشهر ونصفا وألف عن تاريخها وعادات أهلها وجغرافيتها كتابا له شهرة كبيرة عند المستشرقين [١].

وقد أضيف منزل (سنوك هر غرونيه) إلى الجامعة بحيث أصبح تابعًا لقسم الدراسات الشرقية، وهو على ما كان عليه في عهد (سنوك) وفيه مكتبته الكبيرة التي تضم كثيراً من الكتب العربية والشرقية، وكتب على مدخل الباب اسمه.

وجدنا في داخل البيت خمسة من العلماء المستشرقين الهولنديين، منهم مدير مكتبة الجامعة، ومن بينهم مستشرق يجيد اللغة العربية يدعى (بروخمن) يتولى

(*) «اليمامة» العدد ٢٥٣ الأحد ٢٩ جمادى الأخرة سنة ١٣٨٠ (١٨ ديسمبر سنة ١٩٦٠) السنة الثامنة.

(١) انظر عن هذا المستشرق كتاب "رحالة غربيون في بلادنا" ص١٠١ وما بعدها وقد عرب الجزء الأول من كتابه عن (مكة).

الآن وظيفة (رئيس قسم إفريقية) في وزارة الخارجية الهولندية،والأستاذ بروخمن هذا شاب، قد أقام في مصر نحو إحدى عشرة سنة – من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٥٩ – وألف كتاباً عن "الشريعة الإسلامية في مصر الحاضرة" وقد درس اللغة العربية أول ما درس في (جامعة ليدن) على الأستاذ المستشرق (كرامرس) .

مكتبة السيدة سلمى: وقد شاهدنا في منزل (سنوك) قسمًا من المكتبة في غرفة خاصة، هي غرفة الاستقبال مكتوب فوقها (السيدة سلمى) بحروف لاتينية، ورأينا في الغرفة صورة رجل عربي، في زي سكان أهل جنوب الجزيرة، وقد قال لنا الأستاذ (بروخِمن) : إن سلمى هذه هي إحدى بنات أحد أمراء (زنجبار) وقد زار تلك البلاد أحد الألمان، فتزوج سلمى – بعد أن أسلم – وأتى بها إلى بلاده، ولما توفيت أهدى كتبها إلى الأستاذ سنوك، وقد سميت هذه السيدة باسم (إميلي رو)وكتب الاسمان فوق مكتبتها [١] .

مكتبة جامعة ليدن: ذهبنا إلى هذه المكتبة بعد أن استرحنا قليلا من الوقت في منزل (سنوك) وتحدثت مع الأستاذ (بروخمن) عن العرب وآثارهم، وعن الاستشراق والمستشرقين في هولندا، وهذه المكتبة تضم ما يقارب المليون ونصفه من المجلدات، وفيها قسم شرقي يضم من المخطوطات وحدها حوالي سبعة آلاف كتاب، يقارب عدد الكتب العربية فيها (المخطوطة) ثلاثة آلاف كتاب .

أظهرت للأستاذ (بروخمن) أن الوقت قصير، لا يتسع للاطلاع عليها، ولهذا فيحسن الاكتفاء بالاطلاع على بعض الكتب النادرة فطلب من أمين المخطوطات إحضار كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم – والكتاب مطبوع – إلا أن الأستاذ (بروخمن) قال لي : إن هذه النسخة لا ثانية لها في العالم تعرف الآن، (وهي جيدة الخط، من مخطوطات القرن الثامن الهجري، إن لم تخنِّي الذاكرة) .

(١) كتبت مذكراتها باللغة – الألمانية – ثم عُرِّبت، ونشرت في عُمَان .

واطلعنا على كتاب "منائح الكرم" في تاريخ مكة للسنجاري والنسخة حديثة (مخطوطة سنة ١٣٠٧) إلا أنها جيدة الخط، تقع في ٥٩٥ صفحة، في الصفحة ٢٣ سطراً.

وحدثت الأستاذ (بروخمن) عن الشيخ أمين بن حسن الحلواني(١) وعن الكتب التي باعها على (مكتبة بريل) فأحضر لي فهرس تلك الكتب ويقع في ١٨٣ صفحة مطبوع في ليدن، وضعه المستشرق (كارلولندبرخ) سنة ١٨٨٣ باللغة الفرنسية وأسماء الكتب مكتوبة باللغة العربية، ويتضمن وصف ٦٦٤ من الكتب والرسائل المخطوطة.

---

(١) الشيخ أمين بن حسن الحلواني، ويعرف بالشيخ المدني من علماء المدينة المعروفين، وله ترجمة موجزة في « دائرة المعارف الإسلامية » التي وضعها المستشرقون، وقد كتبت عنه في أحد أعداد جريدة « البلاد السعودية »، وأضيف الآن بأن المذكور كان ينزل في المدينة في دار مطلة على (الحديقة العينية) كما يدل على ذلك ما جاء في طرة المخطوطة رقم ٢٢ ش (تاريخ) من كتاب « عمود النسب » المخطوطة بدار الكتب المصرية، وهو بخط الشيخ الحلواني وهذا نصه : قرأت هذا الكتاب عمود النسب للفهامة أحمد البدوي قراءة ضبط وتحرير دراية ورواية، فأوضحت مشكله، وأعربت مغفله، وبينت مبهمه وفصلت مجمله، على شيخنا وأستاذنا علامة فن اللغة والأنساب، وفهامة علم سيرة النبي والأصحاب إمام الحرمين بلا مدافع، سيدنا النسابة الشيخ محمد محمود الشنجيطي العبشمي، أمتع الله بحياته في مجالس منها في روضة النبي ﷺ (ومنها في داري المطلة على الحديقة العينية) وآخر مجلس وبه تم الكتاب في بيته حرسه الله – مطموس ما بين الفاصلتين –، حرسه الله في حارة الأغوات بقرب منهل العين الزرقاء) وفي ظني أن هذه النسخة غدت من النسخ التي يعول عليها ويرجع في المعضلات إليها وكتبه الفقير إليه تعالى أمين بن حسن الحلواني المدني خادم العلم بالروضة المطهرة في غرة رجب الأصب سنة تسع وتسعين بعد المئتين والألف من هجرة سيد المرسلين ﷺ.

ثم ختم المدني (أمين المدني ١٢٩٠) وفي هامش هذا بخط الشيخ الشنقيطي ما نصه :

الحمد لله وحده : ما ذكره الندب الأغر، ولدنا الأبر، الفرد القائم مقام الجمع، المنقاد إلى الحق بزمام الطاعة والسمع، من قراءة هذا الكتاب، وروايته ودرايته، صحيح والله اسأل أن يهدينا جميعا الرضا وقاله وكتبه محمد محمود ابن التلاميد التركزي المدني ثم المكي غرة رجب سنة تسع وتسعين بعد المئتين والألف).

ثم ختم الشنقيطي (لله الأمر من قبل ومن بعد).

وانظر « العرب" س ١ ص٣٠١ و ١١٥٣.

واطلعت في المكتبة على رسالة مطبوعة، مصدرة بصورة جميلة للشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني، قال لي الاستاذ (بروخمن) حينما قرأ عنوان الرسالة: إن اسمها (مشاهدات عن مؤتمر المستشرقين في ليدن، من مستشرق عربي) وأن الشيخ الحلواني وضعها بالعربية ولكن المستشرق سنوك نقلها إلى اللغة الهولندية، وطبعت بهذه اللغة وتقع في ٥٤ صفحة.

الأمثال في مكة: ومما اطلعنا عليه رسالة في (أمثال أهل مكة) وضعها المستشرق (سنوك) وتقع هذه الرسالة في أول الجزء الخامس من مؤلفاته، في ١١٢ صفحة، أورد فيها ٧٧ مثلاً بدأها بمثل أورده بهذه الصيغة (كثرة الأمثال، ليس من فحول الرجال) وختمها بهذه الجملة: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن كان عندك شيء هاته) وقد أورد الأمثال بنصها العربي وشرحها باللغة الألمانية، وألحقها بفهرس للألفاظ، وقد نُشرت هذه الرسالة في مجلة « الدراسات الشرقية » في سنة ١٨٨٦م في الجزء الـ ٣٥ من صفحة ٤٣٣ إلى صفحة ٥٧٦.

وقد كرم الدكتور فورهوفن مدير القسم الشرقي في مكتبة جامعة ليدن فأهدى إليَّ نسخة من هذا الجزء المحتوي على تلك الرسالة وقد نشرتها معربة في « اليمامة ».

في مكتبة بريل: لعل هذه المكتبة هي أحفل المكتبات التي تقوم ببيع الكتب – في أوروبا – بالكتب العربية، فمطبعتها أقدم مطبعة عربية، وجامعة ليدن التي تقع هذه المكتبة بقربها هي من أعظم الجامعات التي عنيت بالدراسات الشرقية، ولا يزال هناك نوادر من المؤلفات العربية التي قامت هذه المكتبة بطبعها، لم تطبع بعد في البلاد العربية.

زرنا هذه المكتبة بعد أن تناولنا الغداء في أحد مطاعم مدينة ليدن، وكنا على عجل في زيارتها، ولعل في ذلك خير لنا، فقد أخرجت من بين رفوف هذه المكتبة المملوءة بالمطبوعات العربية مما طبع في الشرق ومما طبع في الغرب ثمانية من

الكتب، لا يتجاوز الكبير منها الـ ٥٠٠ صفحة ولا تبلغ صفحات كثير منها الـ ١٠٠، أخرجتها ثم نقدت فيها واحد وثلاثين ومئة دولار فقط (أي مبلغ تسعة وثمانين وخمس مئة ريال).

الناس هم الناس(*) ! ظننت أن أصحاب هذه المكتبة على درجة من الأمانة والصدق تتناسب مع ما لهذه المكتبة من شهرة عظيمة في الشرق وفي الغرب، فنقدتهم ثمن الكتب التي اخترتها بدون أن أماكسهم في ذلك، أو أتحقق من قائمة الأثمان التي قدموها لي صحتها، ولكنني حينما عدت إلى الفندق، وتصفحت القائمة، وجدت فيها أن ثمن واحد من تلك الكتب هو كتاب "الخيل" لابن الكلبي، ومعه كتاب "خيل العرب وفرسانها" لابن الأعرابي وجدت الثمن ثمانية قلدرات، (أي أقل من دولارين) والمبلغ الذي أخذوه مني ثمناً لنسختين من هذا الكتاب هو ثلاثون دولاراً، وهو ١٣٥ قلدراً أي بزيادة ١٢٠ قلدراً في ثمن نسختين من كتاب لا تبلغ صفحاته الـ ٢٠٠! ولما اتصلت بهم – هاتفيا – أجابوا بأن الثمن الموجود في القائمة غير صحيح، لأنه جاء مغلوطاً من الطبع، فصدقت هذا، غير أنني بعد أن سافرت من هولندا وجدت الثمن مكرراً مرتين، مما جعلني أعتقد بأنَّهم خدعوني، وكذبوا عليَّ فكتبت لهم كتابًا – بواسطة ممثل أرامكو – فما كان منهم إلا أن اعتذروا له وسلموه مبلغ ٢٥ دولاراً قالوا له: إنها أُخذت سهواً زيادة في ثمن كتاب «الخيل».

قارنت – وأنا في ألمانيا – الثمن الذي أخذوه مني لجميع الكتب، بما جاء في قائمة مطبوعاتهم، فوجدتهم أخذوا زيادة على ما جاء في تلك القائمة أجابوا بأنني أنا الذي أخرجت الكتب من رفوفها وأخذتها ولهذا فلا حق لي في المراجعة.

هذا مثال من أمثلة الغربيين ومثال آخر: ركبت من مطار (فرانكفورت) إلى المدينة ركبت الحافلة، وقدمت لجابي الأجرة (الكمساري) عشرة ماركات،

(*) "اليمامة" العدد ٢٥٤ الأحد ٧ رجب سنة ١٣٨٠ (٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٠) السنة الثامنة.

ليصرفها ويأخذ منها الأجرة، وهي أربعة ماركات، فما كان منه بعد أن علم أنني لا أعرف أنواع العملة إلا أن ملأ يدي بنقود تكاثرتها، ولكنني لما عدتتها في الفندق وجدتها تنقص عن حقي النصف فقط !! مع تأكيده لي بأنه أعطاني حقي كاملا..!

ويتسع المجال لو أردت الاسترسال في الحديث في هذه الموضوعات، لا بالنسبة للغربيين وحدهم، بل للشرقيين من عرب وغيرهم نصيبهم كاملاً غير منقوص، غير أن البلاد التي ينتشر فيها التعليم، ليست كالبلاد التي لم تنل حظاً منه، ولا شك أن الغربيين متفوقون على الشرقيين في هذا، ولكن العلم شيء، والأخلاق شيء أخر، فما كل متعلم ذا أخلاق فاضلة.

في عاصمة الإنجليز

من هولندا إلى لندن (*) في الساعة السادسة بعد ظهر يوم الجمعة – ١٧ ربيع الثاني – غادرت (فندق أوروبا) في مدينة (لاهاي) إلى مطار (أمستردام) فوصلت المطار الساعة السابعة، والمسافة خمسون كيلا (٣٥ ميلا).

وفي الساعة السابعة والدقيقة العشرين امتطيت متن إحدى طائرات شركة (K.L.M.) بعد أن نقدتها الأجرة وقدرها ٨٠ / ٣٣ من الدولارات الأمريكية وبعد ساعة واحدة هبطت مطار لندن، (أي الساعة ٢٠ر٨ بتوقيت هولندا، أو الساعة ٢٠ر٧ بتوقيت لندن، فالفرق ساعة).

ولقد كانت المعاملة في مطار لندن، أيضا، سهلة لم تتجاوز مجرد فتح الحقائب، بدون جس أو لمس لما في داخلها، وإن كنت من بين المسافرين الوحيد الذي لا يكترث بشيء من ذلك لفراغ حقيبتي – والحمد لله ! – و (فاز المخفون) !

ليلة ليلاء ! قيل لي وأنا في (هولندا) : لا بد من حجز غرفة في أحد الفنادق في لندن لكي تسكنها، ساعة وصولك تلك، إذ من الصعب الحصول على مسكن في المدينة، فاتصلت من (لاهاي) هاتفيا بمكتب الدكتور حامد حسن – وسأتحدث عنه – ولكنه كان غير موجود في مكتبه حينما حاولت الاتصال به، وكنت قد حددت موعد السفر، فعزمت عليه، وتركت أمر الفندق حتى أصل (مدينة لندن) وهنالك – على مايقولون : (يحل المشكلة حلالها).

ولما وصلت المدينة قلت لسائق السيارة – سيارة الأجرة – : إلى الفندق ! فاستوضح مني عن اسم الفندق الذي أريده فقلت : أي فندق كان ! وكان التخاطب بيني وبينه بالإشارات، فهو يرطن ويهذر باللغة الإنجليزية، وأنا لا أفهم شيئا مما يقول، ولا أجيبه إلا بالإشارة. مررنا بعدد من الفنادق بين صغير وكبير ومتوسط، نقف عندها ويتحدث مع أصحابها، ثم يأتي إليَّ مقطب الوجه، وهو يشير بيده قائلا : (نو . نو) مردفا ذلك بكلام كثير لا أفهمه.

(*) "اليمامة" ع ٢٥٥ في ١٤ / ٧ / ١٣٨٠هـ (١ / ١ / ١٩٦١م).

وبعد أن أخذ الغضب من السائق كل مأخذ، من كثرة ما ممرنا عليه من الفنادق، تذكرت أن أحد الإخوان في مطار الرياض قد كتب لي عناوين بعض الأصدقاء في لندن، فأخرجت "المفكرة" من الحقيبة وأريت السائق تلك العناوين، ومنها رقم هاتف الدكتور حامد حسن، فوقف عند باب أحد الفنادق، ثم عاد إلى تكرار إشارته الأولى التي تدل على (الخيبة) ولكنني ذكرت عنوان مسكن الأخ عبد العزيز المنقور، وأنه (إيجل هاوس كرافن رود) فنطقت بهذه الكلمات للسائق نطقاً فهمه بعد لأي، فسار بي منطلقًا كالسهم، يخترق الشوارع والأسواق الكثيرة، حتى وقف عند باب ذلك المكان، وهبَّ مسرعا لينزل الحقيبة، فأشرت إليه ليبقيها، فأشار إليَّ لكي أدخل المكان لأبحث عن صاحبي، ولكنني خشيت – من طول ما لاقاه من عناء – أن يهرب، وأنا لم أحفظ رقم السيارة، فأشرت إليه لكي يدخل معي المنزل، فكان ذلك، وقام هو بالبحث بعد أن كررت له اسمه حتى حفظه، ولكننا بؤنا بالفشل، فلم نجد في المنزل من يخبرنا عنه، وقد بلغ الغضب من السائق مبلغه، وحاول أن ينزل حقيبتي من سيارته، ولكنني حاولت تهدئته، وأمرته بإبقائها في السيارة، وأخذت بيده مشيرا إلى لافتات لعدد من الفنادق، فسار معي، وبعد أن أوشك اليأس أن يستولى على نفسي مررنا بنفدق صغير يحمل اسم (رونالد هوتيل) وهو مقابل للمكان الذي بحثنا عن الأخ المنقور فيه، فدخلناه، ولكن السائق بعد أن أطال الكلام مع صاحب الفندق، أشار إليَّ بأنه لا يوجد فيه مكان، وأسرع خارجًا منه، فأشرت إليه بالرجوع. ووقفت أحدِّث صاحب الفدق بالعربية، مستعينا ببضع كلمات إنجليزية حفظتها خلال الرحلة، وما أشد سروري حينما نطق الرجل ببعض الكلمات العربية التي فهمت منها أن لا يوجد لديه سوى غرفة صغيرة، في أعلى طابق في الفندق، والفندق ليس فيه مصعد، والبرد شديد، والمطر يهطل بغزارة، فما كان مني سوى أن ذهبت مسرعاً إلى السيارة وتناولت حقيبتي، وأشرت إلى السائق لكي يدخل معي الفندق لأدفع له أجرته، بعد أن اطمأن بوجود مكان، ولكي يتولى صاحب الفندق دفع الأجرة التي يستحقها.

أخذ صاحب الفندق حقيبتي، ووضعها الغرفة التي هو فيها، ولما حاول أن نصعد إلى المكان، طلبت إحضار الحقيبة، ولكنه أجاب – إشارة ونطقا غير واضح – بأن الغرفة ضيقة، لا تتسع إلا لجسمي، فقفزنا درج خسمة أدوار مسرعين، ثم دخلنا غرفة – وكلمة غرفة كبيرة هنا – فيها سرير صغير، ومنضدة صغيرة، لم تتسع لكتاب كبير كنت أحمله بيدي، فأسندته على الجدار.

كان التعب من المشي ومن البرد، ومن هطول المطر، قد أخذ مني كل مأخذ، وكان الليل قد أوشك أن ينصرم، فرميت بجسمي فوق ذلك السرير القصير، وتقرفصت فيه – مع قصري – فاستغرقت في نوم عميق حتى الساعة السابعة.

في المتحف البريطاني[1]

خرجت من الفندق مبكراً، ولعل من أسباب ذلك أنني خشيت أن تكون تلك الغرفة (أو الكنّ) قد حجزت لغيري فيطلب مني صاحب الفندق الخروج منها، قبل أن أقضي أربي من لندن، ومالي فيها من أرب سوى زيارة بعض المكتبات ولهذا كان أول ما قصدت فيها (المتحف البريطاني) الذي وصلت إليه الساعة الثامنة والنصف، وكان لا يفتح إلا بعد تمام الساعة العاشرة، ولما دخلت بابه الخارجي، محاولاً أن أجلس داخل الأروقة اتقاء للمطر حتى يفتح منعني الحاجب، فخرجت وأمضيت الوقت متجولا في الشارع.

لم أحتج إلى دليل داخل المتحف، مع سعته وكثرة أقسامه، إذ حينما دخلت الباب الداخلي شاهدت مصورا – (خارطة) يوضح أقسام المتحف، فاتجهت إلى القسم الشرقي من مكتبة المتحف، وأفهمت مدير هذا القسم بأنني لا أعرف إلا

(١) "اليمامة" العدد ٢٥٦ تاريخ ١٣٨٠/٧/٢١هـ.

اللغة العربية، فاتصل هاتفيا بأحد الأقسام، وبعد بضع دقائق، كنت خلالها أطالع أسماء الكتب العربية المطبوعة الموجودة في غرفة مدير القسم الشرقي، ما شعرت إلا ورجل أشقر اللون، ذو عينين حادتي النظر، ووجه نحيل، ولحية معفاة، وإن لم تكن كثة، يقف بجانبي قائلا : (السلام عليكم)، فرددت عليه السلام، فقال لي : أنا موظف هنا، وأتيت لمساعدتك فيما تريد، فأخبرته بأنني أحب الاطلاع على بعض المخطوطات العربية، التي تتعلق بتاريخ العرب أو جغرافية بلادهم، فأحضر لي فهرس الكتب العربية الموجودة في المتحف، في ثلاثة مجلدات ولكن أين الورقة التي هيأت لك الدخول في غرفة المدير؟ فقلت : سبحان الله! دور العلم يحتاج دخولها إلى أوراق؟ فقال الحقّ معك لغرفة المطالعة، ثم ذهب وعاد مسرعا. وقدم لي ورقة وقال لي : إن هذه تمكنك الدخول إلى القسم في خلال أسبوع. وإذا احتجت إلى زيادة وقت أتيتك بورقة أخرى، وإن رغبت في شيء من الكتب المخطوطة فاكتب رقم الكتاب على ورقة من أوراق الاستعارة – وقدم لي شيئا منها – وأنا أحضر لك ما تطلبه من كتب، ثم ذهب وعاد إليَّ بعد برهة من الزمن وقد كتبت أسماء عدد من الكتب التي أريد، فأحضرها.

لقد عرفت عن هذا الرجل أنه إنجليزي من قرية قريبة من (مانشستر) وهو يدعى الدكتور (مارتن لنجز) ويعرف بهذا الاسم، وهو يشغل وظيفة مساعد حافظ في القسم الشرقي من مكتبة المتحف البريطاني، وقد أسلم وحج عام ١٩٤٨ – وأقام في مصر من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥٢م واشتغل فيها في التدريس في كلية الآداب في الجامعة المصرية، وألف مؤلفات في التصوف – باللغة الإنجليزية – وهو يتكلم العربية بطلاقة، واسمه بعد ما أسلم (الحاج أبو بكر سراج الدين) ولكنه لا يُعرف في المتحف البريطاني إلا باسم (لينجز) الاسم الإنجليزي الأول (١).

---

(١) ويعد من مشاهير الغربيين، الذين اعتنقوا الإسلام، وقد أكرم من بينهم من قبل رئيس جمهورية مصر محمد حسني مبارك في احتفال كبير أقيم لتلك الغاية.

حول الكتب : طالعت بعض الكتب الخطية النادرة مثل كتاب "الأمكنة والمياه والجبال والآثار" لأبي الفتح نصر الإسكندرني، وهو من مصادر ياقوت في "معجم البلدان" و "ديوان الجراح بن شاجر" وهو شاعر من جازان، كتب عنه صديقي الأستاذ الشاعر المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي، و "ديوان ابن المقرب الأحسائي" وغير ذلك من الكتب.

من أخطاء المستشرقين (*) : ومما لاحظت أثناء مطالعتي : أن بعض المعنيين بشؤون المخطوطات العربية، في البلاد العربية، قد يعتمدون ما يكتبه المستشرقون عن تلك المخطوطات، ولو كان خطأ ولا يتسع المقام لإيراد أكثر من مثالين على ذلك :

١ - في فهرس دار الكتب المصرية نسب كتاب "تاريخ ابن المجاور" إلى ابن المجاور الدمشقي المتوفى سنة ٦٩٠ - اعتمادا على ما جاء في فهرس مكتبة المتحف البريطاني ولأن نسخة المتحف - وهي أحدث خطا من نسخة دار الكتب المصورة من اسطنبول - كتب في طرتها أنها تأليف ابن المجاور الشيباني، ونقل الناسخ ترجمة هذا من كتاب « العبر » للذهبي، مع أن مؤلف (تاريخ ابن المجاور) عجمي نيسابوري، قدم من الديبل، في السند إلى جدة سنة ٦١٨ وقد أشار الأمير جعفر الحسني في أحدأعداد مجلة « المجمع العلمي العربي » إلى خطأ نسبة هذا الكتاب لابن المجاور الدمشقي الشيباني، وكنت قد أشرت إلى ذلك في أحد أعداد جريدة « البلاد السعودية » قبل أن ينشر الكتاب، وقبل أن ينشر الأمير الحسني مقاله عنه في (مجلة المجمع) فقد كنت اطلعت على مخطوطة دار للكتب، فَنُسخَت لي ودرست الكتاب فعرفت مما ورد فيه أن مؤلفه أعجمي فارسي من أهل خراسان، وتحدثت عنه في بعض الصحف.

(*) "اليمامة" العدد ٢٥٧ الأحد ٢٨ رجب ١٣٨٠ (١٥ يناير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة.

٢ - في فهرس قسم التاريخ من كتب (معهد المخطوطات - في الجامعة العربية) سمى كتاب "النسب الكبير" باسم "جمهرة النسب" وكذا في فهرس مكتبة المتحف البريطاني وعلى هذا سار (ورنر كاسكل) حيث نشر الكتاب الأول، وهما كتابان متغايران، يعرف هذا من يطالع الكتابين وقد كتبت بحثا عن الكتابين نشر في مجلة "العرب" .

العودة إلى الفندق : اطمأنت النفس بعد أن أمضيت برهة من الزمن في مكتبة المتحف، وبعد أن علمت بأن فنادق كثيرة بقرب المتحف فيها أماكن خالية للسكن، ولكنني وجدت صاحبه يقابلني بكثير من البشاشة، ويشير بأنه كلم الدكتور حامد حسن المشرف على الطلاب السعوديين، وأن الدكتور سيتصل بي، فاظهرت عدم اهتمامي بالأمر، واستوضحت منه عما إذا كان سيجد لي غرفة خيراً من التي أنا فيها، فأبدى استعداده، وفعلا أخذ بيدي إلى غرفة واسعة، في الدور الثاني، بأجرة مناسبة هي جنيهان .

في حديقة (هايدبرك) : وفي اليوم الـ - ١٨ من الشهر - وهو يوم أحد - ويوم الأحد يوم عطلة . والمكتبات مغلقة، فكيف أقضي هذا اليوم؟ أأذهب إلى حديقة الحيوان؟ ولكن اليوم مطير فكيف أتقي المطر؟ ذكرت ما قرأته عن (حديقة هايدبرك) وما حدثت به عنها فركبت إحدى الحافلات إليها، ولكنني نزلت بعيداً عن مدخلها الرئيس، وهي غيرمسورة وجميع جهاتها مداخل وطرق، وكان المطر يهطل غزيرا، وليس في تلك الحديقة الكبيرة ما يستظل به إنها عبارة عن أرض واسعة ذات تلال ومنحدرات، ولكنها جميعها مكسوة بالنبات الأخضر القصير المعروف في نجد باسم (الثِّيِّل) وجوانبها محاطة بأشحار باسقة .

كنت أريد المكان الذي يجتمع فيه الناس، ليستمعوا إلى الخطباء والمتحدثين الذين يخطبون ويتحدثون عن كل شيء وبكل صراحة وحرية تامة، فكيف أعرف هذا المكان؟

شاهدت رجلا يسير في الحديقة مسرعا اتقاء المطر، ومعه طفل رضيع، وضعه داخل عربة يجرها، فقربت من الرجل، ونطقت بكلمة انجليزية ملحونة، وارفقت النطق بإشارات من يدي كلتيهما ففهم ما أردت وأنه مكان الاجتماع وأشار إليَّ لأسير معه، وترك اتجاهه الأول، واتجه ناحية أخرى، وسرنا في الحديقة حتى أشرفنا على أناس مجتمعين في أحد جوانبها، فعرفت أنه المكان الذي أردت، فشكرته وأشرت له ليرجع إلى قصده، وقد علمت من هذا الرجل أنه من (سيلان) وأنه موظف كبير في سفارة هذه البلاد.

وصلت مكان الاجتماع وكان المطر قد وقف فوجدت الناس يتحدثون فيما بينهم وهم وقوف، حديثا لم أستغرب منه إلا ارتفاع الأصوات، وان كنت لم أفهم مما يقولون شيئا، وفي ذالك الركن من الحديقة كراسي صغيرة كثيرة، وعدد قليل من الكراسي الكبيرة المنتشرة في جميع أنحاء الحديقة، أكثرها خالي وكنت قد أحسست بشيء من التعب من كثرة المشي، فجلست على أحد تلك الكراسي، جوار رجل أردكت من سحنته أنه أفريقي، فقلت له باللغة العربية : هل الأخ من السودان؟ فأجاب : نعم أنا من بلاد السودان، فسسرت بالتقائي بإنسان أستطيع الحديث معه لولا أن المطر عاد مرة أخرى ففرق بيننا. قال لي هذا الرجل، وهو رئيس شركة تجارية في الخرطوم للاستيراد والتصدير، يدعى، (صالح عثمان صالح) - : ان الاجتماع في هذا المكان يبدأ بعد الساعة الثالثة مساءً ، وهؤلاء المجتمعون يخوضون في شتَّى الأحاديث، وجُلُّ ما يتحدثون عنه من الأمور التافهة، ولكن هذا المكان يشاهد المرء فيه العجب من صراحة بعض الخطباء والمتحدثين، ولا يتعرض لهم أحد. كان السيد السوداني (صالح عثمان صالح) عائدا من (فنزويلا) وله ثمانية أيام في (لندن) لأمر يتعلق بتجارته، ولكنه يشكو مُرَّ الشكوى من كسل التجار هنا ويقول بأن الوقت يمضي ولا يستطيع المرء أن ينهي عمله معهم، فالواحد لا يعمل في اليوم إلا ساعات قليلة، لا يحضر إلى مكتبه إلا متأخرا ويذهب منه متقدما.

دعاني السيد السوداني للغداء، وأشار إلى الفندق الذي هو ساكن فيه، وقال لي : إن بجواره فندقاً كبيرا – سمَّاه لي جوار حديقة (هايد برك) – رأي في عربا يلبسون الملابس العربية، فشكرته على دعوته، وقلت له : لا حاجة لي إلى الاجتماع بأحد وقد عرفت – فيما بعد – أن أولئك من (جدة) مدير الجمارك، ومرافقوه، وهو من بيت الرُّحيمي من ينبع، ممن سبق لي أن عرفته.

ثم اشتد نزول المطر ففرق بيننا، وكنت أدركت أن المسافة بين الفندق الذي أسكن فيه وبين الحديقة ليست طويلة، فعزمت على الذهاب إلى الفندق ماشياً، وكان وقت الغداء قد أزف، فاتجهت صوب الفندق، وكلما قطعت شارعا، أو انحرفت بانحراف أحد الأزقة، أخرجت البطاقة التي فيها عنوان الفندق وسألت أحد المارة، وقد أضطر إلى قطع مسافة طويلة في غير الاتجاه، لقلة المارة في الطرقات، والدكاكين والمحالات التجارية مع كونها مغلقة في يوم الأحد إلا القليل، فإن كثير من الأسواق والمحلات لا يوجدفيها دكاكين، وفي بعض جهات المدينة تنحصر الدكاكين والمحلات التجارية في الشوارع الرئيسة.

ها أنا قد وصلت إلى الشارع الذي يقع فيه الفندق، ويسمى (ويست : بوردن، تراس) فشاهدت في أحد منعطفات الأزقة المتصلة به لافتة مطعم، دخلته فتقدم إلي النَّدل بقائمة الطعام، وقبل أن أنظر فيها قلت له : (سوب) أي إني أريد حساء لأنني أحس بالبرد، فقال : (عدس) باللغة العربية، والظاهر أنه أدرك من عدم إجادتي نطق الكلمة الانجليزية، ومن لهجتي ونطقي ببعض الكلمات العربية أنني عربي، لقد كان الرجل يعرف كلمات من اللغة العربية، وهو هندي مسلم يدعى (أحمد) والمطعم يسمى (المطعم الشرقي، الهندي الباكستاني). وكان الغداء غداً شرقياً لذيذاً، وأصبح المطعم المطعم المفضل أثناء إقامتي في لندن، فهو يقدم أنواعا من الأطعمة التي اعتدت أكلها، وأجد فيه من أستطيع – ولو بجهد – معرفة بعض كلامه.

إلى المتحف مرة أخرى : ويوم الاثنين كان يوما غزير المطر، والظاهر أنَّ الناس هنا اعتادوا هطول المطر في كثير من أيام السنة، فأنت تشاهدهم في الأسواق

والشوارع غادرين ورائحين، وتشاهد بعضهم في الحدائق يمشون الهوينا على ظهور الخيل، أو على أرجلهم، غير متأثرين بهطول الأمطار أو جريان السيول في الشوارع والأسواق.

ذهبت متجها صوب الجهة التي يقع فيها (المتحف) وما كنت أعرف مقدار المسافة بيني وبينه لأنني ذهبت إليه بالأمس وعدت في سيارة، ولكنني بعد أن قضيت ساعة كاملة في المشي، خشيت أن يحين وقت إغلاقه قبل الوصول إليه، فعرجت على دكان جزارة، توسمت من سحنة رجلين واقفين داخله أنهما شرقيان، لكي أستعين بهما على معرفة الطريق، فأشارا إليه ولكنني فهمت من إشاراتهما أنه بعيد، ولما لم أجد سيارة أجرة تلك الساعة نزلت إلى إحدى محطات السكك الحديدية ومدينة (لندن) مثل مدينة (نيويورك) تكثر في جوفها خطوط السكك الحديدية، التي تصل بين شوارعها ومحلاتها، ومن الفوارق بين خطوط المدينتين وهي كثيرة أنك في (نيويورك) بعد أن تدفع الأجرة للموظف يعطيك قطعة من الحديد، لتطرحها داخل ثقب لدى الباب الداخلي للمحطة، فينفتح الباب بطريقة آلية، وتذهب إلى أي قطار تريد، وتبقى أي وقت تشاء، متنقلا كما تشاء، أما في لندن فالموظف يعطيك بطاقة صغيرة مكتوب فوقها الجهة التي تقصدها والأجرة التي دفعتها، ولا تدخل باب المحطة حتى تعرضها على البواب وعندما تخرج من الباب الآخر تقدمها للبواب.

نزلت إلى محطة القطار (*)، وهي في جوف الأرض تحت بنايات المدينة، فشاهدت شابا نازلا يريد ركوب القطار، فطلبت منه إرشادي إلى القطار المتجه إلى الجهة التي يقع فيها المتحف، فأشار إليَّ بأن أرافقه إلى قطار وقف لحظة وصولنا، ركبنا القطار ومررنا بمحطات كثيرة فأظهرت له الاستغراب من الطريق، فرسم لي فوق صحيفة كان يقرأها نصف دائرة، مشيرا بذلك إلى أننا سندور في سيرنا حتى

(*) «اليمامة» العدد ٢٥٩ الأحد ١٢ شعبان سنة ١٣٨٠ (٢٩ يناير سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

نعود إلى قرب المكان. علم الشاب أنني عربي، فأراني في الصحيفة التي يقرأها خبر وفاة ملك زنجبار السيد خليفة بن حروب وأراني صورته كانت الصحيفة هي (المانشستر قارديان) وكان اليوم هو العاشر من أكتوبر. نزلنا من القطار، ثم نزلنا إلى محطة أخرى بدرج كهربائي طويل، فأشار إليّ بأن أركب قطارا مقبلا، وأن أنزل في المحطة الخامسة، فشكرته بعد أن عرفني باسمه وأنه من لندن ويدعى (ادمون قرانت).

المسافة بين المحطة التي نزلت فيها وبين المتحف قصيرة، ولكن الوقت الذي أمضيته في السير على القدم، وفي ركوب القطار كان قريبا من ساعتين، كنت على موعد مع الدكتور الحاج أبو بكر سراج الدين (أو مارتين لينجز - كما يعرف لدى قومه) ولكن الوقت فات، فلم أجد الرجل في غرفة المطالعة في القسم الشرقي من مكتبة المتحف.

طلبت الكتب التي أريد مطالعتها بعد أن كتبت أرقامها في (الاستمارات) فأحضرت إليَّ، وبعد مطالعتها أتيت بها إلى الموظف القائم بشؤون إحضار الكتب، وأظهرت له رغبتي بتصوير بعضها، وأشرت إلى الكتب التي أريد تصويرها فلم يفهم ما أريد، وكان في أول الأمر عندما طلبت الكتب أظهر شيئا من عدم الاكتراث، ولعله استكثرها، ثم بعد أن أحضر الكتب، وجلست للمطالعة وقف يرمقني باهتمام، ولما بدأت أقلب صفحات أحد المخطوطات بسرعة أشار إليَّ بأن لا أفعل،ولما أراد أن يعود إلى مكانه تكلم مع رجل كان يجلس مقابلا لي بكلام لا أدري ما هو، ولعله يوصيه بمراقبتي، لأنني في أحد المرات عندما وضعت الكتاب فوق كرسي مخصص لوضعه لم أحسن الوضع، فسقط على المنضدة مع حرصي الشديد على أن لا يبدو مني ما يظهر عدم اهتمامي بالمخطوطات فنظر إليَّ الرجل شزراً وتكلم بكلام فهمت منه عدم الرضا. لم يفهم مني هذا الرجل ما أريد فطلبت منه أن يدعو الدكتور (مارتن لينجز) فأوما برأسه ولكنه أخذ الهاتف وبعد لحظات حضر رجل أسمر اللون، وقف بجانبي وقال بصوت هادئ بلسان عربي فصيح: ماذا يريد الأخ؟ فقلت له : أحتاج صورا من هذه الكتب على شريط

(ميكرو فلم) وقد كتبت طلب التصوير وهو هٰذا، وكان الدكتور الحاج أبو بكر سراج الدين قد احضر لي فيما أحضر من الأوراق ورقة مطبوعة باللغة الانجليزية لطلب ما أريد تصويره من المخطوطات. كلم الرجل الموظف المسؤول عن شؤون الكتب ثم قال لي : إنه يقول بعد غد يحضر الموظف المسؤول عن التصوير فتقدم له هذا الطلب، فأخبرتهما أنني سأسافر غدا، وتوسلت إلى الرجل باسم العلم ومساعد طلابه أن ييسر لي بغيتي وأن يعجلها، ولكن هذا لم يُجدِ فقال لي : إنه يقول ليس من المستطاع هذا، وفي هذه اللحظة دخل علينا الدكتور أبو بكر سراج الدين – أو مارتين لينجز كما يعرفونه في المتحف – فقال لي : لماذا تأخرت لقد انتظرتك طويلا. فأخبرته بالسبب، ورجوته المساعدة بتصوير ما أريد تصويره، وأفهمته – كما أفهمت الموظف – أن غاية ما أريد الآن أن أعرف الأجرة لكي أدفعها فأطمئن على الحصول على صورة من تلك الكتب فيما بعد، وأنني قد عزمت على السفر غدا. فأخذ الدكتور الكتب، وذهب مسرعا وبعد وقت قصير عاد إليّ قائلا: تعال ادفع الأجرة، وتصل إليك الصورة بعد ثلاثة أشهر، فشكرته وذهبت إلى قسم التصوير في المتحف معه ودفعت ما طلب مني من نقود.

وهذا (*) الرجل الذي تولى الترجمة بيني وبين موظف المكتبة هو الأستاذ سالم الرشيدي، وهو من الحضارمة المقيمين في جزائر الهند الشرقية (جاوة) وقد جاء إلى مصر، فأقام فيها أكثر من عشرين سنة لطلب العلم، فتخرج في الأزهر، وألف رسالة لشهادة (الماجستير) عن (السلطان محمد الفاتح) العثماني، مطبوعة، ثم جاء إلى انجلترا منذ ثلاث سنوات، لتقديم رسالة لنيل إجازة (الدكتوراه) وموضوع هذه الرسالة (التصوف في جنوب الجزيرة) . وقد ذكرت له بعض المصادر، ومنها « تاريخ وطيوط » – لقب صوفي من تهامة معروف.

كان هذا الأستاذ سالم الرشيدي كريم النفس، كريم اليد، فقد دعاني إلى الغداء، فاعتذرت، وألح علي قائلا : تعال نتغدّى لتشاهد جو الطلاب في الجامعة،

(*) «اليمامة» ع ٢٦٠ في ١٩/٨/١٣٨٠هـ.

فشكرته وقلت له : أنا بحاجة إلى زيارة المكتبات التي تُعنَى بالكتب المتعلقة ببلادنا، فأرشدني إلى مكتبتين قريبتين من (المتحف البريطاني) لم أجد فيهما من الكتب العربية التي أريد سوى ثلاثة أجزاء من "تاريخ ابن الفرات" المطبوع في بيروت، وكنت قد بحثت عنه هناك فلم أعثر عليه، فاشتريته من (لندن) وهكذا (بضاعتنا رُدت إلينا)!! وقد دفعني حبي للكتب إلى أن اشتري أيضا مجموعة من الكتب الإنجليزية، من كتب الرّحلات في بلاد العرب ومن الكتب الأخرى المتعلقة بها ومنها ما هو قديم الطبع، مما كلفني ثمناً غاليا و (منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال) .

****

أبناؤنا في (لندن)

مع الدكتور حامد حسن : الدكتور حامد حسن من أقدم الأطباء الذي مارسوا مهنة الطب في بلادنا، ومن ذوي السمعة الحسنة الذي قاموا بعملهم قياما أورث لهم حميد الذكر في هذه البلاد، فقد أقام في الرياض سنوات، ثم في جدة، وتزوج سيدة فاضلة من أهل هذه المدينة، ثم إنه ترك العمل هناك، واستقر في لندن، وفتح مكتبا للاشتغال بالتجارة بطريقة السمسرة (الكومسيون) فأصبحت صلاته قوية حسنة بتجار بلادنا في الرياض وجدة.

كان الأخ محمد المشعل - وهو تاجر قد عامله كتب لي عنوانه قائلا : رُبما تحتاج إلى أحد في لندن، والدكتور من خير من يركن إليه، وقد حاولت الاتصال به من (هولندا) فلم أتمكن، فرأيت ألا أغادر (لندن) قبل معرفة هذا الرجل، بدافع ما سمعت من الثناء عليه، فاتصلت به - هاتفيا - من الفندق، فعلمت أنه موجود في مكتبه، فحضرت إليه ووجدت عنده رجلا من إخواننا أهل جدة بخاريا، يريد إلحاق ابنه بالجامعة، ويريد من الدكتور حامد حسن مساعدته في ذلك، ورأيت عنده طالبا آخر من طلاب (معهد العلوم السياسية التابع لجامعة لندن) هو ابن للسيد شهاب صلاح الدين، وسمعت منه كثيرا من أخبار القادمين إلى لندن كالشيخ محمد نور رُحَيمي - مدير الجمارك - وقد عرفت هذا الرجل، وعرفت والده وإخوانه، أثناء إقامتي في ينبع، كما سمَّى آخرين من القادمين من المملكة، ولكنني كنت مشغولاً بالتهيؤ للسفر عن غيره.

والدكتور رجل لطيف المعشر، كثير البشاشة، يستقبل المرء استقبالا حسنا، بمحيا طلق، بحيث يحس الإنسان بأن هناك صلات وروابط قوية قديمة بينه وبينه، وهو في ذالك يعامل زائريه من تجار وغيرهم.

عن الطلاب السعوديين : كان الدكتور حامد حسن، وهو يتحدث عن أبنائنا الطلاب في مدينة (لندن) - يكاد ينفجر من التأثر، فهو غير راض عن سلوك كثير

منهم وهو غير راض عن دفع المصروفات المقررة لهم بدون رقابة على بعضهم، وهو كثير الثناء على الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، ويتمنى أنَّ طلابنا على شاكلته في السلوك الحسن، والأخلاق الفاضلة.

ويقول الدكتور: بأنه قد أبدى كثيرا من ملاحظاته - كتابة ونطقا - لبعض الرجال المسؤولين في وزارة المعارف، ومنهم من زاره في مكتبه هذا وفي بيته. ولكنه لم ير - بَعد - أثراً لقبول تلك الملاحظات، وقد بذل كل ما يستطيع من حسن التوجيه والنهج.

ويقول أيضا: إن بعض الطلاب الذي يرسبون في الاختبار يعللون رسوبهم بأسباب واهية، والسبب الحقيقي انصرافهم عن الدراسة. وضرب لي مثلا بابنيه اللذين في الجامعة، وأنه لا صعوبة في الدراسة، ولا سبب للرسوب سوى عدم الاهتمام، والانصراف إلى اللهو والعبث.

****

في (لندن) مرة أخرى

كنت [1] في حاجة شديدة إلى الراحة فقد اشتدت عليّ آلام ظهري فأصبحت لا أستطيع إطالة الجلوس للمطالعة أو الكتابة، وأنا سيء الظن بالأطباء لكثرة ما حدث لي من كثير منهم، فرأيت أن أمضي أطول وقت أستطيع إمضاءه في التنقل في أجواء بعيدة عن الأجواء التي ألفت البقاء فيها، وقد سئمت البقاء في باريس بعد أن مضى لي فيها أربعة عشر يوماً (من ١٤/٦/١٣٩٣ إلى ٢٨ منه) ورأيت السفر إلى لندن لا يكلف كثيرا من النفقة لمن هو في باريس، فأجرة الذهاب إليها والإياب منها في الطائرة مئتا فرنك (٥٠ دولاراً) وأنا وإن كنت زرتها في أكتوبر سنة ١٩٦٠ ومكثت فيها أياما إلا أنني لم أشاهد من معالمها سوى المتحف وحديقتها الكبيرة، فأنا لا أحسن إلا اللغة العربية، وكنت وحدي، أما هذه المرة فمعي ابنتاي سلوا ومُنا [2] وهُنَّ يحسنَّ التخاطب الإنجليزية والفرنسية.

ومع أن المرء يتخذ من تجارب الماضي ما قد يحول بينه وبين الوقوع فيما قد يمر به من المتاعب إلا أن كثيرا ما ينسى تجاربه، أو تفوته العبرة منها، كما قال المعري:

وقد يخطئ الرأي امرؤٌ وهو حازمٌ   كما اختلَّ في نظم القريض عبيدُ

وسأشير إلى بعض ما حدث لي حيث لم أتخذ من الماضي عبرة في عدم الوقوع فيه. وسأوجز الحديث وأحصره فيما اعتدت الحديث عنه من وصف بعض ما أشاهد، أو ذكر خاطرة عابرة، أو التقاء بصديق، أو غير ذالك مما يعرض للسائر مثلي في أمكنة يجهلها، وبين أناس يغايرهم في كثير من أحوالهم وطباعهم.

ليلة الأحد: (٢٨/٦/١٣٩٣ – ٢٨/٧/١٩٧٣) في الساعة العاشرة كان

---

(١) مجلة "العرب" – المجلد الثامن – ص ٩٠٧.

(٢) القاعدة أن يكتب الاسمان (سلوى و منى) ولكننى آثرت كتابتهما كما ينطقان، رفعاً للخطأ في قراءتهما، وفي نصوص العلماء المتقدمين ما يدل على كتابة الكلمة كما تقرأ، إذا القواعد الإملائية وسيلة لصحة القراءة، وليست غاية.

إقلاع الطائرة من أحد مطارات باريس. وفي الساعة الحادية عشرة كان الوصول إلى مطار لندن، ثم في القطار إلى محطة فكتوريا.

لقد قالوا: إن المسافر لا يلاقي كثيراً من التعب في البلاد الأوربية، لتهيئة جميع الوسائل التي قد يحتاج إليها، غير أن هذا القول مبالغ فيه، وأكثر منه مطابقة للحقيقة ما ورد في الأثر: (السفر قطعة من العذاب) فبعد خروجنا من القطار وقفنا ساعتين مع جم غفير من أمثالنا، عند موقف سيارات الأجرة بقرب المحطة، في صف طويل من الساعة الثانية عشرة حتى قاربت الساعة الثانية أن تنتهي، وقد حار الدم في أرجلنا، وأعيانا ما قاسيناه من زحزحة أمتعتنا – على قلتها – أثناء التقدم إلى موقف السيارة، ولقد أحسنَّا صُنعاً حينما حجزنا مكاناً للسكن عند وصولنا إلى المطار، إذ لو لم نفعل لجرى لنا أشدُّ مما جرى لي أول مرة قدمت فيها إلى لندن، في عام (١٣٨٠هـ (١٩٦٠م).

كنت قد عرفت – في زيارتي الأولى مدينة لندن في المتحف البريطاني عالماً فاضلاً هو الدكتور مارتين لنجز – الحاج أبو بكر سراج الدين – فقد أسلم وحج، وتسمى بهذا الاسم عرفته اتفاقاً عن غير قصد، فكان لي نعم المساعد في كل ما احتجت إليه عندما زرت المتحف، حتى تمكنت من الحصول على صور المخطوطات التي رغبت الحصول على صورها، فكنت – فيما بعد – أبعث إلى المتحف بعض مؤلفاتي وأواصل بعث مجلة "العرب" منذ صدورها حتى الآن، بدون مقابل.

وفي صبـــاح يوم الاثنين (١٣٩٣/٦/٣٠ – ١٩٧٣/٧/٣٠) بكرت إلى المتحف، ففتح الساعة التاسعة، ولكن الحراس أوقفوني عند الباب الداخلي، وطلبوا مني إبراز البطاقة (تيكت) TICKET. وأخيراً فهمت أنه لا يسمح بالدخول في هذ الوقت إلا لمن يحمل بطاقة، وفي الساعة العاشرة يسمح لكل الزائرين.

صرت أسير حول المتحف حتى رأيت في واجهة إحدى المكتبات كتبا عرفت

منها أن المكتبة تعنى بالكتب الشرقية، فدخلتها فإذا هي المكتبة التي اشتريت منها قبل ثلاثة عشر عاما مجموعة من مؤلفات (فلبي) وغيره، مما يتعلق ببلادنا، فسألت عن رحلتَي (دوتي) و (بركهارت) ومع أنني لا أعرف الإنجليزية إلا أنني فهمت أن المكتبة ستبعثهما لي، ولكنها لم تفعل.

كنت من أول الداخلين في المتحف، واتجهت إلى المكتبة الشرقية فيه، فقد عرفت موقعها، فكانت المستقبلة امرأة شهربةً عابسة الوجه، ومع أنني قدمت لها ثلاث كتب هدية للمكتبة، وطلبت منها الاتصال بمارتن لينجز، ولعلها اتصلت هاتفياً، فصارت تكرِّر (هولداي! هولداي!) وانصرفت عني، فتناولت فهرس المخطوطات، وكتبت أرقام ثلاثة كتب، فلما عرضت الأرقام عليها أشارت إلى القلم الذي بيدي لأدخله في جيبي، ورفعت بيدها قلم رصاص، ففهمت أن استعمال قلم الحبر ممنوع، فاضطررت للخروج من المتحف لإحضار القلم المطلوب، وكتابة أرقام المخطوطات على ورق مخصص لذالك، وبعد ثلث ساعة أحضرت لي الكتب التي طلبتها، فرغبت بتصوير كتابين صغيرين منها، وكتبت الإيضاحات اللازمة للطلب وقدمتها للسيدة، فلم أستطع التفاهم معها، فدعت شابا يجيد اللغة العربية، فحياني وشكرني على ما قدمت للمكتبة من هدية، وقدم لي كتابا بهذا المعنى، وقعه أمامي، وقال إنه المسؤول في هذه المكتبة، وأنه على استعداد لمساعدتي، فأظهرت له رغبتي بتصوير الكتابين، فقال: تصويرهما على الورق يكلف مبلغاً كبيرا، الورقة عشرون ليرة، فاستغربت هذا وأظهرت له قطعة من النقد، عشرة بنسات وقلت كهذه: فقال : لا أكثر، فأريته جنيهاً، فقال: عشرون من هذا، فحاولت أن أوضح له خطأه، فتناولت إحدى الأوراق المطبوعة التي حددت فيها أجرة التصوير، فقال : إنه لا يعرف شيئا عن هذا المكتوب، ويعتقد أن ما قاله عن تحديد الأجرة صحيح، فطلبت منه أن يرشدني إلى القسم المختص بهذا الأمر فقال : إن المكتبة فصلت منذ أسبوع عن المتحف، والأمور المتعلقة بتصوير الكتب لم تنتظم بعد، فأظهرت له رغبتي في الاتصال بالدكتور مارتين لنجز،

فقال: إنه أصبح الآن مديراً. فقلت: وليكن ما يكون، أذكر له اسمي فقد يذكرني. فتكلم في الهاتف. وقال: إنه يعتذر لأنه مشغول، ويمكنك العودة الساعة السادسة، فأخبرته بأنني لا أستطيع المجيء في ذلك الوقت. فقال: إن الدكتور لنجز في إجازة، وسوف لا يحضر إلا بعد أسبوع. فقلت: ألم يكن هو الذي تحدثت معه؟! فقال: تحدثت مع سكرتيرته. ولما أوضحت له أنني سبق أن صورت مخطوطات من المكتبة، وأنني دفعت المبلغ المطلوب مني وقدمت الطلب، فأرسلت إليَّ بعد ثلاثة شهور إلى القاهرة، فلم أتسلمها لمطالبتي بدفع مبلغ كبير وطلبت إعادتها فأرسلت مرة ثانية إلي في الرياض، دون دفع رسوم عليها. قال هذا الأمر الآن ليس ممكناً بعد أن فصلت المكتبة عن المتحف، ولا يمكن أن نتسلم الأجرة مقدما. ومن الممكن أن تقدم الأجرة تحويلاً (شيكاً) على أحد المصارف في لندن، ولكنني لا أعرف مقدارها. فسئمت من معالجة الأمر معه، ورأيت أنه لا فائدة من ذلك، ويظهر أنه أراد أن يقلل من تأثري، فسار معي وأنا خارج يحادثني، ويخبرني بأنهم أعدوا فهرساً جديداً للكتب التي وصلت المكتبة مما لم يذكر في الفهارس المطبوعة، ومن ذلك ما بعثت به، وعرض عليَّ اطلاعي على ذلك الفهرس، ولكنني أظهرت له عدم رغبتي في الاطلاع عليه. وفي مساء هذا اليوم كرم الأستاذ عبد الله بن علي النعيم فزارني، ولما حدثته بما جرى حول تصوير ما رغبت تصويره أبدى - زاده الله فضلاً ونبلاً - استعداده لتصوير كل ما أرغب تصويره، وأوضح أن هذا الأمر ليس المستعصي أو الصعب، وأن الأجرة لا تزيد عما هو موضح في تلك الورقة المعدة من قبل المتحف لإيضاح أجرة تصوير المخطوطات أو المصورات. وقد كان وفياً كريماً فكان لي خير عون فيما كنت أحتاج إليه من كتب مصورة من المتحف.

لم (*) تطِب نفسي بعد من زيارة المكتبة مع ما صُدمتُ به من عدم تحقيق رغبتي في تصوير ما رغبت تصويره، فذهبت إليها ومعي ابنتاي ليساعداني على

(*) مجلة "العرب" س ٩ - ص٨٢.

الترجمة، ولكنني قبل أن أدخل وذلك في صباح يوم الثلاثاء، غرة رجب سنة ١٣٩٣ (١٩٧٣/٧/٢١) قال لي حارس واقف في الممر كلاماً فهمت أن يطالبني بتذكرة الدخول، فأفهمته أنني أمس كنت في المكتبة فتركنا كلنا، ولكننا عندما أردنا الجلوس جاءت تلك السيدة الشهربة فأمرت ابنتي بالخروج ولما أظهرت لها الحاجة إلى بقائهما قال : (انهن صغيرات ولا يسمح بدخول مثلهن) فخرجن، ثم كتبت أسماء ثلاثة كتب، رغبت الاطلاع عليها على الورقتين المعدتين لذلك، وعندما قدمتهما – كالعادة – لتلك السيدة أمطرتني بوابل من الكلام الذي لا أفهم معناه، فاكتفيت أن عدت إلى المكان الذي وضعت رقمه فوق الورقتين، ومكثت وقتا أطول من الوقت المعتاد لإحضار المطلوب من الكتب، فما شعرت إلا برجل سمح الوجه، حسن اللحية، فصيح الكلام ينحني على هامساً قائلاً: أنا الشخص المسؤول هنا هل أستطيع مساعدتك ؟ فقلت : طلبت إحضار كتب ثلاثة أرغب الاطلاع عليها، فقال : أين البطاقة التي تخوِّل لك الدخول هنا؟! – وهذه هي الكلمة التي قيلت لي قبل ثلاثة عشر عاماً عندما دخلت هذا المكان، فلم أستفد من التجربة الأولى – فأجبت الرجل بأنني أجهل ضرورة إحضار تلك البطاقة، كما أجهل طريقة الحصول عليها، ثم أخبرته بأنني سبق أن وجدت في هذه المكتبة رجلاً طيباً كان لي خير عون فيما احتجت إليه هنا، وذكرت له اسمه فأثنى عليه، ثم رأيت منه فتوراً أو تباطؤاً في مساعدتي في إحضار ما طلبت، فأوضحت له أنني – إثر مساعدة ذلك الرجل الطيب لي – صِرتُ أبعث إلى هذه المكتبة كل كتاب أقوم بطبعه، مع المجلة التي أصدرها منذ سبع سنوات، وعلى أقل تقدير فأنا أرغب الاطلاع على الكتب التي كتبت أسماءها، وأعدك بأنني لن أعود إلا ببطاقة، فأظهر الرجل استعداده لمساعدتي بعبارة مهذبة، وقال لي : يحسن تسجيل اسمك في دفتر مخصص لذلك. ولما استوضحت منه عن الغاية من التسجيل كان مهذبا فقال : – وقد يكون قوله قريباً من الصواب– : إنه مخصص لعظماء الزوار؟! لتسجيل تواقيعهم في هذه المكتبة، ومهما يكن فقد رأيته عامل

الشيخ عبد الله عمر بن دهيش بنفس المعاملة، والرجل يدعى ياسين الصفدي، وهو مهذب في تعامله فيما بدا لي.

وكان مما طالعت كتاب[١] "نشر العلم في شرح لامية العجم" تأليف محمد بن عمر بحرق الحضرمي (٩٣٠هـ) ورقمه في المتحف البريطاني OR 3165 دفعني إلى مطالعته أنني رأيت في وصف مخطوطته أن كاتبها عثمان بن أحمد النجدي وكان فراغه منها في جمادى الآخرة من شهور سنة ١٠٩٢، وعثمان هذا عالم طموح ذو همة عالية، أورد له ابن حميد في "السحب الوابلة" [٢] ترجمة موجزة، فقال عنه: (عثمان بن أحمد بن سعيد بن عثمان بن قائد - بالقاف - النجديد مولداً، الدمشقي رحلة، القاهري سكناً ومدفناً). وذكر أنه ولد في بلدة العُيينة، ولم يحدد سنة ولادته، وأنه قرأ على علامة الديار النجدية في ذلك العهد الشيخ عبدالله بن محمد بن ذهلان المتوفى سنة ١٠٩٩ هـ، وبه انتفع، وذكر أنه ابن عمته، وأن الشيخ ابن ذهلان من آل سحوب من بني خالد، ولكنه لم يذكر إلى من ينتسب ابن قائد، وذكر أنه ارتحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها الفقه والأصول والنحو وغيرها، وحضر دروس شيخ الحنابلة بها ومفتيهم محمد أبي المواهب، فوقع بينه وبينه نزاع في مسألة: إذا تساوى الحرير وغيره في الظهور، أو زاد الحرير إذا كان مسدى بالحرير، ملحماً بغيره، وأخرجته الصناعة فظهر السَّدى وخفيت اللحمة، فقال أبو المواهب بالحلِّ، وقال ابن قائد بالحرمة، وطالت بينهما المنازعة، وكان احتداد الشيخ أبي المواهب سبباً دفع ابن قائد إلى مغادرة دمشق إلى مصر، وهناك اتصل بالعلامة الشيخ محمد بن أحمد الخلوتي قال ابن حميد: (فأخذ عنه دقائق الفقه وعدة فنون، وزاد انتفاعه به جداً حتى بهر وحقق ودقق، واشتهر في مصر ونواحيها، وقصد بالأسئلة والاستفتاء سنين). وتوفي الشيخ ابن قائد في مصر يوم الاثنين ١٤ جمادى الأولى سنة ١٠٩٧هـ ومن مؤلفاته:

---

(١) مجلة "العرب" - المجلد التاسع - ص ٢١٦.

(٢) ما في "عنوان المجد" و "الاعلام" لايزيد على ما في هذا الكتاب، مِمَّا أوردته.

١- حاشية على كتاب "المنتهى" في الفقه الحنبلي قال عنها ابن حُميد : (نفيسة مفيدة جرَّدها من هوامش نسخته تلميذه ابن عوض النابلسي فجاءت في مجلد ضخم).

٢- رسالة في الكلام على أيّ المشدَّدة، مرتبة على ثلاثة فصول وخاتمة الفصل الأول في أقسامها، والفصل الثاني فيما يلزمها من الإضافة، الفصل الثالث في أي الموصلة، والخاتمة في فهم ما يتعلق بأي الموصولة، وتقع هذه الرسالة في سبع ورقات مقياس ٢٠X٣٠س م وهي في الخزانة التيمورية في (دار الكتب المصرية) في المجموع رقم ١٠٥، والأصل الذي بخط المؤلف موجود في الدار المذكورة ضمن مجموعة في النحو من كتب مصطفى باشا برقم ٧٠ (نحو).

٣- رسالة في أحكام الرضاع.   ٤- شرح البسملة.

٥- مختصر "درة الغواص في أوهام الخواص" في اللغة مع تعقبات يسيرة.

٦- "نجاة الخلف في اعتقاد السلف" رسالة في بيان أنواع التوحيد مطبوعة في "مجموعة الرسائل المنيرية" في القاهرة.

٧- "هداية الراغب، شرح عمدة الطالب" في الفقه الحنبلي، والعمدة للشيخ منصور البهوتي (المتوفى سنة ١٠٥١). وقد طبع هذا أيضاً ضمن مطبوعات آل ثاني حكام قطر.

وقد أطلت النفس حول الشيخ ابن قائد لأنه يستشف من أخباره وأحواله أنه من أفذاذ العلماء في عصره، ولم أرَ - فيما اطلعت عليه - من أوفاه ترجمة، وأشار إلى ما امتاز به بين علماء عصره من أهل بلده - في سعة المعرفة. وغيرها من الصفات المميزة، لقد بلغ به طموحه إلى مغادرة وطنه لطلب العلم، ثم بلغ من أنفته وعزة نفسه، بل ومن ثباته على رأيه أن غاضب شيخه، وهجر بلدته ولم يعد إلى وطنه، ولم يخُرْ عزمه، بل استمر في سبيل طلب العلم وواصل التغرب، ثم بعد

ذلك رأيناه لا يقف عند ناحية واحدة من نواحِي العلم، فقد كان علماء عصره في بلاده يكتفي أحدهم بما يناله من علم الفقه مما يهيئ له منصباً في القضاء أو الإفتاء، أما الشيخ ابن قائد فها هو يؤلف في اللغة وفي النحو، ويشغل نفسه بنسخ كتب الأدب وهو في آخر حياته.

وجانب مهم من جوانب حياة هذا الشيخ هو أننا نجده في كتابه "نجاة الخلف" يطرق موضوعات لم نعهد أحداً من علماء ذلك العصر طرقها، كتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والاقتداء بالسلف الصالح في أمور العبادة والاعتقاد، وكلها أمور لا يجرؤ على الجهر بها في ذلك العصر إلا من اتصف بالشجاعة والصراحة، وسمو الغاية.

وأعود للحديث عن خط الشيخ قال ابن حميد : (وكان خطه فائقاً مضبوطاً إلى الغاية). وأقول : لقد اطلعت على نماذج من خط الشيخ، فرأيت قبل عشرين عاماً نسخة من كتاب "عمدة الطالب" بخطه لدى كتبي دمشقي يدعى يعقوب، ثم رأيت "نشر العَلَم" وقد كتبه قبل وفاته بخمس سنوات، فرأيت خطاً متقناً، ولكن ليس جميلاً.

السبت (١٢ رجب سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣/٨/٤) - مع ما سِرت عليه - أثناء رحلاتي - من محاولة التخفيف على أصدقائي وإخواني بدرجة دفعتني إلى عدم الرغبة في مقابلة كثير منهم، في البلدة التي أقدم إليها وهم يقيمون فيها، إلا أنني مع الصديق الأستاذ الشيخ عبد العزيز المنصور التركي الملحق الثقافي في هذه البلاد خرجت عن طريقتي المعهودة، ذلك أن أبا خالد - أدام الله له الخير - ليس (عمدة للمعارف) في لندن كما يدعوه بعض الظرفاء، بل كان عمدة لكل السعوديين على اختلاف طبقاتهم، قَلَّ أن يقدم أحد مدينة لندن ثم يغادرها دون أن يرى الأستاذ، وقلَّ أن زارها أحد ممن هو بحاجة إلى عون أو مساعدة ثم لا يجد منه من ذلك ما هو بحاجة إليه. ولقد لازمته يوماً كاملاً فلم أره استقر في منزله

غير ساعات من بعد منتصف الليل، فهذا قادم لا بُدَّ من استقباله في المطار، وهذا مسافر يحتاج إلى توديع، وهذا زائر يجب أن يزار في هذا الصباح، وذلك آخر زيارته في المساء، وهذا أمير يتصل هاتفيا من تونس – مثلا – ليوصي بإدخال أحد مرافقيه في المستشفى، وهذا تاجر يرجو الأستاذ أن يتصل بطبيب عالجه يوما ما ليستوضح منه عن أمر ذي صلة بعلاجه، وهذا مريض بحاجة إلى الإسراع في الرحيل به إلى بلاده، بل قد يحتاج إلى رحلة أطول، ولا يدري القائم بأموره ماذا يفعل فيتصل بالأستاذ عبد العزيز. كل هذا وأكثر منه مضافًا إلى عمله يدفع من يعرفه إلى يستعمل معه من الرأفة به ما هو بحاجة إليه ولهذا فلم أتصل به إلا قبل السفر من لندن بيومين أمضيت آخرهما في ضيافته في بيته، فازددت رحمة به من كثرة أعماله ومعرفتي بالشيخ عبد العزيز تمتد إلى ما قبل ٣٥ عاما، وكنت قبل ذلك قد عرفت والده الشيخ منصوراً أثناء تردده على ينبع في سنة ١٣٥٥ وكان مقيما في المدينة وتولى ابنه الأستاذ عبد العزيز وظيفة (معتمد المعارف في الأحساء) بعد الشيخ عبد الله الخيال، ومنها نقل ملحقا ثقافيا في لندن.

الأحد ١٣ رجب ١٣٩٣هـ (٥/٨/١٩٧٣م): يغلب على طبعي الانقباض، وعدم الرغبة في مخالطة الناس، ولهذا تمضي الشهور لا أكلف نفسي عناء زيارة أحد مبتدئا، ولكنني في يوم السبت الماضي قابلت في (المتحف) الشيخ عبد الله بن عمر بن دُهَيش قاضي المحكمة الكبرى بمكة، وكنت قد عرفته خلال إقامتي في الأحساء سنة ١٣٥٨، وهو يعنى بالمخطوطات وقد كرم بدعوتي لزيارته، وقد جاء للعلاج، وأخبرني بموقع مسكنه، فكان أن ذهبت إليه في صباح هذا اليوم – الأحد – وقد وجدت عنده ثلاثة من أبنائه أحدهم الأستاذ عبد اللطيف، وهو شاب مهذب الأخلاق، قد أكمل دراسته في إحدى الجامعات الإنجليزية، ويعد الآن دراسة لنيل درجة (الدكتوراه) عن التاريخ الثقافي لبلادنا خلال القرنين الأخيرين وقد أكمل دراسته وهو الآن من أساتذة جامعة أم القرى، ومما يبعث على التفاؤل ويدعو إلى الإعجاب اتجاه شبابنا إلى التخصص في كل جانب من جوانب العلم،

فبينما تتجه طائفة للدراسات العلمية الحديثة، يتجه آخرون لدراسة كل ما له صلة بحضارتنا القديمة وتاريخ بلادنا وجغرافيتها، فهذا يعنى بدراسة الأمثال الشعبية، وآخر يتناول أحد الشعراء المغمورين القدماء، وثالث يرتاد طرق الحج القديمة ليطبق معلوماته على مشاهدته، وغيره يتناول مؤلفا قديما بالدراسة والتحقيق، أوفترة من فترات تاريخ أحد مناطق بلادنا.

في سويسرا(*)

في الساعة السادسة إلا عشر دقائق بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٠ ربيع الثاني ١٣٨٠ الموافق ١١ أكتوبر ١٩٦٠ - غادرت مطار لندن على متن إحدى طائرات شركة الخطوط السويسرية إلى مدينة جنيف، والمسافة بين المدينتين ٧٩٠كيلا قطعتها الطائرة في ساعتين - فكان وصولي إلى جنيف في الساعة الثامنة إلا عشر دقائق بتوقيت لندن - الساعة الثالثة إلا عشر دقائق بتوقيت جنيف -وفي مطار لندن لم تفتح حقائب المسافرين، وكذا في جميع مطارات المدن التي مررنا بها، وفي مطار جنيف أردت فتح حقيبتي للموظف في الجمرك حينما رأيته يأمر بفتح بعض حقائب المسافرين ولكنه أشار إليَّ بعدم فتحها، وأمر بإخراجها.

وصلت محطة الخطوط السويسرية وخشيت من ليلة كليلة (لندن) فطلبت من أحد الموظفين في المحطة أن يرشدني إلى فندق مناسب، فاتصل هاتفيا بأحد الفنادق، وأملى على مَن اتصل به اسمي، وكتب اسم الفندق في بطاقة، بعد أن أراني موقعه في المدينة في مصور للمدينة - خارطة - فشكرته وذهبت إلى ذلك الفندق.

وخرجت صباح يوم الأربعاء من الفندق لأشاهد بعض معالم مدينة جنيف، وبعد جولة قصيرة في شوارعها ومشاهدة جانب من بحيرتها - عدت فمررت بمحطة سكة حديد وسألت الموظف الذي يقدم تذاكر القطار عن الوقت الذي يستغرقه الوصول إلى برن، فأخبرني أنه ساعتان، كل هذا بالإشارة ، فأخذت تذكرة القطار إلى (برن) وكانت الساعة قد بلغت الثانية عشر إلا ربعًا. فبلغت المدينة الساعة الواحدة والنصف بعد أن مر القطار بعدد من القرى والمدن من أشهرها (لوزان) و (فريبورج) كانت الغاية من المجيء إلى (برن) الاتصال بالمفوضية لمقابلة بعض من أعرفه منهم، مقبل العيسى، وغيره. وكنت أجهل عنوانها. فاتصلت ساعة وصلت بها هاتفيا. بعد أن اهتديت إلى رقم الهاتف من الدليل في أحد المقاهي. ولكن لم يجبني أحد مع تكرار الطلب مرات كثيرة حتى بلغت الساعة الثالثة. لم أشعر أصحاب الفندق الذي تركت فيه ملابسي بأنني

(*) «اليمامة» ع ٢٦١ في ٢٦/٨/١٣٨٠هـ.

سأبيت خارجه. حينما خرجت في الصباح، . ففكرت في العودة إلى جنيف ولكن لم أنته بعد، وإذن فالمبيت في (برن) والمسافة بينها وبين جنيف وإن كانت قصيرة يقطعها القطار في ساعتين، وإن كانت الأجرة لم تتجاوز الـ ١٨ فرنكا سويسريا - وهو يماثل الريال في القيمة ويزيد قليلا - إلا أنني أحتاج إلى الراحة، فقد مشيت كثيراً في داخل مدينة (برن) واستهواني ما شاهدته من جمال المعروضات في شوارعها بحيث قطعت مسافات طويلة ماشيا.

بحثت في ثلاثة فنادق تقع في وجه المدينة عن مكان أبيت فيه، ولكنني وجدت الثلاثة مملوءة فخشيت أن ألاقي شيئا من الصعوبة للحصول على المكان، فخطرت لي فكرة الذهاب إلى (ألمانيا) فقد علمت من أحد الذين كانوا معي في القطار أن المسافة بين (برن) و (بون) يقطعها القطار في ساعتين، وفي المحطة الساعة الثالثة أخذت تذكرة قطار إلى بون التي سأصل إليها في أقل من ساعتين، وأعود منها قبل الليل إلى جنيف، فعرفت أن القطار إليها لا يسير إلا الساعة الخامسة، ولم استطع استرجاع ثمن التذكرة، إذن فسأذهب إليها ولتكن المسافة ما تكون، ففي القطار سأجد مكانا أبيت فيه، وكنت نقدت الأجرة - ١٦٩ - فرنكا سويسريا، ركبت القطار الساعة الخامسة وخمس دقائق - بعد الظهر -.

في الطريق إلى بون: في الساعة السابعة وخمس دقائق وقف القطار في آخر محطة في البلاد السويسرية، وهي بلدة تدعى (بازل) وكان محدثي الذي قال لي في القطار إن المسافة هي ساعتان. كان صادقا فهو يقصد الوصول إلى حدود البلاد الألمانية. وإن كنت ظننته يقصد المسافة بين برنَ وبون.

أشار لي أحد المسافرين إلى الناحية الأخرى من المحطة حين علم أنني أقصد مدينة (بون) فشاهدت قطاراً يوشك أن يتحرك للمشي، فظننته المتجه إليها، فعدوت مسرعا إليه. وجلست داخله ثم سار القطار.

طلب (*) مني الموظف التذكرة فلما طالعها نظر إلي بدهشة واستغراب لم أعرف سببهما وصار يتكلم بصوت مرتفع، ويشير بيديه بعنف، فقابلته بابتسام، وأظهرت له أنني لا أفهم ما يقول، وحقًّا هذا، وحاول أن يتكلم معي بعدة لغات وأتى باثنين آخرين وصاروا يكلمونني فأجيبهم بأنني لا أعرف إلا اللغة العربية، وأنا متوجه إلى (بون) وأشير إلى اسمها المكتوب فوق البطاقة التي أخذتها من محطة (برن) وما كان السفر في ذاك العهد يتطلب إبراز جواز سفر، أتوني بمصوَّر جغرافي - خارطة - وأشاروا إلى المحطات التي سيقف فيها القطار. وليس من بينها (بون) وأشاروا في الورقة التي تقدم للمسافرين تحدد المسافات بين المحطات، وتبين أوقات الوصول إلى كل محطة وإلى اسم مدينة (مَنهايم) ففهمت بأنهم يريدون مني النزول فيها. والسفر إلى بون منها في قطار آخر. وهذه المدينة هي الثامنة من (بازل) التي ركبت منها هذا القطار الذي سيبلغها بعد ثلاث ساعات وخمس وأربعين دقيقة، خشيت إن خرجت من الغرفة التي أنا فيها أن يغلقها الموظف، والجو بارد، وهي مدفأة، فلم أذهب للمطعم مع شدة حاجتي للأكل.

نزلت في محطة (منهايم) الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق، وقد علمت من الورقة التي معي بأن القطار يمر بها في تمام الساعة الثانية عشرة، وكان الجو غائما فما سرت بضع دقائق باحثًا عن مطعم حتى هطل المطر بغزارة، فاضطررت إلى الدخول في أول فندق شاهدته، وفي مطعمه سألني صاحبه هل أنا تركي أو جاوي؟ فأفهمته أنني عربي، فأتى لي بمجلة مصورة. مصدرة بصورة ملونة كبيرة للملك حسين، فأشرت له بأنني أعرف الصورة ولكن لا أعرف قراءة الكتابة، وطلبت منه الإسراع بالطعام الذي طلبته وبعد أن انتهيت من الأكل سألته هل يوجد في الفندق غرفة لأبيت فيها الليلة، ففهمت منه أن هذا الفندق وغيره من الفنادق في مثل هذا الوقت - وهو الساعة الحادية عشر والنصف - تكون مملوءة

(*) "اليمامة" العدد ٢٦٢ الأحد ٤ رمضان سنة ١٣٨٠ (١٩ فبراير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة.

فقلت في نفسي : إلى القطار، وما أحلى الرجوع إليه !! لقد أخبرني عامل المحطة وهو الذي أرشدني إلى الفندق - بأن القطار سيصل بعد ساعة، فجلست في انتظار وصوله، فغلبني النوم، ولم استيقظ إلا الساعة السابعة فركبت في قطار لا يتجه قصداً إلى بون، بل يمر بعدة محطات قبلها. وهو القطار السريع الذي يمر بأثينا. ويخترق (أوربة) كلها، فلم يصل مدينة (بون) إلا الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ليس معي ما استرشد به إلى السفارة الي ظننتها في هذه المدينة، فدخلت أحد المطاعم، واهتديت إلى رقم هاتف السفارة فعلمت أنها تقع في مدينة باد قدس برج وهي تبعد ثمانية أكيال عن بون.

في باد قدس برج: وصلتها بعد ربع ساعة على سيارة أجرة، وقد أنهكني التعب، وأجهدني حتى أحسست بإعياء شديد، ولكنه سرعان ما زال، حين شاهدت ما تتمتع به هذه المدينة من جمال المناظر الخلابة، فأرضها خضراء، والحدائق منتشرة فيها، فلابدع أن تختارها حكومتها للتمثيل السياسي.

وفي هذه البلدة تقع السفارات العربية سوى سفارتي العراق والسودان، ويقولون بأن شهرة هذه البلدة بدأت حينما عقد هتلر وتشمبرلن رئيس وزراء بريطانيا اجتماعهما المشهور قبل الحرب العالمية الثانية في سنة ١٣٥٨هـ (١٩٤٧م) فيها. ويقدر عدد سكانها بـ ٥٥ ألفا. وتقع على ضفة نهر الرين، ويطل عليها من وراء النهر سلسلة من الجبال، يقع على أعلى قمة جبل منها فندق يدعى (فندق بترس برج) يختار سكناه الوجهاء، وممن كان يحله إذ ذاك يوسف ياسين، ولا يصدر في (باد قدس برج) شيء من الصحف سوى مجلة اسبوعية تدعى (اسبوع قدس برج) لا تنشر سوى أخبار البلدة الخاصة، وليس فيها أمكنة عرض سينما، أو ملاهي، لهذا يسودها الهدوء، فهي مرتاد لطالبي الراحة، والبعد عن صخب المدن، وضوضائها.

في سفارتنا في ألمانيا (*) : قابلت الاستاذ محمد الطبيشي[1] - وهو القائم بأعمال السفارة - لغياب السفير. وأظهرت له رغبتي في زيارة (برلين) والغرض من هذه الزيارة المنحصرة في الاطلاع على بعض مخطوطات (مكتبة متحف الأمة) فأظهر لي من العون والمساعدة ما سهل لي تحقيق تلك الرغبة. فقد أمر الاستاذ - صبحي خَنَشَت - الملحق الصحفي في السفارة بالاتصال بقسم الصحافة والإعلام في الحكومة الألمانية لمعرفة موقع تلك المكتبة من المدينة، ولتيسير زيارتها، فاتصل الاستاذ صبحي بموظف يدعى الدكتور (فايس) يحسن اللغة العربية، ويشغل منصبا كبيرا في ذلك القسم في وزارة الخارجية، فأخبره هذا بأن المكتبة تقع في القسم الشرقي ولكن الوصول إليها ميسور، ووعد بأن يتصل بموظفي قسم الصحافة والإعلان في (برلين) بعد تحديد موعد وصولي إليها ليسهلوا لي بغيتي.

أردت العودة إلى جنيف، في سويسرا غير أنني علمت أن المسافة بعيدة، ويحسن أن أعود بالطائرة، وهذا يستلزم الذهاب إلى مدينة (كولن) أو مدينة (فرانكفورت) والأولى تبعد عن (باد قدس برج) ٣٥ كيلا والثانية تبعد أربعة أمثال هذه المسافة، وبعد الاتصال بإحدى شركات الطيران تبين أنه ليس من الممكن السفر إلى جنيف هذا اليوم.

دعاني الأستاذ الطبيشي للغداء معه في بيته فحاولت الاعتذار، وقلت له : إن إخواننا من الصحفيين الذين زاروكم، يتحدثون ويكثرون الحديث عن السليق - والوقت الآن لا يتسع لمعرفة إذا كانت أحاديثهم غير مبالغ فيها - غير أن كرمه أبى عليه إلا أن يحملني على الذهاب معه ولم يقف هذا الكرم عند حد تقديم نوع من أنواع الأطعمة مع الغداء كان تقديمه مفاجأة بالنسبة لي، وغريبا بالنسبة لهذه البلد،

(*) "اليمامة" العدد ٢٦٣ الأحد ١١ رمضان سنة ١٣٨٠هـ (٢٦فبراير سنة ١٩٦١م).

(١) كذا يدعى لان عبد الرحمن الطبيشي رئيس الخاصة في عهد الملك عبد العزيز تزوج أمه، فنشأ في بيته، ووالده محمد العنبر أخ لغاطي العنبر

ذلك النوع هو (المرقوق) لـم يقف كرم الأستاذ عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى أشياء كثيرة أعادت لي كثيرا من الراحة والانشراح بصحبة الإخوة من موظفي السفارة - الذين يمثلون في تآلفهم واجتماعاتهم أسرة واحدة، بحيث أمضيتها ليلة راحة وانشراح بال في بادقدس برج، بعد أن أمضيت جزءاً من الليل في مشاهدة معالم مدينتي (بون) و(كولون) مع الأستاذ محمد العنبر، الذي بذل لي من فضله ونبله ومساعدته ما استطاع لكي أرتاح من جرَّاء ما حدث لي من مشقة السفر.

مدينة (بون) : ومدينة (بون) كما هو معروف هي قاعدة ألمانيا الاتحادية، وهي من أصغر مدن ألمانيا، ولا يزيد عدد سكانا على ٢٥٠ ألفا، ويقال بأن من أسباب اختيارها لتكون مقر الحكومة أنها بلدة المستشار (أديناور) وقت زيارتي - ودرءاً للتنافس بين المدن الكبيرة، اتخذ مقر الحكومة في بلدة صغيرة.

يصدر في هذه المدينة صحيفتان يوميتان هما (جرنال اندسايكر) و (يونير غنت شو) وعدد من المجلات الأسبوعية وفيها مكتبة تحوي جزءاً من المخطوطات التي نقلت من برلين، لصيانتها وقت الحرب العالمية.

مدينة (كولون) : ومدينة (كولون) وينطقونها (كولن) كما ينطلقون (بون : بن) من أشهر مدن ألمانيا، غير أن القنابل هدمت جزاء كبيرا منها، ولكنها الآن أعيدت على طراز جميل، من حيث سعة شوارعها وتنظيمها. وبقي جزء كبير من المدينة القديمة على حالته الأولى.

أمضيت ليلة الجمعة ٢٣ / ٤ / ١٣٨٠هـ في مدينة بادقدس برج، في فندق (دين هوتيل دريسن) على ضفاف الرين، ولهذا الفندق شهرة كبيرة ففيه عقد الاجتماع بين هتلر وتشمبرلن، بل في المكان الذي اختار لي الأستاذ محمد السكن فيه، وما كنت أرغب، ولا أرتاح للسكن في أمثال هذا الفندق، لولا أن الأستاذ قال لي : إننا لم نجد محلا إلا فيه. وطمأنني بأن الأجرة سوف لا تكون بنسبة ما له من شهرة. وهكذا كان فهي لم تتجاوز ١٧ ماركًا لغرفة وصالة واسعتين، وحمام تبلغ

سعته خمسة أمثال سعة الغرفة التي بِتُّ فيها أول ليلة في لندن، وهو (رولاند هوتيل) وقد دفعت أجرة عن تلك الليلة أكثر مما دفعت هنا، ولست مبالغًا في التقدير، بل أنا مقصر فيه.

بين فرانكفورت وجنيف: من (باد قود سبرج) كان الاتجاه إلى مطار (فرانكفورت) بالسيارة، خلال ثلاث ساعات، بعد اجتياز نهر الرين، على نقَّالة خاصة، تحمل السيارات بمن فيها من ضفة النهر إلى الضفة الثانية، ومرت الثلاث ساعات كلمح البصر، فقد كان الجو صافيا، والنظر يمتد إلى نهايته، متنقلاً بين غابات كثيفة، بالأشجار الباسقة، وتلال مكسوة بالنباتات المختلفة الألوان، وأودية تزدان بانسياب المياه في أغوارها، وحقول منسقة، وقرى صغيرة وكبيرة، منتشرة بمبانيها الجميلة، في سفوح التلال، وفي أعاليها بحيث تمنيت أن من المستطاع استمرار هذا الوقت، للاستمتاع برؤية هذه المناظر الخلابة، وهذا الجو البديع، حيث لاقرَّ ولا حَرَّ.

وفي الساعة الواحد أقلعت الطائرة إلى جنيف، وفي خلال ساعة وبضع دقائق هبطت في مطارها، وعدت إلى الفندق الذي أبقيت فيه أمتعتي، وفيها جواز السفر وغيره، وكنت قد خرجت منه صباحا لكي أعود ظهرا للغداء فيه، ولتأخري اتصل أصحابه بالسفارة المصرية، فأخبروها أن عربيا يدعى (فلان) سكن عندهم، وخرج صباحاً ليعود ظهرا فلم يعد، فاتصلت السفارة المصرية بالسفارة السعودية، وهذه اتصلت بالسفارة في بون بعد وصولي إليها، فعلموا بوجودي، وعودتي إلى جنيف غدا بالطائرة.

أمضيت ثلاثة أيام في جنيف، ثم عدت يوم الاثنين إلى (فرانكفورت) وبقيت فيها يومي الثلاثاء والأربعاء، وأبرز منظر لفت نظري في جنيف محطة السكة الحديد، التي يتفرع منها عشرات الخطوط الحديدية، والحركة الهائلة في تلك المحطة، وما ذالك إلا لأنها من أول ما شاهدت من نوعها، وإلا ففي هذه المدينة ما هو أروع منظراً في بحيراتها، ومتنزهاتها.

ومن المعروف أن البلاد السويسرية – بصفة عامة – هي مطمح السياح، وطلاب

النزهة والاستمتاع بالأجواء الرائعة، لما تتمتع به من طبيعة ممتازة، وجو معتدل، وتوفير جميع الوسائل التي تهيئ لقاصديها ما يرغبون، إلا أنني في هذه الزيارة لم أكن من أولئك، فلي غاية أخرى ليست متوفرة في هذه البلاد، هي زيارة البلاد التي تعنى مكتباتها بالمخطوطات العربية، ومع ذلك فقد اضطررت للتردد على هذه البلاد لمراجعة مصحاتها الطبية للعلاج الطبيعي، أربع سنوات متتابعة، وترافقني الأسرة للإشراف على صحتي، ومنهم من هو بحاجة إلى علاج مثلي، فأرتاح لوجودهم، ولقيامهم بما أحتاج إليه.

كانت تلك أولى رحلة إلى البلاد السويسرية، وكانت في عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) وقد أعقبتها رحلات متعددة للعلاج، بارتياد مصحات العلاج الطبيعي، فقد أصيبت رجلي اليمنى وأنا في (بيروت) بأربعة كسور، أحدثت لي من الآلام ما اضطرني للتردد على تلك البلاد، ولأول كسر حدث فيها خبر طريف - إن كان في المصائب ما يستظرف.

كان من عادة الصديق الأستاذ إبراهيم شَبُّوح - مدير الآثار في تونس، والأمين العام للمجمع الملكي للحضارة الإسلامية في عَمَّان الآن - كان من عادته أن يأتي إلى لبنان أثناء الصيف، وقد عرفته وهو طالب في القاهرة، وله صلة قوية بموظفي (دار الكتب المصرية) كأبي الفضل، وفؤاد السيد، وكثيراً ما كنت أجتمع بهم، وهو على جانب كبير من اللطف والأدب، وذو اطلاع واسع في التاريخ، فتوطدت الصلة بيننا، وكثيراً ما ترافقنا برحلات إلى البلاد التركية، وهو يعنى بكتب التراث، في الآثار وغيرها، وفي إحدى السنوات لم يأت إلى لبنان كعادته، وجاء في السنة التي بعدها.

ومن أصدقائه فيه أستاذنا الدكتور إحسان عباس، والدكتور محمد يوسف نجم، فدعاه محمد للغداء مع عدد من الإخوة كنت أحدهم، وكان لا يعرف منزله، فمر بي في مكتبي للذهاب لمن دعانا، وكان منزله قريبا، فذهبنا ماشِيَيْنِ نتحادث،

فسألته عن سبب عدم مجيئه إلى لبنان السنة الماضية، فأخبرني بأنه أصيب بكسر في ذراعه، فعولج في تونس بطريقة لم تكن ناجعة،بل سببت له من الآلام ما اضطره للسفر إلى باريس فكسرت الذراع، وأعيد تجبيرها بطريقة صحيحة، كُنَّا أثناء حديثه هذا مررنا بمحل كتب في لافتته (الدكتور ... مختص بتجبير كسور العظام بدون ألم) فقلت له مازحاً: انظر لوقدر الله عليك كما حدث في تونس فها هو الطبيب!! فقال منفعلا: تفاءل خيرا يا رجل! فرددت: هو كلام عابر، لا تفاؤل ولا تشاؤم، وقد لفتُّ نظرك لما قد تحتاج إليه!! وبعد الانتهاء من تناول الغداء دعا الدكتور إحسان إلى الحاضرين غدا، وقال للأستاذ إبراهيم: مُر بفلان في مكتبه الساعة الواحدة والنصف، فهو يعرف المنزل.

كان مكتبي في بناية (العازارية) ومنزلي ليس بعيدا عنها، فكنت آتي منه وأذهب إليه ماشيا، والشوارع مكتظة بالسيارات، فكنت أسير على طوار الطريق، وأمام مدخل (العازارية) شرابي يقوم بعصر الفواكه، ومنها الموز يخلطه بالحليب، فيطرح القشر على الطوار الذي كنت عادة أسير عليه اتقاء خطر السيارات فاستهنت بالقشر فوطئته، فزلت قدمي من الطوار للشارع، فسقطت فيه، فلم أستفق إلا وأنا في مكتبي في الدور الخامس من البناية، وكان الشرابي يعرفه، فحملني ومعه آخر حتى وضعاني فيه، فطلبت الذهاب إلى المجبر الذي مررت بالأمس بمحله، وقبيل الغداء كان الأستاذ إبراهيم بين متأثر لما حدث لي، ومعاتب على ما بدر مني بالأمس، وقد جبر الكسر، ولكن يبدو أن الرجل بعده ضعفت، مع نقص مادة (الكلس) في عظامي بصفة عامة.

وبعد فترة كنت ماشيا في حوش منزلي في الرياض، فارتطمت بغطاء أحد المجاري، فسقطت سقوطا عنيفا، فصرت لا أستطيع تحريك قدمي مع آلام شديدة فيه، وفي (المستشفى التخصصي) أجرى تصويرها، وتولى المعاينة طبيب أمريكي فظ، لم يزد على قول ما تعريبه: فيها رضوض وليست بحاجة إلى علاج غير إكثار

المشي عليها، في الوقت الذي لا أستطيع تحريكها، وحين أُحَرِّكها أكاد أصرخ من شدة الألم، فاكتفيت بتدليكها في المنزل، ومحاولة تحريكها، ثم المشي عليها بصعوبة شيئا فشيئا مع من يمسك بيدي، استمرت الرجل بتلك الحالة شهورا، مما اضطرني للعزم على مراجعة إحدى المصحات الطبيعية.

إلى (لوقانو) : قيل لي أن أشهر تلك المصحات وأنسبها في (سويسرا) وفي بلدة تدعى (لوقانو) وهي بلدة معتدلة الجو، خالية من الجلبة والضوضاء، ليس فيها ما يغري أكثر السياح من وسائل الترفيه، كدور السينما والمسارح، والمعارض الكبيرة، ومع هدوئها، وجمال موقعها قل أن يرتادها أحد من العرب.

كان السفر إليها في شهر صفر عام ١٤١٦هـ (يوليو عام ١٩٩٥)- من الرياض إلى (زيورخ) ثم إليها بالطائرة في أقل من ساعة، واختيار السكن في منزل فوق إحدى المصحات، وفي صبيحة اليوم الثاني مراجعة الطبيب الذي قرر نوع العلاج ووقته في المصحة، إلا أنه حدث لي ظُهر ذالك اليوم ما لم يكن في الحسبان، فقد دخلت الحمام، وكانت أرضه مبلطة بالرخام الأملس، ومع بلل الرجلين زلقت فسقطت على الأرض، فحملت إلى المستشفى العام، وكان قريبًا، وكنت بحالة شبه إغماء من شدة الألم، وبالتصوير تبين أن الرمَّانة المتصلة بالورك والعظم الذي يصلها بالركبة فيهما كسور مِمَّا يستلزم الاستعاضة عنهما بطريدة حديد، تمتد من الورك إلى الركبة، فدعي لي طبيب فلسطيني ليتولى التخدير العام يحسن العربية، وقام بالتجبير طبيب ماهر يدعى (ماركس MARX) وهو ذو شهرة عالمية ففي (مايو كلينك)[1]: أُثني على عمله، وقيل: أنه يتعاون

---

(١) مايو كلينيك من أشهر المستشفيات في (أمريكا) سُمِي باسم طبيب انجليزي انتقل إليها آخر القرن الثامن عشر، يدعى (وليم مايو) فأراد ابناه تخليد اسمه بإنشاء هذا المركز الطبي، وقد ألحقت به زيادات تبرع بها أناس آخرون، فالمستشفى خيري قائم على التبرعات، وفيه أقسام لجميع أنواع العلاج، وقد أعد بما يلزم من آلات، وفيه أكثر من ألف طبيب، ويرتاده كثير من أنحاء العالم، من المشاهير وغيرهم.

(انظر جريدة «الشرق الأوسط» تاريخ ٨/٥/١٤١٩هـ).

مع هذا المستشفى، فمكثت نحو عشرة أيام، وبعدها صرت أتدرب على المشي والسباحة، وأعالج بالكهرباء وبالتدليك، حتى استطعت المشي وحدي، وأصبحت لا أحس بشيء من الألم، ولكن الطبيب كان ينصحني بالاستمرار بممارسة العلاج الطبيعي، بالكهرباء، والسباحة مع من يدربني، وبالتدليك، واستعمال الكمادات الحارة، فوق أماكن الألم.

لقد تغير الجو فجأة آخر شهر أغسطس، فكثرت الأمطار واشتد البرد – وأنا ممن لا يطيق اليسير منه – فعزمت على العودة إلى الرياض، فأعد لي الطبيب تقريرا أوضح فيه حاجتي إلى استمرار العلاج الطبيعي.

مكثت أتردد على (مستشفى الملك فيصل التخصصي) في أيام محددة، وبقية الأيام أمارس بعض ما أحتاج إليه كالتدليك والمشي صباح كل يوم، وفي أحد تلك الأيام، وقد أمسك بيدي إنسان للمشي – كالعادة – إذا انثنت الرجل المكسورة، فسقطت على الأرض، ولم أقدر على تحريكها، فأوصلت المستشفى، وبعد التصويرتبين أن في الساق كسر، وفي القدم رضوض، مما استلزم تجبيرهما، وبعد شهر أزيل ما رُبطا به، واستطعت تحريك الرجل بصعوبة. وأمضيت بقية العام لا أستطيع القيام أو المشي إلا بمساعد يمسك يدي، فكان لا بُد من العودة لمراجعة الطبيب الذي تولى تجبير الكسر الأول في (لوقانو)[1] فتم ذالك، وقرر صحة التجبير، وممارسة العلاج الطبيعي، تدليكا وكهرباء، وسباحة، تحت إشراف مدرب، إلا أنني وقد مكثت فترة تزيد على الشهر لم أشعر بتحسن، مما رغبني في الانتقال إلى مِصَحٍ آخر، في ضاحية من ضواحي (زيورخ) في سويسرا، قيل إنه من خير مصحاتها، هو (كلينيك شلُوز مَامِرن KLINIK SHLOSS MAMMERN) يبعد عن مطار (زيورخ) مسيرة أربعين دقيقة بالسيارة، ويقع على بحيرة (انفريور INFERIR) وسط منتزه جميل، يزدان بالأشجار الباسقة، والزهور العبقة الأريج المنسقة، ذو غرف حسنة، مؤثثة تأثيثاً مناسبا، وفي الحديقة ممرات طويلة لممارسة رياضة المشي ويُعنَى المصح بالاضطرابات الباطنية، وخاصة اضطرابات القلب، والدورة الدموية، وهو مجهز بأحدث وسائل الكشف والعلاج، وفيه مركز للعلاج

(١) ينطق حرف القاء من مخرج يقرب مخرج الكاف، ويكتب الاسم بالحروف اللاتينية (LUGANO).

الطبيعي، لممارسة جميع أنواعه، المؤكدة الفائدة، من تدليك وعلاج بالكهرباء، والمكمدات الحارة، والسباحة في بركة دافئة مخصصة لذالك.

وفيه أطباء متخصصون لعلاج وتشخيص جميع الأمراض، مع ترتيب دقيق في أوقات العلاج، والغذاء، وتقرير المناسب لكل إنسان، واهتمام به في كل وقته، بخدمة منظمة ممتازة.

أتيت إلى هذا المصح من (لوقانو) بالسيارة، فهي أسهل لي من ركوب الطائرة، في خلال خمس ساعات بسير مريح، ووجدت فيه من الراحة والعناية - ومعي أُم محمد وابنتنا مُنَى- مارغبني بتطويل مدة البقاء وهي أربعة أسابيع، لولا أن الجو بدأ يتغير بالبرودة، التي كثيراً ما تؤثر في صحتي، بخلاف شدة الحر، فهي بالنسبة لي ليست ضارة.

لم أشاهد في هذا المصح من العرب سوى ثلاثة من أهل (أبي ظبي) وفيه من مختلف الأجناس الأوربية، ويقام في بعض الليالي بعض وسائل الترفيه، كالحفلات الموسيقية، ولأنني لا أستسيغ سماع الموسيقى الغربية ما كنت أحضرها، وأجد في السير في الحديقة المزدانة بأنواع النباتات، على ضفاف البحيرة أمتع سلوة، وكانت العودة إلى الرياض بالطائرة من (زيورخ) في ست ساعات.

عودة أخرى إلى هذا المصح: عندما رغبت العودة إليه - في شهر محرم١٤١٩هـ (مايو١٩٩٨م) - لم أجد فيه محلاً إلا في شهر ربيع الأول (يونيو)، وكنت بحاجة إلى الراحة، وكان الحرُّ قد اشتد، وقد سبق لي أن أمضيت فترة من الصيف في بلدة (فنخوريلا) أو كما يسميها الأستاذ عبد العزيز الرفاعي - رحمه الله - الذي اعتاد قضاء الصيف فيها - (سهيلة) وقد سعى لإنشاء مقر ثقافي فيه باسم الإمام السهيلي، العالم الأندلسي المشهور، فهو منسوب إليها، فوجدتها فرصة سانحة لإمضاء أيام في هذه البلدة، ولزيارة ذالك المقر الثقافي الذي تحدثت عنه في عرضي لرحلة ابن بطوية [1]، ولكن جرى مالم يكن في الحسبان!

(١) انظر جريدة «الرياض» العدد رقم ١٠٩٠١ في ٣/١/١٤١٩هـ.

وكما قيل: وتقدرون فتغلب الأقدار[١] ففي الساعة الواحدة والنصف من صباح ليلة الاثنين ٥/٣/١٤١٩هـ (٢٩/٦/١٩٩٨م) كان السفر من الرياض، والوصول إلى چنيف في الساعة السادسة (أي السابعة بتوقيت (الرياض) والسكن بفندق (دواون) فكان المبيت فيه ليلة الثلاثاء، لنسافر ظهرا إلى (مالقة)[٢] ومن مطارها يكون السفر إلى (فنخوريلا) بالسيارة والمسافة تقارب خمسين كيلا، وعند التأهب للذهاب إلى المطار، للسفر الساعة الثانية عشرة، أردت الدخول في الحمام، وكان في بابه حاجز انثنت رجلي قبل اجتيازه، فسقطت على وجهي داخل الحمام، وارتطم حاجب عيني اليمنى بحافة المغسلة. وركبتي بجدار الحوض الذي بقربها، وصدري على الأرض، مما أحدث لي ألما شديدا في الحجاج، والركبة والصدر، وبكل مشقة استطاعت ابنتي منى أن تجرني خارج الحمام، وأن تضع ثلجا على مواضع الكدمات، إلا أن الألم لم يخف، ورؤية العين التي اشتد احمرارها تأثر، فأصبحت بحالة سيئة، وفكرت في العودة إلى الرياض، إلا أن هذا يتطلب وقتا طويلا، وحالتي تستدعي سرعة العلاج، ورفضت حملي إلى مستشفى المدينة، فاتصلت ابنتي منى بمصح (شلوز مَامِرن) فهيئت لي غرفة، وفي خلال أربع ساعات كنت فيه، وتم إجراء الفحوص ساعة الوصول، فطمأنني الدكتور على سلامة القلب والعين، أما الآلام فإنها ستزول تدريجيا بالمعالجة، فأحسست بالراحة، وكان ذالك الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الثلاثاء ٦/٣/١٤١٩هـ (٣٠/٦/١٩٩٨م) وتم إجراء جميع الفحوص، وتقرير العلاج اللازم لها في خلال ثلاث أيام، وسارت الأمور على خير مايرام.

وكان للدكتور (فيدرمان FEDERMAN) المختص بتشخيص علاجي من الاهتمام بي، والعناية التامة ما شعرت بأثاره، من زيارته لي صبيحة كل يوم، الساعة العاشرة، وتفقده تطبيق ما قرر لي من علاج، وسؤالي عن أثر ذالك فيما أشكو منه، وللاطلاع على ما سجل في الصباح، من قياس الضغط، والنبض

---

(١) نص شطر البيت (وتقدرون وتضحك الأقدار).

(٢) كذا تعرف في الكتب العربية، وتنطق الآن (مَلقَا).

والحرارة والوزن، فقد لاحظ فيه زيادة طفيفة، حيث بلغ ثلاثة وستين كيلا، فقرر لي غذاء خاصاً، بحيث نزل إلى تسعة وخمسين كيلا، فأمر بزيادة الغذاء حتى تجاوز واحدا وستين، فأمر بالمحافظة عليه، وأن أتغذى بما اشتهي دون إكثار، مع الإقلال من المواد النشوية والدهنية، وأن أستمر على العلاج الطبيعي الذي قرره، وعهد إلى مختص قدير في ذالك ليتولّى تمريني على ممارسته في أوقات محددة، في الصباح تدليك مكان الألم بالزيت، وتكميده بلفائف من فوط مغلاة بماء حار، بقدر ما يتحمل الجسم، وتمرين الرجل على الحركة والمشي ما أمكن، والسباحة في بركة دافئة، مخصصة لذالك، إلى غير ذالك من وسائل العناية الفائقة. قد يقال : إن المرء في حالة ضعفه، أو احتياجه، قد يستكثر ما يوجه إليه من عناية، وما يلقاه من رعاية، على حدِّ قول المتنبي :

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وقد يكون لهذا وجه من الصحة، إلا أنني وقد عولجت في عدد من المستشفيات، وقابلت كثيرا من الأطباء، لم أحس بارتياح تام، وهدوء نفس، وانشراح قلب وزوال بعض ما يعتريني من الأوهام والوساوس المزعجة، إلا في هذا المصح، ولم أر من كثير ممن راجعته من الأطباء كالدكتور (فيدرمان FEDERMAN) وقبله الدكتور جاسر الحربش، الطبيب المخصص بالأمراض الباطنية في (الرياض) والدكتور فالح الفالح؛ في (مستشفى الملك خالد).

ثم التأم الشمل بمجيء بعض الأسرة، أم محمد، وابنتنا الدكتورة مي، وحفيدتنا صبا بنت سليمان الجاسر الحربش، فعزمت على تمديد فترة البقاء إلى اليوم الثاني من أغسطس، وكنت بحاجة إلى استكمال العلاج، حيث كان من المقرر إعطائي حُقناً في العضل، وفي الوريد، مما لم يستكمل، مع استمرار العلاج الطبيعي.

ثم كان الاتجاه إلى (لوقانو) لقضاء فترة النقاهة، وتلك المدينة من أنسب الأمكنة لذلك لهدوئها، وقلة روادها، واعتدال جوها، بحيث تعد من المصايف،

وقد اصطافت الأسرة وبعض الأقارب فيها بعض السنين. وكان العودة إلى الوطن.

في (باد قد سبرج) : سافرت من (چنيف) يوم الأربعاء ٢٧ / ٤ / ١٣٨٠هـ (١٨ / ١٠ / ١٩٦٠) بعد أن مكثت فيها ثلاثة أيام إلى (فرانكفورت) بالطائرة، واضطررت بالبقاء فيها ذالك اليوم ويوم الخميس، ومنها عدت إلى (باد قد سبرج) وقد نزلت هذه المرة في نُزُلٍ (بنسيون) يدعى (فِنِت هاوس وِيمر) لأن الفنادق قليلة، ولم أجد مكانا خاليا فيها، بعد مروري بها في سيارة أجرة، وأوشكت أن أذهب إلى (بون) فاتصل سائق السيارة بهاتف بمكتب شركته فأرشد إلى هذا النُّزل، وحقا ما يقال : (رُبَّ صدفة خير من ميعاد) فقد كان على درجة ممتازة من الأناقة والجمال، في ساحة هادئة، يتوسطها تمثال عازف ألماني مشهور (موزار) وكان أصحاب النُّزل بحالة عالية، من الرقة واللطف، وحسن المعاملة إلى هذا فإن أجرة السكن فيه ثلاث ليال لم تتجاوز ٤٤ ماركا، وهو مبلغ يُعَدُّ يسيرا حقًّا، بالنسبة لما لقيته من عناية وحرص على توفير الراحة لي.

ثم اتصلت بالسفارة، بشأن المساعدة في زيارة (برلين) والغاية الاطلاع على ما في (مكتبة متحف الأمة) الحافلة بالمخطوطات العربية، مما يهمني الاطلاع عليه، فاتصلت السفارة بالجهة التي يمكنها أن تهيئ لي الوسيلة، لتحقيق ذالك الغرض، فكان أن زارني في النزل الأستاذ محمد عبد الهادي من بلدة جنين التابعة لقضاء نابلس في فلسطين، وعمه السيد عوني عبد الهادي، وهو موظف في قسم الصحافة والإعلام، بوزارة الخارجية الألمانية، يشرف على الصحيفة التي يصدرها هذا القسم باللغة العربية، وتدعى « الرسالة » وقد طلب مني كتابة كلمة تنشر فيها، فكتبتها، وتحدثت فيها عن بعض آثار بعض المستشرقين من الألمان، من اهتمامهم بالتراث العربي، مثل (وستنفلد) و (أهلورد) وعما شاهدته من حسن المعاملة في النزل، وعن جمال الطبيعة في هذه البلاد.

وكان الأستاذ صبحي خنشت - الملحق الصحفي في سفارتنا - وهو سوري -

قد قال لي : أن الدكتور (فايس) أحد كبار موظفي ذلك القسم (رئيس القسم الشرقي) في وزارة الخارجية الألمانية يريد حديثا - أو كلمة - للنشر في تلك الصحيفة، وأنه سيبعث مندوبها إذا وافقت. فقلت : وما المانع؟ ليحضر متى شاء إذ سأنزل في ضيافة هاؤلاء، فأتى السيد عبد الهادي لهذه الغاية، وقد وجه إلي أسئلة تتعلق بمشاهداتي في ألمانيا، وبما أعرف عنها، وقد أجبت عليها إجابة نشر بعضها في العدد ٤٤ المجلد ٢ الصادر بتاريخ ٧ / ٥ / ١٣٨٠هـ - ٢٨ / ١٠ / ١٩٦٠ وأهمل ما يتعلق بإسرائيل وبالتعويضات الألمانية، إذا ألمانيا الاتحادية خاضعة للحلفاء، أمريكا وانجلترا وغيرهما.

وفي يوم الجمعة ٣٠ / ٣ / ١٣٨٠ - ذهبت إلى مطار (كولون) وكان موعد السفر المحدد لقيام الطائرة منه إلى برلين الساعة الثامنة والنصف، وقبل الموعد بخمس دقائق كنت في المطار، وحينما دعي المسافرون كنت حاضراً أسمع، غير أن الموظفة قالت : إن الحقائب قد أودعت الطائرة وقد تأخرت، ولهذا فقد فاتك السفر مع وجودي في المطار استعدادا للسفر منذ وقت مبكر. فاضطررت إلى الحجز في طائرة تسافر بعد الساعة التاسعة والثلث، إلى (فرانكفورت) ومنها انتقلت إلى طائرة أخرى بعد أن انتظرت في المطار ساعة كاملة فلم أصل برلين إلا الساعة الثانية عشرة والنصف ،ومضى الوقت موزعا على هذا النحو :

من كولن إلى فرانكفورت ٢٠ / ٩

الوصول إلى فرانكفورت ١٥ / ١٠

من فرانكفورت إلى برلين ١٥ / ١١

الوصول إلى برلين ٣٠ / ١٢ (من يوم الجمعة ٣٠ / ٣ / ١٣٨٠هـ).

في برلين : كنت علمت وأنا في (بادقدس برج) بأنني سأصل مطار برلين في تمام الساعة العاشرة (حسب موعد السفر الذي تأخرت عنه) وسأجد شخصا عربيا

يدعى (الدجموني) في انتظاري في المطار، وقد طلبت من السيد مصطفى صادق محمد - وهو شاب مصري موظف في السفارة السعودية - أن يتصل بقسم الصحافة والإعلام لإخبار (الدجموني) بتأخر وصولي إلى برلين. ولا بد من كلمة ثناء وشكر يوجهان إلى السيد مصطفى صادق، ذلك الشاب الهادئ الخلق، الذي وكل إليه الأستاذ الطبيشي ترتيب سفري إلى برلين من بادقدس برج.

وفي مطار برلين رأيت شابا عربيا واقفا يستعرض الداخلين إلى المطار، وحينما مررت به دعاني باسمي، فعرفت أنه السيد الدجموني من الطلاب الأردنيين. فاستخرج حقيبتي، وحملها وهي خفيفة، ومن عادتي التخفف في أسفاري، فلا أحمل معي إلا ما أحتاج إليه ممَّا لا أجد في البلاد التي أقدمها ما يغني عنه، وما قد أستفيده من كتب.

خرجنا من المطار وسرنا إلى المدينة في سيارة أجرة إلى فندق يدعى (هوتيل زوو) وهو من الفنادق الحسنة، إلا أن أجرة الغرفة فيه تقارب الـ ٣٠ ماركا، وتعد في ذالك العهد مرتفعة، ولكن مدينة برلين قد دمرت الحرب العالمية الثانية كثيرا من فنادقها، ولها إذ ذاك وضع خاص.

وضعت حقيبتي في الغرفة التي كانت قد حجزت لي، ثم قلت للشاب عمر الدجموني : أنا أريد الآن زيارة (مكتبة متحف الأمة) إذ غدا سبت لا تفتح إلا وقتا قصيرا، وبعد غد تكون مقفلة. فقال : إنها تقع في القسم الشرقي من برلين، وليس أمامنا من الوقت ما يكفي لزيارة تلك المكتبة. فأظهرت له بأنه لا بد من زيارتها. وأنا لم أتأخر في بلدة بادقدسبرج يومين إلا بناء على رغبة الدكتور (فايس)، ليتمكن من الاتصال بقسم الصحافة والإعلام هنا في برلين. فقال لي ذلك الشاب : إن الأمر لا يحتاج إلى اتخاذ شيء من الترتيب، ففي خلال بضع دقائق تكون في المكتبة، ودخولها ميسر لكل راغب يزور برلين، وإن كانت في القسم الشرقي منها، ليست في القسم التابع لألمانيا الاتحادية.

في برلين الشرقية(*)

في أحد مطاعم برلين الشرقية وكان الجوع قد أخذ مني كل مأخذ، دخلنا أحد المطاعم، في القسم الشرقي، فقدم لنا الندل قائمة الطعام، فطلبنا منه نوعا من اللحم المشوي، وشيئا من الخضروات، وقبل أن يحضرها طلب أبراز وثيقة الجنسية، فأريته جواز السفر، ولكنه لم يحاول النظر فيما إذا كان ذا سمة تسمح لي بأن أعامل في هذا المكان كواحد من المقيمين في هذا القسم من المدينة، وعلل صاحبي - الذي لم يطلب منه بيان جنسيته - ذلك بأنه يريد منا أن نجزل له الهبة (البخشيش) وسيقبل منا ثمنا للأكل من العملة المستعملة هنا، والتي لا تقبل إلا من سكان هذ القسم، أو ممن سمح لهم بالإقامة فيه، وقد دفعنا ثمن غدائنا ثمانية من الماركات (وهي تقابل ماركين ألمانيين غربيين) ولولا رغبة الندل وطمعه في منحتنا (البخشيش) لما قبل سوى ثمانية ماركات غربية (وهي تقابل ٣٢ ماركا شرقيا).

العملة في القسم الشرقي : حالة العملة في القطاعين حالة فيها كثير من الغرابة، عندما يريد المرء أن يذهب إلى القسم الشرقي فإنه يستبدل نقوداً شرقية، فيدفع ماركًا ألمانيا غربيًا ويأخذ عنه أربعة ماركات شرقية، وعندما يكون في القسم الشرقي فإن المارك الغربي لا يقبل إلا عن مارك واحد شرقي، والدولار الأمريكي (وهو يساوي ١٧ / ٤ ماركا غربيا) لا يساوي في القسم الشرقي سوى ماركين شرقيين، وإذا لم يحصل زائر القسم الشرقي على سمة تخوله حق الإقامة فإنه لا يقبل منه التعامل إلا بالعملة الغربية أو الدولار، أو غيره من العملات الأخرى غير الشرقية ولكن بقيمة منخفضة جدا.

ذهبنا في القطار إلى القسم الشرقي - بعد أن استبدلنا نقوداً شرقية بنقود غربية، عن المارك الغربي أربعة ماركات شرقية، ثم نزلنا في إحدى المحطات الواقعة بقرب المكتبة، وذهبنا إليها، ولما أردنا الدخول سألتنا الموظفة : أين بطاقتا الدخول؟

(*) "اليمامة" العدد ٢٦٧ الأحد ٩ شوال سنة ١٣٨٠هـ (٢٦ مارس سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

فذهب صاحبي إلى مكان أشارت إليه وأتى ببطاقتين بعد دفع ثمنهما نصف مارك. كان هذا أول شيء استرعى انتباهي عند دخول هذه المكتبة، فهذه أول مرة أدفع رسمًا لدخول مكتبة، أما عدم العناية بمظهر البناية وضعف الإنارة في طرقاتها ومداخلها، فهو أمر غير مستغرب في القسم الشرقي من برلين، هذا القسم الذي يتبادر إلى ذهن الواصل إليه من القسم الغربي أنه في مدينة أخرى تختلف عما شاهده في القسم الغربي من جميع مظاهر المدينة، ولما يبدو في كثير من المباني، ومنها مبنى المتحف، هذه المكتبة من آثار القنابل، ولولا الألمان انقذوا ما في هذا المتحف من نفائس المخطوطات وغيرها إلى أمكنة مأمونة لاحترقت.

البحث عن المخطوطات : تقع الكتب الشرقية (عربية وتركية وفارسية وغيرها) في قسم من المكتبة العامة، وضع بعضها في غرفة مستطيلة فيها مناضد وكراسي قليلة للمطالعين، وحينما دخلنا هذه الغرفة التي تقع في الدور الأول من البناية لم نشاهد فيه أحداً سوى الموظفة التي أخبرها الرفيق بأنني أريد الاطلاع على فهرس المخطوطات العربية كلها، وقال إنها سوف تحضره. وبعد برهة من الزمن جاءت تحمل مجلدات ضخمة، وتسجلها في دفتر أمامها، فقربت منها ونظرت إليها فإذا هي مصاحف وكتب دينية مخطوطة، فأفهمت صاحبي بأن إحداكُما لم يفهم ما أريد. فكلمها مرة أخرى، ثم قال لي : إنه لا يوجد هنا فهارس للمخطوطات العربية. فأفهمته بأن لهذه المكتبة فهرس مطبوع يقع في أحد عشر مجلدا، وضعه مستشرق ألماني يدعى (أهلورد). فعاد إليها مرة أخرى وكلمها، فأخذتنا إلى غرفة مجاورة ضيقة، فيها صوانات لبطاقات فهارس الكتب، وفي أحد الصوانات الكبيرة المملوءة بالفهارس، أشارت إلى (فهرس المخطوطات) ثم أتت بإضبارة مملوءة بالبطاقات وفتحتها، وأشارت إلى قسم منها. وقال صاحبي : إنها تقول : الكتب التي في هذا الفهرس ليست موجودة، الموجود هنا ٨٣ كتابا عربيا مخطوطا! فقلت لصاحبي بعد هذه الصدمة العنيفة التي صدمتنا : سَلهَا أين بقية الكتب التي هي (١٠٣٦٥) في هذا الفهرس؟ فقالت : لا أدري، ربما يكون بعضها ضاع أو نهب،

أو موجود في سراديب المكتبة داخل خزانات لا أعرف عنها شيئا.

أردت أن أعرف أسماء هذه الـ ٨٣ كتابا من الإضبارات فلم أستطع، فاستعنت بصاحبي فلم يكن بأسعد حظا مني في الفهم. لا بد إذن من مطالعة الجزء المختص بالتاريخ وهو المجلد العاشر من فهرس (أهلورد) كاملا، في هذا المكان المظلم القاتم، ولا بد من مطالعة القسم المختص بكتب الجغرافيا. وبعد ثلاث ساعات أجهدت فيها بصري، وجسمي، حتى أحسست كأن الغرفة تدور بي، قدمت لصاحبي ورقة كتبت فيها أسماء ٢٣ كتابا تتعلق بتاريخ الحجاز وجغرافيته، وأنساب العرب وتاريخهم، وطلبت منه أن يسأل الموظفة: هل يوجد شيء من هذه الكتب في المكتبة، فصار يملي عليها أرقامها واحداً واحداً، وهي تجيب بالنفي، حتى عدها كلها، فقلت له : سلها أين توجد؟ فأجابت: قد تكون في مكتبة جامعة (توبنجن) في ألمانيا الغربية.

وأسفاه!! ها هي الساعة الآن قد قاربت السادسة – ثلاث ساعات في هذا المكان المظلم، وبعد هذا التعب، سأعود من هذه المكتبة بدون فائدة؟ قال صاحبي: غدا في الصباح سنزور أكبر مكتبة في القسم الغربي، وقد تجد فيها بغيتك. ولكن – مع الأسف البالغ – لم يتحقق هذا بزيارة تلك المكتبة.

جولة بين القسمين: قلت لصاحبي : اغدُ إليَّ مبكراً صباح السبت لكي نذهب إلى المكتبة التي ذكرت لي. ففعل، غير أننا وجدناها لم تفتح بعد، حينما وصلنا إليها في الساعة الثامنة والنصف، وأمامنا من الوقت قبل فتحها ساعة ونصف فقال صاحبي : ألا تود أن تشاهد كيف يعامل جنود القسمين المتنقلين بينهما؟ فأبديت له الموافقة مجاراة لرغبته، فسرنا في شارع يدعى (شارع فردريك) متجهين صوب القسم الشرقي، وهذا الشارع – على ما قال صاحبي : كان من أحفل شوارع برلين قبل الحرب بالمباني التجارية الكبيرة من معارض ودكاكين، لم يبق منها الآن سوى أطلالها، ورأيت على جوانبه أمكنة واسعة كانت بنايات فتهدمت، وأزيلت

أنقاضها، فنبتت فيها الأعشاب والأشجار. فقلت لصاحبي : لماذا لم تُبن هذه الأمكنة وهي واقعة في قلت المدينة، وفي قسمها الغربي الذي تقوم الحركة العمرانية في كثير من أنحائه على قدم وساق؟ فقال: إنها كانت محلات تجارية لليهود، الذين خرجوا من برلين قبل الحرب، وقد هدمت إبان الغارات على برلين، فأزيلت الأنقاض، ولم يجرؤ أحد على البناء فيها، لأن أصحابها مجهولين. والحكومة لا تمانع في بيعها على من يريد بناءها ولكن المشتري عُرضة في أي وقت من الأوقات لأن يأتي أحد اليهود فيدَّعي بأنها ملك له، فتصادر من صاحبها، وتدفع إلى ذلك اليهودي، بدون أن يعوض بانيها. ثم تمادينا سيرا في الشارع حتى وصلنا إلى شارع آخر يتقاطع معه، فرأينا عددا من الجنود، واقفين في نقطتي التقاطع. ورأينا السيارات القادمة من القسم الشرقي، لا تجوز سيارة حتى يوقفهاالجنود، ويطلعون على ورقة يعرضها عليهم سائقها، ثم يدخلون جوف السيارة ويفتشونها. ثم لا يكتفون بذلك، بل يرفعون غطاء محركها، ويفتحون مكان ما يحمل فيها، ورأينا بعض السيارات يأمر الجنود برجوعها إلى الجهة الشرقية. أما السيارات القادمة من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية فهم لا يتعرضون لها، ولم نر الجنود الواقفين في نقطة التقاطع الغربية يفعلون شيئا مما يفعله الجنود الأخرون، بل لم نرهم تعرضوا لسيارة قادمة أو ذاهبة، وتابعنا سيرنا حتى شاهدنا بعض المعارض التجارية في القسم الغربي، ولما أظهرت استغرابي لصاحبي من رخص أثمان المعروضات، بالنسبة لما أعلمه من انخفاض قيمة المارك الشرقي قال صاحبي : إنك لو أردت شراء شيء منها لما استطعت، إلا إذا دفعت القيمة بعملة غربية، مماثلة للقيمة المحددة بالمارك الشرقي، وعلى هذا فهي غالية جداً.

متحف الأمة في برلين الشرقية : قلت لصاحبي - حينما عرض علي الاتصال بمكتب الصحافة والإعلام ليبعثوا إلينا سيارة نتجول بها في المدينة لا حاجة لي بذلك، وليس أمامنا متسع من الوقت، وها هي حديقة الحيوانات قريبة منا، فلنذهب إليها سعيا على الأقدام، فأجاب: ولكن المطر لا يمكننا من التجول

داخلها. فقلت: إذن إلى أعظم متحف في برلين. فقال: ذاك متحف الأمة وهو في القسم الشرقي.

ذهبنا إلى المتحف بالقطار الذي يسير جوف الأرض (أندر قراون)، وفي برلين كغيرها من المدن الكبيرة قطار يخترقها، ويمر بشوارعها الرئيسة، ويصل بين قسميها، منه ما يسير فوق الأرض، وهو تابع لألمانيا الشرقية، أما سيارات الأجرة فإنها من القسم الغربي لا توصل إلى القسم الشرقي، وفي القسم الشرقي قد يجد المرء بعض السيارات التي تأتي به إلى القسم الغربي، وقد حاولت إدراك السبب في هذا الاختلاف، فلم يكن صاحبي لبقاً حينما استوضح من سائق السيارة التي عادت بنا من القسم الشرقي، والتي اكتفى الجند حينما مررنا بهم بالنظر إلى السائق، والإشارة بالتحية، وهي علامة الإذن بمواصلة السير، وظهر لي أنه من الجواسيس، من ألمانيا الغربية، فقد قال ذلك السائق: هذه أمور خاصة. فقلت له: سله لماذا كثير من أصحابه امتنعوا عن إيصالنا. فلما سأله أجاب: لأنهم لا يسمح لهم أن ينقلوا في سياراتهم أحد من سكان القسم الشرقي إلى الغربي، ولا العكس، ولا يسمح إلا بنقل الأجنبي، فهم يقولون: إذا لم يسمح لنا بنقل مواطنينا فلا نريد نقل الآخرين. قلت: هذا الجواب غير معقول، إذن لماذا خرج هو عن رأي أصحابه؟ فكانت إجابته: هذه أمور خاصة. والظاهر أن بعض أصحاب سيارات الأجرة لهم صلات بالجنود في القسم الشرقي، فهم يسهلون لهم المرور، وأما غيرهم ممن لا صلة له بأؤلئك، فهو وإن سمح له بنقل أحد إلى القسم الغربي، إلا أنه معرض لإجراءات قد تضره، من حيث التحقيق معه لمعرفة أولئك الذين نقلهم إلى القسم الغربي. وما هي صلته بهم.

نزلنا في أقرب محطة إلى المتحف، ولكن كثرة المشي في الصباح دفعتنا إلى ركوب سيارة للوصول إليه، وإن كان على مرأى منا.

يقع المتحف في بنايات ضخمة واسعة يخترقها نهر (اشبريه) ويقسمها

قسمين، وقد أثرت القنابل، ورصاص البنادق في أسواره، وتهدمت بعض أجزاء منه أعيد إصلاحها.

ما كان الوقت متسعا لزيارة جميع الأقسام، فممرنا بقاعتين من قاعاته الكثيرة، ولكلٍّ واحدة منهما مدخل خاص، إحداهما تحتوي على آثار شرقية (إسلامية، وفارسية، وبابلية، وأشورية) ويسمى هذا القسم (متحف آمون) وفي هذا القسم بعض الآثار الرومانية، التي نقلت من الشام. وتدعى الصالة الأخرى (المتحف المصري) وفيها كثير من الآثار المصرية القديمة، والأثار الرومانية، أو اليونانية، وغيرها مما عثر عليه في مصر. لم نشاهد في الصالتين شيئا من الأثار النفيسة، وجل ما شاهدناه تماثيل من الحجر، أو النحاس أو الخشب، وبعض جدران مبان قديمة، كقطعة من سور (قصر المشتى) في الأردن، وغيرها. ورأينا بعض الرسوم الفنية الفارسية، والكتابات العربية الكوفية، بعضها على الحجارة (شواهد قبور منقولة من مصر) وبعضها على الورق، وأشياء كثيرة من هذه الأنواع، أما التحف الفنية، والأشياء الجميلة المصنوعة من المعادن النفيسة فلم يبقَ منها شيء في هذا المتحف الذي يبالغ من زاروه قبل الحرب، وتحدثوا عنه فيما كتبوا، يبالغون في وصف فخامته، وما ضمَّ من روائع الآثار. ولعل الألمان أنقذوا شيئا منها – كما فعلوا في نوادر المخطوطات – فصانوه من العبث، وحفظوه، وهذا ما يجهله رفيقي.

في برلين الغربية

لم يطب لصاحبي غداء الأمس، فخرجنا من المتحف لكي نعود إلى المكان الذي نسكن فيه، وفضلت أن تكون العودة على سيارة، ولكن سيارات الأجرة الكثيرة التي عرضت لنا، والتي مررنا بها واقفة في امكنتها، لم نكد نعثر من بينها على السيارة التي وافق صاحبها على العودة بنا، إلا بعد لأي.

في مكتبة الفكر الأوروبية : كنت(*) على أحر من الجمر، خوفًا من أن يفوت الوقت قبل زيارة هذه المكتبة التي بالغ صاحبي في وصفها، والتي قال عنها: إن الحكومة الأمريكية بنت هذه المكتبة هذا البناء الرائع الحديث، وجمعت فيها من الكتب ما قل أن يوجد مجتمعًا في مكتبة حديثة في أوروبة، وأضافت إلى ذلك بعض الكتب القديمة التي جمعت من المكتبات التي بعثرتها الحرب، ومن يدري فقد نجد شيئًا من بغيتك في هذه المكتبة فما فتحت أبوابها للزبائن إلا بعد أن كنا قد وقفنا في مقدمتهم.

انشئت هذه المكتبة في عام ١٩٥٤م، وبلغ عدد الكتب في نهاية عام ١٩٥٩م ٨١١,٠٠٠ كتابًا، وبلغ عدد المطالعين للكتب في ذلك العام ٤٢٢٤٦ منهم ٢٤٥٣ أطفال. أما الذين راجعوا قسم الأسطوانات فعددهم ٨٩٨٧ عرض عليهم منها ١٤١٨٣ اسطوانة.

والمطالع يدخل المكتبة، ويجلس في أي مكان من أمكنتها ويتناول الكتاب الذي يريد مطالعته من مكانه، وبعد انتهائه يعيده كما كان. وفي المكتبة قسم للإعارة الخارجية، وقد أعير من الكتب في عام ١٩٥٩م: ٧٤٨٧٠٦ للأفراد و ١٠٠٦٣ للمكتبات و ٣٠٤٨ للأفراد خارج المدينة وبعد هذا أتدري ماذا في المكتبَة من الكتب العربية؟ إنه نصف كتاب، ليس كتابًا واحدًا كاملاً، نعم نصف كتاب! هو

(*) «اليمامة» العدد ٢٦٨ الأحد ١٦ شوال سنة ١٣٨٠هـ (٢ أبريل سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

قاموس لغوي، ألماني، عربي!! هذا هو الكتاب التي قالت لنا السيدة التي تتولى قسم الفهارس: إنه موجود في المكتبة من الكتب العربية، ثم أرتنا إياه وقالت: قد تجدون في مكتبة (كلية الطب) التابعة لجامعة برلين شيئا من المخطوطات العربية، وها هو رقم الهاتف، ولكن صاحبي، فيما يظهر خشي جلسة كجلسة أمس، في مكتبة متحف الأمة، ولهذا لم يكلف نفسه عناء الاتصال بقسم الصحافة والإعلام لكي ييسر لنا الاطلاع على تلك المكتبة، بل اكتفى بأن قال بعد أن اتصل هاتفيا بإدارتها: وَعَدونا يوم الاثنين، وهو يعلم بأنني سأغادر برلين الساعة الثامنة والربع من يوم الأحد. فاكتفيت منه بأن ابتسمت، ولو كنت واثقا بقول السيدة لأرجأت السفر.

(ويل الشجي من الخلي) : هذا المثل ينطبق عليّ وعلى رفيقي عمر الدجموني، الطالب الأردني، الذي كلفه – أوا اتفق معه – قسم الإعلام – في ألمانيا الاتحادية لمرافقتي، فهو لا يعنيه مما أنا متجه إليه شيء. ولهذا فكثيرا ما يحاول الحيلولة دون ما أتطلع إليه بوسائل مختلفة، ولكن بطريقة مؤدبة، كما أنني أحاول ما استطعت عدم التأثير عليه، حين أتصور ظروفه التي ألجأته لمرافقتي ولقد كان – وأيم الحق – مع ذالك على درجة من الأدب واللطف معي.

في إيطاليا

إلى مدينة (روما)[*] : الطائرات التي تنقل المسافرين إلى برلين ومنها، لا تتجاوز إحدى المدن الألمانية، ولهذا كان لابد لي وأنا أريد السفر إلى (روما) من المرور بمطار (فرانكفورت) .

غدا صاحبي إليَّ مبكرا، ولكنه وجدني قد غادرت الفندق، ووصلت إلى المطار، قبل الوقت المحدد لقيام الطائرة بساعة كاملة، فقابلني فيه . وعندما بدأ موظف مكتب الطيران في تسجيل المسافرين وتسلم حقائبهم، تركت الأمر لصاحبي، وجلست قريبا منه، ولما آن وقت قيام الطائرة أرشدني إلى باب الخروج إليها، وأشار إلى أناس واقفين متهيئين للخروج قائلاً : هؤلاء هم المسافرون معك . فودعته ووقفت بينهم، ولم أطمئن حتى سألت أحدهم : هل أنت ذاهب إلى (فرانكفورت) فأجاب بالإيجاب . فتح الباب، فأسرعوا إلى الطائرة وأنا من بينهم، ولما أغلق باب الطائرة قامت اثنتان من المضيفات يتتبعان الركاب واحدا واحدا، ويسألن كل واحد منهم عن وجهة سفره،ثم يطلعن على تذكرة السفر، حتى وصلتني إحداهن، فلما طالعت التذكرة نادت صاحبتها، فأخذت إحداهن حقيبتي، وأشارتا لي بأن أنزل وافهمتاني بأن هذه الطائرة تابعة لشركة (بان أمريكان) والطائرة التي حجز لي فيها من طائرات شركة أخرى . وكانت تلك الطائرة على وشك القيام، إلا أن المضيفة التي حملت حقيبتي أشارت إليها، وأمرت العمال الذين بدأوا بجر السلم بإعادته، حتى ركبت .

لقد كانت هذه إحدى المرات التي اعتمدت على غيري . وعادتي عند السفر أكرر السؤال في مثل هذا الأمر، حتى أتحققه بطريقة أطمئن إليها !!

بعد ساعة هبطت الطائرة في مطار (فرانكفورت) ولم يزد وقت الانتظار فيه على تسجيل أسماء المسافرين إلى روما، من القادمين من برلين وبعد ساعتين اثنتين كنا في مطار روما – أي الساعة الواحدة والنصف .

تكاد المناظر التي يشاهدها راكب الطائرة وهو يجول في غرب أوربة وشمالها تكاد تكون متشابهة . أراض منبسطة ممتدة امتداد النظر، مكسوة بالنبات، وجبال قليلة

(*) "اليمامة" العدد ٢٦٩ الأحد ٢٣ شوال سنة ١٣٨٠هـ (٩ ابريل سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة .

الارتفاع، وتلال مستطيلة، وأنهار، وبحيرات، وأودية، ولكن المرء عندما يقبل على (إيطاليا) قادما من غرب أوربة تتغير تلك المناظر - أو هكذا بدا لي وأنا في الطائرة - لقد أبصرت جبالا شاهقة، قد كست الثلوج قممها فبدت بيضاء، ناصعة البياض، ثم بدأت الجبال تظهر لي قليلة النبات، حينما أوشكت الطائرة أن تصل روما.

نزلنا في المطار، وقد بدا الجو يصحي بعد أن كان ممطراً ولم يطل مكثنا، وبينما أنا سائر إلى موظف الجوازات التفت إليَّ أحد القادمين معي من فرانكفورت قائلا: أنت مصري؟ فقلت لا ولكن عربي قال: إن معي (شنطة) حقيبة، هل يمكن أن تعدها من أمتعتك في الجمرك؟ فوافقت. وعند الخروج قال لي: وأين ستسكن في هذه المدينة؟ فأوضحت له أنني لم أختر المكان، فهذه أول مرة أزور هذه المدينة. فقال: أنا أعرف منزلا مناسبا فلنذهب إليه جميعا. وصاحبي هذا مصري يدعى السيد وصفي يواكيم، رئيس شركة سياحية في القاهرة.

نزلنا في نزل وسط المدينة يدعى (رتشي بنسيون) وهو كما قال لي صاحبي: (كُويِّس ورخَيِّص).

ما كان المرء في هذه الأيام في جميع بلاد أوربة يستطيع الخروج مالم يثقل جسمه بالملابس، وقد خرجت في الملابس التي اعتدت لبسها هناك، وجلست في إحدى المقاهي، فوق أحد الكراسي الكثيرة، الموضوعة على جانب الشارع خارج القهوة، ولم ألبث سوى وقت قصير حتى صار العرق يتصبب من جسمي، إن الجو في هذه المدينة يعد حاراً بالنسبة إلى شمال أوربة ووسطها، وهو معتدل بالنسبة إلى بلادنا. وهذا يشمل جميع البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط، على ما قيل لي.

المعهد الشرقي: ذهبت في مساء يوم الاثنين - ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨٠هـ - ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٦٠ - لزيارة المعهد الشرقي، بعد أن مهد لي الأستاذ سمير الشهابي [١]، القائم بأعمال سفارتنا في روما طريق زيارته والاجتماع فيه ببعض العلماء الإيطاليين المعنيين بالدراسات الشرقية.

---

(١) سمير فلسطيني منح الجنسية السعودية، وتولى أعمالاً في وزارة الخارجية، منها سفيرا في روما ثم في انقرة وممثلا للحكومة في هيئة الأمم المتحدة، وغيرهما.

يدعى هذا المعهد (معهد الشرق للدراسات الإسلامية والعربية) وهناك معهد آخر يدعى (معهد الشرق الأوسط والشرق الأقصى) وفيهما عدد من العلماء الذين يقومون بدراسات ثقافية عامة عن أحوال الشرق، ومختلف شؤونه، ومن مشاهير المستشرقين في إيطاليا المستشرق الكبير الأستاذ ليفي دِلافيدا والأستاذ غبريلي[1]، والأستاذة ماريا نلِّينُو والأستاذ - جيوفياني - هؤلاء من المهتمين بالدراسات العربية ولهم آثار معروفة، ومؤلفات باللغة العربية. وقد أخبرتني الأستاذة ماريا نلِّينو بأنها زارت جدة. عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧) وعرفت الشيخ محمد نصيف، وأثنت على مكتبته.

والأستاذة ماريا هي ابنة المستشرق المعروف نلّينو، وهو من مشاهير الأساتذة الغربيين الذي دَرَّسوا في الجامعة المصرية أول إنشائها، ومحاضراته عن (علم الفلك عند العرب) تعد من أهم المصادر في موضوعها، وقد طبعت باللغة العربية في (روما) في أربعة أجزاء. وقد قامت الأستاذة ماريا بجمع شعر النابغة الجعدي، ونشرت ذلك مع دراسات في اللغة الإيطالية، وهي تتكلم العربية بطلاقة، وكذا من اجتمعت به من المستشرقين الإيطاليين.

مع شيخ المستشرقين [2]: أما الأستاذ ليفي دِلأفيدا يُعَدُّ شيخ المستشرفين في إيطاليا، وقد ولد في مدينة (البندقية) سنة ١٨٨٦م فعمره الآن يقارب الثمانين عاما بحساب السنين القمرية، وهو من مؤلفي "دائرة المعارف الإسلامية" التي وضعها المستشرفون، فقد كتب فيها عن أنساب العرب.

أخبرني الأستاذ دلافيدا عن تاريخ مولده، وأردف قائلا: حينما قمت بوضع فهرس (مكتبة الفاتيكان) كنت أجد في تراجم العلماء أنهم من أطول الناس أعمارا. وقرأت كتاب "المعمرين" للسجستاني فوجدت الأعمار فيه تبلغ المئات من السنين،وأنا لا أريد المئات - قالها مازحا - ولكنني أريد عمرا طويلا وصحة جيدة[3].

---

(١) انظر ما كتبته عنه في كتاب « رحالة غربيون في بلادنا » ص ٣٦٨.

(٢) "اليمامة" العدد ٢٧٠ الأحد ١ ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ (١٦ ابريل سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

(٣) توفي سنة ١٣٧٨هـ (١٩٦٨م) وانظر مجلة "العرب" ج٢ ص ٣٧٦.

وسألته عن "جمهرة النسب" لابن الكلبي وماذا عمل فيه؟، فقد ذكر الأستاذ بروفنسال في مقدمة كتاب "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم، أنك تقوم بتحقيقه، لنشره، فقال : قمت بدراسة الكتاب، ورتبت من مواده أربعين ألف مادة، وضعت لها فهارس، ولكنني الآن تركته لكبر سني. وسيقوم الأستاذ (كاسكل) بنشره، والأستاذ (ورنر كاسكل[1]) عالم ألماني، في جامعة (كولن) وهو يُعَدُّ الجداول التي وضعها الأستاذ (وستنفيلد) عن أنساب العرب، يعدها للنشر مرة ثانية مضيفا إليها كل ما ورد في "جمهرة النسب".

قلت له : وهل يوجد للكتاب أصول غير القطعة الموجودة في المتحف البريطاني، والجزء المعنون بكتاب "النسب الكبير" الموجود في مكتبة (الاسكوريال) فقال : لا ثم سألته بعد أن سمعته يكرر بأن نسخة الأسكوريال هي جزء من الجمهرة : ألا يكون كتاب "النسب الكبير" من تأليف محمد بن السائب وليس من مؤلفات ابنه؟ فقال : الابن هو راوية أبيه، والأب لا يعرف عنه إلا أنه مفسر. فقلت : المترجمون يقولون عن الأب : (صاحب التفسير والنسب) وذكروا له أسماء كتب في النسب فقال : لا أعرف هذا. ثم حدثني عما لديه من كتب النسب المخطوطة. فذكر كتاب "المقتضب" لياقوت، وأثنى عليه. فقلت : ألا تعتقدون أن النسخة الموجودة من "المقتضب" ناقصة، إذ في أحد المواضع منها في الكلام على نسب إحدى قبائل ربيعة وردت جملة : (ذكرت في مكان آخر من الجزء) أو كلام هذا معناه. فقال : لعل لياقوت كتابا آخر في النسب، فقد ذكر صاحب كتاب "إقليد الخزانة" أن لياقوت مختصر آخر. فقلت له : لعل منشأ هذا أن عبد القادر البغدادي صاحب «الخزانة» نقل أنساب بعض المشاهير، ونسب النقل إلى "المقتضب" ومنه مالا يوجد فيه، وكان عبد القادر يملك مختصراً للجمهرة، وهذا المختصر يوجد في (مكتبة راغب باشا) في (اسطنبول) فقال : صحيح، وأنا عندي نسخة مصورة منه. قلت له : إن ذلك المختصر ليس لياقوت،

---

(١) توفي (كاسكل) في سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) وانظر "العرب" س٥ ص ٩٦١.

لأن مؤلفه أشار إلى أنه اعتمد على ثلاث نسخ خطية، نسخة بخط ابن يزداد، وأخرى بخط ياقوت، وثالثة أشار إليها في أحد الهوامش، وأنه استعارها من رضي الدين الصاغاني عندما قدم بغداد. ثم سألته: ألا تعرفون صاحب هذا المختصر؟ فقال: لا. وأذكر أن أحد الكتاب نشر عنه مقالاً في مجلة (المجمع العلمي العربي) بدمشق. فقلت له: أنا صاحب ذلك المقال، ولكنني لم أجد بعد من يهديني إلى اسم المؤلف قلت هذا قبل أن أعرف المؤلف، وقد عرفته، ونشرت عنه مقالا في «العرب» بد ذالك، وهو المبارك بن يحيى بن المبارك الغساني الحمصي[1].

وذكر لي[2] الأستاذ (دلأفيدا) بأن لديه نسخة من كتاب "النسب" لأبي عبيد القاسم بن سلام. فذكرت له بأن الأستاذ أحمد آتش[3] نشر في "مجلة معهد المخطوطات العربية" في القاهرة منذ سنتين مقالا عن بعض المكتبات الموجودة في الأناضول، وذكر في إحداها مخطوطًا ظنَّه "جمهرة النسب" لابن الكلبي، وقد اتضح لي بعد مطالعته أنه كتاب أبي عُبَيد، وهو مختصر من "الجمهرة". فقال: نسختي هي مصورة من تلك النسخة من مكتبة (مانيزيا) وهو كتاب مختصر جدا.

ثم طلب الأستاذ دِلأفيدا "مجلة المجمع العربي" من مكتبة المعهد فاحضروا له أعداد السنوات الأخيرة من سنة ١٩٥٦م - وقال: أنا سأقرأ المقال عن "مختصر الجمهرة"، مرة ثانية في البيت - يعني مقالي عن "مختصر الجمهرة" مخطوطة مكتبة راغب باشا.

ومما قال الأستاذ دلافيدا عندما سألته عن نوادر المخطوطات في (مكتبة الفاتيكان): يوجد الجزء الثاني من كتاب "قصص الأنبياء" تأليف عمارة بن وثيمة. فقلت: ولكن كتب قصص الأنبياء - كما يعرف الأستاذ فأجاب: صحيح، صحيح، ولكن شهرة وثيمة، وهو صاحب كتاب الردة، تجعل لمؤلف ابنه

---

(١) «العرب» ٢١/ ٢٨٩.

(٢) "اليمامة" العدد ٢٧١ الأحد ٨ ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ (٢٣ ابريل سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

(٣) عالم تركي كان مدرسا في كلية الآداب والفنون في اسطنبول، وقد توفي كهلا بسكتة قلبية سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٨) انظر "العرب" س٢ ص٣٨٤.

قيمة، من حيث القدم، وكيفية نشوء تدوين كتب القصص.

في معهد الشرق : ومن المستشرقين الذين اجتمعت بهم في هذا المعهد الأستاذ – جيوفياني أومان – الأستاذ المساعد في جامعة نابلي.

وقد قال لي : لا شك أنه يسرك أن تعلم بأن كتاب الإدريسي في الجغرافيا يقوم (معهد الشرق الأوسط الأقصى) بإعداده للنشر، وأنا أقوم بتحقق الكتاب، وقد حصل المعهد له أصولاً جيدة، أقدمها من مخطوطات القرن الثالث عشر الميلادي (السادس الهجري) لدينا الآن تسع نسخ : ١– نسخة من – المكتب الهندي في وزارة الخارجية البريطانية. ٢– نسختان من لندن. ٢– نسختان من باريس. ٢– نسختان من اسطنبول. ١–نسخة من صوفيا– وهي جيدة. ١– نسخة من القاهرة، وهي ناقصة، إلا أنها جيدة الخط.

وفي مكتبة لينيغراد نسخة طلبنا صورة لها، ونأمل أن تصل إلينا وقال لي الأستاذ جيوفاني بأنه سيبعث إليَّ القسم المتعلق بجزيرة العرب من ذلك الكتاب ويقع في بضع ورقات، لكي أطالعه، وأُبدي ملاحظتي عليه، وقد بينت له أن أسماء مواضع جزيرة العرب في الخريطة التي نقلها الأستاذ الألماني الذي نشر الخريطة. وفي الخريطة التي طبعها (المجمع العلمي العراقي) عن نسخة الأستاذ الألماني، وقع في كثير من تلك الأسماء تحريف، فقال : نأمل بأن نتدارك هذا بالنسخ الجيدة التي نجدها، وبمساعدة العلماء المختصين.

وقد تم طبع الكتب طباعة حسنة، بفهارس مفصلة إلا أن أسماء المواضع في جزيرة العرب وردت على ما هي عليه من الأخطاء.

في مكتبة الفاتيكان : هيأ لي الأستاذ سمير الشهابي زيارة هذه المكتبة، فبعث معي الأستاذ الحسيني – من موظفي السفارة – في صباح يوم الثلاثاء – ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٨٠.

وقد طالعت الفهرس الذي وضعه الأستاذ دلافيدا للمخطوطات العربية في سنة ١٩٣٥ إذ لم أجد فهرسا آخر باللغة العربية، وقد نقلت منه أسماء الكتب التي رغبت الاطلاع عليها، فنقل الأستاذ الحسيني أرقامها اللاتينية على الاستمارات الخاصة بطلبها. ولكن الموظف المكلف بإحضار الكتب للمطالعين أفهمني بأن نظام المكتبة لا يسمح بإحضار أكثر من ثلاثة كتب مخطوطة أو ستة كتب مطبوعة في اليوم، فلم يحضر لنا سوى ثلاثة كتب مما طلبنا، وكانت:

١- "تعريف من أسرار الحكمة": وكنت ظننته كتاب "سرائر الحكمة" للهمداني، فوجدته "مختصر التلويح إلى أسرار التنقيح" في شرح القانون لابن سيناء. ٢- كتاب المعادن": وقد ظننت أنه سيفيدني في تحقيق كتاب "الجوهرتين" في التعدين، فوجدت الكتاب باللغة السريانية، ولم أفهم منه شيئا. ٣- "القصيدة الدامغة"، ودامغة الدامغة. والقصيدة الدامغة - على ما هو معروف ردَّ بها الهمداني على الكميت بن زيد الأسدي، رد في هجوه للقحطانيين، إلا أن الدامغة هذه ودامغتها قصيدتان أُخريان تتفقان مع قصيدة الهمداني في الموضوع والقافية، وتخالفانها في الوزن، فهما من بحر البسيط، والأولى كتب في أولها: هذه القصيدة لمحيا بن العُلِّيف في الرد على قحطان لأنه من نزار، مطلعها:

ما انبعت(١) مذ كنت للأخبار مضمونا ولا بثثت من الأسرار مكنونا

ثم بعدها: - وهذا جوابها للفقيه جمال الدين علي بن الأسلمي نسبًا، والزيدي مذهبًا، وسماها دامغة الدامغة وهي هذه:

فخارنا بسيوف الهند يكفينا عن فخركم آل عدنان ويغنينا

وهي ١٦٧ بيتا، وهاتان في المجموع رقم ١١٢٠ وفي المجموع رقم ١١٣١.

وفي المجموع من بحر البسيط أيضا قصيدة أخرى نونية في الافتخار بالقحطانيين، إلا أن أولها غير موجود، ويليها جواب السيد العلامة صفي الدين

الهادي بن إبراهيم بن الوزير، رداً على الفقيه علي بن سليم الفضلي، وهو أبلغ جواب، وسماها الشيعة "دامغة الدامغة" :

فخارنا برسول الله يكفينا عن كل فخر وأن الأنبيا فينا

وتقارب هذه القصيدة خمس مئة بيت.

وفي هذين المجموعين قصائد لشعراء يمنيين، متقدمين ومتأخرين، وبعض رسائل في موضوعات مختلفة وهما حديثا النسخ، من مخطوطات القرن الثاني عشر الهجري وكاتبهما يمني، وليس فيهما شيء ذو أهمية.

في مكتبة الفاتيكان مرة أخرى(*) : وفي صباح يوم الأربعاء غدوت مبكرا إلى مكتبة الفاتيكان لأكمل الاطلاع على الكتب التي أريد الاطلاع علها. وكانت :

١- "ديوان علي بن المقرب" في المجموع رقم ١١٥٠ يبتدي من الورقة ١٠٥ وينتهي بالورقة ١١٣ أي ١٨ ورقة. ومقدمة الديوان هذا نصها : (ديوان علي بن المقرب رحمه الله) : بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وصلى الله على محمد وآله، إن الأمير الكبير الأديب نور الدين علي بن المقرب، كان أميراً جليلا مقدما في قومه، فاضلاً نبيلاً متمسكًا بالدين والعفاف، متصفا بحسن السيرة والعدل والإنصاف، ثم جار على قومه صرف الزمان، ونزل بهم ريب الحدثان، فدخل بلادهم من نازعهم في الأمر، واستولى على أشرافهم بالغلبة والقهر، فانتصر بقومه على القوم، ولامهم أيما لوم، فعدلوا عن رأيه الصواب، ولم يفد فيهم اللوم والعتاب، فأنِف من القهر والذل، وإنَّ سفك دمه أهون عليه ولو طُلّ، فعزم وفارق من بغي عليه من أهله وإخوانه وامتدح من رجا عنده نجاح قصده، ونجاز وعده لا متكسبا بذلك مالا، ولا طالباً إحسانا وأوصالا، وكان رحمه الله قد أُعطي من البلاغة النصيب الجزل، وخص بخصائص من الفضل، يعرف ذلك العلماء بهذا

(*) "اليمامة" العدد ٢٧٢ الأحد ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ (٣٠ ابريل سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

الشأن، ويشهد له شعره بالتميز على الأقران، والسبق في ميدان الرهان، فالله يتولاه بالعفو والغفران، ويشهده غرفات الجنان، وكان وفاته في حدود الثلاثين بعد ست مئة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فمن قوله رحمه الله:

كم أُرجع الزفرات في أحشائي).

وكاتبه يدعى محمد بن سعيد بن صالح القلقيلي، من (شهارة) في اليمن، من أهل القرن الحادي عشر الهجري، يدل على ذلك ما جاء في أحد الهوامش وهذا نصه في الورقة (١٢٢): فرغ من زبر هذه القصائد لنفسه ... محمد سعيد بن محمد بن صالح القلقيلي السمحي سامحه الله، وذكر يوم الانتهاء من النسخ وشهره، ولم يذكر السنة، إلا أنه أورد في موضع آخر من المجموع قوله: (وللكاتب في السد الذي أمر مولانا أيده الله بإصلاحه في محروس ضوران سنة ١٠٢٣:

لقد جعل المولى الخليفة بيننا وبين الظما سداً وأردفه سداً

والديوان لا يتضمن إلا بعض شعر الشاعر، فالقصيدة اللامية التي مطلعها:

حُطُّوا الرِّحال فقد أَودتْ بها الرِّحَلُ ما كُلِّفَت سَيرَهَا خَيْلٌ ولا إبلُ

غير مذكورة والميمية الطويلة لم يذكر منها سوى ٦٣ بيتا. وهناك قصائد أخرى موجودة في الديوان المطبوع، لم ترد هنا.

وفي هذا المجموع دواوين شعرية للمعري وللأنسي، وللحاجري، وقصائد ومقطوعات شعرية كثيرة لشعراء يمنيين، وفي آخره كتاب "خلاصة السيرة الجامعة، لأخبار الملوك التبابعة" تبتدئ من الورقة ١٣٠ إلى آخر المجموع أي ٦٤ ورقة - وهذا ماجاء في طرة الورقة الظ ١٣٠: (كتاب خلاصة السيرة الجامعة، لأخبار الملوك التبابعة، تأليف القاضي العلامة أبي الحسن علامة اليمن نشوان بن سعيد الحميري، أصل القصيدة وشرحها لنشوان رحمه الله.

منقول من سيرة الإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام في ذكر نشوان: وله أشعار كثيرة ويروى أنه كان لا يرجع إلى قول أهل البيت، ولا يقوم بحقهم القيام الذي يجب على مثله لمثلهم، وروي أنه تاب عن ذلك كله رحمه الله، ذكر ذلك كله في «الترجمان» لأبي مظفر رحمه الله، وله أولاد علماء، ومما يدل على عقيدة نشوان واعتقاده على غير أهل البيت، وكان اعتماده في كتبه على ما يقوله علماء الأمة ما خلا أقوال الأئمة فقال في المعنى شعراً:

إذا جادلت بالقرآن خصمي أجاب مجادلا بكلام يحيا[1]

فقلت كلام ربي منه وَحيٌ أتجعل قول يحيا عنه وَحيَا

وله التصانيف البديعة كـ«شمس العلوم» وغيره.

وروي أن الإمام الهادي عز الدين بن الحسن رضي الله عنه لمَّا زار قبر نشوان بن سعيد وولديه محمد وعلي قال ارتجالا:

يا قبر نشوان لولا النصب فُقتَ على

من كان من علماء العرب والعجم

يا قبر نشوان ما ضُمِّنتَ مِنْ حِكَمٍ

ومن علوم له تربي على الدِّيَمِ

ولعل الرواية في توبته عن النصب غير صحيحة، ولو صح ذلك وصحت توبته لم يقل الإمام عز الدين ما قاله على قبره، أو كانت توبته لم يعلم بها الإمام. الله أعلم. وأما الإمام القاسم بن محمد فقد كفره في قوله مفتخرا بقحطان:

والناس من صدف وهم من جوهر

وقوله:

لم تَسمع الأذانُ صوتَ مُكَبِّرِ

---

(١) القاعدة (يحيى) ولكنني كتبت الاسم بالألف دفعا للخطأ.

وهي في هذا الكتاب وفي الورقة: ١٩٤: آخرها: (وكان الفراغ من رقمها يوم الخميس سادس جمادى الآخر سنة ثمان وثمانين وألف سنة من الهجرة).

... وبين الورق(*) ثلاثة حواش مكتوبة بورقات صغيرة، وملصقة في مواضعها من الكتاب، منقولة من "شرح الدامغة" ولم يرد في هذه النسخة في الكلام على نسب الرائش نقل عن شرح الدامغة - كما في أغلب النسخ - بل اكتفى بالنقل من "الإكليل".

وفي المكتبة نسخة أخرى مختصرة جاء في مقدمتها (اختصار شرحها من شرح مصنفها، اختصره محمد بن أحمد بن موسى الرعيني) والنسخة مخطوطة سنة ١١٢٩ وكاتبها يدعى عبد الفتاح بن أحمد بن يحيى بن إبراهيم، من اليمن، وقد أطلت النقل المتعلق بنشوان، لأنه من أجلة علماء اليمن، وما أرى تَعَصُّب أئمة الزيدية ضدَّه سوى أثر من آثار العَصَبية بعد العدنانية والقحطانية، وكانت بواعثها سياسية، والمنصف حين يتتبع كلام نشوان يستطيع أن يخرجه مخارج حسنة، ولكن الإنصاف قليل في كل زمان ومكان.

٢- « قصص الأنبياء » : أردت أن أطالع النسخة التي ذكر لي الأستاذ دلافيدا أنها موجودة في المكتبة، من تأليف عمارة بن وثيمة. غير أن الفهرس الذي بين يدي لا يذكر فيه اسم المؤلف بل يكتفي باسم الكتاب ورقمه،، والكتب التي عن قصص الأنبياء في الفهرس تحمل أربعة أرقام (١٦١ / ١٢٥ / ١٣٦٢ / ١٧٢) وقد أحضر لي الموظف منها كتابين، وجدت أحدهما من الكتب المسيحية، والثاني مجموعة من الأوراق الملفقة. فأعدتهما إليه، وطلبت إحضار الباقي. فرفض لأنَّ نظام المكتبة لا يسمح إلا بإحضار ثلاث نسخ مخطوطة، فقلت له - بالإشارة لأنه لا يفهم العربية وأنا لا أفهم الإيطالية - : انني سأسافر غدا، وأظهرت له الاستعطاف، فأتى إليَّ

(*) "اليمامة" العدد ٢٧٣ الأحد ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ (٨ مايو سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

وأخذ بيدي، وذهب بي إلى قسيس كان غارقًا بين الكتب، ينقل ويطالع، ويصحح أوراقا مطبوعة فوقف عنده حتى رفع رأسه فكلمه، وعرض عليه بطاقات الكتب التي طلبت إحضارها، فأخذها منه وكتب فيها ثم أرجعها .. فأمرني بالجلوس في مكاني الذي اعتدت الجلوس فيه، وبعد برهة وجيزة أحضر لي كتابين، رأيت أحدهما غير جدير بالمطالعة لأنه ورقات ملفقة، ومختلفة المواضيع. أما الثاني ويحمل رقم ١٢٥ فيحتوي على كتابين: الأول (كتاب "الأنوار" لأبي الحسن عبد الله البكري، أوله : (قال أبو الحسن عبد الله البكري رحمة الله عليه: قال أبو محمد العباس بن عبد الله قال حدثنا الفضل بن جعفر بن عبد الله قال: حدثنا أبو محمد البلخي، واسمه السدي بن عثمان، عن أبي بكر بن سعد بن عمر الأنصاري عن أبيه قال : سألنا كعب الأحبار وهو يصف الإسلام فلم أجد رجلاً أنصف(؟) منه للأخبار، سألته عن بُدُوِّ الرسول ﷺ فحدثني عن بُدُوِّ أمره في سابق علم الله سبحانه وما شرفه به وفضله ومحله ومولده ...) والكتاب جله عن كعب ووهب وأمثالهما. والكتاب الثاني يبتدئ من الورقة ٤٧ – وهذا نص ما جاء فيها: المجموع رقم ١٢٥ من الورقة ٤٧ سفر فيه "قصص الأنبياء" صلوات الله عليهم في ذكر أخبارهم وأنسابهم وأنبائهم، من مبدإ خلق آدم عليه السلام، من تأليف الشيخ المقرئ أبي عبد الله أحمد بن مطرف الكناني الكرجي رحمه الله وعفا عنه، للإمام الشيخ المعلم لكتاب الله العزيز الفقيه أبي عمران موسى بن مفرج الأنصاري رحمه الله وعفا عنه.

من ٤٧ إلى ١٣٣ (١١٤ ورقة كبيرة في الصفحة ٢٤ سطرا) بخط مغربي وبعض الكلمات مشكل، وقد أصابه بلل إلا أن الكتابة فيه مقروؤة.

وفي الورقة ١٣٣ ما هذا نصه : (تمت قصص الأنبياء بحمد الله وحسن عونه والصلاة على سيدنا محمد وآله في العشر الآخر من صفر موافق ست وعشرين يوم من شهر يونيه، عام سبع وسبعين وست مئة.

أخذت من المسلمين مدينة واشقة سنة ستة وخمس مئة، ثم أخذت بعدها سرقصطة سنة اثنا عشر وخمس مئة، ثم أخذت بعدها لاردة في سنة ثمانية عشر وخمس مئة).

كانت(*) بغيتي من مطالعة هذه الكتب الاطلاع على كتاب عمارة بن وثيمة، ولكنني لم أجده، ولم أجد في هذه المكتبة من الكتب شيئا مما ابتغيه، غير أنني رأيت في أحد المجاميع قصيدة باللغة العامية في مدح أحد أمراء آل فضل الطائيين، أُنسيت اسمه الآن. فاستطرفتها لأنها تدل أن هذا النوع من الشعر معروف في القرن التاسع في الجزيرة، ومعروف ما أورده ابن خلدون عنه في مقدمة تاريخه.

قليل من الضحك !! خرجت متجولا في داخل (قصر الفاتيكان) وما يحيط به من مباني، ولما أعياني السير ذهبت إلى المكان الذي أسكنه، ومررت بطريقي إلى النُزل ببائع فاكهة، فرأيت عنده نوعا منها، ظننته من الطماطم، إلا أن أصفر اللون، كبير الحجم، فأغراني كبر حجمه وصفاء لونه بالشراء، وكذا البائع حينما رآني أُطيل النظر إلى ذلك النوع، فأخذت منه حبة ونقدته ثمنها ١٠٠ ليرة واحدة (والليرة في هذه البلاد كبيرة الاسم قليلة النفع، ومئة الليرة هذه تقارب ثلث ريال) ولما وصلت المنزل وأُحضر لي الغداء، وكان أحد الاطباق (مكرونة) أزلت قشرة تلك الحبة، وقطعتها فوق الطبق، ولكنني ما كدت أذوقها حتى صرت أجافي جنبي محاولاً إخفاء الطبق، لئلا ينظر أحد من الجالسين على الموائد حولي إلى ما فعلته فيضحك ويهزأ بفعلي. ولكن الفتاة التي كانت تحضر الطعام أدركت ذلك، فاستغربت، وأشارت إلى طبق الفاكهة، لتعلمني بأن هذا فاكهة يؤكل بعد الانتهاء من الغداء، ولكنني تجاهلت ذلك واظهرت لها أنني فعلته متعمدا، وأنني أحب أن أضع على (المكرونة) شيئا حلواً. ودرأت عن نفسي وصمة الجهل، وان كنت من أجهل الجاهلين في فعلي هذا، مكررا جملة (فري نايس) !! وهذا النوع من

(*) "اليمامة" العدد ٢٧٤ الأحد ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ (١٤ مايو سنة ١٩٦١م) السنة الثامنة.

الفاكهة يدعى (كاكي) في مصر.

في دار السفارة: أبى كرم الأستاد سمير الشهابي القائم بأعمال السفارة السعودية في روما إلا أن أقيم إلى يوم الخميس، لكي يدعو بعض العلماء الذين يعنون بالدراسات العربية، إلى حفلة غداء في دار السفارة، وما كنت راغبا في ذلك، إلا أن ما شاهدته من كرم خلال الأستاذ الشهابي أبي عليٍّ إلا أن أقابل دعوته الكريمة بالشكر والقبول.

كان من بين المدعوين - وهم قليلون - المستشرق المعروف الأستاذ (غبريَلِّي) أستاذ الأدب العربي في جامعة روما، ومعاونه وهو شاب مستشرق زل عني اسمه، والأستاذة (ماريا نِلّينُو).

وقد أمضيناها سويعات قَصَّرَهَا لطف الداعي وكرمه، وما أفضينا في الحديث عنه، من أخبار الكتب والمكتبات، وآثار المعنيين بالمخطوطات وسبحان مغير الأحوال! فلقد زرت (أنقرة) وكان سمير هو سفير بلادنا، قدمت من بيروت والأستاذ فهد المارق، وكان قائما بالأعمال في السفارة، وقد يكون بينه وبين سمير عدم انسجام، فطلبت منه المساعدة في الاطلاع على (المخطوطات التركية) وفيها وثائق تاريخية عن بلادنا، والاطلاع عليه مهيأ لكل من يحضر من سفارته ما يثبت معرفته، والأغرب من هذا أنه قابلني مقابلة من لا يعرفه، فصافحني وهو جالس فوق مكتبه، وقدمت له جواز سفري الخاص، فامتنع عما طلبت منه.

في مكتبة المجمع العلمي الإيطالي: حدثني الأستاذ (غِبريَلّي) وهو شيخ في الخامسة والستين ويتحدث العربية بطلاقة، وهو عضو مراسل للمجمع العلمي العربي بدمشق، ولمجمع اللغة العربية في القاهرة، حدثني عن مؤسسة الأمير المستشرق الإيطالي (كايتاني) التي هي الآن قسم من مكتبة (المجمع العلمي الإيطالي) وذكر أن فيها بعض مخطوطات عربية، وفيها قسم كبير من المخطوطات

العربية المصورة، ورغبني في زيارتها، وكنت قد عزمت على السفر غدا (في يوم الجمعة) ولكنني قررت أن لا أغادر روما قبل زيارة تلك المكتبة، وفي صباح يوم الجمعة اتصلت هاتفيا بالأستاذ (غبريلي) وأخبرته برغبتي في زيارة تلك المكتبة، وكان قد قال لي : إذا قررت زيارتها فأنا أحب أن أكون معك، لأرشدك إلى مخطوطاتها.

أجمل ما شاهدته في المكتبات التي زرتها: قاعة الفهارس والمطالعة في (المتحف البريطاني) وحسن ترتيب الكتب وتجليدها في (المجمع العلمي الإيطالي) التي تضم على ما يقول الاستاذ (غبريلي) ما يقارب نصف مليون مجلد.

قابلت (*) الأستاذ غبريلي داخل المكتبة، فذهب بي إلى القسم الذي تقع فيه (مؤسسة كايتاني للأبحاث عن تاريخ الإسلام وحضارته) وتقع هذه المؤسسة في حجرتين واسعتين، إحداهما تُعقد فيها الاحتفالات السنوية للمجمع العلمي الإيطالي، عندما يريد المجمع أن يمنح أحداً شهادة علمية، ويحضر هذه الاحتفالات كبار رجال الدولة، ويحضرها الملك أو رئيس الجمهورية، وفي هذه القاعة قسم من الكتب. والقاعة الثانية تحتوي على عدد من الكتب العربية، تبلغ الـ ١٥ ألف مجلد أكثرها مصور عن نسخ مخطوطة (١) لم أجد في هذه القاعة، وهي المكان

(*) "اليمامة" العدد ٢٧٥ - تاريخ ٦ / ١٢ / ١٣٨٠هـ السنة الثامنة.

(١) هذه المؤسسة منسوبة إلى الأمير ليون كايتاني (١٢٨٦ / ١٣٤٥هـ) وهو كما جاء في "الأعلام" للأستاذ الزركلي أمير إيطالي من أسرة عريقة معروفة في روما منذ عشرة قرون. وقد درس هذا الأمير اللغات حتى أتقن العربية والفارسية وتخرج في جامعة رومة، وقام برحلات إلى الهند وإيران ومصر والشام، وألف بالإيطالية كتاب "حوليات الإسلام" في التاريخ طبع منه ثمانية مجلدات، محلاة بالرسوم والخرائط المفصلة، انتهى فيها إلى سنة ٤٠ للهجرة وكان يرجو أن يفسح في أجله ليكمل تاريخ القرن الأول للإسلام في ٢٥ مجلدا، وجمع جذاذات لتراجم عدد كبير من علماء المسلمين وأدبائهم في الأندلس، ونشر باللغة العربية كتاب "تجارب الأمم" تاليف مسكويه، مصدراً بمقدمات مفيدة، ومذيلاً بفهارس إضافية، وجمع مكتبة عربية عظيمة أضيفت إلى (المجمع العلمي الإيطالي) في حجرتين متصلتين به، يطلق عليهما اسم (مؤسسة كايتاني للدراسات الإسلامية) وقد وضع الأستاذ غبريلي فهرسا لهذه المكتبة في مجلد لطيف.

المخصص للمطالعين سوى سيدتين استقبلتني إحداهما بالسلام باللغة العربية، ثم قدمها إليّ الأستاذ غبريلي قائلا : هذه الأستاذة (وتشا ولي ريري) أستاذة الأدب العربي في (جامعة نابلي) فقلت لها بعد أن رددت التحية عليها : أنا لم أستطع معرفة اسمك، لغرابة الكلمات الإيطالية على سمعي. فقالت : يعرفني العلماء العرب باسم (لورا) وأنا لست مسلمة، ولكنني أَلَّفتُ كتاب "محاسن الإسلام" وألفت كتاب "النحو العربي" وكانت تتكلم اللغة العربية الفحصى بطلاقة وسرعة ووضوح(١).

أشار الأستاذ غبريلي إلى كتب مصفوفة في ثلاثة رفوف في أحد الصوانات (الدواليب) قائلا : هذه اشتريت من اليمن بواسطة أحد التجار الإيطاليين، وهي غير مذكورة في الفهرس المطبوع، – وهو فهرس يقع في كراسة لطيفة، وضعه الأستاذ غبريلي بالإيطالية.

بدأت أنبش تلك الكتب واحداً واحداً، والأستاذة (لورا) تُساعدني بتقديم الكتاب، عندما تراني أريد إعادة ما بيدي إلى مكانه، بعد أن تسألني هل هذا الكتاب غريب، أو نادر؟! وعندما أذكر لها اسم المؤلف تفتح كتاب (بروكلمان) "تاريخ الأدب العربي" وتقرأ ما كتب عنه. وقد أظهرُ لها جهلي عندما أطالع بعض المخطوطات – بالمؤلف أو عصره، فتوضح لي ما أجهله من ذلك وأردت أن أعرف مدى معرفتها بالمؤلفات العربية، فلما قدمت لي مجلداً فخماً، قلت : هذا نفيس، إنه « رسائل السيوطي »، فابتسمت وقالت : لو أن جميع مؤلفات السيوطي أرجعت إلى أصولها لم يبق له شيء!!

أمضيت ثلاث ساعات، في تصفح تلك الكتب، التي طال العهد بإهمالها،

---

(١) هي الدكتورة لورافيشيا فاغليري استاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابلي. نشر كتابها باللغة الإيطالية المرة الأولى سنة ١٩٢٥ في رومة، ونشر باللغة الإنجليزية في نيويورك سنة ١٩٥٧ وقد طبع باللغة العربية في بيروت سنة ١٩٦٠ باسم "دفاع عن الإسلام".

حتى صار من يطالعها يتأذى من كثرة غبارها، ووجد الدود مرتعا في بعضها، دفعني إلى أن ألفت نظر الأستاذ غبريلي إلى ذلك، قائلا: يحسن أن توضع مادة الـ(د.د.ت) لتصون الكتب من هذه الحشرات. فقال: نعم نعم. ماذا تسمون تلك المادة باللغة العربية فقلت : مبيد الحشرات.

في تلك المجموعة من الكتب طائفة كبيرة من كتب الفقه على المذهب الزيدي، وفيها مؤلفات في تاريخ اليمن، من أقدمها كتاب تاريخ صنعاء للرازي، ومن الكتب التي تصفحتها:

١- كتاب "مآثر الأبرار في تفصيل مجملات الأخبار" لمحمد بن علي بن يونس بن الزحيف ألفه سنة ٩١٦، مخطوط سنة ١٠٧٠ ويقع في ١٥٩ ورقة من القطع الكبير. رقمه (٢١٢).

٢- المجموع رقم ١١٦ - يحتوي على الجزء الأول من كتاب "الترجمان المفتح كمائم البستان" لمحمد بن أحمد بن مظفر، في الأدب والتاريخ ويبتدئ من الورقة الـ٢٣.(ع ١٠) ١/١٢

وفي الورقة ٦٦ شرح قصيدة الهادي بن إبراهيم بن محمد :

الدهر ذو غير عظمى وذو عبر   وصرفه شامل للبَدو والحضر

إلى الورقة ١٢٢ - آخرها: (نجز الجزء الأول من الترجمان بحمد الله وحسن توفيقه).

وفي الورقة ١٢٣ : "طوق الحمامة، شرح القصيدة البسامة" والقصيدة لابن عبدون، والشرح لعبد الملك الحضرمي الشِلّي من الورقة ١٢٣ إلى الورقة ٢٠٣، مخطوط سنة ١٠٦١.

٣- وفي المجموع رقم ٢٣٩ : كتاب "المنتخب من رأس مال النديم" للشيخ أبي عبد الله محمد بن حبيب البغدادي، في التآريخ العجيبة، والنكت الغريبة.

وقالت لي الأستاذة (لورا) كتاب "رأس مال النديم" ليس لابن حبيب، بل هو لمؤلف من أهل القرن السادس الهجري، ذكره بروكلمان في "تاريخ الأدب العربي" ويقع هذا الكتاب من الورقة ٨٤ إلى الورقة الـ ١٤٠ مخطوط سنة ١٠٦٩ .

٤- وفي المجموع رقم ٢٣١ قطعة من "ديوان القاضي أحمد بن محمد بن فُليتة" من الورقة الـ ٢١٤ إلى الورقة الـ ٢٣٢ - تتضمن مقدمة عن الشاعر ثم الشعر من قافية الألف إلى قصائد من حرف الدال .

٥- الكتاب رقم ١٩٨ : "خلاص الذهب المسبوك، مختصرمن سير الملوك" تأليف سبط - ثم كلمة غير واضحة- الإربلي . مخطوط في ٧ ذي الحجة سنة ٧٠٢، يقع في ٣٤٠ ورقة، يبتدئ بذكرخلافة الوليد بن عبد الملك . وينتهي بذكر خلافة المستعصم العباسي سنة ٦٥٦ ، والنسخة جيدة،وفي آخرها : (أنهاه مطالعة وجعل له فهرست في نحو كراستين. كاتبه عبد الباسط ابن العلموي سنة ٨٥٨) . وعبد الباسط هذا من الذين ملكوا النسخة وطالعوها .

وتقول الأستاذة (لورا) : إن بروكلمان ذكر في "تاريخ الأدب العربي" هذا الكتاب باسم (خلاصة) ونسبه إلى عبد الرحمن الإربلي، وذكر أن منه نسخة في المكتبة اليسوعية في بيروت، وذكر أن الأصل الذي هو "سير الملوك" لابن الجوزي، وأنه طبع في بيروت سنة ١٨٨٥م .

٦- الكتاب رقم ١٩٩ : "صفة جزيرة العرب" للهمداني مخطوطة حديثة تاريخ نسخها ١٣٣٢هـ.

لقد استرسلت في الحديث عن وصف تلك المخطوطات، لأن كثيراً من القراء - وخاصة في بلادنا بحاجة إلى معرفة بعضها، ومحل الحديث عنها في القسم الذي خصصته من رحلاتي للحديث عن الكتب، ولكنني أردت إكمال ما تحدثت به عن زيارتي لمؤسسة كايتاني في المجمع العلمي الإيطالي، الذي أنهيت فيها إقامتي في إيطاليا .

أيام في باريس(*)

بواعث السفر : كان الفضل في عزمي على السفر لحضور هذا المؤتمر يرجع لأستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر[1]، فقد كتب إليّ محبذاً ومُرغباً، وأتبع ذلك بأن اتصل بالمشرفين على إقامته فوجهوا إليَّ الدعوة للحضور، وجاءني كتاب من الأستاذ شارل بِلاَّ (رئيس قسم الدراسات الإسلامية في جامعة باريس) دون سابق معرفة عن رؤية أو مكاتبة يقول فيه : (لأن أكبر فائدة المؤتمرات ليست إلقاء الأحاديث والاستماع إليها، بل ما يتهيأ للأعضاء من الفرص السانحة لتعارف البعض، والمذاكرة والتفاهم وغير ذلك من الفوائد والمنافع، فلذلك أرجو منك أن تحضر هذا المؤتمر) الخ .

والحق أن جُلَّ ما يستفيده المرء من حضور المؤتمرات هو التعارف - كما ذكر الأستاذ - وقد سبق أن دُعيتُ إلى المهرجان الذي أقيم في مدينة بغداد بمناسبة مرور ألف عام على إنشائها، وعلى مرور ألف عام على وفاة الكندي، وكان ذلك في عهد الزعيم عبدالكريم قاسم، وكانت المدة المقررة لإقامة المهرجان - كما دعوه - إحدى عشر يوماً، ولكنني لم أُطِق إكمالها، ولما طلبت من المشرفين على تنظيمه تهيئة وسائل عودتي، أتَّصَلَ بي وزير الثقافة مبديا رغبته في بقائي حتى انتهاء أيام المهرجان، ولما أظهرت له أنني لم أتمكن من مقابلة من كنت عرفته من العلماء والباحثين من أهل العراق، سألني عمن لم أره منهم قائلاً : إن المهرجان قد ضم العلماء والشعراء، فكان ممن ذكرت الشيخ محمد رضا الشبيبي، فقال : إنه مريض لا يخرج من بيته، فأخبرته بأنه ليس مريضاً، وقد كرم فزارني في الفندق ثم ذكرت له الأستاذ عباس العزاوي، فزعم أنه خارج العراق للعلاج، ولكنني أكدت له بأنه في بغداد، وأني زرته في بيته، وذكرت اسم الدكتور جواد علي فقال : إنه في لندن

(*) مجلة "العرب" - المجلد الثامن - ص ٤٦٠-٠

(١) توفي رحمه الله في ٢٧ / ٥ / ١٤١٧هـ (٩ / ١٠ / ١٩٩٦م)، وانظر عنه الجزء الرابع من كتاب « معجم المطبوعات العربية » من ص١٧٠١ إلى ١٨٠٩، نشر (دار اليمامة) سنة ١٤١٨هـ (١٩٩٧م) .

يلقي محاضرات في إحدى جامعاتها، غير أنني أخبرته أنه يقيم في بغداد، وسميت له الفندق الذي كان يسكنه تلك الأيام، فما كان منه إلا أن قال لي : أرجو أن ترى عندما تأتي إلى بغداد مرةً أخرى جميع من تحبُّ رؤيتهم. ومع أن ذلك الوزير كان عسكرياً إلا أنه كان لطيفا حقًّا وفي غاية الرقة المحمودة والتواضع، وهو الأستاذ إسماعيل العارف.

لقد تم العزم على السفر لحضور المؤتمر، وبدأت في الاستعداد لذلك، وكنت اسمع عن كثرة المسافرين إلى باريس فخشيت أن يحدث لي فيها مثل ما حدث لي حينما وصلت إلى لندن في ربيع الأول سنة ١٣٨٠هـ (أكتوبر سنة ١٩٦٠)، ذلك أنني عندما أردت السفر إليها من هولندا قال لي أحد معارفي : يحسن الاتصال في لندن بمن يحجز لك مكاناً تسكنه، فلم أُصغِ إلى قوله وأجبته: مدينة تتسع لما يقارب ثمانية ملايين من البشر لن تضيق بي. وكان أن سافرت إليها فبلغتها حوالي الساعة العاشرة ليلاً. فركبت من مقر شركة الخطوط الجوية الهولندية في إحدى سيارات الأجرة. وقلت لسائقها: (هوتيل) وهي ما أحسن من الكلمات الإنجليزية التي ينبغي أن أخاطبه بها، فاغتنمها فرصة. فصار يدرو بي حول الفنادق الكبيرة التي تزدحم عادة بالسكان، حول حديقة لندن الكبيرة (هايدبرك) ولكن الوقت طال، حتى أتقنت منه قوله : (نو روم. كمبليت) والظاهر أنه أحسَّ أيضاً بشيء من الضيق المشوب بالاستغراب، من هذا الراكب الذي لم يبد أي تذمُّر من طول السير، فكان يلتفت إليَّ، ويمطرني بوابل من الكلمات التي لا أفهم منها سوى ما ذكرته، ويقف أحياناً كأنه يرغب مني النزول، ولكنني كنت أثناء ذلك أكرر قوله (نو روم) ثم أتبع ذلك بإشارة تدل على النوم في سيارته. فيقهقه ضاحكاً ويستمر في سيره. حتى خطر ببالي ذكر أحد الإخوان المقيمين في لندن للدراسة، وكنت أبعث إليه بجريدة "اليمامة" التي كنت أنشأتها مجلة ثم حولتها إلى جريدة، وكنت أحفظ عنوانه على هذا النحو: (إِجل هَاوُسْ، كرافِن رُود، نمبر ثري) وسرعان ما انطلق سائراً عندما سمع مني هذه الكلمات، متوغلاً في داخل المدينة،

فوقف عند باب مغلق، وأراد مني يالنزول، ولكنني أشرت بأن يتقدمني لفتح الباب وبعد نزوله تبعته، ولما فُتِح لنا الباب وسألنا عن صاحبنا وكان الأستاذ عبد العزيز المنقور أشار محدثنا إلى لوحات تحوي أسماء كثيرة مكتوبة بحروف دقيقة، فلم نستطع الاهتداء إلى مسكنه في هذه الدار، وتضايق الرجل فأشار لنا بالخروج، وأغلق دوننا الباب، وقبل الرجوع إلى السيارة أبصرت لافتة قريبة منا كتب فيها: (رونالد هوتيل) فأشرت له بأن يذهب إليها وبقيت في السيارة حتى رأيته داخلاً فتبعته، فوجدت البهو (المدخل) يتسع لوضع سرير فيه، وبعد أن انتهى من الحديث مع صاحب الفندق أقبل نحوي - كالغاضب أو المتظاهر بالغضب - يكرر كلماته المعروفة، ولما اتجه نحو الباب ناديته قائلاً: (تعال تعال!!) وأكملت الكلام بالإشارة بوضع سرير لي في هذا البهو، ولكن صاحب الفندق قبل أن أكمل إشاراتي خاطبني قائلا : (أنت عربي)؟ فانحلت المشكلة كما يقولون، ولا داعي للإطالة، فقد هيأ لي مكاناً لا يصح أن يطلق عليه اسم غرفة، في السطح الواقع في الدور الخامس، ولا مصعد للفندق، وكان سطح المكان مسقفاً بالحديد الرقيق (الشينكو) والمطر قوياً، والودق عندما يتساقط فوق سقف ذلك المكان يحدث صوتاً مزعجاً، ولضيق ذلك المكان وضع حقيبتي في مكان آخر، ولكنني مع كل ذلك استغرقت في نوم عميق حتى الساعة السابعة - قرابة ست ساعات.

كنت رغبت من مُنَى صغرى بناتي أن تسافر معي، ورأيت ضرورة تهيئة مسكن في باريس، فكان أن اتصلت بمكتب (كوك) الذي تولى مستلزمات السفر، ومنها اختيار السكن، وكان اختياراً موفقاً في فندق يدعى Hotel De L'abbaye في شارع يدعى (كاسيت) متفرع من شارع سان جرمان في قلب المدينة في الحي اللاتيني، بقرب (السوربون) حيث يقام المؤتمر.

من بيروت إلى باريس: كان السفر في يوم السبت ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٣ (١٤ يولو سنة ١٩٧٣) في إحدى طائرات الشرق الأوسط، المسافة تبلغ

٣٣٨٨ كيلاً قطعتها الطائرة في أربع ساعات ونصف، إذ أقلعت من مطار بيروت الساعة الواحدة إلا ربعاً ظهراً، وحطت في مطار باريس في الساعة الخامسة والربع (أي الثالثة والربع بحسب توقيت باريس).

لم أر في مطار من المطارات التي مررت بها معاملة أسهل مما رأيته في هذا المطار، فقد كان المرور بدائرتي الصحة والجوازات لا يستغرق من الوقت أكثر مما يستلزم ختم الجوازات والنظر فيها للتحقق من سمة الدخول وإجراء التطعيم، ثم الخروج إلى الساحة التي تبرز فيها الحقائب، فيناول كل مسافر حقيبته ويخرج بها من باب وقف فيه موظف يكتفي بنظرة عابرة يلقيها على المسافر وهو يحمل حقيبته أو يجرها، كما فعلت، فقد أحضرت معي لفافة ثقيلة تحوي عدداً من الكتب التي نشرتها لأقدمها لبعض من أعرف، وما كنت أعتقد أنني أجد أي مطار من مطارات العالم خالياً من الحمالين كما رأيت في هذا المطار. لقد حملت ابنتي حقيبتها، وسرت خلفها أجرُّ تلك اللفافة على الأرض وهي من ورق، والمطر يهطل بغزارة، وسرعان ما وقف بجواري شاب وقال: أتريد أساعدك؟ ثم تناول طرف ما أجرُّ حتى أوصلني إلى سيارة أجرة تسوقها سيدة، أبلغتنا مكاننا الذي نقصد، ونقدناها ما طلبت من أجرة بلغت ٣٣ فرنكاً ولم يكن أحدنا بحالة تمكنه من النظر إلى مسجل الأجرة (العدَّاد) ليتحقق من صحة ما طلبت، مع ملاحظة أن الحقائب لها أجرة وأن السائق لا يكتفي بالأجرة المسجلة، ومهما يكن فقد دفعنا ذلك مرتاحين، ولو طلبت أكثر لما ترددنا في دفعه، فقد كنا في حالة لا تمكننا من المماكسة، وهي لا تفيد في مثل هذه الحال.

أتانا الشاب العربي في الفندق في المساء وكان مغربيا ويدعى - كما قال لنا -: (علوي مولاي إدريس) من الدار البيضاء من عين ذياب، من أسرة علوية النسب، يدرس الطب في هذه المدينة، ثم لازمنا - أكرمه الله - ملازمة الظل، وصار يرشدنا إلى ما نريد وما لا نريد، حتى ضايقنا وأظهرنا له عدم الحاجة إليه، فودعنا بعد ثلاثة

أيام وقال إنه مسافر إلى بلده، وكثيراً ما يتصل بالمسافر العربي من يحسن لغته، ويظهر له أنه مستعد لمساعدته. إلاَّ أَنَّ كثيرا من هاؤلاء ممن يستراب منه.

بعد استراحة في الفندق إلى الساعة السابعة والنصف قمت بجولة في أكبر شارع بقربه حتى الساعة التاسعة، وكان الجو بارداً، والسماء مكسوة سحابا يساقط رذاذا، فألجأني البرد إلى العودة إلى الفندق والبقاء فيه حتى الصباح.

يقول المثل النجدي: (يا داخل مصر غيرك ألوف) ولهذا فلن أتحدث عن مشاهدتي في هذه المدينة إلا من جانب نظرتي الخاصة، لن أتحدث عن شيء من مظاهر الحياة فيها، ولا عن ما اعتاد زوارها أن يشاهدوه من معالم تاريخها أو مباهجها وأماكن اللهو والمرح فيها، ولا أتحدث عما اعتدت الحديث عنه عند زيارتي المدن الأخرى من وصف ما اطلعت عليه في مكتباتها من نوادر المخطوطات، ذلك أنني صدمت من هذه الناحية عندما أردت الخروج من بيتي في بيروت إلى المطار صدمة جعلتني عندما أفكر في أي كتاب مخطوط أشعر بالألم والأسى، كنت أعددت كتاب "أدب الخواص" لابن الوزير المغربي (٣٨٠ / ٤١٨هـ) للنشر في "العرب" فجمعت ترجمة المؤلف من كثير من المصادر مخطوطها ومطبوعها، وصورت الجزء الموجود من الكتاب، ونسخت قسمًا كبيراً منه، وهيأت كل ذلك لكي آخذه معي، لكنني فقدته في الوقت الذي أردت وضعه في حقيبة السفر، وأدركت أنني نسيته في سيارة الأجرة التي ركبتها من مكتبي إلى البيت، ولا وسيلة للحصول عليه، فندمت لما بذلته في سبيل النسخ، وجمع أصول الترجمة، وكتابة أكثرها، وكان لابد لي من أن أسلِّي النفس وأعللها بأنني قصدت من سفري هذا الراحة، ولعل الله أراد لي خيراً بضياع تلك المخطوطة التي لو كانت معي لحرمتني ما قصدته من استجمام، مع أن راحتي لا تكمل دون المطالعة والقراءة، وليست مطالعة أي كتاب تستهويني، ولكن المرء كثيرا ما يحاول أن يخادع نفسه وأن يغالطها.

كانت الغرفة التي نسكنها في الفندق في الدور الثالث منه، وتطل على حديقة صغيرة في داخله، وعند إطفاء النور للنوم الساعة التاسعة شاهدت النور من النافذة بدرجة مكنتني من رؤية السماء مكسوة بالغيوم، وأنوار الشوارع ليست بدرجة من القوة بحيث يكون ماشاهدته من أثرها، فالفندق في شارع صغير، داخل محلة سكنية، أنوارها خافتة، فعللت قوة النور في السماء وآفاقها من ضوء القمر، ولكنني راقبت هذا الأمر في الأيام التي أقمتها في هذه المدينة فرأيت أن ظلام الليل لا يشتد إلا بعد مضي الهزيع الأول منه، بحيث أن مغيب الشفق الأحمر الذي حدده الفقهاء لدخول وقت صلاة العشاء يتأخر بعد غروب الشمس زمناً طويلاً. أما تعليل هذا فلن يعجز علماء الفلك، ومعروف أن الشمس في هذا الوقت قد انحرفت نحو القطب الشمالي، ولهذا فإن قرص الشمس ولو اختفى عن النظر فنورها يبقى فيما بين الساعة الخامسة صباحاً حتى التاسعة مساء. ويلاحظ أن الشمس في برج السرطان (شهر يوليو).

يوم الأحد : (١٥/٦/١٣٩٣هـ - ١٥/٧/١٩٧٣م) اعتدت القيام مبكراً، والمشي فيما بين الساعة السادسة والثامنة، فكان أن صرت أتردد في الشارع القريب من الفندق لئلا أضلَّ، وأتخذ من بناية بقربه - هي أطول بناية في هذه المدينة تقارب ٧٠ دوراً - أتخذ منها علامة للاهتداء، حتى عرفت موقع الفندق معرفة حملتني على التمادي في السير مسافات طويلة، والشوارع تكاد تكون خالية في مثل هذا اليوم حتى يرتفع النهار، ولكنها ليست نظيفة وخاصة الكبيرة منها. لقد اعتاد كثير من الناس، ولا سيَّما الشيوخ والعجائز قضاء الهزيع الأول من الليل في التجوال فيها، وكما قيل (لا بُدَّ للقناص من رفقة الكلب) فقلَّ أن ترى واحداً من أولئك لا يقود كلباً، أو يتبعه كلب، وهو يطلق لكلبه العنان ليفعل فوق طول الشارع ما شاء، ولا يتم تنظيف الشوارع قبل الساعة الثامنة صباحاً. وحتى بعد التنظيف فالشوارع لا تخلو من الحفر والبقع الخالية من التبليط المملوءة بالتراب أو الأوساخ.

مر بنا أخونا العربي المغربي بعد أن أبدينا له عدم حاجتنا إليه، ولكننا الآن بين مستريب منه، ومحتاج إليه، ففضلنا قضاء الأمر الأخير مع الاحتياط، ورغبنا في القيام بجولة فيما حولنا سيراً على الأقدام، فخرجنا في الساعة العاشرة، فمر بنا على حديقة تقع بقرب الفندق تدعى (حديقة لكسمبرج) وهي من أجمل الحدائق، ثم رغبت منه أن يمر بنا على جامعة (السربون) إذا سيعقد المؤتمر فيها، فإذا هي على مقربة من هذه الحديقة، ثم سار بنا في شارع يغص بالناس يدعى (شارع سان ميشيل) وما أكثر الشوارع التي تحمل أسماء القديسين في هذه المدينة العابثة اللاهية، الجامعة بين المتناقضات.

اعترضنا نهر السين، الذي يخترق المدينة متعرجا متفرعا، فأشار صاحبنا في جهة اليمين إلى كنيسة (نوتردام) تلك التي اتخذ الكاتب ف.هيجو (V. Higo) من أَحدَبِها بطلا لروايته «أحدب نوتردام» واتخذنا سيرنا ذات اليسار، على ضفاف النهر، المحاط بسياج من البناء، فوق صناديق من الحديد اتخذها باعة الكتب والصور مما ذكرني بسور (حديقة الأزبكية) في القاهرة.

ثم اجتزنا أحد الجسور إلى (متحف اللوفر) فلم نشأ دخوله لضيق الوقت، واتجهنا إلى الحديقة الجميلة الواقعة بعده على مقربة منه، ولكننا ما أخذنا مقاعدنا حول نافورتها الجميلة حتى اسودَّ الغيم، ثم بدأ المطر رذاذاً فحاولنا تحمله، ولكن سرعان ما هطل الودق بغزارة مما دفع كل من في الحديقة إلى الخروج ركضاً بحثاً لما يقي من المطر، حتى تجمعوا تحت البناء الذي أقيم في الساحة الواقعة بين الحديقة وبين قصر اللوفر، ليخلد ذكرى إحدى الوقعات التي انتصرت فيها الجيوش الفرنساوية. استمر هطول المطر فكان لا بد لنا من العودة إلى الفندق، فركضنا وراء صاحبنا إلى داخل قصر اللوفر، ثم نزلنا إلى محطة (المترو) الذي أبلغنا قريباً من منزلنا. وكان الغداء في مطعم صغير، وعلى قلته فقد كلّف غداؤنا الثلاثة ٧٢ فرنكاً (٢٠ دولاراً صرف الدولار ٣٫٩ من الفرنك) في هذا اليوم، أما الفاكهة فقد

أخذنامن إحدى البقالات نصف كيل من البرتقال المغربي ومثله من الخوخ الجيد بمبلغ ٧٫٥ فرنكات، وأجود ما رأيته من الفاكهة نوع من الخوخ شبيه بالبرقوق، أملس القشرة لذيذ الطعم، والظاهر أن أحدهما مطعم بالآخر، ومن المطاعم نوع يتناول المرء فيه ما يريده من الأكل بنفسه (Self Service) والأكل فيه رخيص الثمن مع جودته، فقد تغدينا ثلاثةً في مطعم من هذا النوع، يقع في شارع من أعظم شوارع المدينة، وهو الشارع الذي يقع فيه القصر الجمهوري والسفارتان الأمريكية والإنكليزية فلم يزد ثمن ما تناولنا من أكل جيد على ٣٥ فرنكاً.

يوم الاثنين: (١٦/٦/١٣٩٣هـ - ١٦/٧/١٩٧٣م) كانت الجولة في الصباح ممتعة، فقد اتجهت صوب (حديقة لكسمبرج) فوجدت أبوابها مغلقة فاكتفيت بالاستدارة حولها حتى أعياني المشي، وكنت أدورها في ٢٥ دقيقة، ورأيت شاباً ليس على جسمه من اللباس ما يستره سوى تُبَّان، يطوف حولها جَرْياً والعرق يسيل من وجهه، مع برودة الجو. وسقوط رذاذ خفيف من المطر، بينما أكاد أرتعد من شدة البرد، فجسمي لا يتحمل القليل منه، ولا يتأثر بالحرارة.

إلى جامعة السربون: عدت إلى الفندق للاستعداد للذهاب إلى جامعة (السربون) لحضور افتتاح المؤتمر، فاستبدلت بالحلة التي كنت ألبسها حُلة أخرى، لكونها قد أصابها وسخ، وتكمشت بفعل المطر، وكانت أم محمد قد هيأت لي بعض الملابس، مع أنني أظهرت لها رغبتي في التخفف في كل شيء، وكان منها معنقة (كرافتة) جميلة مما لم أعتد لبسها، ولكن ابنتي مُنا ألحت عليَّ حتى لبستها، أما الحذاء فقد كنت اشتريته من القاهرة في شهر رمضان، ومكثت ألبسه خلال التسعة الشهور الماضية، حتى كلح لونه، وبدا كجلد الأجرب، ولم أحاول تغييره لارتياح قدمي أثناء المشي فيه، وإن كنت أُعاقب بينه وبين حذاء آخر في بعض الأحيان. فبدا منظره - بالنسبة للحلة الكاملة الجديدة - بصورة في غاية التناقض، أو كهذا تصورت، وهذا ما دفع ابنتي إلى أن تطلب مني شراء حذاء

جديد، وأيدها أخونا المغربي. فخرجنا نذرع الشوارع فيما بين الساعة الثامنة والنصف والتاسعة والنصف، ولكن المحلات التي تباع فيها الأحذية مغلقة، ولا تفتح قبل العاشرة. وقد أزف وقت افتتاح المؤتمر، فذهبنا إليه، وكنت – من تأثير ما أحسست به أو تخيَّلْتُ من عدم التناسق في لباسي – أركز نظري في أحذية من أشاهده في الطريق لعلي أرى من يماثلني، وكنت أتصور أن كلَّ إنسان يقابلني يفعل فعلي، فيبصر سوء حذائي، بلغنا مكان الاجتماع ولحسن الحظ لم أجد واحدا ينظر إلى وجهي فضلاً عن قدمي، ومع مشاهدتي عدداً ممن أعرفهم إلا أن كل واحد منهم مشغول بشأنه، وكما قيل : (وِش أنتِ يا بعوضة) !!

وجدنا قاعة المؤتمر قد غَصَّت بالناس، فذهبنا نبحث عن مكان في المدرجات التي فوقها فلم نجد مكاناً إلا في الدور الرابع في إحدى الشرفات المطلة على القاعة.

كانت الخطب التي ألقيت باللغة الفرنسية، وابنتي مُنَا التي حضرت معي لتترجم لي لا تعرف إلا اللغة الإنجليزية، فلم نستطع البقاء حتى ينتهي الاجتماع، فخرجنا ووجدنا صاحبنا ينتظرنا في المكان الذي طلبنا منه البقاء فيه، وذهبنا في سيارة أجرة إلى السفارة، وكان الغرض تسجيل جوازَي السفر، ومقابلة بعض الإخوان ممن نعرفهم.

في سفارة بلادنا : سألنا أول من قابلناه داخل السفارة عما نريد فأخبرناه، فأرشدنا إلى مكتب القنصل وهو الأخ سعد عثمان ناظر – من جدة – فأحسن الاستقبال، وسجل الجوازين، ولما أخبرته أننا سنسافر إلى أسبانيا قال : لا بُدَّ من كتاب من السفارة إلى أية سفارة لأي بلد تريدون الذهاب إليه في أوروبا، وكنت في رحلاتي السابقة في سنة ١٩٦٠ و ١٩٦٣ و ١٩٦٤م لا أجد عناء في الحصول على سمة الدخول في كل البلاد التي زرتها. وكان ذلك يتم في المطارات أو عند الحدود.

تركنا جوازينا عند الأستاذ سعد، وسألته عن مكتب الملحق الثقافي وكان أحد

موظفي ذلك المكتب قد سلم عليَّ، وجلس في مكتب الأخ الناظر ولم أكن أعرفه فقال لي : المكتب فوقنا، وهذا الأخ أحمد الصالح يعمل فيه، فقام وسار بنا إلى المكتب، حيث وجدنا الأستاذ عبد الله الطويل. أنا أدرك ما يحمله لي كثير من أبنائي وعارفيَّ من المحبة والتقدير، ولهذا أتحاشى في كثير من الأحيان زيارة كثير منهم، لأنني أضِنُّ بأوقاتهم أن يصرفوا جزءاً منها للتعبير لي عن شيء أدركه وأعلم به، من تقديرهم وإكرامهم، بل أتضايق في كثير من الأوقات مما يضفونه عليَّ من كرم وعطف، ولهذا فقد حاولت – وعبثا حاولت – من الأستاذ الطويل الاحتفاظ بوقته، والحفاظ على صحته، فقد كان يشكو من نزلة صدرية حادة (انفلونزا) ونصحته بالاستراحة، والاخلاد إلى الهدوء والبقاء في البيت حتى تزول حِدَّتُها، ومن يعرف الأستاذ الطويل حق المعرفة يدرك أنني بنصحي له وبرغبتي منه أن يتركني وشأني، أضرب في حديد بارد!! لقد أضفى عليَّ – أكرمه الله – من كرمه، وهيأ لي ولابنتي من الوسائل ما جعل إقامتنا في هذه المدينة مريحة، وبينما كانت ابنتي مُنا تقول : باريس ثقيلة الظل فلنسرع بالرحيل عنها، إذا هي تستبطئ الموعد الذي يحدده الأستاذ لمرور أبنائه عليها في الفندق، للذهاب بها لمشاهدة بعض معالم المدينة، ولقضاء جزء من الوقت معهم في البيت، كما عَرَفَت فتاتين صغيرتين إيطاليتين تدرسان في إحدى المدارس الداخلية فكانتا تأتيانها مساء، فتقضي معهما جزءاً من الوقت. لا أطيل فقد خرجنا من السفارة على وعد بأن نتلاقى في الساعة السادسة، وكان ممن قابلته فيها الأخ الأستاذ محمد العلاقي، فلم أعرفه في المقابلة الأولى، فرجعت إليه معتذراً، وقد رأيت في مكتبه الأمير عبد العزيز بن ثنيان آل سعود أمين مدينة الرياض، وهي أول مرة آراه، ولقد رغبت في الجلوس مع سموه حينما عرض عليَّ ذلك، غير أن إحساسي بقليل من الألم في عيني، واضطراري لاستعمال دواء في الفندق حال دون رغبتي تلك.

كثير من سفارات بلادنا تكون القنصلية في دار غير دار السفارة، ويكون المكتب الثقافي في دار ثالثة، وهذا فضلاً عن كونه لا ييسر لكل راغب زيارة

الجهات الثلاث في وقت قصير، وخاصة من لا تمكنه ظروف من الإقامة زمناً طويلاً في المدينة التي تقع فيها، ففي تفرقها من إضاعة المال وعدم المحافظة على الوقت، وعدم الاختلاط، والاتصال بين موظفين يجب أن يكونوا دائما على اتصال وثيق، وغير ذلك من الأمور التي أشرت إلى جانب منها في الحديث عن زيارة إحدى سفارات بلادنا[1]، مما لا يحتاج إلى بيان، ولهذا فقد كان سروري عظيماحينما رأيت السفارة والقنصلية والمكتب الثقافي ومنزل السفير في بناء واحد، يتلاءم مع ما لحكومتنا من مكانة كريمة، وهذا البناء ليس مستأجراً بل ملكاً من أملاك الدولة.

قمنا في المساء – بل قام بنا أخونا وابننا الأستاذ الطويل – بجولة شاهدنا في خلالها مالم نشاهده من أبرز معالم المدينة، فهذا برج ايفل (Tour Eiffel) وهذا قصر رئيس الجمهورية، وهذا شارع (الشانزليزيه) وهذا قبر نابليون يبدو مشمخراً بارزاً، وتلك مسلة مصرية نقلت على عظمها وطولها من ضفاف نهر النيل لتبدو على ضفاف نهر السين، معبرة عما للمصريين من حضارة قديمة، وهنا قصر العدل، وفي هذه المقصورة سجنت (ماري انطوانيت) ملكة فرنسا، أثناء محاكمتها، وها هو موضع سجن (الباستيل) الذي يقول فيه شوقي :

فإننا لم نُوَقَّ النقصَ حتى ... نُطالب بالكمال الأوَّلينا

وما (البستيل) إلا بنت أمسٍ ... وكم أكل الحديدُ بها سجينا

إلى غير ذلك مما يعرفه أكثر زوار هذه المدينة. ثم أعقبت الجولة استراحة في إحدى مقاهي (الشانزليزيه) فعودة إلى الفندق.

في مؤتمر المستشرقين : يوم الثلاثاء : (١٧ / ٦ / ١٣٩٣هـ – ١٧ / ٧ / ١٩٧٣م) خرجت في الصباح مبكراً، وقد أصبحت أتصور في ذهني جهات المدينة، واتجاه الشوارع الرئيسة القريبة من الحي الذي يقع فيه الفندق، فسرت في شارع (سانت

---

(١) مجلة "العرب" السنة السابعة صفحة ٤٩٧.

جرمان) ثم عطفت بانعطاف (بُوليفار سانت جرمان) حتى اتصلت بشارع (سان ميشيل) فاتجهت فيه ذات اليمين. حتى بلغت نهر السين، فسرت بجانبه حتى بلغت - من غير قصد - حديقة النباتات، واسمها المكتوب فوقها (Jardain des Plantes) وقد بلغتها الساعة السابعة والربع، وكنت خرجت من الفندق الساعة السادسة، وقد وجدتها مفتحة الأبواب، ورأيت فيها قليلاً من الشيوخ بين جالس في الشمس، وماشٍ ينقل نظره من بين مختلف أشجارها وأزهارها، فاستهواني جمالها بالتنقل بين جهاتها حتى بلغت الساعة الثامنة ولم أشعر، فانصرفت عجلا من حيث أتيت فقطعت المسافة إلى مكان المؤتمر في ساعة واحدة، ومع أن الجوَّ باردٌ، والمطر يتساقط رذاذاً، فقد سال جسمي عرقاً لإسراعي في المشي، وكنت حريصاً على الالتقاء ببعض من أعرفهم ممن حضروا المؤتمر، ولا يتسنَّى ذلك غالباً إلا قبل البدء في المحاضرات، وفي مدخل جامعة السربون، حيث منظمو الاجتماعات، فيكون الالتقاء غالباً، إذ الاجتماعات موزعة حسب الموضوعات التي قرر المؤتمر دراستها. والمؤتمرون والحاضرون موزعون وفق الموضوعات. ومما يجدر ذكره أنني لم أحضر أي اجتماع من اجتماعات لجان المؤتمر، إذا لم أرغب الحضور، لأنني لا أحسن غير العربية، ولم أسجل في البطاقة التي بعثت إليَّ مع الدعوة اسم اللجنة التي أرغب حضور جلساتها. كما أن استجابتي للدعوة لم تصل إلا متأخرة، ولهذا فيظهر أن اسمي لم يُسجَّل، مع أنني دفعت رسم التسجيل حوالة برقية من بيروت. وعندما حضرت في اليوم الأول قابلت الدكتور صلاح المنجد، متأبطاً الحقيبة السوداء من نوع ما وزع على المدعوين، فسألني : أين الحقيبة والبطاقة؟ إنك لا تستطيع الدخول إلى مكان الاجتماع بدونهما. فأعطيت علوي المغربي نسخة البرقية التي حولت بها رسم الاشتراك، وسرعان ما عاد إليَّ بهما. ويظهر أن المشرفين على تنظيم شؤون المؤتمر قد تكاثر عليهم الحاضرون، فكان يعييهم البحث عن كل اسم منهم، لكثرتهم فيكتفون بتقديم الحقيبة وبكتابة البطاقة قبل التثبت، مع أن جُلَّ المدعوين إن لم يكن كلهم قد سجلت أسماؤهم في بطاقات عرضت

أمام المشاهدين مما يَسَّر لكثير منهم الاهتداء إلى اسمه بسهولة، وكثير من الأسماء المكتوبة بقيت معروضة حتى انتهاء أيام المؤتمر. ولعل أصحابها حدث لهم كما حدث لي.

أصبحت لا أحتاج إلى من يرشدني للجهة التي أقصدها، ولهذا خرجت قبل حضور الأخ المغربي قاصدا مقرَّ المؤتمر، وبينما أنا في بهو الالتقاء حيث تعرض الكتب، إذا بالدكتور حمد الخويطر، ممثل وزارة المعارف في (هيئة اليونسكو) ومعه الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشامخ، المدرس في كلية الآداب في جامعة الرياض يلتقيان بي، فكان حديث، وكان وعدُ للاجتماع، ولمح الدكتور الخويطر أنني لم أعلق فوق صدري الورقة التي تحمل اسمي - كغيري من كثير من الحاضرين - فسألني ألم يعطوك حقيبة ؟! فأجبته بالإيجاب. فقال : أليس فيها ورقة كهذه التي تراها؟ - وقد ظنَّ أنها وسيلة : (افتح يا سمسم)! وما علم أنني لم أر حاجة تدعو إليها فطرحتها، فأجبت بالنفي، لئلا يظن بي من الغباء أكثر مما أتصف به، فسارع حتى أتاني ببطاقة لم يتركها إلا بعد أن تركها تلوح فوق صدي بيضاء يَقَقاً لونها. ثم أدركني الخجل وأنا أنظر إلى اسمي معلقاً فوق صدري، وذكرت قصة (جحا) طيب الله ذكره - حينما ربط خيطا في يده، لكي يعرف نفسه، وفي أثناء النوم حلَّت أمه ذلك الخيط وربطته في يد أخيه، فلم أصبح ورآه قال لأخيه : أنت أنا وأنا أنت !!

إن أحبابنا وأبناءنا يريدون منا أن نسير في كل أعمالنا دقيقها وجليلها سيراً منظماً لئلا نكون عرضة للسخرية من غيرنا، ولكن (شبَّ عمرو عن الطوق) ! وفي حفلة الافتتاح حينما رأت ابنتي مُنا أن صدر كل واحد من الحاضرين تلوح فوقه تلك الورقة البيضاء، التي وضعتها داخل الحقيبة، طلبت مني بإلحاح أن أعلقها مثلهم. فقلت لها : قد تكون غايتهم تذكر أسمائهم وأنا لن أنسى اسمي!! فأدركت أنني غير جاد، وطلبت الورقة لتعلقها هي، ويظهر أنها

خجلت مثلي فلم تفعل! وأدركت أن في الإمكان الدخول إلى كل مكان من أمكنة المؤتمر بدونها.

حديث عن اللحية : وممن قابلته هذا الصباح الأستاذ مصطفى غالب، وهو من الباحثين اللبنانيين المهتمين بتاريخ الإسماعيلية، وله مؤلفات عن هذه الطائفة، كما نشر بعض المخطوطات المتعلقة بها، وكان تعارفنا عن غير قصد، فقدر تركت شعر رأسي ولحيتي مسترسلاً بدون تشذيب أو إصلاح، فبدت لحيتي كثة أشبه بلحى (البهرة) ولعل هذا مما حمل الأستاذ مصطفى على أن يتقدم إليَّ مصافحاً، ظانًّا أنني أحد رجال طائفته التي يُعنَى بتاريخها، ولقد أقمت في بيروت زمناً لم يجر بيننا تعارف، مع حرصي على أن أعرف وأقابل وأتصل بكل من يُعنَى بأي جانب من جوانب التاريخ العربي، ولعل الفضل في تعارفنا هذا يرجع إلى لحيتي، التي لفتت نظر كثير من إخواني الذين أبدوا لي عدم تناسق شعرها، وحاجتها إلى إصلاح، وليست هذه أول مزية للحية، فقد خلصتني من ورطة كدت أقع فيها أثناء رحلتي إلى (باكستان) سنة ١٣٨١هـ (١٩٦١م).

لقد سافرت (*) من جدة يوم الأربعاء (٢١/٦/١٣٨١هـ - ٢٩/١١/١٩٦١م) إلى بيروت، ثم من بيروت الساعة السابعة ليلاً (٢٢/٦/١٣٨١هـ) فكان الوصول إلى مطار كراتشي الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت كراتشي، والنزول في ضيافة الحكومة الباكتسانية، غير أنَّ سفيرنا الرجل الكريم الشيخ محمد الحمد الشبيلي أضفى على الوفد الصحفي من كرمه ما طوق به عنق كل فرد من أفراده، وقد صلينا الجمعة في مسجد يؤم المصلين فيه الشيخ مولانا خليق الزمان، الذي كان له موقف معروف حيال "اليمامة" الجريدة التي كنت صاحبها ونشرت فيها مقالاً لم يثر الاستياء في (باكستان) وحدها بل في غيرها من البلاد، وكانت الإقامة في كراتشي أسبوعاً، ثم (راول بندي) ثلاثة أيام وفي ٤ رجب (١١ ديسمبر) في مدينة (بشاور) ثم في

---

(١) مجلة "العرب" المجلد الثامن - ص ٤٨٥ -

(راول بندي) ثلاثة أيام وفي ٤ رجب (١١ ديسمبر) في مدينة (بشاور) بعد زيارة ممر خيبر - بين باكستان وأفغانستان - ثم الاتجاه إلى لاهور جواً في يوم ٤ رجب ومواصلة السير إلى مدينة (دكّا) الساعة ١٥ر١٢ والوصول إليها الساعة ٣٠ر٥ والسفرمنها بالقطار إلى مدينة (شيتا قونق - Chitta Gang) والوصول إليها بعد ثماني ساعات وفي ليلة الجمعة (٧/٧/١٣٨١ هـ - ١٥/١٢/١٩٦١م) أقامت نقابة الصحفيين في هذه المدينة حفلة استقبال للوفد الصحفي السعودي فكان من بين المتحدثين شاب حليق اللحية صاحب جريدة ومدير وكالة أنباء، غير أنه في حديثه تجاوز حدود اللياقة فهاجم صاحب "اليمامة" ورماه بأشنع فرية، وبعد انتهاء المتحدثين طُلب مني إلقاء كلمة عن الوفد، وبعد أن قلت ما يحسن قوله في هذه المناسبة، طلبت من ذلك المتحدث الوقوف ثم وجّهتُ إليه سؤالاً عمَّن حكم بتكفير صاحب "اليمامة" وكان خطابي بالعربية يترجم إلى الإنكليزية فأجاب : مولانا خليق الزمان. فقلت : ما رأى مولانا خليق الزمان فيمن يحلق لحيته! فلما ترجم السؤال أجاب الحاضرون بصوت واحد : كافر !! كافر !! وجلهم إن لم يكن كلهم بدون لحى، وهكذا خرجت من تلك الورطة بفضل اللحية.

لا تستعمل اللغة العربية في المحاضرات والأحاديث أثناء الاجتماعات في جميع أقسام مؤتمر المستشرقين - حتى القسم المتعلق باللغة العربية والتاريخ والإسلامي - وكلها باللغة الفرنسية أو الإنكليزية، أو إحدى اللغات الأخرى باستثناء اللغة العربية، وكانت تلك المحاضرات قد لُخِّصت وطبعت في كتاب وزع على الحاضرين، وليس بينها ما استهواني موضوعه للحضور أثناء إلقائه، ولهذا كنت أكتفي بالتردد في مكان الالتقاء في الصباح، وقتاً قصيراً، وفي المساء ذهب بنا أبو رائد[١] إلى ناحية مرتفعة، حيث تقع (كنيسة القلب الأقدس) وحيث تشاهد مدينة باريس واضحة من ذلك المكان المرتفع، ومساكن تلك الناحية صغيرة،

---

(١) للأستاذ عبد الله الطويل ثلاثة أبناء : رائد ومنيرة وأوس.

وشوارعها ضيقة، ملتوية، وكان سكانها القدماء من (الغجر) فأُخرجوا منها قهراً، وشيِّدت هذه الكنيسة الضخمة فوق هذه الأرض التي أخذت ظلماً. وفي هذه الناحية عدد من المقاهي يجتمع فيها الرسامون ويقولون : إن (بيكاسو) أحد مشاهيرهم كان يمارس هوايته هنا. وهم يتعرضون للزوار، يعرضون بضاعتهم، وقلَّ أن يزور أحد هذه المدينة ولا يأتي إلى هذه الناحية. وبعد استراحة في مقهى من مقاهي (الشانزليزيه) وتناول العشاء في بيت الأستاذ عبد الله، وقضاء سويعات لا تنسى مغمورين بكرمه ولطف أسرته الكريمة، كانت العودة إلى الفندق.

الأربعاء : (١٨/٦/١٣٩٣ هـ - ١٨/٧/١٩٧٣م) في مدخل (السربون) قامت بعض دور النشر بعرض نماذج من مطبوعاتها مما له صلة بأبحاث المؤتمر على اختلافهم، ومنها مكتبة (بريل Leidem E. J. Brill) أشهر دار في أوروبا تتولى نشر الكتب العربية وتوزيعها وقد أردت شراء "صفة جزيرة العرب" والجزء الذي طبع أخيراً من "أنساب الأشراف" للبلاذري و "ديوان مزاحم العقيلي" الذي جمعه سالم الكرنكوي (ف . كرنكو) المستشرق الألماني الذي أسلم و "فهرس الكتب التي باعها أمين بن حسن" في هولندا، وبعد أن كتب أحد المشرفين على عرض الكتب عنواني، وأسماء الكتب التي أريدها طلب مني التوقيع في الورقة، فأخرجت قلمي من جيبي ووقعت به، ثم أعدته فما كان من الرجل إلا أن أشار إشارة فهمت منها أنه يبحث عن قلمه، فأخرجت له قلمي، وأبرزت له خلوَّ جيبي فصار ينظر إلى نظر المستريب، ولحسن الحظ كان الدكتور عبد العزيز الدوري يتحدث مع الدكتور عبد العزيز مرزوق على مقربة منا، فدعوته وقلت له : خلصني من هذه الورطة، لقد ظنَّ أنني أخذت قلمه. وبينما الدكتور الدروي يحادثه ويقلب بعض الكتب إذا وجد القلم ساقطا بينها، فصار ذلك الرجل يكرر (أيام سوري)!! ولكن بعد أن كدت أتصبَّب عرقا من الخجل، وأحمد الله أنني لا أحسن لغته لكي أخاطبه بها! وليست هذه هي المرة الأولى التي لدغت فيها من هذه الدار، بل هذه هي الثانية، أما الأولى فكانت في شهر ربيع الأول ١٣٨٠هـ (اكتوبر سنة ١٩٦٠م) حين مررت بمدينة ليدن

عائداً من أمريكا، وكان مديرجامعة ليدن قد دعا جماعة أنا أحدهم لزيارة الجامعة، ومكتبتها التي تضم مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية،وبعد انتهاء الزيارة، وتناول الغداء في ضيافته طلبت منه أن يبعث معي من يرشدني إلى مكتبة بريل، فكان أن انتقيت من مطبوعاتها عدداً من الكتب هي "شمس العلوم" الجزء الأول، و"منتخبات في تاريخ عدن" ومنتخبات من كتاب " الخيل" لابن الأعرابي تحقيق دلافيدا فطلب مني صاحب المكتبة ثمناً لهذه الكتب ١٣١دولاراً، فاستحييت من إرجاعها وطلبت نسخة من القائمة (الكتالوج) مع قائمة الثمن (الفاتورة) ولما وصلت إلى (بادقود سبرج) في ألمانيا عرضت القائمتين على أحد موظفي سفارتنا وهو الأستاذ صبحي خَنَشَتْ، فوجد أن قيمة ما اشتريته لا تتجاوز ٥٠ دولاراً، فكان أن كتبت بذلك إلى تلك المكتبة، فكان الجواب:

(١) اعتذار عن وقوع خطإ في القيمة.

(٢) الأسعار الموضوعة في القائمة العامة قد زادت كثيراً بعد طبعها.

(٣) إعادة مبلغ زهيد تحويلاً على أحد المصارف في المملكة. وهكذا كانت اللدغة الأولى.

ورأيت في قائمة إحدى المكتبات إعلانا عن كتاب يتحدث عن بلادنا من جميع نواحيها العمرانية والاجتماعية والتاريخية، فلما اطلعت عليه وجدته أحد الكتب التي ألفت حديثاً، وقد ترجم إلى الفرنسية وكنت قد قرأته وكتبت عنه إبان صدوره في "اليمامة" منذ عشر سنوات. ولما سألت صاحب المكتبة عما لديه من الكتب المتعلقة ببلادنا عرض عليَّ كتابا باللغة الفرنسية عنوانه : Expedition en Arabie Centrale ومؤلفه يُدعى Philippe Lippens وقد قدمه (فلبي) وتاريخ مقدمته ٨ / ١٠ / ١٩٥٤م كما وضع له ريكمنز G. Ryckmans مقدمة أخرى، ويظهر أن المؤلف رافقهما في رحلة من الرياض إلى وادي الدواسر ونجران وأبها وبيشة. ويقع الكتاب في ٢١٤ صفحة وفيه ٣٩ صورة، وخريطة واحدة توضح الطرق التي

سلكها المؤلف في رحلته، ومضامين الكتاب كما يظهر من فصوله الأحد عشر : ١- مدخل، ٢- جدة، ٣- في جبال الحجاز، ٤- من الطائف إلى بيشة، ٥- من بيشة إلى أبها، ٦- من أبها إلى نجران، ٧- في نجران، ٨- الربع الخالي، ٩- من نجران إلى اللِّدَام، ١٠- من اللدام إلى الرياض، ١١- الرياض. وقد أعود للحديث عنه.

خرجت أنا والأستاذ يوسف محمد عبدالله، وهو شاب يمني درس في الجامعة الأمريكية، ونال شهادة (الماجستير) عن الآثار في شمال الجزيرة، وهو الآن يعد رسالة (الدكتوراه) في الموضوع نفسه في إحدى جامعات ألمانيا، وهو من تلاميذ الأستاذ الدكتور محمود الغول، وسبق أن قرأ لي بعض النقوش التي نشرتها في كتابي "في شمال غرب الجزيرة[1]".

ولما عدت إلى الفندق لم أجد الكتاب بين ما معي من الكتب، فظننت أنني نسيته في مطعم تغدينا فيه، فبحثت عن المطعم فلم أهتدِ إليه، ولكنني بعد يومين وجدت الكتاب في مكتب الاستقبال في الفندق، ويظهر أنني نسيته مع الأستاذ يوسف وأنه جاء به فلم يجدني، وكما يقولون: (الذي فيه نصيب، ما يأكله الذيب).

لمحت - هذا الصباح - وأنا في بهو الاستقبال، رجلاً هندياً، ليس على جسمه من اللباس سوى رداء وإزار صغيرين، وكان حافي القدمين، وكنت لا أزال أحتذي الحذاء الأجرب، مع إلحاح ابنتي عليَّ بأن أغيّره، لئلا أكون أضحوكة لمن يراني، فإذا قلت لها : إنه لا يوجد في هذه المدينة من ينظر إليَّ، وأنا أقل من أثير فضول أحد حتى لو مشيت حافياً، لا يقنعها هذا الكلام، بل تجيبني: بأن الإنسان ينبغي أن يهتم بنفسه ويعتني بمظهره، وكانت والدتها أوصتها بأن تلاحظ جميع شؤوني، وهكذا كانت. وسرعان ما التفتُّ - عندما رأيت الرجل الهندي متأبطاً

(١) انظر ص ٦٤ منه.

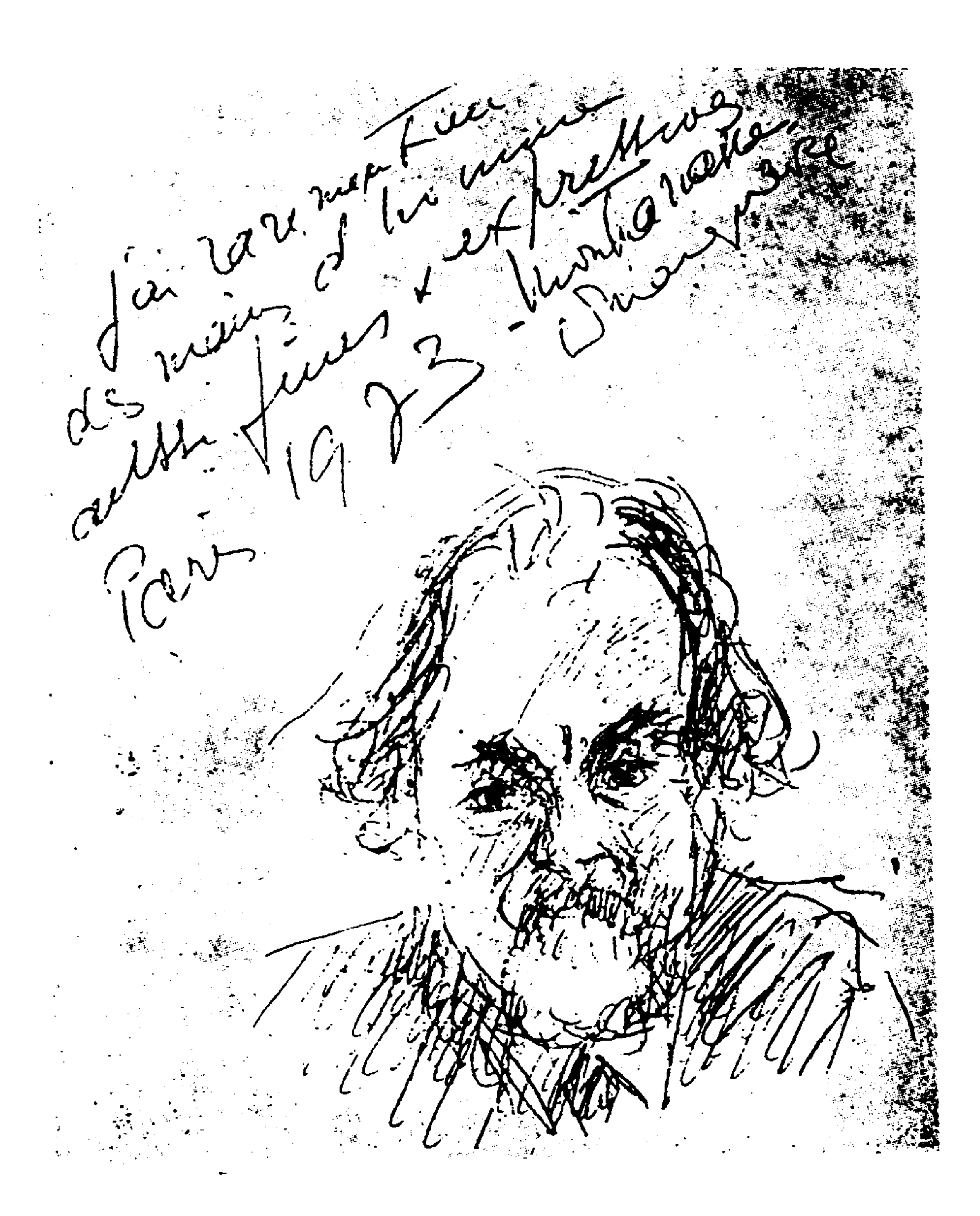
حقيبة المؤتمر، ويزدان صدر إزاره ببطاقته - فرأيت الدكتور الدوري على مقربة مني وكان مشغولاً بمحادثة رجل آخر، ولكنني صرفته قائلاً: انظر يا دكتور هذا أحد زملائنا في المؤتمر يمشي حافيًا في بهو جامعة (السربون) وقد لا أُصَدَقْ حينما أقول هذا لأحد، فأردت الاستشهاد بك، فقال: وأنا على ذلك من الشاهدين وأزيدك بأنني رأيت فتيات يمشين حافيات !!

رغبت ابنتي مُنا قراءة بعض الصحف الانكليزية فذهبنا مساءً إلى شارع السان ميشيل، وقبل العودة لمحت في أحد مقاهيه أستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر، وكنت حريصاً على الالتقاء به، لأقدم له مجموعة من أجزاء "العرب" التي تحوي حلقات من مقاله القيم "معجم المطبوعات في المملكة العربية السعودية" لم تصل إليه في بغداد، ووجدت معه الدكتور فيصل السامر، عميد كلية الآداب في جامعة بغداد، وبعد استراحة عندهما ذهبنا جميعاً إلى الفندق، حيث أمضينا هزيعاً من الليل في أحاديث لا تخرج عن نطاق التاريخ والأدب والمؤلفات القديمة، وكنت قابلت في الصباح أستاذنا الدكتور إبراهيم السامرائي رئيس قسم اللغة العربية في جامعة بغداد، ثم قابلته مرة أخرى، وكان غير مرتاح البال، فقد تلقى برقية من صهره المقيم في لندن يخبره بأن زوجته مريضة، وأنها بحاجة إلى إجراء (عملية) بصورة مستعجلة، ولذلك فهو يتأهب للسفر، بعد أن ألقى البحث الذي أعده للمؤتمر، كما ألقى الدكتوران الطاهر والسامر بحثيهما.

يوم الخميس: (١٩/٦/١٣٩٣هـ - ١٩/٧/١٩٦٣م) قابلت في صباح هذا اليوم الدكتور وليد عرفات، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة لانكستر في انجلترا، بدون سابق معرفة، وكنت أتحدث مع أحد الإخوان، فلما مرَّ بنا وكنا نتهيأ للذهاب إلى قاعة المحاضرات عرفني به، ثم قابلنا الدكتور محمد الشامخ فذهبنا جميعا، ولكننا لم نطل الجلوس إذ المحاضرة بالفرنسية، وكان يجلس بجوار الدكتور عرفات الأستاذ شارل بلا، فسألني: أتعرف هذا؟ إنه فلان وأشار إليه. فقلت: لا

وأود أن أعرفه فقد تكاتبنا، وقد عرفته بما قرأت من كتاباته وتحقيقاته لبعض مؤلفات الجاحظ. وبعد حديث بيننا خرجنا، وأبديت رغبتي للأستاذ شارل بِلاً في زيارته في مكتبه. وكنت قد وضعت في صندوق بريده ورقة كتبها الدكتور حمد الخويطر أوضحت فيها عنواني، ويظهر أنه كان غارقاً في أعمال المؤتمر إلى أذنيه، فقد قال لي : إنه لم يطلع على الورقة، وأنه لا مكتب له، ولما أخبرته بأنني أحضرت له أجزاء من "العرب" كان كتب إليَّ بأنَّها تنقص مجموعته، لكي يبعث من يتسلمها من الفندق الذي أوضحت له عنوانه قال : بأننا سنتلاقى. صعدت مع الدكتور وليد إلى المقهى (الكافتريا) في الدور الخامس ولما استقر بنا الجلوس إذا بالدكتورين عبد الرحمن الطيب الأنصاري وعبد الله العنقاوي يأتيان، فكانت ندوة أدبية حول شعر حسان، وتاريخه ومايتصل بهما، إذ الدكتور وليد عرفات قد قام بتحقيق شعر حسَّان، ونشره في مجلدين نشراً علميًّا، ثم حان موعد إلقاء محاضرة عن (الله) جل جلاله فنزل الدكتوران لسماعها، وذهبت مع الدكتور وليد إلى الفندق ثم ذهبنا لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة منه، وبينما كنا مستغرقين في الحديث عما نعيش في جوه بأفكارنا، لا بما يحيط بنا إذا بإنسانة تجلس أمامنا تصوب نظراتها نحونا، وتجري قلمها على ورق أمامها، وتكرر تصويب نظرها تكريراً يثير الاستغراب، ومظهرها يبدو عليه الوقار، وهندامها حسن، وقد بلغت مرحلة الكهولة من عمرها، وبعد أن انتهينا من تناول الطعام، تقدمت إلى الدكتور ومدت إليه الورقة التي كانت تكتب فوقها، وحدثته باللغة الفرنسية، فقال لي الدكتور: إن هذه تقول: بأنها رأت في ملامح وجهك ما دعاها إلى أن ترسم صورتك، وتعتذر عن هذا إذا كان فيه شيء من المضايقة، وتقدم لك الصورة فسألته: أتريد مكافأة؟ فقال الدكتور لا كلمة (مرسي) تكفيها. ولما أبصرت خرابيشها ولا أريد أن أقول صورتي – استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وذكرت قصة الجاحظ مع الفتاة الماجنة التي طلبت منه أن يتبعها، فسار خلفها حتى وقفت به على صائغ فقالت له : كهذا!! وانصرفت. فسأل الجاحظ الصائغ عن المرأة وعما

أرادت منه، فقال: إنها طلبت رسم صورة الشيطان على خاتمها وأن الصائغ لم ير تلك الصورة حتى يتمكن من رسمها، فكان أن رأت في صورة أبي بَحر ما أرادت، ولئن كان الجاحظ يتخذ من السخرية أسلوباً للتعبير عن آرائه، وأنه في كثير من الأحيان يَلَذْ له أن يسخر من نفسه، فإنني لا أفعل ذلك، وها هو الرسم الذي تخيلته الباريسية الفضولية، وقد يكون أجمل من صورتي !!»



فقد فهمت من الدكتور وليد عرفات أن فيه ملامح صادقة تعبر عن قسمات وجهي، وخاصة أثناء إصغائي لاستماع الحديث، وأرجو أن يكون ذلك حقاً، فهو حسن - كما ظهر لي -

لقد سُررت - رغم بشاعة هذه الخرابيش - بأنَّ في وجهي من الملامح والقسمات ما يجد فيه الفضوليون من الرسامين ما يستهويهم، ولو كان ذلك على حد قول الشاعر: (وأرحم القُبحَ فأهواه) كما سررت وأنا في (مراكش) عندما سلَّم عليَّ أحدهم ظانًّا أنني الدكتور عمر فروخ - زميلي في مجمع اللغة - وحمدت الله على أن في خلقه من يدانيني [1] خلقة.

كنت في الأيام الماضية كلما رأيت من توسمته من بلاد الهند أحاول التحدث إليه، فأبدأه بالسلام فبعضهم يرد علي ويصغي إلى سؤالي، وبعضهم ينظر إلي باشمئزاز - أو هكذا كنت أتصوَّر - ويزوي وجهه منصرفاً، وكنت حريصاً على أن أعرف شيئاً عن أستاذنا الجليل الشيخ عبد العزيز الميمني، وكان أكثر من أتحدث معهم عنه يقولون : إنه بخير ولكنهم ليسوا من (باكستان) وبينما أنا أتحدث مع بعض الإخوان إذا برجل يتقدم مني مسلماً، فذكرت أنني رأيته ولكنني نسيت اسمه، فذكرني أنه زارني مع أستاذنا الدكتور إحسان عباس في بيروت، وأنه من (باكستان) ويدرس في إحدى الجامعات الإفريقية، فقلت له : إذن أنت تعرف الشيخ الميمني؟ فقال: معرفة سماع لا رؤية. ولما رأى حرصي على أن أعرف حال الشيخ قال: تعال أدلك على أحد تلاميذه (فلان الندوي) وعنده الخبر اليقين عنه. وكان الندوي في قاعة المحاضرات، فلما دخلنا القاعة من أعلى مدرجاتها انصَلَتَ مسرعاً إلى أسفلها، ولم أستطع مجاراته في النزول، فجلست في أعلى المدرج، ثم أطال المتحدث حديثه بما لا أفهمه فخرجت أنتظر صاحبنا عند الباب، ويظهر أنه خرج ولم أبصره.

---

(١) انظر "العرب" س ٧ ص ٨١٠.

زارني في المساء أحد أبنائنا الذين يدرسون في إنكلترا، وهو الأستاذ حمزة بن قبلان المزيني – من مُزينة – من سكان المدينة، وهو يقوم بدراسة لهجة قبيلة حرب التي أصبحت مزينة فرعاً من فروعها، وقد بعثته جامعة الرياض ليحضر لشهادة (الدكتوراه)، لم يجدني في الفندق فاتصل بي هاتفيًّا في الساعة التاسعة ليلاً فاجتمعنا الساعة العاشرة والنصف.

وزارني أيضاً الاستاذ أيمن ابن صديقنا الأستاذ فؤاد السيد – رحمه الله – وهو شاب طُلعةٌ تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم عمل في (معهد المخطوطات) التابع للجامعة العربية، ثم تكالب عليه بعض أعداء والده وحاسديه مع أن والده – رحمه الله – فيما أعتقد لا عدو له في حياته، فخرج من المعهد، وهو يعمل الآن في المعهد الثقافي الهولندي، وقد نشرت "العرب" بعض أبحاثه، وهو يُعنى بتاريخ اليمن، وقد ألف كتاباً عن مصادر تاريخه، قال لي: إنه سيصدر قريبًا، وكان أعد بحثاً لإلقائه في المؤتمر عن وصف اليمن في كتاب "مسالك الأبصار" لابن فضل الله العمري.

كانت جولة مع أبي رائد في مدينة باريس، واستراحة قصيرة في أحد مقاهي شارعها المشهور، فعودة إلى الفندق، وبعد التأهب للنوم اتصل بي الأخ الأستاذ المزيني فأمضينا الهزيع الأول بل النصف من الليل حتى الساعة الثانية عشرة نتجاذب الحديث عن موضوع رسالته، وفي موضوعات تاريخية مختلفة، وكان أن أبديت له استغرابي من شدة عناية المستشرقين بدراسة اللهجات العربية، وتوجيههم بعض أبنائنا للاشتغال بدراستها، وإن كنت أدرك أهمية دراسة اللهجات من الناحية اللغوية الصرفة، إلا أنني أرى أن هناك من جوانب تاريخنا ما يفوقها أهمية، وأشرت إلى أن أحد أبنائنا من الأحامدة من حرب – أيضاً – وضع رسالة (الماجستير) عن لهجة قبيلته، وهو من موضوع بحث الأخ المزيني. فكان مما أوضحه لي أن موضوع رسالته يختلف عن الموضوع الذي طرقه الأخ الأحمدي من

حيث الشمول، يضاف إلى هذا أن قبيلة حرب كثيرة الفروع، مختلفة المساكن متفرقة، ولهجتها مختلفة بحسب هذا التفرق والتباين من حيث الفروع، والأخ الأحمدي درس لهجة فرع من القبيلة يقيم في جهة خاصة. وأن اللهجات هي الآن في طريقها إلى الانقراض بسبب تأثير الحضارة القويّ في إزالة الفوارق، وتقريب المسافات وقوة الاختلاط لا بين القبائل العربية التي تجمعها بلاد واحدة، وروابط روحية واجتماعية فحسب، بل حتى بين الشعوب المختلفة، ولهذا فدراسة اللهجات لها صلة بالمحافظة على أثر من مميزات لغتنا التي هي إحدى مقومات كياننا. وقد يكون لبعض الغربيين غاية لا تتصل بهذا الجانب، لأنهم يطلقون على بعض لهجات الشعوب التي تجمعها اللغة الواحدة اسم (لغة) بدلاً من (لهجة) فيقولون اللغة المصرية يعنون اللهجة. وهكذا استمر حديثنا ذا شجون حتى آذننا صاحب المقهى بالانصراف بالبدء بإغلاق محله.

يوم الجمعة: (٢٠/٦/١٣٩٣هـ - ٢٠/٧/١٩٧٣م) حرص كثير ممن حضر المؤتمر على التحدث، فكان أن اتصل بعضهم بالمشرفين على تنظيم إلقاء المحاضرات لذلك، والمعروف أن المحاضرات والأحاديث تقدم إلى المؤتمر قبل الزمن المقرر لعقده، ليتسنى النظر فيها، وتقرير ما ينبغي بشأنها، ثم تحديد زمن إلقائها ووضعها في (البرنامج) وهكذا فعل المؤتمر في المحاضرات والأبحاث التي قدمت له في وقت مبكر، فقد لخصها في كتيبات ثلاثة، وحدد زمن إلقائها في (البرنامج) اليومي المطبوع في افتتاحه، ومع أن ستة أيام المؤتمر قد شُغلت كل ساعاتها المخصصة لإلقاء المحاضرات شَغلاً كاملاً ومُملاً بحيث أن كثيراً من المتحدثين لا يشاهد أمامه في قاعة المحاضرات إلا عدداً قليلاً من المستمعين، وأذكر أنني حضرت لاستماع إحدى المحاضرات المتصلة بالتاريخ العربي، أنا وابنتي مُنا، فلفت نظري قلة الحاضرين فعددتهم فإذا هم لم يبلغوا العشرين، ومع ذلك فقد خرج بعضهم عند البدء في الإلقاء.

مع كل ما تقدم فقد حرص بعض الأساتذة على إلقاء محاضرات كانوا أعدوها، ويظهر أنها لم تصل إلى المؤتمر إلا بعد الانتهاء من تنظيم ما سيلقى فيه، فكان أن وضعت إدارته جدولاً إضافياً يتضمن أسماء الذي تقدموا إليها بطلب الحديث، وخصصت لهم الأوقات التي قد يتخلف فيها أحد المحاضرين، وأذكر من هؤلاء الدكتور وليد عرفات، والدكتور مجاهد محمود الصواف، والأستاذ أيمن فؤاد السيّد، وموضوع محاضرة الدكتور الصواف عن المفسرين في القرنين الأولين من الهجرة، أما موضوع محاضرة الدكتور وليد عرفات فكان غريباً حقًّا، كان عن نفي ماحدث في العهد النبوي من قتل (بني قريظة) ولا أدري هل وجد أحد من هؤلاء سعة من الوقت للتحدث بما لديه أم لم يجد، ثم لا أدري ما سبب الحرص الشديد على إلقاء محاضرات على جانب كبير من الأهمية في هذا المؤتمر والأمر كما ذكرت؟!.

رأيت في صباح هذا اليوم الدكتور وليد عرفات، وبعد تبادل التحية قال: إنه ذاهب لمكان المحاضرات، لكي يرى فيما إذا وجد متسعاً من الوقت لإلقاء محاضرته، وبعد المرور السريع في قاعة الاستقبال خرجت مع الدكتور إبراهيم السامرائي، فجلسنا في أحد المقاهي، حتى قاربت الساعة الثانية عشرة فانصرف كل واحد منا لشأنه.

السبت(*): (٢١/٦/١٣٩٣هـ - ٢١/٧/١٩٧٣م) هذا اليوم هو آخر أيام المؤتمر. وقد بكرت في الذهاب إلى مكان الاجتماع لأحظى بالالتقاء ببعض من أرغب الالتقاء بهم لعلي استطيع معرفة ما أتوق إلى معرفته، ومن أهم ذلك:

١- معرفة شيء عن الشيخ الميمني.

٢- الحصول على بعض المؤلفات المطبوعة المتعلقة بالجزيرة وخاصة رحلة شارل هوبر والكتاب المتعلق بآثار الحِجْر.

٣- طريقة الحصول على صور بعض المخطوطات في المكتبة العامة في باريس.

(*) «العرب» ٨/ ٦٥٢.

٤- البحث عن كراسة طبعت قديما عن زيارة الشيخ أمين بن حسن الحلواني[١] هولندا وحضوره مؤتمر المستشرقين أثناء انعقاده سنة ١٨٨٣م (١٣٠٤هـ)، أي منذ تسعين عاماً.

مَرَّ بي الدكتور صلاح الدين المنجد، وأنا أطالع عناوين بعض الكتب المعروضة، ومن بينها مؤلف لابن أبي عجيبة، فأشرت إلى اسم المؤلف سائلاً عن موضوعه فقال: إن هؤلاء لا يُعنَون إلا بالكتب التي لا تمثل الإسلام تمثيلاً صحيحاً، ثم تحدث عن إحدى المحاضرات التي ألقاها مدير جامعة دينية في بلاد عربية عن القرآن الكريم، وما فيها من أمور لا تتفق مع البحث العلمي الصحيح، وفي هذه الأثناء لمحت الأستاذ الدكتور شكري فيصل مارًّا، فلحقت به وسلمت عليه، فوجدته متأثراً من جوّ باريس ويشكو توعكًا في صحته، وأخبرني بأنه ذاهب إلى إحدى قاعات المحاضرات. فحدثته عن الشيخ الميمني - والأستاذ شكري هو أمين مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي العربي) والشيخ الميمني من أعضائه - فبادرني قائلاً: أبشرك أنه بخير، فقد كتبت إلى الأستاذ محمد الطيب أسأل عنه، فتلقيت جواباً منه لم يمض على تاريخه أكثر من شهرين، وقد علَّق على الكتاب الشيخ الميمني بخط يده بما يفيد بصحته وحسن حالته. ثم أضاف الدكتور: ولقد حرصت على إبلاغك بهذا وإبلاغ الأستاذ خير الدين الزركلي أن الحوادث الأخيرة في لبنان حالت بيني وبين المجيء إلى بيروت كما كنت أفعل قبل حدوثها.

ولعل معرفتي بصحة أستاذنا الميمني - أسبغ الله عليه ثوبها وأطال عمره - خير ما استفدته يومي هذا، ومن خير ما عدت به من حضور هذا المؤتمر من خير العوائد، أما عن الكتب فقد قيل لي: إن البحث عن المطبوعات القديمة يتطلب خبرة بالمكتبات التي تُعنَى بها. وتصوير المخطوطات من دار الكتب العامة في باريس يحتاج إلى بعض الأمور التي لا يتيسر للمسافر العابر القيام بها، وأما الكتيِّب الذي كنت اطلعت عليه في مكتبة جامعة ليدن، وأهديت إليَّ نسخة منه

---

(١) انظر عنه «العرب» ١/ ٣٠١.

فلم أهتمَّ بها، لأنها باللغة الألمانية – المتعلق بالشيخ أمين بن حسن الحلواني – فعندما سألت الأستاذ شارل بلاًّ عنه أثناء اجتماعي به قال: إن من أول العلماء العرب الذين حضروا مؤتمر المستشرقين ابن شنب. ولكنني اخبرته بأن الحلواني قبله، فلم يعرف عنه شيئاً، ولما ذكرت له أنه مترجم في "دائرة المعارف الإسلامية" قال: دائرتنا؟ ولم يزد.

ذهبت مع الدكتور شكري فيصل إلى أحد أمكنة المحاضرات بعد أن رأينا في البرنامج أن محاضراً سيتحدث عن مخطوطة من كتاب "العبر" لابن خلدون فيها زيادات عن المطبوعة تتعلق بتاريخ البربر، فذكرت للدكتور شكري أن الأستاذ عدنان درويش – من دمشق – ذكر أنه اطلع على مخطوطة فيها بضعة عشر فصلاً ليست في المطبوعة، وأن تلك المخطوطة في المكتبة العامة في قاعدة بلاد (بلغاريا). وفي أثناء سيرنا قابلنا شابٌّ في مدخل المكان الذي نقصده فقال لي الدكتور: تعال أعرفك بهذا فهو يحسن اللغة العربية ومن هولندا، فاغتنمتها فرصة لسؤاله عن عالم عربي زار بلاده قبل تسعين عاماً فقال: أمين بن حسن المدني، فأدركت أن لهذا العالم شهرة عند المستشرقين الهولنديين أكثر من غيرهم، ولما سألته عن الكتيب المتعلق به وكيف الحصول عليه؟ قال: إن فلانا – سماه – وهو ممن حضر المؤتمر وسيتحدث في موضوع عربي – ذكره ونسيته – هو خير من يخبرك عنه، فطلبت منه كتابة اسم الرجل وعنوانه، فقد لا تتيسر لي مقابلته هذا اليوم فكتب لي اسمه وعنوانه:

S.J. Koningsveld Rapenburg Universiteits bibliouteek-Leiden

ومررنا بالأستاذ شيبّات مدير المعهد الألماني للدراسات الشرقية في بيروت قبل سنوات، وكنت عرفته في بيروت مديراً للمعهد الألماني للأبحاث الشرقية فسألته عن الأستاذ رودلف زلهايم محقق كتاب "نور القبس" وقد جرى التعارف بيننا بعد

أن نشرت كلمة عن ذلك الكتاب[١] أوضحت فيها ملاحظات تتعلق به، فكان هذا سبب التعارف والتواصل بيننا، بينما كانت كتاباتي عن بعض المطبوعات التي يقوم بها بعض أساتيذنا وإخواننا من العرب سبباً للقطيعة ومدعاة للوقيعة أيضاً وقد أخبرني الأستاذ شيبَّات أن الأستاذ زلهايم لم يحضر، وأضاف: إنه لا يحب حضور المؤتمرات.

ذهبت مع الدكتورين إبراهيم السامرائي ومحمد الشامخ لاستماع المحاضرة المتعلقة بتاريخ ابن خلدون، فكانت بالفرنسية، وكان المحاضر يورد جملاً تافهة بالعربية ليست في صميم الموضوع، ولم أفهم إلا أن المخطوطة في إحدى مكتبات اسطنبول، وأن نصراً الهوريني اطلع عليها، وعلق في هوامشها تعليقات موجزة، فلم أستطع البقاء طويلاً، فانسللت من القاعة.

يظهر أن المشرفين على تنظيم أمور المؤتمر ما كانوا يتوقعون أن يبلغ عدد المشاركين فيه ما بلغه، ولهذا حرصوا على تسجيل جُلِّ ما وصل إليهم من محاضرات وأحاديث، رغب أصحابها عرضها، وما كانت كل المباحث المسجلة تلقى أثناء إقامة المؤتمر فقد لا يتمكن كثير من أصحابها من الحضور، غير أن الذين حضروا هذه المرة كانوا من الكثرة بدرجة بلغت حدّ الفوضى. فقد حضر من الهند ما يقرب نم أربعين، ومن إيران أكثر من عشرين، ومن مختلف البلدان من الصين واليابان ومن بلدان أخرى لا صلة لها بالاستشراق، وهؤلاء غير الذين لم توجه إليهم دعوات خاصة للحضور، فقد رغب القائمون بشؤون المؤتمر أن يحضره كل من يرغب ذلك، فكانوا يحثون المدعوين على بث الدعوة لحضوره من الأساتذة والطلاب، وكأنهم أحسوا بضعف مكانة المستشرقين في هذه الأزمنة، فأرادوا أن يكون من مؤتمرهم هذا ما يلفت الأنظار إليهم.

أما من البلاد العربية فالحاضرون قليلون، لا بالنسبة لكثرة غيرهم، بل بالنسبة

---

(١) انظر مجلة "العرب" السنة الأولى ص ٤٥٢.

لمختلف أقطارهم، ويظهر أن اللبنانيين كانوا أكثر من غيرهم وخاصة من الجامعة اليسوعية. وحضر المؤتمر من بلادنا (المملكة العربية السعودية) من جامعة الرياض الدكتور عبد الرحمن الأنصاري عميد كلية الآداب والدكتور محمد بن عبد الرحمن الشامخ، والدكتور أحمد الضبيب والدكتور عبد الله العنقاوي، والدكتور مجاهد بن محمد محمود الصواف (المدرس في جامعة الملك عبد العزيز في جدة). ومن العراق الأساتذة الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور فيصل السامر عميد كلية الآداب، والدكتور علي جواد الطاهر، والدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور علي الزبيدي. أما من مصر فلم أعرف ممن حضر سوى الدكتور إبراهيم بيومي مدكور، الأمين العام لمجمع اللغة العربية، والدكتور عبد العزيز مرزوق، والأب قنواتي، والأستاذ أيمن فؤاد السيد. ومن الشام الدكتور حكمت هاشم، وكيل وزارة الثقافة، والدكتور شكري فيصل، أمين مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي العربي). ولصلة المغرب العربي – بمختلف أقطاره – بفرنسا كان من غير المستغرب كثرة الذي حضروا المؤتمر من تلك البلاد.

في مساء هذا اليوم عقدت الجلسة الختامية العامة للمؤتمر في القاعة الكبرى في جامعة السربون في الساعة الثالثة، أعلن فيها إقامته في العام القادم في أمريكا. ماكنت أتوقع بأن هذا المؤتمر الذي حضره آلاف من العلماء والباحثين، وبُذلت جهود كبيرة للإشراف على تنظيمه منذ فترة غير قصيرة من الوقت، يكون على ما شاهدته فيه من الفوضى، ولا أعني من حيث الاجتماعات، وتنظيم أوقات إلقاء البحوث و الدراسات، بل من حيث تفاهة ما ألقي فيه من بحوث، وخاصة في القسم المختص بالدراسات العربية والإسلامية، ويكفي مثلاً على ذلك أن أستاذاً في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية في (تكساس) يتلقف من أحد الطلاب كلمات عن لهجة لا تختص بأهل بلدة أو ناحية في نجد، إلا أن هذا الأستاذ يحضر إلى المؤتمر ليلقي بحثاً عن لهجة البلدة التي ينتمي إليها ذلك الطالب، ثم أصخ سمعك أو افتح قلبك لتلك النتائج التي وصل إليها ذلك المحاضر

عن خصائص لهجة تلك البلدة. ويأتي محاضر آخر ليعلن (اكتشاف) مخطوطة من "تاريخ ابن خلدون) ثم يثقل ويطيل على المستمعين وهو يقرأ نصوصاً من تلك المخطوطة ليس فيها ما يزيد على المطبوعة، بل منها ما يثبت أن أحد المشرفين على طبع ذلك التاريخ كان اطلع عليها.

قد يكون جهلي اللغة التي كانت البحوث تلقى بها من الأسباب التي لم تمكني نم إدراك قيمة تلك البحوث، وأن الخلاصات التي كانت تُعرَّب لي عما يهمني أن أعرفه منها لم تكن وافية. وهذا ما أخذه علي صاحبنا الدكتور صلاح الدين المنجد حينما كتب مقالاً عن هذا المؤتمر في مجلة "الجديد" اللبنانية في شهر أغسطس ١٩٧٣ فقال: (ولفت الأنظار حضور العالم السعودي الشيخ حمد الجاسر، وهو لا يعرف أية لغة أجنبية، تمكنه من متباعة الأبحاث)، وحقًّا ما قال غير أنني استعنت على متابعتها بمترجمين كانا معي، ابنتي منى وكانت تجيد الإنجليزية، والأخ المغربي الذي تحدثت عنه في أول الكلام، وحرصت على هذه المتابعة لعلي أجد من بينها ما أستفيد به أو أقدمه لقراء مجلة "العرب" للاستفادة منه. ولئن مكنت صاحبنا الدكتور المنجد معرفة اللغة الفرنسية من الاتصال ببعض كبار المستشرقين الذين حضروا ذلك المؤتمر أمثال برنارد لويس وروزنثال وغيرهما فإنني لا آسى على أنني لم أتصل باؤلئك الكبار، ولكل غايته في الحياة، ووجهة سيره فيها. وماذا يهمني من أبحاث مؤتمر يصفه الدكتور المنجد نفسه بقوله: (كما لوحظ أن المستشرقين اليهود من جميع البلاد كان لهم أثر واضح، ونشاط ملموس في توجيه المؤتمر وفي إدارة أقسامه). بينما عجز العلماء من العرب – والدكتور المنجد منهم – عن إقناع القائمين على أمور المؤتمر بأن تلقى الأبحاث المتعلقة بالدراسات العربية والإسلامية باللغة التي كان أساساً لتلك الأبحاث، إذ من المضحك حقًّا أن يحاضر أستاذ عن موضوع لغويّ بحت، ولكن بغير اللغة التي يتعلق بها ذلك الموضوع، أو أن يصف مخطوطاً عربياً فيطلب منه أن يلقي الوصف لا كما كتبه عربياً بل بإحدى اللغات الأخرى، إذا لم يكن يحسن الفرنسية، أو الإنجليزية، فيضطر لإقائه بلغة ليس بين

الحاضرين من يفهمها سوى من يشرف على أمور هذا القسم.

لأدَعَ هذا إلى ناحية أهم من نواحي هذا المؤتمر وهي جهود المستشرقين في مجال الدراسات العربية. لا نُكرانَ ما لبعض فضلائهم من آثار معروفة نافعة في هذا المجال من أبرزها:

١- توجيه الدراسات التاريخية والأدبية واللغة توجيها جديداً ورسم طرق لتلك الدراسات التي أمدَّت الثقافة العربية بحيوية وبثروة.

٢- اتخاذ طريقة جديدة في إحياء التراث العربي تسهل للباحث الاستفادة منه بأسهل الطرق.

٣- توجيه الباحثين من العرب إلى العناية بالتراث بصيانته، ووضع فهارس شاملة له، ثم إطلاعهم على ما تحويه خزائن الكتب في بلاد الغرب منه، ونشر دراسات وافية عن نوادر المخطوطات العربية.

٤- عناية كثيرين منهم بدراسة تاريخ العرب من خلال آثارهم، ومن ثمّ التنقيب عن تلك الآثار بقيامهم برحلات في أنحاء مختلفة من الجزيرة وغيرها من البلاد العربية وجمعهم قدراً كبيراً من تلك الآثار في متاحفهم، ثم دراستها دراسة علمية ونشر تلك الدراسات، وكتب الرحلات التي قاموا بها وهي تحوي آراء ومعلومات عن بلادنا على جانب كبير من الأهمية.

أما الدوافع لكل ما تقدم فهي لا تخفي على أحد، لقد كانت في أول الأمر من الوسائل التي أريد بها السيطرة على الشعوب بأي نوع من أنواع السيطرة، سياسية أو فكرية أو دينية، ثم اتجه بعض أولئك المستشرقين – وقليلٌ ما هم – وجهة أخرى هي الوجهة العلمية الخالصة، بعد أن تطورت الحياة، وتغيرت أساليبها وانتفضت الشعوب انتفاضة القوة والعلم، وتفتحت آفاق المعرفة، ووجد بين العرب أنفسهم من العلماء من لا يقل معرفة وسعة اطلاع عن كبار أؤلئك العلماء من المستشرقين، بل يفوقهم بفهمه لكثير من أحوال أمته، التي يستعصي فهمها على من لم يمتزج

بها كل الامتزاج، ومن هنا يصح القول بأن دور المستشرقين قد انتهى، ولا يعني هذا إنكار ما لفضلائهم من الفضل وسعة العلم والتجرد من كل غاية تنحرف عنه.

وأما هذا المؤتمر فكما سبقت الإشارة إلى أن من أنفع ما يستفيده المرء من حضور المؤتمرات والاجتماعات الثقافية الاختلاط وتبادل الآراء بين الأفراد، والالتقاء بمن حضروا تلك المؤتمرات ليحصل التعارف، إلا أن اللقاءات بين الحاضرين في هذا المؤتمر ما كانت بالدرجة التي تحقق تلك الغايات، فقد قسم الحاضرون أقساماً متعددة بحسب الموضوعات التي قرر المؤتمر بحثها، في أمكنة متباعدة نوعاً ما، وفي أوقات محدَّدة تستغرقها الاجتماعات لإلقاء البحوث أو مناقشتها صباحاً ومساءً، وكانت المساكن التي أعدت لكبار المدعوين نائية عن مكان انعقاد المؤتمر مما جعل الالتقاء بهم صعباً وخاصة في أيام المؤتمر القليلة.

في مساء هذا اليوم - السبت ٢١/٦/١٣٩٣هـ - أنستُ بلقاء الأستاذين الجليلين الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور فيصل السامر[١]، فأمضينا سويعات سعيدة، انغمسنا خلالها في أغوار التاريخ، حتى نسينا كل ما يحيط بنا من صخب الحياة ومظاهرها، في مدينة هي في مباهجها ومفاتن الحياة فيها أبعد ما تكون عما نعمنا به من لذة وأنس بعالمنا الذي عشنا فيه تلك السويعات وحدنا.

وللدكتور فيصل اهتمام واتجاه لتحقيق بعض الكتب التاريخية، وقد قرأت له بعض الأبحاث، كما اطلعت على جزء من تاريخ ابن شاكر «عيون التواريخ» بتحقيقه وهو الجزء الـ(٢٠) من.

---

(١) وقد لاحظ استاذنا الدكتور محمد حسين الأعرجي على القول بأن الدكتور فيصل (كان عميداً لكلية الآداب) -كما في كتاب «رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث» ص٣٠٦ - فقال: والحق أنه لم يكن عميداً لهذه الكلية يومًا ما، وإنما في الحقبة التي يتحدث عنها الكتاب كان رئيسًا لقسم التاريخ في الكلية، وكان وزيراً للإعلام في أيام عبدالكريم قاسم.

عـودة إلى (بـاريس) : كانت العودة إلـى باريـس ليـلـة الاثنين: ١٤ رجب ١٣٩٣هـ وفي الصبـاح عـادت ابنتـي مُنا إلى بيـروت فـمضى وجـه النهـار في تهيـئة وسائل سفرها، وآخرهُ في الاستـراحة في الفـندق الذي سكناه قبل السفر إلى لندن.

وفي صبـاح يوم الثـلاثاء ١٥ رجب ١٣٩٣هـ (١٩٧٣/٨/٧م) بَكَّرتُ في الذهاب إلى (المكتبـة الوطنيـة العامـة) سـائراً إذ المسافـة بينهـا - وهي تقع بقـرب (متحف اللوفر) - وبين الفندق في (الحي اللاتيني) قصيـرة، يقطعهـا الماشي في ثلثي ساعة، غير أنني لم أتمكن من دخول قاعة المطالعة لعدم حصولي على بطاقة دخول، لأنني لم أحضر جواز سفري، فذهبت إلى (متحف اللوفر) فوجدته مغلقا هذا اليوم.

فرجعت إلى حديقة (لكسمبرج) بقرب الفندق، فأمضيت فيـها نهار ذلك اليوم، والمرء فيـها لا يدركه الملل، فهي تغص بالناس من مختلف الأجناس، وفيـها أمكنة مهـيأة للاستـراحة بقـرب نافورة كـبيرة محـاطة بالأشجار المزهرة المنسـقة الترتيب، وفيـها ملاعب للأطفال وغيرهم، وفي المساء يتهافت النـاس بعد انتهـاء أعمالهم، فيكونون حلقاً للعب (الشطرنج) أو (الورق) أو كرة اليد أو غير ذلك من مختلف أنواع اللعب. وعلى مقربة من هذه الحديقة تقـع قهـوة تدعى (Gafi audepart) تُعَد مجمعـاً للعرب الذين يأتون إلى باريس، قلَّ أن تخلو من أحد منهم، وخاصة الطلاب، فهي قريبة من جامعة السربون.

وفي الحديقة تماثيل كثيرة لمشاهير الفرنسيين من ملوك وعلماء وكُتَّاب وفنانين وغيرهم. ولقد وقفت طويلاً بقرب تمثال (جورج ساند George Sand) حينما شاهدت حمامتين اتخذتا من رأس التمثال مكاناً لمناغاتهما، يدوران حوله، أما رأس تمثال (شارل بدلير - ١٨٢١/ ١٨٨٧) فقد ابيض من كثرة وقوع الطير فوقه،

(١) هذا متصل بالكلام على لندن في رجب سنة ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣/٧/٢١م).

وتلطيخه بذرقه، وتمنيت أن أكون شاعراً لأعبر عما أحسست به من تفاهة ما تؤول إليه حياة الإنسان، مهما علت منزلته، وسما فكره.

(في كل واد بنو سعد): توهمت – وخطأ ما توهمته – أن ما يقال عن نزاهة الغربيين في معاملاتهم كان حقًّا، ولكنني في المساء دخلت مطعماً حسن المظهر في شارع (سان جرمان) فطلبت عشاءً حدد ثمنه في قائمة الطعام بتسعة فرنكات وبإضافة ما يضاف عادة يبلغ ١٢ فرنكاً. غير أن الندل (النذل) عبث بورقة الحساب، فبلغ ١٦ فرنكًا، لا شك أن عمال المطاعم ومن في مستواهم لا يمثلون في معاملتهم جميع طبقات الشعب، ولا تُعبر أخلاقهم تعبيراً كاملاً عن أخلاق من هم أعلى مستوى منهم اجتماعياً أو ثقافياً، ومع ذلك فإن الأحكام العامة التي يكثر إطلاقها على حسن معاملة الغربيين وتحضرهم، لا تنطبق في الغالب إلا على أرقى الطبقات منهم.

الأربعاء: ١٦ رجب ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣/٨/٨م) زرت هذا اليوم المكتبة الوطنية العامة، وكان مما اطلعت عليه من الكتب:

١- كتاب "المخبر اللبيب، عن منزل الحبيب" ورقمه (2251) ويقع في ١٦٥ ورقة (٣٣٠ صفحة) تختلف سطور الصفحات من ١٦ إلى ١٨، وليس فيه اسم المؤلف، وهو بعد السمهودي، فهو ينقل عنه (كما في الورقة ٧١) وينقل عن "الروض العطار" الورقة ١٦٣ – وفي أول الكتاب خرم لعله لا يزيد على سبع ورقات، إذ الكراسة الأولى لم يبق منها سوى تسع ورقات، وكل كراسة منه تقع في ١٦ ورقة، وأوله: (فلما دنى مني رميته بحربتي) في خبر قتل حمزة رضي الله عنه وفي الصفحة الثانية: (باب في آبار المدينة، منها بئر أريس) والورقة ٩٠ تتعلق بأسماء المدينة وهي غير متصلة بما قبلها وآخر الكتاب: (وصلٌ)(١): حكي أن عمر بن عبد العزيز قال لحميد الأمجيّ أنتَ القائل:

---

(١) يستعمل مؤلف الكتاب كلمتي (فصل ووصل) كثيراً.

شَـــرِبْتُ الْمُــــدامَ فلم أقْلعِ وعُـــــوتبتُ فيـهـا فلم أسمعِ
حُـــمَـــيْـــدُ الذي (أَمَجٌ) دارُه أخـو الْخَمْـرِ ذُو الشيبة الأصْلَعِ
عـلاه الْمَـشِـيْبُ على حُـبِّـهـا وكـــان كـريماً فلم يَــنْزِعِ

قال : نعم. قال عمر فما أراني إلا حادَّك، أقررت بشربها، وأنك لم تنزع عنها. قال: ألم تسمع الله يقول ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ إلى - ﴿وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ قال : ما أراك إلا قد أفلتَّ ويحك كان أبوك رجلاً صالحاً وأنت رجل سوء - قال: أصلحك الله! وأين من يشبه أباه؟ لقد كان أبوك رجل سوء، وأنت رجل صالح. والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين).

إن أوراق هذا الكتاب مختلة الترتيب، ولم يكن وقتي متسعا لمحاولة ترتيبها ويظهر أنه جزء من كتاب، وأن أوله عن آبار المدينة، وآخره في المواضع المتعلقة بها ولم أستطع معرفة العصر الذي ألف فيه غير أنه ذكر حادثة نهب برغوث ما في الحجرة النبوية سنة ٨٦٠، وذكر أن الملك الأشرف أمر ابن زبيري برد ما في الحجرة سنة ٩٠١. وقد سألت مؤرخ المدينة وعالمها السيد عبيد مدني - وهو يُعْنَى بتأليف كتاب عن مؤرخي المدينة وتواريخها - فذكر لي أنه لا يعرف شيئا عن هذا الكتاب.

وفي المكتبة «ديوان الزمزمي»[1]، عبد العزيز (٩٠٠/ ٩٧٦هـ) أحد مشاهير شعراء مكة في عصره، ورقم ديوانه: (3228) ولم أتمكن من الاطلاع عليه لضيق الوقت.

قدمت للمكتبة بعض مطبوعاتي هدية، فأتى إلي رئيس القسم شاكرًا، فأظهرت له الرغبة في تصوير بعض المخطوطات، ولكنه أبدى لي صعوبة ذلك في الوقت الحاضر لكثرة طلبات التصوير من أساتذة الجامعات وغيرهم، فكان أن انصرفت نفسي عن المكتبة، وعدت منها بدون (خُفَّي حُنَين)!!.

---

(١) انظر ترجمته في "النور السافر" ص٣٢٠/ ٣١.

زرت بعض معالم باريس الأثرية مثل (غابات بولونيا) وميدان (الكونكرد) و(الحي السادس عشر) حيث يعيش أكثر الفنانين. وأمكنة أخرى ذهبت إليها منقاداً لرغبة ابنتي سلوا، فأنا لا أرتاح إلا لزيارة المكتبات والحدائق، فالمكتبة العامة لم أجد فيها من حسن المعاملة ما يمكنني من الاطلاع على ما أرغب إليه من المخطوطات فإحضار الكتاب يستلزم وقتا طويلا، وأخلاق المناول فيها شيء من عدم الارتياح والتردد عند الطلب، وتصوير بعض ما أرغب تصويره كالكتاب المتعلق بتاريخ المدينة، و "ديوان الزمزي" وهو شاعر مكي، أشار إلى بعض حوادث تاريخية، يعنيني الاهتمام بها – لا يتسنّى إلا لمن أقام في هذه البلاد وقتاً كافياً، وقد سئمت من البقاء فيها، وكذا ابنتي، وأحسسنا بكثير من عدم الارتياح، ولهذا عزمنا على السفر.



إلى أسبانيا

كنا مترددين في اختيار الجهة التي نقصدها، إلا أن ما قرأت عن الآثار العربية في هذه البلاد، وعما تحويه مكتبة الاسكوريال من المخطوطات العربية كان من أهم البواعث للرغبة في السفر إلى هذه البلاد.

في ليلة الخميس ١٧ رجب ١٣٩٣هـ (٩/٨/١٩٧٣م) كان سفرنا أنا وابنتي من باريس بالقطار إلى أسبانيا في الساعة الثامنة إلا عشر دقائق وكانت الأجرة ١٥٢ فرتكا في الدرجة الثانية، وعند الوصول إلى محطة القطار طلبنا من أحد الحمالين حمل أمتعتنا إلى داخلها إلى مكتب كتب فوقه إنه لمساعدة السائحين، وأشار إلينا بالدخول فيه، وبعد التحدث مع صاحبه قال: إنه لا يساعد إلا السائحين من الغربيين والمغاربة وحدهم من العرب، فأبدينا رغبتنا بأن يساعدنا، فكتب لنا تذكرتي السفر، وطلبنا منه أن يحجز لنا كرسيين، فكان أو ضع رقمها في التذاكر ٢٥ و٢٦ في العربة رقم ٢٥، غير أننا بعد الركوب وجدنا المكانين غير خاليين، ولم تُجْدِ محاولتنا لإزاحة من فيهما فاضطررنا للبحث عن مكانين، ثم تبين -فيما بعد- أن تذكرتي الجالسين فوق الكرسيين تحملان رقميهما وأن الخطأ ليس منهما بل من أحد كاتبي التذاكر. وقد يكون خطأ غير مقصود، غير أن هذا لا ينفي أن الناس هم الناس في كل مكان وزمان، فالمرء لا يعدم في أية بقعة من بقاع الأرض من يحاول خدعته وغشه.

وليس صحيحًا ما يقال عن نزاهة الأوربيين وغيرهم ولا عن حسن معاملتهم على الإطلاق. ومثل هذا يقال عن النظافة في تلك البلاد بدون استثناء فقد دخلت أحد المطاعم الكبيرة المتوسطة في باريس أنا وابنتي فاحتجنا إلى الدفاع عما بين يدينا من سقوط إحدى الحشرات. وبينما كنا سائرَيْنِ في أحد شوارع (لندن) على مقربة من سور حديقة صغيرة بقرب المتحف، في وسط المدينة جفلت ابنتي

عنما ابصرت فأرة تقفز أمامها، مع كثرة القطط والكلاب ف تلك المدينة.

واذكر أننا كنا نتناول الغداء في مطعم فخم في أحد الفنادق في مدينة نيويورك، فشاهدت الذباب يحاول الوقوع في الطعام، ولما قلت لأحد الحاضرين وهو عربي ولكنة (مُتَأمرِكٌ) أكثر من الأمريكيين: كيف تصفون لنا هذه المدينة بأنها خالية من جميع الحشرات المؤذية، وها هو الذباب يكاد يسقط في طعامنا؟! فقال - ولم يكن مهذبًا في جوابه -: لعله أتى معنا وفي استطاعته أن يقول: نادر والنادر لا حكم له.

بين مجريط ودير الأسكورال : كان المسير من باريس الساعة الثامنة من ليلة الخميس، بالقطار والوصول إلى (مجريط) مدريد الساعة السادسة ليلة الجمعة (المسافة مسيرة ٢٢ ساعة) والإقامة فيها تسعة أيام كنت أتردد خلالها على مكتبة (دير الأسكوريال) التي زرتها مرارًا قبل أعوام. وكنت أذهب في القطار صباحًا وأعود مساء، والمسافة بسير القطار تقارب الساعة. ومع أن تلك المكتبة قد نبشها الباحثون عن نوادر المخطوطات كالدكتور صلاح المنجد والأساتذة رشاد عبدالمطلب والأهواني وطاهر مكي وكل واحد منهم أبقى أثره في فهرس تلك المكتبة، ومع ذلك فالمدقق الباحث قلّ أن يعدم ما يفيده، والقائمون على هذه المكتبة مهذبون ورقيقو الطباع، يسهلون للمطالع أمره، ويصورون ما يطلب تصويره أثناء اشتغاله في المطالعة، بخلاف دور الكتب في لندن وباريس وروما وغيرها ففضلاً عن التثبت من المرء، ومطالبته بإبراز جواز سفره، لا يتسنى له الحصول على ما يريد تصويره إلا بعد وقت طويل.

السبت ١٩ رجب ١٣٩٣هـ (١١/٨/١٩٧٣م): بكرت هذا اليوم في الذهاب إلى الاسكوريال ومن محطة القطار أسرعت الركوب في أحد القطارات قبل أن آخذ تذكرة ظانًا أن التذاكر تقطع داخل القطار، ولهذا دفعت ثمنها مضاعفًا، ووقعت في خطإ آخر هو أن المكتبة التي ذهبت لزيارتها تغلق الساعة الثانية عشرة،

ولا تفتح في المساء وكان وصولي قرب وقت إغلاقها، فلم يسمح لي بدخولها، فأمضيت جزءاً من الوقت في زيارة بعض الأماكن الأثرية في داخل الدير، وهو دير قديم بني بناء محكماً بالصخور العظيمة، وفي أسفله سراديب وأقبية كانت مقبرة لعظماء أسبانيا، رؤيتها تحدث في النفس كثيراً من الرهبة من مشاهدة الجثث المحنطة، وأذكر في سنة ١٣٨٣هـ عندما زرته أنا وأم محمد لم تستطع الاستمرار في السير في تلك السراديب ومشاهدة جثث الموتى. وفي الدير أمكنة أخرى للزيارة، ولهذا فالسائحون يفدون إليه مجموعات كثيرة. وَتُعَدُّ مدينة الاسكوربال من أجمل المدن وأنظفها، فهي واقعة في سفح جبل، وتحيط بها الحدائق، وفيها مطاعم نظيفة، وأخرى شعبية.

في طليطلة: لم أكن بحاجة إلى مشاهدة شيء من الأماكن الأثرية، إذ زيارتي لهذه البلاد هي الثانية. غير أن ابنتي سلوا رغبت زيارة إحدى المدن الأثرية، وطليطلة أقربها إلى مجريط (مدريد) فالمسافة بينهما مسيرة ساعة ونصف بالقطار، وطليطلة كانت من مراكز الثقافة الإسلامية في هذه البلاد، وفيها يقول أحمد شوقي:

لولا دِمَشقُ لَمَا كانت طُلَيطِلةٌ ولا زَهَت ببني العباس بَغدانُ

أمضينا سحابة نهارنا في هذه المدينة الجميلة الواقعة على سفح مرتفع من الجبل، مطل على نهر قويٍّ الجريان، وتحف بها الحدائق الواسعة الجميلة، التي تزخر بالناس في آخر النهار، وتقام فيها أسواق لبيع ما يحتاج إليه.

زرنا قصرها الأثري العظيم، ثم (المتحف الارثولوجي) ورأينا في أحد أقسامه أحجاراً وأواني من فخار، وأخشاباً تزدان بالكتابات العربية التي يخيل لناظرها أنها زخارف ونقوش وليست كتابة، ولهذا استعملها بعض البنائين في زخرفة بعض الأبنية، ونقش وليست كتابة، ولهذا استعملها بعض البنائين في زخرفة بعض الأبنية، ونقش النقاشون بعض نماذج في ألواح الرخام، التي تبلط بها الأمكنة

المعرضة للماء، وأذكر أنني أثناء استحمامي في غرفة أسكنها في :Hotel de) L,abbaye) في باريس استرعى نظري أن زخرفة في الرخام تشبه الكتابة الكوفية المزركشة، فحاولت قراءة فقراتها: (تُمَدُّ بها أيدٍ قوا... قواطع) وهو عجز بيت من الشعر، لم أُقِم قراءته، كل حجر رخامي يحوي هذه الكلمات، بشكل هندسي.

سألنا مدير المتحف ألا يوجد في هذه المدينة آثار إسلامية؟ فقال: يوجد مسجد، فطلبنا كتابة اسمه وموقعه فكتب:

Orgne dogite Mesquite del Coistode Lerenz. سرت على هدى هذه الكتابة، مستعينًا بسؤال من يقابلني عند مفترق الأسواق، حتى وصلت إلى زقاق ضيق منحدر، بيوته قديمة، وأكثرها فير مسكون فيما يخيل للناظر. وقبل انتهائه أشرفت على فضاء يطل على أسفل المدينة، وأسفل منه أحد أبواب المدينة القديمة، وفي جانب هذا الفضاء المرتفع نافورة مهجورة قد تكاثفت حولها الأعشاب، ولا تزال تقذف بالماء، وبقربها صخرة كبيرة منحوتة نحتًا مستديرًا عميقًا كالبئر، ظهر لي أنها خزَّان ماء، وآثار حبال الجذب منه قد أثرت في جوانبه، وفي جانب هذا الفضاء بناء مستدير غير مرتفع، وكل المكان محاط بسور ليس مرتفعًا، أبصرت فوقه رجلاً صينيًا أو يابانيًا بيده قلم وورقة كبيرة، كان يشتغل برسم هذا المكان المشرف على كثير من معالم هذا الجانب من المدينة وما حوله إلى مسافات بعيدة. سألته: أهذا هو المسجد؟ فأجاب بإيماءة فهمت منها أن لا يدري، ولكنه أعجب بموقعه فاشتغل برسمه، دخلت المكان المسقَّف الذي قد تراكمت فيه الأوساخ، ومرَّ وقت طويل لم ينظف، ولم يدخله أحد، فاتضح لي أنه المسجد، وهو مبني بالحجر والقرميد، قد قام على أربعة أعمدة بشكل قبتين متصلتين، وهو منفصل عما حوله من الأبنية، ولا تزال حديقته تَتَغذّى الشجيرات النابتة فيها مما تقذفه النافورة من الماء، ولعل تلك الشجيرات نبتت بدون تَعَهُّد أو عناية، إذ لا أثر للإنسان في هذا المكان سوى من يتخذ منه محلاً للاستراحة، ولا يأنف من رَمْي بعض الأوساخ فيه.

حزَّ الألم في نفسيي عند مشاهدة الإهمال في هذا الأثر الإسلامي، وقد حدثت الدكتور أحمد العَبَّادي مدير المركز الإسلامي في مجريط (مدريد) عنه، كما حدثت غَيره عن ضرورة العناية به.

يوم الاثنين: ٢رجب ١٣٩٣هـ (١٢/٨/١٩٧٣م) : قطعت المسافة بالقطار -بل قطعها بي - بين مدريد والأسكوريال خلال ساعة وربع، وقد وجدت في صالة المطالعة راهبًا يرتدي ثيابًا بيضًا، وكأنه عرفني، فقد استقبلني استقبالاً حسنًا، وقدم لي الفهرس، وورقة اكتب فيها أرقام ما أريد من المكتبة، وسرعان ما أحضرت لي، وقد عرفت فيما بعد أن ذلك الراهب يدعى الأب (لوفيانو لوزيانو) وقد كان لي خير عون أثناء ترددي على المكتبة التي استفدت من زيارتها، فطالعت عدداً من المخطوطات وصُوِّر لي ما أردت تصويره[1] لقد وجدت من حسن المعاملة في هذه المكتبة مالم أجده في أية مكتبة زرتها، فاستفدت منها بالحصول على عدد مما رغبت من المخطوطات حتى لم يعدْ لي أرب في المكتبة، فقد أرهقتني كثرة المطالعة والنقل، ولم يبق معي من النقود ما يزيد على حاجتي في العلاج، ولم أشاهد في الفهرس من أسماء الكتب التي أتطلع إلى معرفة محتوياتها ما يغريني بمراجعة المكتبة، ولهذا قررت السفر إلى روما.

الجمعة: ٢٤ رجب ١٣٩٣هـ (١٦/٨/١٩٧٣م) : كان لابد لي من زيارة سفارتنا، وأن تكون الزيارة حال القدوم إلى مدينة مدريد، للسلام على معالي الأستاذ ناصر المنقور، فالصلة بيننا أقوى من أن أتحدث عنها منذ أن كان طالبًا في القاهرة سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) وكان يشرف على طبع مجلة « اليمامة » ويساعد في تحريرها. وصداقة ربع قرن ما كان أبو أحمد ممن يستهين بحقها، يضاف إلى هذا ما يتصف به من شهامة ونبل مع جميع الناس، فخشيت أن أنصرف بدافع من لطفه وكرمه فاشتغل عن التردد على مدينة الاسكوريال لزيارة مكتبتها أو أن

---

(١) عن وصف تلك الكتيب انظر « رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث » ص٣٢٨ وما بعدها.

يسهّل لي ذلك بطريقة تثقل كاهلي بفضل أعجز عن شكره، ومن طبعي التخفيف عن نفسي فلا أكلفها حمل مالا أطيق كفاءه، وعن إخواني فلا أكون كلاًّ عليهم، ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

ذهبت إلى السفارة - وهي لا تبعد عن النزل الذي أسكن فيه كثيراً، فكان استقبال كريم من أبي أحمد، كعادته مع كل زائر، وكان عتاب حينما علم بما أمضيته من أيام إقامتي في هذه المدينة، فاعتذرت صادقًا كعذر زهير بن أبي سُلمى حينما كان يحاول التخلص من جُود ممدوحه، فيسلم على من في المجلس غيره، قائلاً: (عِمُوا صباحًا سوى هَرِم بن سنان وخيركم استثنيت)! ولا أطيل الحديث عما عرف من فضل أبي أحمد (فالصمت في بعض المواضع أبلغ).

السبت: ٢٥ رجب ١٣٩٣هـ (١٧/٨/١٩٧٣م): رغبت زيارة (المركز الإسلامي الثقافي) ويقع غير بعيد عن السفارة، فذهبت إليه بعد اتصال هاتفي بمديره. وهذا المركز أنشأته الحكومة المصرية للدراسات العربية الأسبانية، ولتعليم اللغة العربية، ولدراسة الآثار الإسلامية، بالتعاون مع الأسبان، وله مجلة دورية تحوي أبحاثًا تاريخية، ودراسات عن المخطوطات وعن الآثار، باللغتين العربية والأسبانية، وقد تنشر بعض الرسائل النادرة. وكانت تدعى «مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية» وتصدر منذ عام ١٣٧٣هـ)(١٩٥٥م) وتنشر أبحاثًا قيمة للمختصين بالدراسات الأندلسية، ولا تزال توالي الصدور بعد أن غير اسمها باسم المركز.

استقبلني الدكتور أحمد مختار العَبَّادي مدير المعهد، وهو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعتي الإسكندرية وبيروت العربية، وبعد حديث ممتع حول ما يقوم به هذا المركز في سبيل نشر الثقافة العربية، واطلاعي على أجزاء من مجلته ومجموعة من منشوراته بالعربية والأسبانية، كانت جولة في الدار، وهي ملك للمركز، ها هي المكتبة التي يرتادها عدد غير قليل من الباحثين، لا ينقصها سوى

قلة محتوياتها من الكتب، وهذا هو مكان مخصص لإقامة الصلوات، أما الطابق الأسفل ففي قسمه الموالي للمدخل توجد غرفة كبيرة لتعليم اللغة العربية، وفي قسمه الخلفي توجد المطبعة التي لا تزال من النوع القديم الذي يدار وتصف حروفه باليد، والقائمون بإدارة شؤون هذا المركز الأستاذ الدكتور العبادي مديره، ويساعده أحد الأساتذة، وكاتب، وعاملان اثنان للمطبعة على ما ظهر لي، ولم أحاول البحث والاستقصاء في هذه الناحية - ورغم ما غمرني به الأستاذ الجليل من كرم النفس، ورقة الطبع، والأدب الجمّ، فقد أحسست بكثير من المرارة بعد زيارة هذا المركز، ومشاهدة ما هو بحاجة إليه من اهتمام وعناية، بصفته من مراكز الثقافة العربية الإسلامية في أسبانيا وحدها بل أوروبا كلها، إذا أسبانيا أهم قطر سياحي فيها. وكثير من رواده عندما يعلمون صلة العرب بهذا القطر في حاجة إلى أن يكون ما يعلمونه قائمًا على أساس قويٍّ من المعرفة، وأن يدركوا من حقائق الدين الإسلامي ما يجهلون، أو يتصورنه تصوُّرًا خاطئًا، بتأثير ما قد يشاهدون من بعض المنتسبين إليه، مما لا يتفق مع تلك الحقائق.

ومما يروى أن أحد كبار الفلاسفة الفرنسيين، كان يُناظر الإمام محمد عبده، في بعض القضايا الإسلامية، فكان يقول: لو أعلم أن الإسلام كما يصفه الشيخ محمد عبده لكنت من معتنقيه، ولكنني حين أرى كثيرًا من أحوال المسلمين أتصور أن الشيخ أثر عليَّ بفرط ذكائه، وبلاغة حجته - أو كلامًا هذا معناه -.

إلــى الشــرق...

إلى جُزُر (هاواي)

من (هيوستن) إلى (هَنُولولو): ها هنّ البنات هند، وسلوا ومُنَا، وقد أرهقتهن الدّراسة بحاجة إلى أن ينلن من الراحة النّفسيّة والجسمية ما يكون عونًا لهنّ على استمرار نشاطهن في مواصلة دراستهنّ، هذا الأسبوع، أسبوع اجازة الربيع. ولن تتمّ للأبوين سعادة لاتشمل الأبناء، وما أصدق عمران بن حِطّان في قوله:

لولا بُنَيَّات كزُغْبِ القطا	**رُدِدْنَ من بعض إلى بعض**
لكان لي منتجع واسع	**في الأرض ذات الطّول والعرض**
وإنّما أولادنا بيننا	**أكبادنا تمشي على الأرض**
لو مرّت الرّيح على بعضهم	**لامتنعت عيني عن الغمض**

وها هم الإخوة الذين قابلتهم في هذه البلاد ينصحونني بزيارة جزر (هاواي) للراحة واستجمام النشاط، وأنا في أشدٍّ الحاجة إلى الراحة، وها هو الدكتور رضا الكابلي رئيس البعثة التعليمية في أمريكا قد هيّأ الوسيلة الأولى للرحلة، بالاتصال بمكتب الخطوط السعودية لتعديل تذكرة السفر من طريق الغرب إلى طريق الشرق، وها هو الأخ الأستاذ عبد العزيز السلامة أعان على تهيئة وسيلة أخرى، فلم يبق بعد العزم إلا التوكل على الله ثم الاتجاه تلك الوجهة.

وكان ذلك بعد ظهر يوم الاثنين ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (١٠/٣/١٩٧٩م) والسفر من مطار (دلس) على إحدى طائرات (برنف BRANIFF) في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر – قصداً إلى مدينة (هنولولو) قاعدة جزر (هاواي) مروراً فوق شواطئ بحر المكسيك، فشواطئ (كليفورنيا) فانحرافًا إلى اليسار لاجتياز المحيط الباسيفيكي إلى تلك الجزر.

إنّها ثماني ساعاتٌ لم يبصر المرء خلالها سوى المزن المتراكم الشديد البياض، يحول في أكثر الأحيان دون رؤية ماتحته من أرض أو بحر، لقد كان الطيرانُ رَهْواً رُخَاءً، ليس فيه مايزعج، بل قلّ أن يحسّ به المرء، لولا أزيز المحركات، في بعض منخفضات الجوّ، فمضى الوقت – على طوله – سريعًا أكثره في إغفاءة عميقة من النوم.

جزر هاواي : ها نحن نشاهد الأرض يزدان وجهها بالخضرة، تتخللها أشجار باسقة شبيهة بالنخيل، حقًّا إنها النخل الهندي (النارجيل) .

كانت الساعة بتوقيت (دلس) قد تجاوزت العاشرة بدقائق، وها هي في مطار (هنولولو) لم تبلغ السادسة والربع و(هنولولو Honolulu) قاعدة أرخبيل يتكون من نحو ثماني جزر واقعة في المحيط، يعرف باسم (هاواي Hawaii) أكبر جزيرة في هذا الأرخبيل[١]، أما (هنولولو)، فتقع في جزيرة أخرى تدعى (واهو Oahu) وهي أحياء متصلة، مستطيلة من الشمال الشرقي حيث تنتشر في سفوح جبال، إلى الجنوب الغربي بامتداد بحرها الشمالي المعروف باسم (ويكيكي Wakiki) ويطلق هذا الاسم على الحيّ السياحي أيضًا، وتخترق تلك الأحياء قناة عريضة، تتجمع فيها المياه التي تنحدر من الجبال، مع فضلات المياه، وتصبّ في بحر (ويكيكي) المتصل بالمحيط، ويطلق اسم (هنولولو) على القسم الواقع بين المطار – وهو في جنوب المدينة وبين البحر الجنوبي (ويكيكي) . والجزيرة معمورة أكثر جهاتها، بقرى متواصلة .

ليس في المطار ما يُتْعِبُ سوى حمل الحقائب باليد حتى إخراجها منه، ثم انتظار سيارة الأجرة زمنًا قارب نصف ساعة، بسبب كثرة القادمين إلى هذه البلاد – فيما يظهر– .

وفي أحد الفنادق الواقعة على شاطئ البحر (ويكيكي WAKIKI) كان النزول، وأنا أحبّ البحر، رؤيته على الساحل لا من الجوّ، وأُحِبُّ السباحة فيه، وإنني لا أنسى أيامًا أمضيتها من شهر رمضان ١٣٩٧ – في مدينة (برايتون) في بريطانيا، ولتلك المدينة

---

(١) أشهر جزر هذا الأرخبيل : هاواي – من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ثم (ماوى Maui) ولاني (Lanai) وملوكاي (Molokai) فجزيرة (واهو Oahu) حيث تقع مدينة (هنولولو) فجزيرة (كاوى Kauai) ثم جزر صغيرة، والاتصال بينها جوًا بالطائرة وبحرًا بالقوارب . ويرى بعضهم أن هذه هي جزر (الواق الواق) في المؤلفات العربية القديمة .

شاطئ جميل، يسير المرء فيه نحو الساعة، فكنت أخرج من الفندق الساعة السادسة صباح كل يوم، وهو مُطِلّ على ذلك الشاطئ الطويل، الهادئ الخالي إلا من فتيان أو فتيات، اتخذوا منه ميدانًا لممارسة رياضة الجري، ومن بعض أمثالي ممن تقدمت بهم السّنّ، فاكتفوا بالسَّيْرِ فيه، أو الجلوس فيما حوله من الحدائق في الهواء الطّلق، وقد يحلو لبعضهم أن يخلع ملابسه، وينغمس سابحًا في البحر، مع شدة برودة مائه، في ذلك الوقت. وقد حاولت هذا الأمر صباح يوم كان الموج شديداً، غير أنني لم أكد أصل من الماء مايستر كلّ الجسم، حتَّى غشيتني موجة قذفت بي خارج البحر، وكان الهواء بارداً فاكتفيت بالسباحة أثناء النهّار.

ترتاح النّفوس – غالبًا بمشاهدة من يشابهها خلقا أو خلقا، وهكذا الحال حين نزلنا في المطار، وشاهدنا أهل هذه البلاد، فالألوان والأجسام والحركة، كل ذلك مما ألفناه واعتدنا رؤيته، والبساطة في المظهر، وعدم الاحتشام في غير محله من الأمور المألوفة هنا، حتى سائقة سيّارة الأجرة التي أوصلتنا من المطار إلى الفندق – وكنّا في حالة من التّعب بعد الطيران الطويل ثم الوقوف في انتظار السيارة – ولكنَّ تلك السائقة الظريفة اتجهت إلى الفتيات: هذا أعظم شارع في المدينة، وهذا المحل يباع فيه من أصناف الملابس – للنساء طبعًا – أجملها، والفندق على الشاطئ الجميل، ولم تقفل فمها إلاَّ بعد أن تناولت الأجرة، ولم تنس تقديم بطاقتها للاتّصال بها عند الحاجة إلى سيارتها.

من فضول القول الحديث عن جمال هذه البلاد، وإن لم تبلغ من العمران الحديث مابلغته أكثر المدن الأمريكية، ولكنها في مظهرها من أرقى بلاد العالم تنظيمًا ونظافة، وهي تمتاز باعتدال جوها في جميع فصول السّنة، وبهذه المناظر الخّلابة بين زرقة ماء البحر، وخضرة هذه الأشجار الباسقة، وهذه الجبال التي يحاول الإنسان هنا أن يساميها ارتفاعًا بما يشيّد من القصور العالية، ولكّن قمم تلك الجبال تأبى إلاّ أن تطلّ باسقة خضراء، تخلب بجمالها الألباب، أو هكذا بدت لي، إذ لم أر قبلها أجمل منها، وقد أرى ذالك.

وبعد تناول طعام العشاء في مقهى الفندق، إذ الإعياء بلغ منّا مبلغه، فلم نفكّر في الخروج، وان كان الوقت لايزال ملائمًا للبحث عن مطعم نجد فيه ماقد نختاره من الطعام، حيث لم يتهيأ لنا دخول مطعم الفندق بدون سابق حجز.

وتكاليف المعيشة هنا أرفع بقليل منها في الولايات المتحدة، مع أنّ هذه البلاد منها، ولكنّها بلاد سياحيّة.

كدت حين أويت إلى فراشي – للنوم – أن أسارع للخروج من هذا الفندق الذي لم نجد مكانًا لنا في غيره من الفنادق، ويُعَدُّ من فنادق الدرجة الأولى، كانت الغرفة في الدور الرابع، ونوافذها مطّلة على بهو متّصل بالفندق، قد أعدّ ناديًا ليليًا.

ولّما فتح النّدل الغرفة أسرع إلى النافذة ففتحها، وإلى المروحة المعلّقة في السّقف – نعم مروحة في فندق (شرتون) – فأدار مفتاحها، ليبرد جوّ الغرفة، وأنا لايزال جسمي يحمل من الملابس الثقيلة مااعتاد حمله في البلاد الشديدة البرد، فأسرعت إلى المروحة فأوقفتها وإلى النّافذة فأغلقتها، واكتفيت من ملابسي بالقليل، ولكن بعد أن تمددت على الفراش أحسست بالحرّ، ففتحت النافذة، فإذا بضوضاء وجلبة في ذلك البهو الواقع في الدور الأرضيّ من الفندق، فقلت لأم محمد: لابدّ من تغيير هذه الغرفة إن لم نتمكن من تغيير الفندق، ثم لما استرخيت فوق الفراش، إذا بصخب الموسيقى، وصوت المغنيِّ الأجش المزعج، ورنين آلات الغناء الذي يكاد يصمّ الآذان، فكدت أقفز من السرير من شدة التأثر، ولكن إلى أين؟! (الصباح رباح) إن شاء اللّه، فدثّرت وجهي بعد أن أرخيت ستارة النافذة، وأطفأت النّور، وأغمضت عينّي، ولكنني لم أفتحها إلا ونور النهار قد تسلّل إلى الغرفة من خلال ستارة النافذة، فقد استرسلت في نوم عميق من جرّاء ماأحسست به من تعب، فلم أشعر بما يجرى حولي، مع شدة مافيه من بواعث الإقلاق والإزعاج.

كان الناس هنا أكثر نشاطًا – أو هكذا كنت أتصوّر – فأثناء خروجي إلى الشارع، والوقت لايزال مبكّرًا، لم يبلغ الساعة السابعة، ها هي بعض الحوانيت مفتوحة، وها هم المشاة كثيرون رجالاً ونساء.

عرّجت على شاطئ البحر القريب منّي، فاضطررت لخلع الحذاء لكي أستطيع المشي في الرمل الكثير، الذي ذكرني بالشاطئ الواقع جنوب مدينة الخبر، المعروف حديثًا باسم شاطئ (نصف القمر) فكثافة الرمال ولونها، واستدارة الساحل ونظافته كلها تذكر بذلك الشاطئ، إلاّ أن البحر هنا أعمق، ذو موج شديد، وماء لونه أزرق، والعمران قد بلغه، والأشجار الكثيفة قد امتدّت على جانبه، ويد الإصلاح والتنسيق تتعهّده في كل وقت.

تمنّيت أن أنزل في الماء، ولكن لم أر أحداً يسبح في هذا المكان في هذا الوقت، ولم أُهَيِّئْ نفسي لذلك، فعدت إلى الفندق، ولما قربت منه أبصرت أناسًا كثيرين يدخلون مكانًا تكاد أضواؤه تخطف الأبصار بقوتها وسرعة حركتها، فدخلت معهم، فإذا مطعم، ومعارض مختلفة، فاتجهت نحو المطعم، وأخذت - كغيري - طبقًا كبيراً آخذاً مكاني في الصّفّ، إلاّ أنني عند الدخول رأيت للمطعم بابًا آخر، خاليًا فدخلت معه، فرأيت أصناف الأطعمة معروضة أمام المارّة، ورأيت الذي تقدّمني يضع من كل صنف قليلاً في طبقه، أما أنا فكنت أكثر من أصناف الفواكه، التي لاعهد لي بأكلها مثل (العنب) باسكان الباء و(الأناناس) ونوع الترنج المعروف باسم (الكريب فروت) وغيرها، وماكنت أدري بأنّ للمرء أن يأخذ من جميع أنواع الطعام مايريد، بثمن محدّد لقد اكتفيت بما اخترت، وبعد أن خرجت من المطعم وقفت متحيّراً في أمري، وأنا على مقربة منه أين أدفع ثمن ماأكلت، فإذا بي أبصر لوحة عند مدخل المطعم فهمت مما هو مكتوب فوقها أن طعام الإفطار بمبلغ ثلاثة دولارات وربع، وأنا قد دخلت وأكلت فاكهة، وخرجت ولم أدفع شيئًا فرجعت، ودخلت من الباب الذي تحاشيت الدخول منه لكثرة الناس، فرأيت كل داخل يدفع المبلغ وتدفع له بطاقة له به، ثم يختار مايشتهي مما هو معروض من مختلف الأطعمة، أية كمية من أي نوع منها.

ويكثر هذا النوع من المطاعم في البلاد الخارجية إلاّ أنّ المرء بعد أن يختار مايريد من الطعام يدفع ثمن مااختار، أما أن يختار من أي نوع أي قدر بثمن محدّد، فهذه أول

مرة أرى فيها مطعمًا بهذه الصفة. ومأسعد الأكلة بمثل هذا!!، ولاشكّ أنّ القيمة قدّرت بمراعاة أحوال الآكلين، ولكي يدرك الإنسان جانبًا من مستوى تكاليف المعيشة هنا فإنّ مايدفعه للوجبات الثلاث على التوالي: ٣,٥ + ٤ + ٥ = ١٢,٥ من الدولارات، وأنواع الطعام من لحوم وخضر وفواكه جيدة، وكذا القهوة والشاهي.

وقد يدفع الإنسان ضعف هذا المبلغ في أحد المطاعم، بوجبات لاتمتاز على الوجبات تلك بشيء. فقد قيل لنا: إن في هذه المدينة (هنولولو) مطعمًا عربيًا، ووصف لنا موقعه، فذهبنا إليه، وكان قريبًا من الفندق الذي نسكنه، فلما دخلناه استقبلنا صاحبه متأسفا بأنه لايوجد فيه مكان - إذ الأمر يتطلب حجز الأمكنة أوّلاً، ولعله فعل هذا لكي يغالي بمطعمه، فلما رأى مني عدم الحرص على البقاء أوعز إلى فتى يقف قريبًا منه لكي يقول لي: مادمتم خمسة فسنهيِّئُ لكم أمكنة، إكرامًا لكم، على أن تنتظروا ساعة. ولكنّه لما رآني مصمّمًا على عدم البقاء أدخلني إلى مَحَلِّ الطعام، فرأيت أكثر الكراسي خاليًا.

يحمل المطعم اسم (مرّاكش) بخط عربي جميل، والنُّدُلُ فيه يتكلمون العربية بينهم وهم خليط من مصر وغيرها، وصاحب المطعم من ايران، والموسيقى والأغاني عربية مقلّدة، وكذا الرقص، والطعام من لحوم الدجاج والأرانب وغيرها. أما الثمن فقد بلغ حداً لم أدفع مثله ثمن عشاء خمسة، سوى ليلة طلب أحد الضيوف الأربعة الذين دعوتهم نوعًا خاصًّا من الأكل، لايوجد في المطعم الذي نحن فيه، وكان من أفخم مطاعم تلك المدينة، وأحضر النوع المطلوب من مكان غير قريب.

وفي (فروت نورث) إحدى ضواحي مدينة (دلس) ذهبنا إلى مطعم لبناني يدعى (مطعم الحديري) باسم صاحبه، يزدان داخله بصور شجرة الأرز، وتشنْف الأسماع فيه صباح وفيروز وغيرهما من مطربي لبنان، بأعذب الألحان، والطعام جميعه على الطريقة اللبنانية، ومع الاقتصار منه على اليسير، كان الثمن أكثر من الكثير.

وكما قيل: (مانزلنا مِسْكة وضريّة، إلا للهامل والهميّة).

والجو هذه الأيام أميل إلى الحرارة منه إلى الاعتدال.

وفي الظهيرة بعد أن هيأت ما أحتاج إليه للسباحة من تُبَّان (مايوه) وفوطة وفراش، وخرجت من باب الفندق النافذ إلى الشاطئ، فخلعت نعلي للسّير على الرمل، فلم أستطع من شدة الرّمضاء، والناس هناك متمدّدون فوق الرمال، وحرارة الشمس تلهب أجسامهم التي قد لطخوا فوقها أنواعًا من الطلاء من دهن وغيره، وقليل منهم من يستظل.

لم أستطع التّوغّل في البحر، لأنني لا أُجيد السّباحة – وإن كنت أحسنها –، وماقرب منه من الساحل معرّض لشدة الموج أثناء المدّ والجزر، وأرضه يكثر فيها نوع من النبات شبيه بالطّحلب، وليس الماء صافيًا، فأبصرت على مقربة مني عدداً من الأطفال والشيوخ، يتقامسون في الماء حتى تكاد تختفي أجسامهم، فسبحت حتى قربت منهم فإذا المكان أشبه ببركة، والماء نظيف، وحركة البحر ليست شديدة، إذ الأمواج تتكسّر على حاجز مبني من الحجارة الضخمة دونه، وليس هناك من يهزأ بي لكوني تشبهت بالأطفال، وبأشباههم من كبار السن من أحد الجنسين!! ولم أغامر في التّوغّل في البحر مع الماهرين في السباحة، إنّني مع القائل:

لا أركب البحر انّي ... أخاف منه النّوائب
طِيْنٌ أنا، وهو ماء ... والطّين في الماء ذائب

وخير لي أن أُعَدَّ طفلاً، من أن يذكر اسمي بين الغرقى!!

تماديت في المشي هذا الصباح على الشاطئ، عكس الاتجاه إلى وسط المدينة، فامتدّ بي السير إلى غابة ذات أشجار عظيمة باسقة، لاأعرف منها سوى شجر (النارجيل) الذي يحار المرء في سموقه مع دقّة سوقه، كيف يستطاع صعوده لجني ثمره؟!

وهذه الشجرة العظيمة المنتشرة الفروع بحيث لايكون المرء مبالغًا لو قدّر قطر دائرة استدارتها بعشرين مترًا، طاب لي السير في تلك الأرض الخضراء، وأكثر من أشاهده ينهبون الأرض نهبا بعدوهم على أرصفة الطرق، ومنهم من أبرز من جسده أكثره،

وكانت الشمس مشرقة، تتسلل أشعّتها الدافئة من خلال الأشجار، وأصوات الأمواج المتكسرة على الرصيف الطويل، تدوّي في الآذان، كل ماقرب الطريق إلى الشاطئ. وها هي فنادق ومواقف سيارات منتشرة في جانب الغابة الموالي للبحر، أمّا الجانب الآخر فهاهي سلسلة الجبال الممتدة بَدَأَتْ تطلّ بقممها الشامخة، حتى تكاد تطّوق هذه الحديقة الواسعة - الغابة - لقد أحسست بالتّعب من كثرة المشي، ولم أجد مكانًا أستريح فيه، سوى المقاعد والكراسي المنتشرة على جوانب الطريق، أو داخل هذه الحديقة، وكنت أتطلع إلى مقهى أو مطعم، ولكن الساعة الآن لم تبلغ السابعة صباحًا. رأيت انسانًا واقفًا تحت مظلّة مبنيّة، وبجانبها مقاعد مستطيلة، فجلست بقربه، فما كان أسرع من وقوف حافلة (أوتوبيس) بقرب المظلة، وإذا بالواقف يتجه إليها فسرت خلفه، وأخذت مقعدي داخلها، ولكنني رأيته وقف بجوار السائق، ووضع في صندوق زجاجي بجانبه نقوداً، وأنا لم أفعل، ولاأعرف مقدار ماأدفع، فأتيت إلى السائق بعد أن وضعت قطعًا من النقود في يدي وأبرزتها له، فأخذ منها ربع دولار قذف بها في الصندوق. وأنا الآن وقد جلست مستريحًا، فلتتجه هذه الحافلة حيث تريد، ولن أعدم نفعا من اتجاهها إلى أية جهة. هاهي نهاية الغابة، نكّبتها الحافلة يمينها، ثم انحراف جانبها الموالي للجبال، ثم زاد انحرافها حتى اخترقت وسط الحديقة فالتقى طريقها بالطريق الذي سلكته حين أتيت، وسرعان مامرّت بأمكنة عرفتها لقربها من الفندق، لتكن جولة في المدينة على حساب ربع دولار، هاهي التُّرْعة العظيمة التي تشقّ وسط البلدة، وهاهي الضاحية الجميلة التي مررت بها أمس عند الذهاب إلى (القنصلية اليابانية) وها هو وسط المدينة، لايتميّز إلا بقدم كثير من مبانيه. لقد أوشكت أن أصل الشارع الطويل الذي يقع فيه الفندق، فقد عدنا إلى الترعة، وعرفت الطريق فنزلت في أوّل موقف.

لما حدّثت إحدى بناتي بهذه الجولة التي شاهدت فيها كثيراً من معالم المدينة، ولم تكلفني سوى ذلك المبلغ القليل. أضافت قائلة: ونلت - فوق ذلك - شكر رئيس

الولايات المتحدة (كارتر) وشكر رئيس بلدية هذه المدينة. وقد ظننتها ساخرة، غير أنني في المساء وعند العودة من المطار - بعد سفر ابنتيَّ - ركبنا الحافلة من المطار إلى الفندق، وإذا بابنتي الثالثة تريني لوحة خضراء تحوي كتابة مذيلة بتوقيع (جيمي كارتر) وآخر معه، وترجمة تلك الكتابة: شكراً لك حيث ركبت الحافلة، فوفرت قدراً من الطاقة.

لم أقل: ياليت قومي يعلمون، فالعلم لا ينقصهم، بل قلت: ياليتهم (يعملون)!! خدعنا في مساء هذا اليوم بوصف رحلة بحريّة، يشاهد المرء خلالها أشياء ممتعة، ويتمتّع بوسائل تسلي وتبهج، مما لايجد المرء له مثيلاً في غير هذه البلاد - كذا قيل لنا كنماذج من مظاهر الحياة هنا من غناء وغيره، وبوجبة عشاء متعددة الأصناف، في بلد الضيافة - على ماتقوله عنها وسائل الإعلان.

وهاهي النيران تشتعل أمام كل مطعم، تذكّر بما ينسب لحاتم الطائي يخاطب مولاه:

أَوْقِدْ فإنّ اللّيل ليل قرٌّ — والرّيح يا غلام ريح صر

لعلّ أن يبصرها المعترّ — إن جلبت ضيفًا فأنت حرّ

ويظهر أنّ عادة إشعال النيران بقرب المطاعم انتقلت من شرق آسيا، حيث انتشرت ديانة المجوس، فأهل هذه الجهات - على ماقيل لي - يعتقدون أنّ النار تطرد الأرواح الشرّيرة عن الطعام، ولهذا يملأون إناء مستطيلاً زيتًا، ويضعون في الزيت فتيلة عريضة يشعلون النار في طرفها، فلا تزال تمتصّ الزّيت وتشتعل، ماداموا بحاجة إلى ذلك، وفي داخل المطاعم في كثير من البلاد، يوضع فوق كل منضدة قدح من زجاج، مملوء زيتًا، وفيه فتيلة نارها تزهر، ولكنها خافتة، وأرى هذا مأخوذ من تقديس النور وتلك عقيدة (المانوية) إحدى فرق المجوس، وللمتنّبي:

وكم لظلام اللّيل عندك من يد — تُخَبِّرُ أَنّ (المانويّة) تكذب

- أي في اعتقادها أنّ النور إله الخير، والظلمة إله الشرّ -

لقد انتهت الرحلة التي استغرقت نحو ساعتين، في زورق بخاري، ضمّ مايقارب

خمسين راكبا، واستمرّ يشقّ عباب الأمواج التي ترتفع أمامه في بعض الأحيان حتى تبدو وكأنها ستبتلعه، فتختلط ضحكات من في الزورق وصخبهم بهدير الأمواج، ورنّات آلة الموسيقى الصاخبة بصوت المغنّي الأجش المرعب، بوقع أحذية فتيات يتمايلن راقصات، بحركات لاينقصها سوى التناسق والانسجام، ثم يطلقنها صرخات صاخبة تكاد تصمّ الآذان، إيذانًا بانتهائهنّ، أو استجداء للتّصفيق، وهنّ جديرات به حين ينتهين فيرحن – لاأراحهنّ اللّه!! انها تجربة لم تخل من فائدة، فقلَّ أن يَحْظَى المرء بالتمتع برؤية هذه المناظر الخلابة بحسنها، واستنشاق هذا الهواء الرقراق الصّافي، وبمشاهدة مظهر من مظاهر الحياة في هذه البلاد – لولا هذه المنغصات.

أما العشاء فكان شَهِيًّا، سبقه نوع من الشراب من عصير الفواكه. كانوا أسخياء به، لايمتاز عن الماء إلاّ باللّون، وحلاوة الطعم.

الناس هم الناس في كل مكان وزمان، فقد كتب الطبيب حينما كنت في مدينة (هيوستن) قطرة لعيني، فدفعت ثمنًا لها اثني عشر دولارًا ونصف دولار، ثم احتجت إليها فاشتريت لي من هنا بثمانية دولارات ونصف دولار – أي بنقص مايقارب الثلث، وها أنا في (هنولولو) بعد أن اشتري حاجة بعشرة دولارات، أشاهدها هي بعينها في محل آخر معروضة بثمانية. وأجلس في مقهى الفندق الذي أسكن فيه فأدفع نحو دولار ثمنًا لكوب من الشاهي، لايكلفني حين أجلس في مكان يمتاز على المقهى – أكثر من نصف مادفعت.

يخدع المرء حين يتوهّم أنّ الغربيّين لايحاولون ابتزاز الأموال بمختلف الطرق، أو أن معاملاتهم كلها نظيفة وشريفة، إنّ الطبيعة الإنسانية هي هي، فيها الخير والشرّ، والناس فيهم الخيّر، ومنهم الشّرير، وليس من تفوّق عليك بعلمه، بخير منك في خلقه.

أحسست هذا المساء (يوم الأحد ٢٠ ربيع الثاني) بوحشة تغمر قلبي، لقد عدنا أنا وأم محمد وإحدى بناتي من المطار الساعة التاسعة، بعد أن ودّعنا اثنتين من بناتنا، هنَّ هند ومُنَا، عادتا لاكمال دراستهما في جامعتي (هيوستن) و(دلس) ولم أتمالك نفسي

عندما رأيت دموعهنّ تسيل، وأم محمد تحتضنهما أن اعترتني شهقة انهمر دمعي من عينّي بدون إرادتي، فغالبت ذلك بإبداء التجلّد، واظهار عدم التّأثر، ومن نعم اللّه عليّ سرعة تحكّمي بعاطفتي، بحيث استطيع اظهار نفسي بحالة من الحالات تخالف مايضطرب في داخلها، وهكذا كان، فقد غيّرت ذلك الموقف المؤثر بسرعة، بحالة من حالات السرور، بتبادل عبارات المزح مع ابنتنا الباقية معنا، وهي سلوا التي أكملت دراستها متخصصة بعلم الحاسوب (الكمبيوتر) حتى تغيّر جوّ الأسى المخيّم في نفوسنا، ولو ظاهراً، ولكن سرعان ماغمرتني تلك الوحشة، حين عدت إلى الفندق، الليّلة كلّها، مع محاولتي التّغلّب عليها بدخول ناد ليلي، فيه غناء وزفن، وفيه أنواع لهو، ولكنني لم أطق البقاء فيه دقائق. أنا لاأتّهم ذوقي فأصفه بالجفاء، وضعف التّمييز بين الحسن وضدّه، إلاّ أنّني أرى في كثير من مظاهر الطّرب - كالغناء وغيره - في هذه البلاد، ما لا يتلاءم مع الذوقّ، مما لاترتاح إليه النّفس كهذه الأصوات المرعبة المنبعثة من أقصى الحناجر، بنبرات مختلفة، إذ تدخل الأسماع آونة أشبه ماتكون بعواء الذّئب، ثمّ تتغيرّ فجأة إلى صرخة مدويّة تكاد تشقّ طبلة الأذن. ثمّ هذا الزّفن الذي تتضارب فيه الأجسام كتضارب الأمواج، بدون اتساق، وإنما محاكاة لتلك الصرخات المنبعثة من حناجر هؤلاء السّود. انّهم في غنائهم وزفنهم شديدو الشّبه بطائفة من الناس، كانوا يأتون إلى بلادنا للحج - أو غيره - من طريق سواحل اليمن من أفريقيا، وفي منتصف هذا القرن، كان المرء يشاهد أشكالاً منهم يجوبون شوارع مكّة، وبأيديهم دفوف صغيرة، وأجسامهم ليس مستوراً منها سوى العورة المغلظة، وهم يرقصون ويدقّون تلك الدفوف، ويكررون نغمات رتّيبة. لاأزال أحفظ منها: (شندق شنديقا، اي والله) بترقيق اللاّم.

أترى هذا الزّفن الصاخب من رقص ورنّات آلات وأصوات غير منغّمة ولا منسجمة في الأسماع، مما انتقل إلى هذه البلاد من افريقيا، لم لا وأكثر المغنّين عندهم من أهلها!!

كنت رأيت مطعماً قريباً من الفندق، في قائمة طعامه المعروضة على بابه سمك

طريّ، (أبو جلنبو Lobester) في مصر، (والأبِسْتر)في هذه البلاد، وثمن الوجبة نحو أربعة دولارات، فذهبت إليه الساعة العاشرة ليلاً، فلما نظرت قائمة الطعام إذا ثمن الوجبة من لحم ذلك الحيوان البحري - وكنت أستطيب لحمه - ثمانية عشر دولاراً، فطلبت سمكًا، وكان الثمن ثمانية دولارات، فأشار لي النّدل على القائمة بأنه لايوجد الآن سوى الطعام الغالي، فطلبت نوعًا من الفاكهة، فأحضره لي مصبّرا ليس طريّا، وتقاضي مني ثمن وجبة عشاء كاملاً - أي أربع دولارات - في سائر المطاعم - وكما قيل : (مايخلّي الظّلم إلاّ عاجزا!!) كما قال أبو الطّيّب :

والظّلم من شيم النّفوس فإن تجد ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يظلم !

لم أر في هذه البلاد سوى رجل عربي واحد، هو حمّال في المطار من (أريتريا) له خمس وثلاثون سنة، وقد استغربت منه تكلّمه العربية بطلاقة، على طول مكثه بعيداً عن العرب، فقال : إنه يمرّ بهذا المطار كثير منهم، فيحرص على التحدث معهم باللغة العربية. أخبرني أحد العاملين في فندق (شرتون) أنّ رجلاً أعرف أسرته من أهل مكة اعتاد أن يأتي بأهله كل عام فيسكن في هذا الفندق أيامًا.

وأكثر العاملين في المطاعم والفنادق من جزائر الهند الشرقية، بلاد (جاوا) وما حولها، وهم على جانب من الرقّة واللطف، وحسن المعاملة. وأكثر من يرتادها من الأمريكان المتقدمي السّنّ، المترهّلي الأبدان، يأتون جماعات، فتغصّ بهم المجتمعات.

لم نكن أتينا هذه البلاد الفريدة بجمال مظاهرها إلا بقصد المرور بها، لمواصلة السفر إلى بلادنا، وإن كنا أحسسنا فيها بكثير من الراحة، بصرف النظر عن بعض المُنَغِّصات، ولهذا أزمعنا السفر حيث قصدنا.

في بلاد اليابان

في مدينة (طوكيو)(*) : بعد أسبوع مرّت أيامه مسرعة قصيرة (وأيام السرور قصار) كما يقال، وكان السفر من مطار (هنولولو) في صباح يوم الثلاثاء ٢٢ / ٤ / ١٣٩٩هـ (٢٠ / ٣ / ١٩٧٩م) الساعة التاسعة والنصف بتوقيت هذه البلاد، على طائرة يابانية، بعد ترتيب مانحتاج إليه من سمة دخول، وتذاكر سفر إلى تلك البلاد والخروج منها، وحجز في أحد الفنادق في (طوكيو) ومدّة الطيران تسع ساعات كاملة، في اجتياز المحيط الذي اجتزنا جانبه الموالي للقارة الأمريكية من (هيوستن) إلى (هنولولو) في ثماني ساعات.

وكان الوصول إلى مطار (طوكيو) الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني لايوم الثلاثاء الثاني والعشرين منه كما كان مفروضاً، مع أننا لم نقطع من الزمن سوى تسع ساعات، ذلك أنّ الخطّ الوهمي الذي يبتدئ منه اليوم العالمي يبدأ من خط الطول ١٨٠ْ المار بالمحيط الادرياتيكي وقد اجتزناه بعد مجاوزة أرخبيل (هاواي) الواقع على خط طول (١٨٠ْ) غرب (جرينتش) وباجتيازه اجتزنا خط الطول (١٨٠ْ) شرق (جرينتش) فأظلّنا يوم جديد - حكماً لاواقعاً - ولولا هذا لاختلطت الأيام في العالم بدون تمييز بينها، إذ الشمس تجري فتقطع دائرة الأرض (٣٦٠ْ) بمعدّل أربع دقائق للدرجة الواحدة، ولهذا يختلف الزمن باختلاف كل بلاد، ولابدّ لهذا من ضابط.

كانت الرحلة مريحة على طولها، فالعناية بالمسافرين فوق مااعتدناه في كثير من الرحلات، ولاأبالغ إذا قلت بأنني لم أر أرقّ من اليابانيين عند التعامل معهم، وفي غير هذا يشاهد المرء عندهم مايشاهده لدى كثير من الشرقيين من التسرّع في بعض الأمور، ها أنا أقف في الصف للخروج إلى الطائرة، فلن أعدم انسانا يحاول أن يتقدّم عليّ. وعند محاولة أخذ الحقائب بعد الهبوط في المطار تحتاج إلى جهد لكي تحافظ على موقفك أمام

(*) : "العرب" س ١٤ - ص ٦٤١.

ملقي الأمتعة، وأن لاتستنكر وكزة خفيفة من كوع أو مرفق ناعم، ولاتستغرب ارتفاع أصوات من حولك، مما يذكرك إذا كنت ممّن عاش في البادية بضوضاء ورّاد المناهل من رعاة الإبل في الصحراء وقت القيظ. ومن المطار كان الركوب في الحافلة، فالمسافة بينه وبين مدينة (طوكيو) عشرات الأميال، بحيث لاتقل أجرة السيارة عن ستين دولاراً، أما في الحافلة فعشرة دولارات لكل راكب (١٩٠٠ ين) مع حمل أمتعته، والموقف وسط المدينة، ومنه إلى الفندق لاتقل عن هذا المقدار، مع كثرة سيارات الأجرة.

كل مايقع عليه النظر في الطريق إلى المدينة يبدو أضأل مما كان متصوراً عن مظاهر حياة أهل هذه البلاد، ونشاطهم، وتقدمهم بين أمم العالم. وها هي ضواحي المدينة توحي بالكآبة، فالمساكن غير متناسبة، فهذا بيت أشبه بخنّ الدجاج بجوار دار فخمة، وها هي مجموعة من المنازل على نسق واحد، لعلها مساكن شعبية، قد امتلأت نوافذها بالملابس المنشورة، وها هي الورش والمصانع الصغيرة يتخيّل الناظر إليها أن مدينة (طوكيو) العظيمة ما هي سوى ورشة مجزأة، تذكر بما كان المرء يشاهده قبل بضعة أعوام في مداخل مدن بلادنا.

لا يتمالك المرء حين يستمر به السير مسافة طويلة داخل هذه المدينة من أن يصفها بأنها كالحة المظهر، معتمة المنظر، وها نحن قد بلغنا وسطها دون أن يتبين لنا من معالمها ماتتميز به عن أية مدينة من مدن الشرق، فالشوارع ليست واسعة، والأزقة المتعرجة ضيقة، وسير السيارات بطيء من شدة الازدحام في الطرقات، مع كثرة الجسور فوقها، وأصوات القطارات وحركاتها وهي تسير فوق الشوارع العظيمة، تزعج بضجيجها. حتى الأشجار المغروسة يوحي منظرها بالكآبة، فهي أغصان بلا ورق مع إطلالة فصل الربيع.

ها هو الفندق على أحد الشوارع الكبيرة في وسط المدينة، وكان سائق سيارة الأجرة لَبِقًا في إنزال الأمتعة وعدها لنا، ولم يتقاض سوى عشر دولارات.

إنّ داخل الفندق يوحي بأنّ مظهر المدينة لايعبّر عن مخبرها، إنه حسن التنسيق على صغره، وموظفوه في غاية الرقة وكمال الأدب، بدرجة هي إلى النعومة أقرب، وها هو

كل شيء نظيف، فلا تقع العين إلا على مايستهوي النظر، والغرفة – مع ضيقها – قد أعد فيها مايحتاج إليه، حتى الأحذية التي تستعمل داخلها، ولباس النوم، وأدوات تنظيف الأسنان، وآلات الحلاقة، وكلها تغير كل يوم. وفي أحد مطاعم الفندق – ففيه أربعة أمكنة لتناول الأكل على صغره – كان الغداء، ولم يكن للجوع أثر في استطابته، ولم نشأ تغيير مااعتدنا تناوله من الطعام بسرعة، والثّمن لم يزد على ثمن مثله في مدينة (هنولولو) سوى يسيرا.

بعد استراحة خرجت من الفندق الساعة السابعة ليلاً، فلم أر في الأسواق مايراه المرء في المدن في مثل هذا الوقت من الحركة، فالمقاهي والمطاعم مغلقة، والنّاس في الشوارع قليلون، أترى هذا في كل مكان من المدينة، أم في هذه الناحية وحدها؟! اتجهت سائرًا في أحد الشوارع، أتعرّف معالمه لكي أهتدي إلى الفندق حين أعود، وأحاول ألاّ أبعد كثيراً عنه، وكلّ ما انحرف بي الطريق عرجت للناحية التي يقع فيها الفندق، وكثيراً مايستوقفني منظر أعشاب ذات زهور جميلة في مدخل بيت، أو على طول طريق، أو إنسان واقف بجوار صندوق زجاجي يصنع في داخله أقراصًا صغيرة، فيقف عليه أحد المارة متناولاً من تلك الأقراص، فدفعني حبّ الاستطلاع إلى الوقوف عند رجل أمامه مقلاة كبيرة، مملوءة بحبوب سوداء، استطبت رائحتها، وقد صفّ على جانب تلك المقلاة أكياسًا من الورق مختلفة الحجم مملوءة مما بين يديه، فتناولت من أصغرها ماكان ثمنه (٥٠٠ ين) وسرت في اتجاهي، متلذذًا برائحة مابيدي، محاذراً من ابتعادي عن الفندق، فأبصرت على مقربة مني لافتة مضيئة، عرفت من كتابتها أنها مقهى، فذكرت وأنا أصعد إلى المكان درج الفندق وهذا المدخل شبيه بمدخله، حتى هذا الانسان الذي حضر ليسألني عما أريد فطلبت منه قهوة، انه يشبه أحد من رأيت وقت الغداء مع أنني سرت سيراً أجهدني، ولكنه على طريقة (ياحوّيرا، يادوّيرا)!!

لم أصبر فأدخلت يدي في الكيس، فأخرجت منه حبة في فمي، فلم أدر ما هي لصلابة قشرتها حتى هشمتها بأضراسي، فإذا طعمها لذيذ، ذكرني بنوع من النُّقُلِ

يدعى (الكستنا) إلاَّ أنه ليس بحلاوة هذه، ولكنني بعد أن أمعنت النظر فيما في الكيس تبيّن لي أنه هو (الكستنا) أما حلاوة الطعم فلكونه نقع في ماء فيه سكر، ثم قلي بعد ذلك. ولما انتهيت من شرب القهوة، وقمت لأدفع الثمن في الصندوق فوجئت بأنني في المكان الذي تغدّيت فيه من الفندق!!

الجو أميل إلى البرودة منه إلى الاعتدال، وقد قيل لنا ونحن في (هنولولو) : يحسن اتقاء برد (طوكيو) وأنا شديد الإحساس بالبرد، سريع التأثر به، ولاأزال أعاني من زكام حاد أصبت به في مطار القاهرة، في مكان حجزت فيه ثلاث ليال، يدعونه (المحجر الصحي) من قبيل التسمية بالضّدّ، كالمفازة والبصير، للصحراء المهلكة وللأعمى - لأخلد إلى الراحة الليلة.

كان أول ما فكرت فيه صباح هذا اليوم (الخميس ٢٤ / ٤ / ١٣٩٩ - ٢٢ / ٣ / ١٩٧٩م) زيارة السفارة لتسجيل جوازات السفر، فبعد أن قاربت الساعة التاسعة خرجت من الفندق فرأيت شرطيًّا واقفًا، فعرضت عليه عنوان المكان وأنني بحاجة إلى سيارة أجرة (تكسي) فأشار لي بالوقوف في مكاني، وذهب مسرعًا ثم عاد إليَّ بسيارة فتح لي بابها وأطال الحديث مع سائقها، ويظهر أنه يصف له المكان ويحدد الطريق إليه، ولكن السائق - فيما يبدو - لم يكن على درجة كافية من معرفة الجهة، فلم نصل السفارة إلا بعد أن تجاوزت الساعة الحادية عشرة، وبعد أن وقف ثلاث مرات يتحدث في الهاتف، مستوضحًا عن المكان.

والشرطة هنا من أرق الناس أخلاقًا وألطفهم، سألنا أحدهم عن (فندق أمبريال) حيث يوجد هناك مكاتب لخطوط الطيران بقرب الفندق الذي نسكنه، فاتصل هاتفيًا، ثم أخذ ورقة رسم موقع الفندق، وما بيننا وبينه من شوارع، مع طريق السّير، ولم يكتف بذلك بل خرج من مكانه وأشار لنا إلى الجهة التي نريدها. وقيل لنا: إنّ الشرطي في اليابان مضرب المثل في خلقه، وقيامه بواجبه في خدمة المجتمع.

وفي السفارة أرشدت إلى القسم القنصلي المتصل بمكتب السفير، وبعد أن قام أحد

الإخوة وهو الأستاذ أمين أبو زعير من مصر بتسجيل الجوازات، سألته عن السفير فأخبرني بأنه سيحضر قريبًا، ولم أرغب في الانتظار لولا أن الأخ أكرمني فأحضر لي كوبا من (الشاهي الياباني) وعرّفني برجل كان جالسًا عنده إنه الدكتور عبد الباسط السباعي، من مصر، وهو الذي يتولى إدارة المركز الإسلامي والإمامة والوعظ في جامع (طوكيو) إنه (دكتور) في الهندسة كان يعمل في (كلية الهندسة) في (جامعة الرياض) معاراً من (جامعة القاهرة) و(جامعة الرياض) قد أعارته للعمل هنا. لم أستغرب من مهندس أن يتولى رئاسة المركز الإسلامي، فهذه (الإعارات) الثلاث تنفي كل استغراب – وكما قيل:

ليس على اللّه بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

علمت أن السفير هو السيد زين العابدين الدّباغ، وما كنت قبل أن أعلم هذا بالحريص على مقابلته – وتلك عادتي، فأنا أعرف مشاغل السفراء، ولا أستسيغ الأثقال أو الاتصال بمن لاحاجة لي بالاتصال بهم، ولكن السيد محمد طاهر الدباغ – رحمه اللّه – ذو يدٍ عليّ لا أنساها له، بل كان ذا أفضال حين كان مديراً للمعارف، تحدثت عنها في موضع آخر – ومن الوفاء لهذا الرجل الذي خدم العلم في بلادنا خدمات جلّى أن لا ينسى فضله. ومن عدم الوفاء لذلك الرجل حقًّا بل ومن الجفاء أن لا أقابل ابن أخيه السيد زين العابدين.

لقد كان استقبالاً حسنًا، وألحاحًا بالدعوة للضيافة، وعرضا لمختلف أنواع المساعدة، غير أنني قابلت كلّ ذلك شاكراً معتذراً مكتفيا بخريطة مملوءة بصحفنا، فقد قدم العهد بالاطلاع عليها واشتدت النهمة للقراءة وذكرت وأنا أحمل تلك الخريطة قصة شهر ابن حوشب[1].

---

(١) هو عالم جليل هفا هفوة فقيل من أحد الرؤساء صلة، صورها أحد الشعراء بقوله :

لقد باع شهر دينه بخريطة   فمن يأمن القرّاء بعدك ياشهر

وتجد الخبر مفصلاً في كتاب "جامع بيان فضل العلم" للإمام أبي عبدالبر.

وعدت بإحدى سيارات السفارة إلى الفندق، بعد أن أشار عليَّ السيد زين العابدين بزيارة (تيوان) وأمر سائق السيارة بأن يذهب بجوازات السفر لسفارة تلك البلاد للحصول على سمة الدخول فكان ذلك.

لقد بدأت تتكشف لي محاسن هذه المدينة، فهؤلاء القوم الذين قد تنبو العين عن أجسامهم لصغرها، يخفون داخل هذه الأجسام الصغيرة نفوسًا عظيمة، هذا الرجل الذي يساميني طولا حين عرضت عليه عنوان محل لم أهتد إليه لم يكتف بالإشارة إلى ذلك المحل وهو غير بعيد، بل سار أمامي حتى أوقفني عند الباب، وهذه الفتاة - في المطعم - تسرع بفوطة عندما شاهدت آثار الطعام فوق معطفي، فتمسحها بلطف، وهذا سائق السيارة حين يقف بك عند باب المحل الذي تقصده يسارع بفتح الباب لك، بل هذا الشرطي المكلف بحراسة السفارة يكون أسرع من سائق السيارة بفتح بابها.

ثم هذه المحلات الصغيرة من دكاكين ومطاعم ومقاهي، إنها على جانب من حسن التنسيق في مظهرها، وهي في داخلها تتجلى فيها النظافة، والجمال بأبدع صورة.

أمران يضايقان من اعتاد الخروج في الصباح مبكرًا: ملء أرصفة الشوارع بأوعية القمامة حتى تمر السيارات التي تجمع مافيها. ثم القيام بغسل تلك الأوعية في الشوارع أيضًا، ويضاف إلى هذين - بالنسبة لي وحدي فيما يظهر - نعيب الغربان في الصّباح، حين أتوقع أن أسمع سقسقة عصفور، أو تغريد حمامة، وهذه الأنواع الثّلاثة من الطير مألوفة في هذه المدينة، ونعيب الغراب يظهر أن اليابانيين يتفاءلون به، كما يتفاءل الأمريكيون بالبومة بدرجة تحملهم على تعليقها عن العين، والغراب هنا صغير الجسم - كأهل هذه البلاد - ولكنه عريض المنقار، وليس مثلهم بصغر الفم، ولهذا فنعيقه خشن أجشّ. والسائر على الأرصفة عليه أن يكون مفتح العينين، فالطريق ليس للماشي وحده، بل يشاركه صاحب العجلة، وهذا لايتخذ في سيره وجهة واحدة، بل يتجه حيث يشاء، وما أكثر أصحاب العجلات عندما يطيب لمثلي المشي صباحًا، إذ هو

وقت توزيع الصحف[١].

نوعان من الرياضة كنت ألفت القيام بهما: الاستحمام بالماء البارد، والمشي ماستطعت في الصباح، ولكنني حرمتهما طيلة هذه الرحلة، فقد نهاني أحد الأطباء في مستشفى (كليفلند) عن الاستحمام بالماء البارد، حين شكوت إليه ألما وفتورا في متني ويديّ، ورآني طبيب آخر في مستشفى للقلب في (هيوستن)، في الصّباح، وأنا أسرع السّير في أحد أبهاء المستشفى، وقد كتب في ذلك البهو أن من قطعه ١٢ مرة في ١٥ دقيقة منح شهادة بأنه قطع ستة أميال، وأنه سليم القلب، - فنهاني ذلك الطبيب عن الإسراع في المشي. لن أعمل بنصيحتي الطبيبين، ولأجرب هل لايزال جسمي يقوى على الاستحمام بالماء البارد، في هذا الجوّ، وقد كنت أفعل ذلك قبل بضع سنوات، وأنا في البلاد حين أخرج من الفندق أتلذذ بمنظر الثلج قد كسا الأرض، وأحسّ بشيءٍ من الدفء حين يتساقط فوق رأسي المكشوف، قبل أن تبلغ صلعته مبلغ صلعة حبيب القائل:

حبيبي صلعته م الْحَاجِبْ للقفا

حسناً لقد نجحت في التجربة هذا الصّباح، فأحسست بدفء ونشاط ماكنت أحس بهما بعد الاستحمام بالماء الساخن.

أما المشي فقد اهتديت إلى حديقة عامة، بدون قصد، وأنا أنظر في مصور مدينة طوكيو (الخريطة) وها هي لايفصل بينها وبين الفندق الذي أسكن فيه سوى مسافة قصيرة يمكن قطعها باتجاه واحد، وهكذا كان.

عشت تلك الليلة - بمطالعة الصحف - في مسامرة بعض الإخوة من مثقفي بلادنا وكتابها وأدبائها ممن كنت شديد الشوق إلى الاجتماع بهم، من مكة والرياض والمدينة وغيرها من مدن المملكة. هذا أخونا الأستاذ أحمد السباعي[٢] وقد انقطعت أخباره عني منذ بضع سنوات، إنه يخلب السامع بعذوبة ألفاظه،

---

(١) أما في (باريس) نعم (باريس)!! فيضايق الماشي في الحدائق وعلى أرصفة الطرق، العجايز ممن يسرح ويمرح بما معه من الحيوانات التي تلقي بأوساخها وقاذوراتها.

(٢) توفي يوم الثلاثاء (١٧/١٢/١٤٠٤هـ).

ووضوح معانيه، فيخاله وهو يصور مجتمعنا الذي نعيشه، يعيش في عالم الخيال[١]، وها هو مؤلّف في تاريخ المدينة المنورة. يفيض الأستاذ علي حافظ[٢] في وصف ماعاناه ناشره من الجهد، حتى أوشك أن يرى النّور، والحق ان كتاب "التحفة اللطيفة، في تاريخ المدينة الشريفة" فريد في موضوعه، وأن جهد الأستاذ أسعد الطرابزوني جدير بالتقدير.

أما الأستاذ محمد رضا نصر الله[٣] فقد عالج موضوعًا فكريًا معالجة الحذر، والموضوع أعظم من أن يعالج بمثل: (وإذا كان فتح جميع النوافذ متعذرا في مثل هذه المرحلة الراهنة من عمر التنمية والتمدّن فانني أرى أن نفتح نافذة واحدة – على الأقل – من خلال التوسع في إقامة المعارض الكتابية)!! ولماذا وقد فتحنا (أذرعتنا السياسية والاقتصادية للعالم) لانفتح ذراع الثقافة، التي هي للجسم بمنزلة الرأس أو القلب – كما يعبّر الكاتب اللّبق.

ويأتي دور (الناقد البصير) فقد ذكرني حديثه عن (الشاعر القدير) – ولاأقول نقده بمثل (حنشولي نوفل، إن قلت ابن حلال فهو ابن حلال، وان قلت ابن... فهو ابن...) ومعذرة لحبيبنا (الحزميّ) فقد ينساب في الاغراب حتى (يستبطن) بعد أن كان (ظاهريًا)[٤].

وخبر طريف يرويه أحد الإخوة: لقد صدر للقاصٍ السعودي المعروف غالب أبو الفرج رواية طويلة بعنوان "المسيرة الخضراء". عن حرب الصحراء الأسبانية – ولاطرافة هنا ولاغرابة – ولكن أين؟ لقد صدرت في (باريس)!!

وعلمت بقرب موقع (المكتبة العامة) من الفندق، وكنت بعيد العهد بالكتب والمكتبات:

---

(١) "المدينة المنورة" ع (٤٥٤٠) (قصة قصيرة: عندما تخطيء الجماهير).

(٢) توفي عام ١٤٠٨ (١٩٨٨م).

(٣) "الرياض" ع: (٤١٨٠): (افتحوا هذه النافذة).

(٤) "المدينة المنورة" ع: (٤٥٣٩): (الفنون الصغرى) والكاتب أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري.

وذو الشّوق القديم وإن تسلّى   مشوق حين يلقى العاشقينا

لقد بكّرت بكور الغراب، ولم أجد كبير عناء في الاهتداء إلى موقعها فهي بجانب الحديقة التي زرتها أمس، ولكن الباب لايزال مغلقًا، والساعة أوفت على الثامنة. لأنظر إلى أين ينتهي هذا الجانب من الحديقة، سائرًا كيف شئت، فليس أمامي سوى الحمام الذي سيفسح لي الطريق مادمت لاأنثر له في الأرض طعامًا. هذا مكان معدّ للجلوس، أمامه حوض طويل ممتلئ عشبًا مزهرًا، ولون الزهر مختلف، منه أبيض، شبيه بزهر الأقحوان، حتى عشبته كعشبة الأقحوان، فهل يكون طعمها مرًّا مثل طعم ذلك النبّات؟ وهذه الزهرة أشبه ماتكون بزهرة الحنوة، ليتني أعرف لغة هذا الرجل الذي يقصّ بمنجله أغصان الشجرة القريبة مني والذي يصوّب إليّ نظراته، وأنا ألمس العشب بمنتهى الرقة - لكي أسأله عن أسماء هذا النبات! . استهواني جمال المكان حتى تجاوزت الساعة التاسعة فأسرعت العودة، فوجدت الباب مفتوحًا، فلم يستوقفني ما في المدخل من مصورات جغرافية، وصوانات - يظهر أنها تحوي فهارس - بل صعدت الدرج، واتجهت إلى باب مفتوح يتجه إليه أكثر الصاعدين، فإذا به مكان واسع مملوء بصوانات الكتب، في مدخله فتاة واقفة، فتردّدت في دخول المكان، ولكنها انحنت وأشارت بيدها لكي أدخل، ففعلت، ولكنني رأيت كل داخل يتناول كتاباً من احد الرفوف، ثم يأتي به إليها، ويظهر أنها تتولّى تسجيل الكتب، فأفهمتها بالإشارة أنني أبحث عن كتب عربية، فقربت لي كرسيًّا لأجلس عليه، وخرجت، وبيدها كتاب صارت تتفحصه، ثم نقلت منه في ورقة عنوانًا عرفت - فيما بعد - أنه مركز للدراسات الآسيوية والإفريقية ولم يفتها أن تكتب لي ورقة ثانية بوصف طريق السّيارة إلى تلك الجهة.

أسرعت العودة إلى الفندق، فعلمت أن ذلك المكان بعيد، لاتقل أجرة السيارة إليه عن خمسين دولارًا، ومسافة السير تقارب الساعة، وكان الدكتور السباعي رئيس المركز الإسلامي قد وعد بأن يتصّل بي، وأن يُهَيِّئَ لي الاجتماع ببعض المعنيين بالدراسات العربية، فكنت أتوقّع منه ذلك.، ويبدو أنه نسي، أو تناسى.

تدعى الناحية التي يقع فيها الفندق من المدينة (جنزا) على مقربة من محطة السكة الحديد، ويظهر أنها أقدم موقع في هذه المدينة، فهي لاتبرز صورة تامّة لها، لقد شاهدت ليلاً شوارع عظيمة واسعة، حين ذهبت في سيارة أجرة لمحل غير بعيد عن الفندق، حيث تقع أكثر مكاتب خطوط الطيران العالمية، تزدان إحدى واجهاتها بكتابة عربية، والحروف اللاتينية مستعملة مع الحروف اليابانية، وقد يستعمل احداهما دون الأخرى، والذي يحسن اللغة الانجليزية لاتعوزه لغة أخرى.

وها هو صباح يوم الأحد ولا رغبة لي بقضائه في التّجوال في إحدى الحافلات لمشاهدة معالم المدينة، مع جماعة من النّاس أحسّ بينهم بإحساس المتنبي:

ولكنّ الفتى العربي (فيهم) غريب الوجه واليد واللسان

الشّوارع اثر مطر طوال أمس، ويظهر أن عمال التنظيف يستريحون هذا اليوم، فيتركون كل شيء في مكانه إلى صباح الغد، وها هي قد بلغت التاسعة وأنا حين أدير بصري فيما حولي من الأمكنة لاأشاهد إلا من يقوم باصلاح خلل أو تجميل مدخل، أو تغيير أنبوبة ماء أو غيره في بعض المحلاّت.

إلى الحديقة العامّة فهناك سأجد جنسين من المخلوقات لا أرى غضاضة في معايشة أحدهما برهة من الزمن، الحمام أو الأطفال.

حين زرت إحدى الحدائق العامّة في (هيوستن) في مثل هذا اليوم كدت لاأجد لي طريقًا عند بابها من كثرة الزائرين، وها أنا أقبل على هذه الحديقة فلا أبصر حولها أحداً، ثم أدخلها فإذا هي خالية إلا من بعض العاملين فيها، وعلى بعض الكراسي قليل من الناس، يتصفحون كتبًا أو صحفًا، حتى محل بيع الأشياء التي يحتاج إليها رواد الحديثة، لايزال مغلقًا، ماأكسل هؤلاء الناس، أو ماأجهلني بأحوالهم، يوشك النهار أن ينتصف وهم أحلاس بيوتهم!! أترى العمل أجهدهم طوال الأسبوع فأمضوا الليل في لهوهم وقصفهم فاعتادوا الاخلاد إلى الراحة إلى هذا الوقت؟!

هذه بحيرة يعوم فيها البطّ، وهذا الماء الشديد الزّرقة أهو عذب أم ملح؟ خلعت

حذائي، ونزلت مع درج في البحيرة، فلما مددت يدي لتناول الماء إذا بطة كبيرة تسبح مسرعة، فاتحة فاها الواسع نحو يدي، فكنت أسرع منها بكفها. فاكتفت بمد رقبتها نحوي، مخرجة من حنجرتها الطويلة الواسعة صوتاً أثار فضول رجل على مقربة مني، فدنا، وأشار إليّ بعدم النزول في الماء، وهو يبتسم، ولاأدري على م ابتسامه، ألخوفي من أن تلتقم البّطة يدي؟ أم لنزولي إلى الماء لأذوق طعمه، ظانًّا أنني ظمآن، وصنابير المياه العذبة الصّافية منتشرة في كل جوانب الحديقة، وها هو صاحب المحل الذي يبيع المشروبات على اختلاف أنواعها غير بعيد، وقد فتح محلّه، فاجتمع حوله عدد من الأطفال، وها هي أسراب الحمام تحوم حولهم متطلعة إلى ماسينثرون لها من الحب:

تسقط الطّير حيث تلتقط الحـــ ـــبَّ، وتغشى منازل الكرماء

تناولت كوبًا من الشاهي المرّ، وهو مانسميه الأخضر، وفي المغرب (أتاي) واليابانيون لايحلونه، ويظهر أنه يساعد على الهضم فهم يتناولونه بعد الأكل.

ها هو رجل يكبرني سنًّا، إذا كان بياض شعر رأسه حقيقة لازيفا، فمن يدري فقد يكون من بين الناس من ألف البياض فصار ينفر من السواد - على رأي المتنبي - انه يشارك هؤلاء الأطفال من لهوهم فيشتري كيسًا من الحبّ، ويجلس على أحد الكراسي، ثم يبدأ بملء يده من ذلك الحبّ فيتهافت الحمام حوله، وقد يقع بعضه على يده، أو يخطئ في الوقوع فيكون فوق رأسه، ولكنه ليس أصلع مثلي، حتى العصافير التي تُعَدُّ من أشدّ الطير حذراً، انها تقع على مقربة من ذلك الرجل، لتشارك الحمام في التقاط الحبّ، وهي من النوع الذي نعرفه في بلادنا باسم (كحالي) أي أكحل الرقبة، والحمام (خضاري) والأبيض بينه قليل أمّا الغربان فنعيقها لاينقطع، وهي تطير متنقلة بين فروع الأشجار الطّويلة.

جلست فوق كرسي يجلس على جانبه انسان يطالع صحيفة، بعد أن أتيت بكيس حبّ من المحل، ووضعته على الكرسي بعد أن ملأت يدي منه، ودفعني الفضول إلى أن أتطلع إلى عناوين صحيفة الرجل الذي بجواري، إذ رأيته كأنه يقرأها والكتابة مقلوبة،

فلم أشعر إلا بسرب من الحمام ينتشر على مقربة منّي، وقد أسقط الكيس على الأرض وظلّ يأكل مافيه، فتسلّيت بوقوع بعضه فوق يدي لالتقاط مافيها حين فتحتها، متجلدا على ماأحسست من وخز بعض البرائن الحادّة، محاولاً أن أقربها من العصافير، لكي تقع عليها، فلم تفعل.

شغلت بهذا النّوع من العبث حتى حان وقت الغداء - والحياة الدنيا عبث ولهو وزينة، وتفاخر وتكاثر!!!

ليست مدينة (طوكيو) كما تبدو للمرء في أول وهلة، فقد أبصرت في طريقي إلى السفارة ميدانًا واسعًا متصلاً بهذا الشارع الذي يقع فيه الفندق، فليكن اتجاهي إليه بعد أن أعود من الحديقة في صباح هذا اليوم - الاثنين-.

أتراها كقرية النّمل، تبدو للناظر ثقوبًا ضيقة صغيرة في ظاهرها، ولكنّ باطنها في غاية من التنظيم؟! وهؤلاء القوم الذين لايفرق المرء بين كبيرهم وصغيرهم، فالأجسام متماثلة، انهم في حركة دائبة، كلهم، كالنحل، أجسام تنبو عنها العين، وأعمال تحيّر العقول.

ها هو الميدان الذي مررت به في الأمس، لاأبالغ إذا قلت بأنني لم أر في مدينة (واشنطن) ميدانًا مثله، سعة وكثرة حركة، وهذه المتاجر التي يكاد يضلّ المرء عندما يسير في جوانبها أو أدوارها.

وبعد فمن أنا؟ وما هي مقدرتي في الكتابة والوصف حتى أستطيع أن أصور للقارئ طرفًا مما شاهدت من مظاهر الحياة في هذه المدينة التي ألفت عنها المؤلفات الكثيرة.

يومـان فـي (تيـوان)

وبعد رحلة استغرقت من مطار (طوكيو) إلى مطار (تايبي) ثلاث ساعات ونصفًا أحسست بأن كل مأأراه في هذه البلاد متغير، هذا المطار على سعته لاحياة فيه تتلاءم مع مظهره، حتى موظفيه، أشبه بحديثي اليقظة من النوم. ثم هؤلاء الذين يستقبلونك عندما تخرج من المطار زرافات ووحدانا ماشأنهم؟ يظهر أن هذه البلاد من الناحية الاقتصادية تشبه (اسبانيا) فالمرء عندما يصل محطة (مدريد) قادمًا بطريق البّر لايكاد يتخلص ممن يحيط به من الناس، هذا يريد حمل أمتعته، وهذا يعرض عليه إرشاده إلى الفندق، وذلك يبدي استعداده للأمرين، وهكذا كان حتى ضقت بكثرة من أحاط بنا، وصرت ومن معي نتحامى أولئك، لئلا نفقد شيئًا من أمتعتنا، حتى حملناها في إحدى الحافلات لا إلى الفندق الذي سنسكنه ويدعى (شينا هوتيل) - فندق الصين - ومسافة سيرنا من المطار حتى بلغنا مشارف المدينة (تايبي) قاعدة هذه البلاد في أرض خضراء، تغمر بعض مزارعها المياه، بين جبال وآكام تزدان بالأشجار والأعشاب المزهرة، ورذاذ المطر يتساقط على زجاج السيارة فيحجب الرؤية في بعض الأحيان، ولكن السحاب ليس كثيفًا فها هو قرص الشمس يبدو حينًا من ورائه، وأحيانًا ينحسر السحاب عنه.

هما يومان استطلناهما منذ بلغنا المدينة التي ذكرتنا بكثير من المدن التي عشنا فيها، كالقاهرة ودمشق، وموقع الفندق على مقربة من وسط المدينة، والأسواق مزدحمة بالنّاس، وأنوار المحلات خافتة، وكثير منها مظلم أو مغلق، حتى أرصفة الطرقات لايجد الماشي فيها ممرًا مأمونًا من ازدحام المارة، بل من كثرة الدراجات المصفوفة. وراكبوها يسابقون أصحاب السيارات، ولايخضعون لقواعد المرور، وويل للماشي إذا لم يكن متجهًا بنظره نحو الجهات الأربع، ومن ذا الذي يقدر على هذا؟ وعلى ماهو أصعب منه، وهو خفّة الريش وسرعة الريح في اجتياز الشارع!!

ها هي الحافلة وقفت بنا عند فندق (هلتن) وها هو الفندق الذي نقصده نراه رأي

العين، أمّا الوصول إليه فلابدّ من دفع مئة دولار كاملة، أجرة سيارة تحملنا. اننّا لانزال في منطقة الدولار، ولكن الفرق في المقدار فستة وثلاثون دولارًا صينيًا (وطنيًا) تماثل دولارًا واحدًا (امريكيًا).

وهذا الفندق الذي سندفع أجرة غرفة فيه تماثل مادفعنا للفندق الذي قبله في (طوكيو)[1] على ضخامة مظهره تكاد تنقبض النفس عند دخوله، حسنًا فما دام المرء سينام فوق سرير نظيف، فليغمض عينيه عما عدا ذلك، والصباح رباح.

ومُبْلغ نفسٍ عذرها مثل منجح

فقد بقينا نحو السّاعة نستجدي موظفة حجز الغرف في فندق (هلتن) غرفة – أية غرفة بأي أجر – فاعتذرت، ووعدت بعد يومين!! وما أطولهما – فيما يظهر – في هذه البلاد!! انها الساعة السابعة بتوقيت (طوكيو) السادسة بتوقيت (تايبي) فإلى (المقهى) في فندق (هلتن) حتى يحين وقت النوم.

ومضى الوقت أسرع مما أتصور، وما كان طبق الفاكهة الذي قدم إلي بالجودة التي عهدتها فيما اعتدت تناوله في الفندق الياباني – أو هكذا تصورّت – والنّاس هنا ذوو حركات ونظرات مقلقة، حتى خدم الفندق – فندق (هلتن) – لهم أعين تتركز على (الزبون) المرغوب فيه – على مايبدو – مالنا ولهم! لقد أخذ مني التعب مأخذه، وها أنا بحاجة إلى الراحة، فقد اعتدت النوم في الوقت الذي أمضيته في الرحلة.

والعادة هي هي – القيام من النوم مبكرًا، والاستحمام بالماء البارد، ولكنه في هذا اليوم ليس باردًا فهو فاتر، فالجو هنا لاحر ولاقرّ، وماتضايقت مما علي من اللباس – في جميع أيام الرحلة، كالليلة الماضية، فخففته في الصباح، ولكن كيف استطيع السير بين ازدحام أصحاب الدراجات، وهم – كما ذكرت – خفيفو الحركات بدرجة مذهلة، لأدور حول الفندق بدون أن أجوز شارعًا، أو ألِجَ مَمَرًّا، ها هي حديقة لايفصل بيني

---

(١) انها ٩٥٠ دولارًا لغرفة واحدة ذات ثلاثة سرر (الدولار الأمريكي ١ / ٣٥ من الدولار الصيني يوم سفرنا وتضاف الخدمة ٪).

وبينها سوى شارع واحد، وهؤلاء أناس يتحفزون لاجتيازه، فلأنغمس في غمارهم، وكما قيل: (لاتبك نفسك عاشر عشرة).

وفي داخل تلك الحديقة قصر تعلوه قبة، حول بابها المغلق خليط من الناس من رجال ونساء، تبدو منهم حركات غريبة، على نسق واحد، ينحنون معًا، ثم يمدون أيديهم، ويحركون أكفهم تحريكًا أشبه بحركة رؤوس الوز عند مشيه، لعل التطلع إليهم مما يثير استغرابهم، وفي الحديقة متسع، كما يبدو من كثرة داخليها، ها هو ميدان واسع للعب الأطفال، مملوء بالأراجيح والمزالق، وها هي بحيرة فوقها جسر يمر الناس فوقه، ولكن ماذا يفعل هؤلاء؟ كل من هنا يمارسون أنواعًا من الحركات غريبة ومختلفة، من انحناء وهز رؤوس، ووسط أجسام، وتحريك أيد وأرجل، بمدّ أو قبض، وغير ذلك من أنواع الحركة، أبرز مميز لها أنها بهدوء وتأن، حتى أراجيح الأطفال مملوءة بنساء ورجال، حسنًا، لقد اعتدت أثناء المشي في الصباح الإسراع مع تحريك بعض أجزاء جسمي، حركات قد يعتبرها ذوو الفضول شاذّةً، غير لائقة، فكنت أتحاشى فضولهم في بعض الحالات، حين أسير في غير الأمكنة الخالية. والآن (جاك يامهنّا ماتمنّى)، إنني بين أناس لن أفعل غريبًا بينهم، والمكان على جانب من السّعة يُهَيِّئُ لي المشي كما أشاء، وأن أحرّك من أجزاء جسمي ماأريد تحريكه، بعيداً عن أعين الفضوليين الذين ولو رآني أحدهم لوصفني بالجنون (اللّه يخلف عليه عُقَيْله)!!

ساعتان لم تمضيا في المشي، ولكنني كثيراً ماأقف، فهذا تمثال ضخم لرجل طويل اللحية وليس كثّها، ذو ملابس فضفاضة، انه يشبه صورة (كنفشيوس) ولعل هذه القبة من معابده.

وهذه شجيرات قد أبدع في تنسيقها، فبدت زهورها المختلفة الألوان، تكاد تقسر الأبصار قسراً حتى تتعلق بها.

وهؤلاء أناس مع كل واحد منهم قفص بداخله طائر لولا ارتفاع تغريده لما أبصره الرائي، قد جلسوا تحت أشجار عالية، فوقها طيور تغرّد، فتجاوبها الطيور التي في الأقفاص.

ومظهر هؤلاء القوم ينمّ عن بساطة أو فقر، فعندما ينتهي بعضهم من حركاته يجلس على أحد الكراسي فيخرج من جيبه أو حقيبته لفافة صغيرة، يأكل مابداخلها، وليس في الحديقة مايباع سوى الزهور أو الطيور، قد أحضرت من خارجها، إن لم تكن أحضرت لتعلم التغريد، أو للاستنبات.

وباستثناء من تزخر بهم الفنادق، والأمكنة التي يرتادها السُّيّاح؟ فالقوم أقزام، صفر الوجوه أو سمرها، نقر العيون، فطس الأنوف، ذوو جلبة وأصوات مرتفعة حين يجتمعون، ولايجد المرء بينهم من الرقة وكلمات المجاملة مايجده في اليابانيين. والمقاهي والأزقّة الصغيرة ممتلئة بالجالسين، مما يدل على قلة الأعمال في هذه البلاد، وقد اتضح لي هذا جليّاً حين ذهبت هذا الصباح إلى السفارة، فقد رأيت داخلها أناسًا لم أعتد رؤيتهم، وعلمت أنهم طلاب سمة دخول في بلادنا للعمل.

وتقع السفارة في إحدى ضواحي مدينة (تايبي) وتمتاز هذه الضاحية بالمباني الحديثة، والشوارع الواسعة، بل بجمالها، فأرضها تنتشر فيها الحدائق، وسفوح الجبال الممتدة بامتداد تلك الضاحية مكسوة بالخضرة، وكل الأرض - بامتداد البصر - خضراء، كثيرة المياه الجارية.

وقابلت في السفارة الأخ الكريم أحمد علي أبو عَشّي، من بلاد عسير، وحسبك بأهل هذه البلاد لطفًا وحسن استقبال، وتربطه بالصديق الأستاذ عبد الله بن علي بن حُمَيِّد - رحمه الله - صلة صهر ونسب، ومنه علمت بوفاة ذلك الصديق، ولاداعي لابداء الحزن، وان كان فقد مثله مما يحزن، ولكن مما يبعث في النفس بالغ الأسى أنني لم أقرأ في صحفنا كلمة رثاء لهذا الفقيد، الجدير بأن يشاد بما له من علم وأدب وفضل، فهو بالنسبة لذلك الجزء الحبيب من وطننا من روّاد الأدب والبحث والاهتمام بالدراسات التاريخية، بل لم أعرف من يساميه فضلاً في ذلك بين أهل تلك البلاد[1]،

---

(١) وقد أدرك ذلك الأستاذ الدكتور محمد عبده يماني حين كان رئيسًا لجامعة الملك عبدالعزيز، فكان من بين الأوائل الذين منحوا نوط التقدير، من أدباء البلاد ومفكريها.

وكـان ممن تصـدّى لكتـابة القـسم المتـعلق بهـا من "المعـجم الجغـرافي للبـلاد العـربيـة السعودية" غير أنه فقد بعد وفاته، لقد عرضه علي وقد رتب القرى والأماكن المأهولة على أسماء سكانها من فروع القبائل، والأسر الكبيرة، فرجوت منه ترتيب الأسماء فيه على المواضع، مع الإشـارة إذا كـان الموضع يسـمّى باسم سـاكنه إلى ذالك، فـعـاد به لذالك، ولم تمضي فترة قصيرة حتى توفي – رحمه الله – فاتصلت بابنه الأستاذ محمد – رئيس نادي أبها الأدبي، فكتب إلي بأنه لا يعرف عن هذا الكتاب شيئا، ولم يوجد مع كتبه وأوراقه، وللأستاذ عبد الله بن علي كتابات تتعلق بهذا الجانب نشر بعضها في مـجلة "العرب" : لاأقول: ماأقل الوفاء في هذا الزمان، بل ماأعظم النّسيـان بين أهله!! لقـد ذكـرت مـاجـرى لشـاعـر مـصـري عـاش في بلادنا زمنًا، ومـاكـان بالخـامل الذكـر ولابالمغمور، ثم عاد إلى بلده القـاهرة، وكان يسكن في فندق يدعى (نيتاكريس) إن لم تخني الذاكرة، فأنا أعرف موقعه بالقرب من شارع فؤاد – وليس هذا مهمًّا، ولكن قراء "الأهرام" علموا بعد ثلاثة أيام بوفاة الشاعر أحمد فتحي من خلال كلمات حزينة بقلم (الملاّخ):

مساكين أهل العشق حتّى قبورهم عليها تراب الذّلّ بين الخلائق!!

ربّ فرحة تعقبها ترحة، فقد كنت في طريقي إلى السفارة يطغى على نفسي من بواعث السرور والبهجة برؤية مافي تلك الضاحية من جمال ما لا استطيع وصفه، وها أنا أعود من حيث أتيت ولكن بشعور غريب، جعلني في حالة من التّأثر والقلق، بحيث لاأبصر – فيما حولي من مظاهر الجمال الرائع – سوى مايجدد في نفسي بواعث الحزن والشّجن، وماأقسى فقد الأصدقاء!! وما أعظم ما يحدثون في نفسي من الأسى!! وما أكثر من فقدتُ منهم، ولولا ما يعتري المرء من تغيُّر الحالات لتصورت أنني فقدت أصدقائي جميعاً !

إلى هنق كنق : (Hong Kong)(*)

الساعة الآن الثالثة، بعد الظهر من يوم الخميس ١ / ٥ / ١٣٩٩هـ ٢٩ / ٣ / ١٩٧٩م ولاحركة خارج مطار (تايبي)(١) . هذه ثماني سيارات فخمة، هي كل ماعند باب المطار من السيارات إنها كلها تحمل علم بلادنا مع العلم الصيني . لقد علمت من الأخ أحمد علي أبو عَشّي زيارة وفد عسكري سعودي لهذه البلاد . فهل هذه سيارات ذلك الوفد؟ حتى سائقوها لايدرون؟! أو يتجاهلون، وماذا يعنيني من أمرها، لولا أنّ لهذا العلم الأخضر في النفس مايثير فيها غريزة حبّ الاستطلاع، مظهر التنظيم والتعمير في هذه البلاد لايقف على حدّ مايشاهده المرء في هذا المطار، بل هو شامل، وباستثناء وسط المدينة، فالشوارع واسعة والجسور الكثيرة تتقاطعها وحركة المرور منظمة .

وعندما شارفت السّاعة الرابعة بل زادت حضر موظفو (الطيران الياباني) .

من الخير للمرء بعد مغادرة اليابان أن يختار من الفنادق مااستطاع الاختيار، وأن لايرتاد أيّ مطعم كان ما لم يطمئن إليه، لقد طلبنا حجز غرفة في (هلتن) أو في أحد الفنادق المماثلة : وهاهو موظف الطيران يظهر لنا أسفه لعدم وجود محلٍّ في ذلك الفندق، ويقول بأن الفنادق في (هنق كنق) كثيرة في تلك البلاد، ومن السهولة بمكان اختيار الفندق بعد الوصول إلى تلك البلاد، غير أنني سمعت أخباراً كثيرة عن ازدحام الفنادق هناك، بل قرأت ماكتبه أحد الإخوة : (إن بعض القادمين إلى هذه البلاد ينامون في صالات الفنادق أو يعودون إلى المطار ليسافروا بعد أن فشلوا في الحصول على مأوى لهم في (هونج كونج) مع كثرة فنادقها فإنها لاتكاد تخلو فيها غرفة على اختلاف مستوياتها، مما يؤكد ضرورة الحجز فيها قبل السفر إليها بما لايقل عن أسبوع) .

(*) : "العرب" – س ١٤ – ص ٨٠١ .

(١) رأيت هذا الأسم مكتوبًا في صحيفة تصدر في المدينة باللغتين العربية والصينية مكتوبًا بالعربية (تايبه) وبالحروف اللاتينية (Taipei) وتلك الصحيفة تدعى "لسان الحق" تصدرها الجمعية الإسلامية الصينية) رئيس التحرير (الحاج داؤود ينجونس) .

كان الأخ أبو عشّي نصحني بالسكني في أحد فنادق ثلاثة سماها لي، وأن يكون حجز المكان مقدّمًا، فقد لاأجد فيها مكانًا خاليًا عند الوصول إليها. لم يبق على السّفر إلا نحو الساعة! فكان الاتصال بالأخ أبو عشّي وبواسطته انحلّت مشكلة الفندق، ففي المطار سنجد سيارة تابعة لفندق (الحياة) لنسمه بهذا الاسم أما اسمه فهو (حيات ريجنسي هونغ كونغ Hyatt Regency Hong Kong).

وفي هذا الفندق سنجد شخصًا سماه لنا أخونا أحمد، وقد تعهد له بتهيئة مكان لنا في هذا الفندق أو غيره.

كان استقبالاً كريمًا من ذلك الشخص، وها هو المحلّ في الفندق، إنه يسع الأسرة كلها لو كانت معنا. انه جناح متعدد الأمكنة، لم أعتد السكنى في مثله، بل لم يحدث لي ذلك سوى مرة واحدة (مكره أخوك لا بطل) فقد قدمت مدينة (باد قود سبرج) في ألمانيا في (شهر ربيع الثاني ١٣٨٠هـ تشرين الأول ١٩٦٠) فأنزلني أحد الإخوة في (فندق دريسن رين) وقد خجلت عندما رأيت المكان، ثم بعد ذلك عرفت أن (هتلر) كان يجتمع ببعض مشاهير ساسة عصره في المكان الذي حللت فيه، خجلت من أن أطلب مكانًا ملائمًا وكما قيل: (إذا عزمت بك فانتخ) وهكذا كان في الحالتين وفرق بينهما. فما قبل خمسين عامًا لم أدفع أجرة للسكنى في ذلك المحل (التاريخي) سوى سبعة عشر من الماركات الألمانية، والآن تتجاوز أجرة السكن الليلة ١٥٠٠ دولار صيني بما يضاف إليها (أي أكثر من ٣٠٠ دولار أمريكي) مما ذكرني بما حدث لي قبل عشر سنوات، فقد كنت في (مدريد) فاحتاجت أمّ محمد إلى مراجعة أحد الأطباء، فأفضل السفير الكريم الأستاذ فيصل الحجيلان بإرسال أحد موظفي السفارة في سيارتها معنا إلى الطبيب، ليتولى الترجمة وكان جزائريًا – ولايزال يعمل في السفارة – فأحال الطبيب أمّ محمد لطبيب آخر يتولى تحليل الدم، ورفض قبول أجرة الكشف لأن أصله – على ماقال لنا أخونا الجزائري – عربيّ – ولما عرض علينا عليه نتيجة التحليل وكتب لنا، الدواء طلب مبلغ مئة دولار!! – أجرة الكشف – فقط

مئة!! ولما أردنا التفاهم مع أخينا الجزائري رأينا من الخير لنا عدم الكلام و(اذا وقعت يافصيح، لاتصيح) . وقال لنا أخونا عبد المحسن السمّان وكان يعمل في السفارة- : تذهبون في سيارة السفارة، مع مترجم السفارة، أربع آبار (بترول) في كل جيب من جيوبكم بئر، فكيف تستكثرون مئة دولار!!

لقد قدّم لنا ساعة دخولنا الفندق مايقدّم للضيف العزيز، النازل في كنف محب كريم، القهوة والشاهي، وأنواع الفاكهة، والحلوى!! وحفّ بنا المضيفون من كل جانب، وكنت أثناء الرحلة وهي ساعتان (٧٥٠ ميلا) قد أحسسن بصداع وفي حاجة إلى الراحة، فكررنا عبارات الشكر، مع التلميح بأننا لسنا بحاجة إلى شيء، فلم يكف التلميح، فاضطررنا للتصريح، وبعدم الحاجة إلى بقاء أحد عندنا .

وفي الصباح (راحت السكرة وجاءت الفكرة) وكنا عندما مررنا بمكان الحجز في الفنادق في المطار، علمنا بوجود أمكنة في (هلتن) وفي غيره، ولكننا فضلنا الفندق الذي ساعدنا الأخ أبو عشّي بالحجز فيه، غير أنّ أجرته - بالنّسبة لما قدرناه لكل الرحلة من نفقة - لاتتلاءم مع حالتنا، فكان الانتقال إلى غرفة ذات ثلاثة أسرة، بثلث تلك الأجرة، وفي الفندق الذي حللنا فيه، ولم أنس تسجيل كلمة استحسان لهذا المنزل الجميل (الجناح) في الدفتر المخصص لذلك، وقد شغلت منه تواقيع أناس كثيرين صفحات كثيرة، ومن بينهم من حباه الله بسطة في المال فارتفع بها درجات .

هذه الأنوار التي بهرتنا حين أقبلنا على المدينة، وحين سرنا في الطريق إلى الفندق، إنّها تذكّر بمدينة (باريس) ولكن المدينة فيما يبدو صغيرة، ولتقارب المحلات برزت قوية الإضاءة، وقد اتّضح هذا حين خرجت صباحًا - كعادتي - ها هو البحر على مقربة من الفندق، وها هي حديقة فوق تل مرتفع، يتوسط المدينة، وليست خالية كالحديقة التي رأيتها في (طوكيو) بل مملوءة بالناس في هذا الوقت المبكر - قبل الساعة السابعة صباحًا - والرذاذ يتساقط من السحاب، مما اضطر الناس إلى التجمع تحت الأمكنة المسقفة، ثم انقشع الغيم فجأة فانتشر الناس في جوانب الحديقة رجالاً

ونساءً، وها هم يمارسون حركات رياضية شبيهة بما شاهدتهم يفعلون في (تيبي) .

وفي العودة خرجت من باب لم يكلفني النزول من ٦٤ درجة صعدتها لأبلغ قمة التَّلِّ الذي تنتشر الحديقة على جوانبه، وفوقه .

البلاد مستعمرة بريطانية[١]، ولهذا فأسماء الشوارع مكتوب بلغة الانجليز، والعملة تحمل صورة ملكتهم . وهذا الشارع أطول شوارع البلدة ان لم يكن أعظمها يحمل اسم (Nathan) .

وهذه كتابة عربية فوق مدخل هذا المكان في سفح التلِّ، إنها كلمة (الشهادتين) وتحتهما : (مسجد كولون) الباب مفتوح، وهو بيت من بيوت اللّه، وهذا رجل مستغرق في نومه في الداخل في محل ملحق بالمسجد، يظهر أنه لاعهد له بالتنظيف، منذ أيام، ثم بركة صغيرة أعدّت للوضوء، وبجانبها مراحيض، وسرحة المسجد متصلة بها، مفروشة بنوع من الحصير، ثم في قبلتها باب كبير مغلق، وخوجة استطعت أن أفتحها بعد معالجة، ومنها دخلت المسجد، إنّه واسع، ونظيف، وفراشه حسن، وبجوار منبره عدد من المصاحف .

لم أر للمسجد منارة، إن أرضه واسعة، ولكن الأمكنة الملحقة بالمسجد منها أظهرته بمنظر مزر، لعدم نظافتها، ولحاجتها للإصلاح والتَّعمير.

سآتي ظهراً إلى المسجد، فقد حرصت حين كنت في (تيبي) أن أذهب إلى المسجد الموجود فيها، فقال لي الأخ أبو عشي : إنه لايفتح إلاّ يوم الجمعة، بعد أن ينتهي النّاس من أعمالهم الساعة الثالثة، وذكر لي من أحوال المسلمين في هذه البلاد مايدعو للاستغراب ولاسيَّما حين يقارن بما تقوم به كثير من الجهات في بلادنا في سبيل الاهتمام بأمر المسلمين، وكان السيد زين العابدين الدّباغ سفيرنا في اليابان والصين وكوريا – حدثني بأمور غريبة عن عدم التناسق بما يبذله المعنيّون بالشؤون الإسلامية من مساعدات تكون قليل الجدوى، إن كان لها جدوى .

---

(١) وقد انتقلت إدارتها إلى السيادة الصينية عام ١٤١٨هـ (١٩٩٧م) وأصبحت خاضعة لها .

إننا في بلدة تدعى (كـولون Kowloon) أمـا اسم (هونج كنج[1]) فـيطلق على مدينة أخرى في جزيرة تدعى بهذا الاسم، الذي أطلق على قسم واسع من بلاد الصين.

وحبّذا لو وحدّت الهيئات والجهات التي تقوم بتلك المهمة الجليلة، وانحصرت النفقات التي تبذل في سبيلها في ناحية واحدة، تقوم على أساس قوي من الدراسة والتثبت، بحيث لاتصرف في طرق مضادّة لما يراد منها.

من فضول القول الحديث عن جمال هذه المدينة التي يحتضنها البحر من جانب، وتمتد جوانبها الأخرى على سفوح مرتفعة، تكسوها الأشجار، وتتدفق في جوانبها الأنهار، وتنتشر فيها الحدائق، ويقابلها على الشاطئ الأخر من البحر - وهو ليس عريضًا - مدينة (هنق كنق) في جزيرة يوصل إليها، بمراكب بحرية، في خلال دقائق، كما يمتدّ بين المدينتين نفق يخترق البحر لمرور السيارات، وهذه المدينة مستطيلة على ساحل البحر، وفي سفوح جبال تتخللها وهاد وآكام، تنتشر القرى.

وقد سرت مع أحد الأفواج السياحيّة ضحوة في ضواحي هذه المدينة، بالسيارة، ثم بقطار صعد بنا جبلاً مرتفعًا حتى بلغنا قمّته، ومنها أشرفنا على المدينة الممتدة على شاطئ البحر، إننا بين خضرة مايحيط بنا من غابات، وزرقة مانشاهد تحتنا من خلجان البحر، التي تتخللها البنايات الشامخة، والسماء تحجبها عنّا الغيوم، والجوُّ سجسج لاقرّ ولاحرّ، وهذا الشاطئ على مقربة منّا بعد أن انحدرنا من الجبل تنتشر المظلات لاتقاء الشمس فيه، ان الفصل صيف، وها هم الناس يهربون من حرّه إلى هذا الشاطئ الجميل، بقرب هذا الفندق الذي قالت دليلة الرحلة: إنّ سبب بنائه قائم على حكاية خرافية ملخصها أن ثريا صينياً مصاباً بالعقم، فنصحته (كاهنة) لكي يولد له بأن يبني فندقين اثنين، هذا أحدهما - ويجب أن تتجاوز غرفه غرف أكبر فندق في المدينة، والأخر يجب أن تكون غرفه أقل من غرف أصغر فندق فيها، ففعل ذلك، ولكن (الكاهنة) هي هي، في كل زمان ومكان، وكذا الناس، ولكنهم في البلاد الشرقية

---

(١) لعل الصواب كتابتها بالقاف بدل الجيم (هنق كنق) أقرب إلى النطق .

لايزال للخرافات في النفوس من الرسوخ مالم تزعزعه معجزات العصر.

لم أستطع - صباح هذا اليوم - البعد عن المنطقة التي يقع فيها الفندق، بسبب هطول المطر، فاضطررت بعد أن ابتلت ملابسي للدخول في أحد المطاعم، وكان حسن المظهر، ولما جلست، وضع لي النّدل إبريقًا ملأ كأسًا منه أمامي بماء أصفر، انه شراب يدعونه (تي) أي شاهي، ولايقدمون معه سكّرًا، ولهذا فطعمه (سامج) لاحلو، ولامرّ، وبعد أن يمكث زمنًا قصيرًا يصير طعمه مرًّا، ويصفرّ لونه، وقيل لي: انه نبات معروف عندهم يوضع في الماء ثم يُغْلَي، وقد يقدمون بدله نوعًا من الشاهي، شربت القدح الذي أمامي منتظرًا تقديم قائمة الأكل، فطال زمن الانتظار، حتى (قعبت) كل ما في الابريق، بدون أن أُسْأَلَ عمّا أريد، فاتجه نظري إلى رجل جلس قريبًا منّي، لأفعل مثل فعله. وكان يتردد بين الجالسين عدد من النسوة، يحملن أطباقًا يعرضنها، وينادين عليها بأصوات أشبه بنعيق الغربان، فرأيت الرجل وقد مرّت بقربه إحداهنّ يشير إلى أحد الأطباق فتقدمه له، ففعلت مثله، ثم رأيته يتناول بعودين وَضِعا أمامه مما في الطّبق، فقلّدته فلم أحسن التقليد، فقد سقط ماتناولت، فأخذت مما في الطبق بيدي، ولكنني لم أستطب طعمه، فمرت أخرى فتناولت منها طبقًا، وجدت طعمه لذيذًا، انّه (ربيان) قد غلّف بقشرة رقيقة من العجين المطبوخ، أشبه بما كان معروفًا باسم (اليغمج) مما يعمله البخاريّة بمكة، ومازلت أختار مما يعرض عليَّ حتى اكتفيت، فجاء الندل فعدّ الأطباق التي أمامي، وقدم ورقة حساب لم تبلغ دولارين اثنين!! (٦ دولارات صينية).

هذا المطعم صينّي، والمطاعم الصينية منتشرة في كل البلاد التي مررت بها. ولكن ليست كلها على مستوى واحد من حيث النظافة. وهي وان امتازت بالبساطة، وبرخص ماتقدم من الأطعمة، إلا أن أنواع تلك الأطعمة مما لايتهيأ تمييزها لعابر سبيل - مثلي - ولاأزال أتذكر ماحدث لي حين دخلت مطعمًا فخمًا في مدينة (لندن) فرأيت أمام انسانين على مقربة مني طبقًا مملوءًا بنوع من الطعام شديد الخضرة، ظننته من

المقبّلات (سلطة) فأشرت للنّدل بأن يحضر لي مثله، فلما وضعه أمامي صدمت برائحته التي لم أستطبها، ثم كانت الصدمة أعنف عندما وضعت اللقمة الأولى منه في فمي!!

لقد تغيّر الجو هذا الصباح فجأة، فتكاثفت السحب، واسودّت السماء، وأظلم الجوّ، وقصف الرعد شديداً، ثم هطلت الأمطار غزيرة. وعصفت الرياح قوية، وكانت درجة الحرارة في الليل ٢٨ (مئويّة) فانخفضت في الصباح.

لقد قررنا السفر هذا اليوم – عفواً فنحن ثلاثة لهذا استعملت ضمير الجمع – فماذا سنفعل لو استمّر الجو على هذه الحالة. إننا في الصيف، فهل ترى المثل القائل (سحابة صيف عن قليل تقشع) هل تراه يَصْدُق ؟!

انّ علينا أن نخلي الغرفة قبل الساعة الثانية عشرة، سواء سافرنا أو بقينا، والسفر سيكون الساعة الثالثة والنصف للتهيّؤ له في المطار، لا لإقلاع الطائرة الذي لا نزال نجهله لكثرة تغير الأوقات، وعدم التقيد بالمواعيد.

وفجأة – وكنت أتقي المطر عند مدخل الفندق سطعت أشعة الشمس من خلل السحاب الذي سرعان ماتمزّق، ثم هدأت الرياح، وكان مامعنا من أمتعة قد وضع أمام مدخل الفندق، فإلى المطار فهو خير مكان نقضي فيه ماتبقى من وقت قبل السفر، (ومن تقدّم لم يتندّم). وكما قال الشاعر العامّي:

أبا زَيْد ما ينفعك يوم تقيمه إذا كانت الفَرْقا عليك لزوم(١)

مع أننا لم نجد في هذه البلاد ما يرغبنا بالإقامة فيها، فالنظافة – وهي أساس الصحة – لا تجد الاهتمام التام وخاصة في المطاعم وفي الأمكنة العامة، حتى الفنادق التي تُعد في الدرجة الأولى. والمواصلات متعبة، والناس هنا تبدو عليهم آثار الفاقة والبؤس، أو هكذا ظهر لي، وتلك حالة من لم يألف البلد، حيث يبدو له كل شيء فيه بغير صورته الحقيقية.

---

(١) يخاطب أبا زيد الهلالي. الفرقا: الفراق. لزوم: لازم.

إلى (منلا)[1]

وكان اقلاع الطائرة من مطار (هنق كنق) الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الجمعة ١/٥/١٣٩٩ (٢٧/٣/١٩٧٩م) ومدة الطيران ساعتان (٧٥٠ ميلاً) والمعاملة في مطار منلا (قاعدة الفلبِّين) سهلة سريعة، وماأكثر الناس عند باب المطار، بل ماأشدّ الازدحام، ومضايقة المتعرضين للمسافرين لحمل الأمتعة وللإرشاد إلى الفنادق، ولعرض سيارات الأجرة.

لم نعتمد على مكتب الطيران في الحجز في أحد الفنادق. كما حدث حين أردنا السفر من (تايبي) وسرنا على طريقة (إذا واعدت جمّال فواعد عشرة) فأخذنا ورقة من الفندق الذي سكنّا فيه لحجز غرفة لنا في الفندق نفسه في (منلا) فاستقبلنا أحد العاملين فيه، وتولّى الإشراف على حمل أمتعتنا وإيصالنا إلى الفندق، وكان من المطار، وأجرته مقاربة للأجرة في الفندق الذي غادرناه، ٣٧٥ بيسة (PESO) (أي نحو ٥٠ دولاراً أمريكيًا (٢٥/٧ = دولاراً واحداً) أجرة غرفة ذات ثلاثة أسرّة.

هنا الصّيف حقّا فدرجة الحرارة ٣٣ مئوية، ومع كثرة الحدائق، والبرك، وقرب الفندق من شاطئ البحر، أحسست بعد أن خرجت من الباب بلفح الهواء الحارّ، مما حملني على البقاء في الفندق، مع أنّ الوقت ملائم للخروج، فالساعة الآن لم تبلغ التاسعة.

وكان العشاء لثلاثتنا في أحد مطاعم الفندق، ومنّوعًا في الاختيار، وكان حسنًا، وقد استطبت نوعًا من طعام أهل هذه البلاد يدعونه (كري كري "KARE-KARE") من لحم الرأس والكرش والفراسن، كما اختار كل واحد منا طبقًا من الفاكهة الطّريّة، وما كانت القيمة بالنّسبة لما قدّم لنا مرتفعة، إنها لم تزد على عشرة دولارات أمريكية (٨٥ بسّة).

المدينة فسيحة الأرجاء، ممتدة الشوارع، واسعة الميادين، في جوانبها الأشجار الكثيفة الورق، الطويلة، مع كونها على ساحل البحر، وفي براح واسع من الأرض لاجبال بقربها. وحاولت أن أسير في الصباح في طريق يقع خلف الفندق لئلا أتعرض لسير السيارات، غير أنني بعد أن توغلت بين المنازل اضطررت للرجوع إلى الشارع العام،

(١) بعضهم يكتبها (مانيلا) ويمد الميم ويشدد اللام ولكن ما سمعته من أهل هذه البلاد يتفق مع ما كتبت لأن حرف A هو حركة الميم المفتوحة وI علامة كسر النون وأهلها يكتبون الاسم (MANILA).

لضيق الأزقّة وعدم نظافتها، مع جمال ماينتشر حول البيوت من الحدائق الجميلة، وتتخلّلها قنوات ومجاري تفضي إلى البحر.

لم أستغرب تخفف كثير ممن قابلت من الملابس، بحيث يكتفي بعضهم بما يستر عورته، فقد شاهدت في مطعم الفندق الذي سكنته في (تايبي) وقت الغداء، من تجرد من كل ملابسه سوى (التّبّان) ولم يثر انتباه أحد. والحديث عن الحالة الإقتصادية لامحلّ له، غير أنّ مما يبعث في النفس الاشمئزاز أن تقابلك امرأة تقود طفلاً وتحمل آخر، ويتبعها ثالث وترى انساناً متمدداً على الرّصيف أشبه بالهيكل العظميّ، وعلى مقربة منه جمع من النّاس يتناول كل واحد منهم مايريد من بائع أطعمة معرضة لما يقع فوقها. وفيها لحم السمك المشوي والحلوى وغيرها.

لقد كان الحرّ شديداً – أو هكذا أحسست به لأن جلدي استملس كما يقولون – هواء راكد، ورطوبة وومد، ورائحة ماء بحر، فإلى الفندق فالعود أحمد، وفي حديقته الواسعة، وبركته التي تفهق بالماء الصّافي الأزرق، وفي حسن تنسيق مافيه من النّبات والزّهور، مايضفي على النفّس من الراحة والاطمئنان ماهي بحاجة إليه ولابّد من زيارة (القنصلية) هذا صاحب سيارة خاصة عند باب الفندق، يعرض خدمته، وهذا أحد البوابين يحبّذ الذهاب معه عن سيارة الأجرة، وغاب عن ذهني المثل: (أعط الخبّاز طحينك ولو أكل نصفه) فكان الذهاب والإياب معه. ولم يطمئن على أجرته – أو غنيمته – حتى نصل الفندق، بل أوقف سيارته وطلبها، فقدمت له ثلاثة أمثال مايستحق، فرفض ذلك حتى أرضيته بإغضاب نفسي، واغضاب النفس محمود في بعض الحالات!!

وفي بناية ضخمة تقع القنصلية في الطابق الثامن منها، في إحدى (الشقق) الواسعة، ولم يمانع البواب في إدخالي حين رآى جوازات السفر التي أحمل، مع كثرة الواقفين عند الباب، وبجوار شابّ يظهر أن كثرة عمله حالت دون سماعه تحيتي – جلست، وقدمت له الجوازات لتسجيلها، فسألني بهدوء: (كيف الحال)؟ فكان فاتحة الحديث الموجز، وعلمت أن الرجل من بلدة ينبع، وأن القائم بالأعمال من هذه البلدة أيضاً هو حبيب علي سالم شاهين، فترحمت على سالم – رحمه اللّه – وذكرت بلدة

ينبع وأهلها بخير، وحاولت التزّلف إلى محدثي فقلت: لقد ألفت كتابًا عن بلاد ينبع، ثم أردفت – حين لم أر لقولي وقعا في نفسه–: انه الكتاب الوحيد الذي ألفه عن هذه البلدة. فهزّ صاحبي رأسه قائلاً: (قريته)!! ووقع الجوازات بعد أن أُحْضِرَتْ إليه مسجّلة، وقدّمها لي. ولكنني أردت أن آخذ (كلّ غريفه) فسألته عن حالة المسلمين في هذه البلاد فأشار إلى مصور جغرافي معلّق أمامي (خريطة) قائلاً: (هم في الجنوب ولانعرف عنهم شيئًا ولكن الحوادث مستمرّة، بحيث أن الانسان لايستطيع الخروج من منزله إلى السّوق لقضاء حاجاته، قال هذا راويًا عن أحد المدرسين الذين ندبتهم وزارة المعارف للتدريس هناك وسمّاه لي. وانصرف الرجل للحديث مع أحد زملائه في شؤون عمله، فاكتفيت بأن طلبت منه اطلاعي على آخر ماوصل من صحف بلادنا، فطلب إحضار ذلك بعد أن اعتذر بقلّة مايصل، فلما وعدته بارجاع مايقدّم لي: قال: لا ولكن نعطيك نسخًا سافر صاحبها إلى المملكة، وكنا قد أبقيناها له من الصحف التي وصلتنا هذا الأسبوع. فشكرته وانصرفت منه بما لم يفدني.

وقيل لنا: من الأماكن التي تزار في هذه المدينة (بركان) يبعد عنها نحو ستين ميلاً، ولكن الرحلة إليه مريحة، فالسيارة مكيّفة الهواء. وفي الطريق مايبهج النفس، خضرة وماء، ورفقة ذوو وجوه حسنة. فكان الذهاب باختراق المدينة على امتدادها، ثم السير بمحاذاة البحر، بين أكواخ تحيط بها المستنقعات الكثيرة وهي وسط أوحال تبعث رؤيتها في النفس لا الاشمئزاز بل التعجب، كيف يوجد انسان يستطيع البقاء فيها، ومع قربها من البحر فإنها بين غابات من الأشجار، وأرضها خضراء مكسوة بالنبات، وبينها أحواض مربّعة، يمدّها خليج من البحر، يستخرج من تلك الأحواض الملح، بعد أن تبخر الشمس الشديدة الحرارة الماء، وتجفف الأملاح، ثم هذا مصنع للسيارات، فالهياكل والمحركات ترد من اليابان، وهنا يقومون بتركيبها وإكمال ماتحتاج إليه من أغطية وغيرها، ولكن بطريقة تنقصها الآلات الحديثة، ولهذا تبدو تلك السيارات – وهي الحافلات الصغيرة المستعملة داخل البلاد – تبدو بمظهر غريب، ماأجمل هذه الغابات الكثيفة الشجر وهذه الحدائق ذوات الفواكه من موز ومنجة وعنب ونارجيل، وهذه التلال الخضر الممتدة بامتداد النّظر!!.

ساعتان مضتا لم يشعر المرء بمرورهما، وها نحن ارتقينا فوق تلّ عال مطل على شاطئ البحر، وهناك شبه بحيرة في جانب الشاطئ، يفصلها عن البحر جبل يبدو بشكل نصف دائرة ذو ثلاثة رؤوس بارزة، يرتفع من قمة صغيرة من وسطها دخان، قيل لنا: إنه بقايا البركان، وأن هذا المكان المشابه للبحيرة، كان بركانًا فخمد، وعلاه ماء البحر، ولم يبق منه سوى الفوهة التي لانشاهد منها إلا الدّخان – وبعد الاستراحة، وتناول فاكهة مثلجة، إناؤها قطعة من جوز الهند غضّة، وبقية الجوز طريّ حلو حين يخلط بما معه.

واستراحة أخرى في حديقة جميلة لبيت فلبِّيني مكون من الخشب، وفراشه من القصب، وآنيته من الفخار، ولاشيء غير ذلك، وهذه آلة ضخمة من آلات الطرب، مصنوعة من القصب أيضًا، تعزف عليها فرقة عزفا فيه صخب، وله روعة في القلب هي إلى الحزن أقرب، ولم ينس أحد الإخوة من طرابلس الغرب أن ينمق صحيفة كاملة في دفتر البيت الفلبيني، اكتفيت بأن كتبت فيه – تحت ثناء صاحبنا الليبي على هذه البلاد وإطرائها بالجمال الرائع–:

ولكنّ الفتى العربيّ (فيها) غريب الوجه واليد واللّسان

الحدائق والفنادق في هذه البلاد، ولاشيء غيرها، فأرضها خضراء كلها، ولكن حرارة الشمس تحول دون الاستمتاع بجمال مناظرها، ولعل هذا من الأسباب التي دفعت أصحاب الفنادق إلى التّباري بإعدادها ملائمة لحالة من يفد إلى هذه البلاد، ليجد داخلها مايعوّضه عما لم يستطع الاستفادة به، ولهذا تكثر البرك والحدائق المنسقة في تلك الفنادق الفخمة.

إن مما يضايق المرء كثرة من يتعرّض له حين يخرج من الفندق فهذا صاحب سيارة يعرض عليه إيصاله إلى المكان الذي يريد، وهذا يلحّ بطلب مرافقته وإرشاده، وذاك يكلمه هامسًا بما يبعث في النّفس الرّيبة منه، وخاصّة من لايعرف مايقول.

ومع الرّغبة في معرفة الكثير من أحوال هذه البلاد حباها اللّه بقسط من جمال الطبيعة فبواعث البقاء فيها كانت ضعيفة.

في سنغافورة

لم تزد مـدة الطيـران بين (منلا) وبين هذه المدينة على ثلاث سـاعـات، وفي المطار اقتصر سؤال موظف الجمرك على الدخان والمشروبات، وكان السكن في فندق مزدحم بالسكان، ولكنه كان مريحًا، ولم تتجاوز أجرته ٥٥ دولارًا أمريكيًا (١٢٠ من عملة هذه البـلاد، إذ الدولار يسـاوي نحـو ٢٠ / ٢ منهـا) وهو واقع في منطقـة كـثيـفـة الأشجار، مخضرّة الأرض، حديثة العمران.

هذه المدينة جميلة حقّاً، بل رائعة الجمال، لاتقع العين إلاّ على مايبهجها، أو هكذا بدت لي من أوّل نظرة، الأشـجـار، الزهور، الحـدائق، نوافيـر الميـاه، ها أنا في الطابق الخامس من الفندق، وها هما بركتان تفهقان بالماء الصافي، يتعالى ضجيج الأطفال في صغراهما، وتنتشر الأجسام العارية في الكبرى، وفوق السّرر المنضدة حولها، وتزدان جوانب المكان بالأزهار والأشجار.

الحيـاة هنا تخـتلف عن الحيـاة في البلدة التي غـادرناها صبـاح هذا اليـوم انّهـا أشبـه بنشاطها ومظهرها بالحياة في (هنق كنق Hong Kong) والجوُّ، ألا يكون ملائمًا لطبيعة هذه المدينة التي تبدو كالبستان العظيم، الذي يلبّ البحر بأحد جوانبه، وتنتشر التلال العالية الخضر، والأودية التي يحجب تكاثف أشجارها ونباتها أشعّة الشمس؟!

كنت منذ غـادرت (اليـابان) قد اكـتفـيت بأخفّ مـاأحـتـاج إليـه من اللبـاس، ومع ذلك لاأرتاح إلا داخل غرفة الفندق المكيّفة الهواء، مع مايسبّب لي ذلك من الصّداع، أو الزكام.

إنّ الوقـت الآن السـاعـة الخـامـسـة من مسـاء يوم الخـمـيس ٨ / ٥ / ١٣٩٩ (٥ ابريل ١٩٧٩) أتراني بحاجة إلى تغيير ملابسي بأثقل منها لاستقبال برد الليل؟!

لاداعي للاستعجال، فبقرب الفندق أمكنة تعجّ بالنّاس، من معارض لمختلف الأشياء ومقاهي ومطاعم، لن أعدم بينها مـاأقضي فيـه جزءًا من الوقت بعيدًا عن جوّ الفندق، الذي أحـسـست بشيء من الضيق لبـرودته. ولكنني مـاكـدت أخـرج من البـاب حـتى لفـحني هواء حـارّ، أشبـه بلفـح حرارة الحـمّام البـخاري الشـديد الحـرارة (السّـونة) مما جعلني أفكر في العودة إلى الفندق، مع أن الغيم قد حجب بكثافته أشعة الشمس التي

قد شارفت الغروب، إن لم تكن غربت.

هذه حديقة واسعة فيها مطعم فليكن فيه العشاء. ومع معارضة الرفيقين أم محمد وابنتنا كان ذلك، أترى هذا النّدل مصاباً بالزكام؟! إنه كثير العطاس وهو الذي سيقدم لنا الطعام، ولكن (لاعدوى ولاطيرة) ومع ذلك بقي الاحساس بها يومًا كاملاً، ومأسرع ماينسى الانسان!! لقد نصحت - بعد مغادرة اليابان بعدم السكنى في غير الفنادق المعروفة بنظافتها، وأن يقتصر الأكل في مطاعمها، ولكن:

يا أيها الرجل المعلّم غيره   هلاّ لنفسك كان ذا التّعليم؟!

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وكانت جولة في المدينة في حافلة مكيفة الهواء، والرفاق من أجناس الناس، فيهم الأمريكي والهندي والهولندي والصيني، ومن العرب ثلاثة.

مشاهدة الميناء من تلّ مرتفع، فيه مقهى واسع، ومعرض لمختلف مصنوعات هذه البلاد، وحاو هندي، ينفخ في مزماره ويرقص حنشا أرقط يقارب المتر طولاً، ويعرضه على المشاهدين لمن يرغب حمله، انه لاأنياب له، وها هو لسانه الطويل يلحس يد صاحبه. وهذه حديقة واسعة يزرع فيها نوع من النبات ذو زهور مختلفة الألوان، من أحمر وأصفر وأزرق وأبيض، وبينهما نبات ذو أشكال متعددة وهو مما شهرت به هذه البلاد.

وهذه منطقة من أجمل المناطق، لايسكنها إلا الأثرياء، وفيها بعض السفارات كسفارة المملكة العربية السعودية، فالتفت - عند سماع الاسم - يميني فإذا علم بلادنا معلق أمام دار تتوسط حديقة صغيرة، وبقربها متحف أنشأه الثريّ الذي عني باستنبات الزهور في تلك الحديقة التي تقدم ذكرها.

وشاهدنا مسجداً صغيراً من بعد، والمسلمون هنا قليلون، فنسبتهم بين مجموع السكان الذين يدينون بمختلف الأديان ٥٪ بقول الدّليل، والمكثر يقول ٧٪. ووسط المدينة يتمايز سكانه، فهذه الناحية سكانها صينيون، وهذه يسكنها الهنود، وهكذا بقية السكان.

لقد عرفت اسم الشارع الذي تقع فيه سفارتنا، إنه (شارع نسيم) أو (نسيم رود) كما يقولون، وليس بعيداً عن الفندق، انه لن يبعد أكثر من سير ساعة، فلتكن رياضة هذا الصباح إلى جهته، لمعرفة موقع السّفارة.

هؤلاء الذين ينظفون الشوارع، انهم يلقون بأوراق الشجر المتساقطة في هذه السواقي الممتدة بامتداد الشارع، ألا تتراكم فيها؟ الجوّ صحو، والسماء زرقاء صافية، وأشعّة الشمس تتخلل أغصان الأشجار الكثيفة، حسناً ها أنا تجاوزت المتحف الذي مررت به بالأمس، ولكن لم أر ما أبحث عنه، أترى المثل الذي يتندَّرُ به ابن البادية: (ضيعة الحضري قصرة) صحيحاً، لابأس فأنا لم أسر الآن إلا نحو ثلث ساعة، لاقصداً بل كنت أحاذر من طرق السيارات، فأبعد كثيراً، و(الحضري ينشد) وهذا بوّاب قصر فخم، لايستر جسمه سوى إزار خلق، وقدماه حافيتان، مالي وماله، إنّ له لساناً، وهذا يكفي. لقد أمرني بالرجوع مع الشارع الذي أتيت منه، وأخبرني بأن السفارة تقع فيه، ورقم دارها (١٠). ها هو العلم لايزال معلقّا - صباح السبت - ولكن الساعة لم تبلغ بعد الثامنة، لقد اهتديت الآن.

لقد بدأ المزن ينتشر في السماء، حتى حجب الشمس، وتكاثف، وبدأ يسودّ بعد أن كان أبيض يققا، وها هو رذاذ المطر يتساقط، والمشاة ما لهم؟ انّ أكثرهم يجري؟ لقد اشتد هطول المطر، ان الأسواق وهي مرصوفة مبلّطة يكاد سيلها بقوته يجرف الماشي، ثم هذه السواقي التي رأيت الأوراق والأوساخ تطرح فيها إنها أشبه بالأنهار.

ثلاث ساعات كاملة، والدّيمة متواصلة، ثم تفتّق الغيم، فأشرقت الشمس، في مكتب الأخ محمد أمين ولي، الساعة الثانية عشرة جفّفت ما أصاب ملابسي من المطر، وكان استقبالاً حسناً، ومجموعة من صحف بلادنا، وأخبار طيبة عن تلك البلاد، واجتماعًا بالأخ محمد القاضي من موظفي وزارة الخارجية، ثم عودة إلى الفندق في سيارة الأخ محمد أمين، وقد قلت له - حين ألح عليّ بالدعوة للعشاء: إننا سنسافر في المساء، وما كنت كاذبًا، غير أنّ رفِيْقَيَّ وهما أم محمد وابنتنا سلوا رأيا التأخرّ إلى الغد - أي يوم الأحد ١١ / ٥ / ١٣٩٩ - ٨ / ٤ / ١٩٧٩م.

إلى كوالا لمبور[1]

قاعدة بلاد الملايو (ماليزيا) أول ما فكرت فيه حين عزمت على المرور بهذه المدينة زيارة أبي سليمان الشيخ محمد الحمد الشُّبَيْلِي[2] سفيرنا في هذه البلاد، لقد قلت قبل عشرين عامًا -فيما كتبت-: إنّ أكره شيء إلى نفسي رؤية بلدة يحل فيها أحد صديقين اثنين - سميتهما - وكان ذلك أول معرفتي لهذا الرجل العظيم، ثم اتّضح لي فيما بعد معنى قول المتنبي:

إذا اشتبكت دموع في خدود   تبيّن من بكى ممن تباكى

وقوله:

ليس التّكحّل في العينين كالكحل

فكنت أتعمّد عدم السفر إلى بعض البلاد التي فيها، مع رغبتي في زيارتها وأتباعد عن زيارته إذا علمت بقدومه إلى بلد أنا فيها، كما كان يفعل زهير بن أبي سُلْمَى حين يمرّ بقوم فيهم ممدوحه هرم بن سنان المرّي، فيخصّهم بالتحيّة دونه: (عموا صباحًا سوى هرم بن سنان) ثم يضيف (خيركم استثنيت)!

وإنّ من الجفاء، ومن عدم الوفاء أن أَمُرَّ ببلدة فيها هذا الرجل فلا أراه لأحيّيه، ولكن هناك ما هو أشدّ ألمًا في نفسي من ارتكاب هذه الخلّة الذميمة، لقد أثقلني بصلاته الكريمة، حتى أصبحت أخجل من رؤيته، وأنا ممن لايتحمل المعروف من كل أحد، بل أتحاشى أن أحمل فضل كلّ مفضل، ولا أبعد كثيراً عما قصده الشّنفرى بقوله:

وأستفُّ ترب الأرض كي لا يرى له   عليَّ من الطّولِ امرؤ متفضّلُ

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب   يعاش به إلاّ لديَّ ومأكلُ

---

(١) رأيت الاسم مكتوبًا بحروف عربية (كوالا لمفور) أما في النطق فسمعته ينطق بباء فارسية (ب).

(٢) ما أيسر أن أقول (صاحب المعالي) ولكن الرجل عندي أرفع من الألقاب التي ابتذلت بكثرة اطلاقها على من لا يستحقها، ثم انها بدعة أعجمية، مما خلفه لنا الأتراك وصنائعهم.

هما امران أحلاهما مرّ، وهذه المدينة لاتبعد عن البلدة التي أنا فيها سوى ساعة، بل أقل، وهذا الأخ أمين ولي في سنغفورة – يستغرب مني عدم زيارة هذه المدينة الجميلة، فأفيض في الحديث عن أبي سليمان حين كان في البصرة، ثم في كراتشي (باكستان) ثم في بغداد، وأخيراً في الرياض لاأريد المرور بـ (كوالا لمبور) هذا ماقلته للأخ، بعد أن عزمت على التوجه إليها مع زيارة أبي سليمان وهي الغاية في الواقع. وكان النزول في فندق (فدرل) وسط المدينة، ولم تستغرق الرحلة منذ الاقلاع من مطار (سنغفورة) إلى الوصول إليه أكثر من ساعتين لسهولة المعاملة في المطار، الفندق نظيف وفخم، والشوارع تنتشر على جوانبها الأشجار، والمدينة – كما أشاهدها من نافذة الغرفة – كأنها غابة، تكثر فيها التلال والوهاد، وكأنها كلها مفروشة ببساطة سندسيّ، والفندق فوق تلّ عال، تشاهد منه أعالي المباني المرتفعة، والوقت غير ملائم للتّجول خارج الفندق هذا المساء، والطعام فيه شرقيّ وغربيّ، ففضّلت الأول عند اختيار طعام العشاء، ولكنني تجرعت أكثره وأطيبه مغمض العينين من شدة حرارته، لكثرة ما فيه من الفلفل، وقلت – بعد أن ملأت الوطاب : لعله كما قرأت في بعض كتب المتقدمين : (حارّ في الأولى معتدل في الثانية، بارد في الثالثة) غير أنني اكتفيت بتلك الأكلة الطيبة من ذلك النوع من الطعام إلى الآن.

ومن خلال جولة قصيرة حول الفندق في الصّباح أدركت شدّة حاجة المرء في أكثر هذه المدن الجميلة إلى العناية بصحّته حين يزورها، وذلك بارتياد مافيها من أمكنة جميلة، كالحدائق والفنادق الكبيرة، والأماكن المهيّأة للزّيارات.

ومع فوج من السّيّاح داخل حافلة مكيفة الهواء كانت مشاهدة أبرز معالم المدينة في اليوم الثاني، ابتدأت الجولة بضحكات حين أشارت الدليل إلى مكان تتوسطه قبة عالية، ويحيط به سور مرتفع مربّع، ظننته أول الأمر مقبرة، فلم يذهب بي الظنّ بعيداً، انه مقبرة الأحياء (السجن) وهذه حديقة واسعة تنسب إلى (تنقو عبدالرحمن) الذي

كان رئيسًا لوزراء هذه البلاد، ثم أمينًا للمؤتمر الإسلامي عام ١٣٩٣ (١٩٧٣م) وبقربها ملعب قد زانه اخضرار أرضه، والمياه هنا غزيرة، فهذه البحيرات منتشرة أينما سرنا.

وديانة هذه البلاد الإسلام، ولكن للأديان الأخرى معابد وأماكن يزار بعضها، فهذا معبد (بوذي تايلندي) لايدخله سوى من خلع نعليه، وداخله أشبه بمعابد النّصارى. ولكن لاصلبان هنا بل تمثال انسان جميل الوجه، لاأدري من أي الجنسين، والراهب أو السادن – جالس تحته لعله يتقبل الهدايا والنذور.

وخاتمة المطاف رؤية أجمل مكان شاهدته في هذه المدينة، انه المسجد الجامع، يقع مرتفعًا عما حوله، في مساحة واسعة من الأرض، تتوسطه منارة شامخة في السماء، بيضاء، رقيقة، وفي صحن المسجد بحيرة مستطيلة، صافية الماء، تحيط بها نوافير يرتفع ماؤها فينتشر رذاذاً. ويحيط بصحن المسجد أروقة واسعة، في جوانبها أمكنة ملحقة بالمسجد منها بهو واسع (صالة) للمحاضرات، فيما يظهر، لأنني رأيت في صدرها منصّة، وفي أحد جوانبها كراسي كثيرة، مصفوفة، وفي الجانب الآخر من صحن المسجد من الأمكنة مكتبة وجدت بابها غير مغلق ففتحته، ودخلتها فرأيت فيها كتبًا قليلة، وأمامها – داخل صحن المسجد – بحيرة مربعة، نظيفة الماء، وفي شرقي المسجد باب واسع يفضي إلى أرض مفروشة بالرخام الجميل، يتوسطها قبران مرتفعان عن الأرض، قيل لنا: إنّ هذا المكان (يقبر) فيه الوزراء، والقبران حديثان.

ويحيط بالمسجد حديقة واسعة، جميلة التَّنسيق، ذات زهور مختلفة الألوان ويتوسط المسجد قبة يعجب المرء من سعتها وليس في داخلها من الأساطين مايقوم بناؤها عليه.

ماأروع هندسة هذه المباني! وما أجملها!! لقد احتفلت حكومة هذه البلاد بافتتاحه منذ اثني عشر عامًا (في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٨٥ (٢٧ أغسطس ١٩٦٥م) ودعت لذلك عدداً كبيراً من مشاهير العالم الإسلامي، وتحدّث عنه صديقي الأستاذ

عبد العزيز الرفاعي - رحمه الله - في الحلقة الثالثة من سلسلة الكتب التي يصدرها بعنوان (المكتبة الصغيرة) في كتاب - (خمسة أيام في ماليزيا)[1] إنّ التاريخ الذي قرأته مكتوبًا على جدار القبة الخارجي لبناء هذا المسجد هو ٨ ربيع الآخر. ثم سنة ٩٦٣ (؟) ويظهر أنّ التاريخ الهجري لم يوضع، وأن المسجد بني منذ ستّ عشرة سنة أي في سنة ١٣٨٣ في سنة ١٩٦٣م واسم الذي أنشأه (السيد فترا ابن المرحوم جمال الليل) كما في الكتابة التي قرأتها، ولعل هذا أحد المسهمين في نفقات بنائه وقال لنا الدليل: ان أقدم مسجد أنشئ في هذه المدينة يرجع تاريخ انشائه إلى سنة ١٨٥٧م وأشار لنا إليه وهو واقع على مقربة من وزارة التعليم في وسط المدينة.

نعمتان خصّت بهما هذه البلاد الواقعة في المنطقة الاستوائية: شدة حرارة الشمس واستمرار هطول الأمطار في كلّ فصول العام، فالحرارة تعين على القضاء على كثير من جراثيم الأوبئة التي لاتزال تجد في تلك البلاد مرتعًا خصبًا، والسيول القوية تصرّف المياه الراكدة في المستنقعات، وعامّة القوم هنا - فيما يظهر - تكاد عنايتهم بالنظافة تعتمد عليهما.

يحار المرء تفكيراً حين يشاهد بعض المنازل، وقد أحاطت بها المستنقعات الراكدة المتغيرة الرائحة، والمياة الوسخة تجري في جوانب الشوارع والأسواق، وخاصة في الأحياء المنزوية عما اعتاد القادمون إلى هذه المدن المرور به، أو الذهاب إليه.

لقد خرجت مساء هذا اليوم من أحد أبواب الفندق الخلفيّة، حين شاهدت هناك حديقة كبيرة، وهذا الفندق من خير فنادق هذه المدينة يقع في محلة ليست قديمة العمران، تقع فيها أشهر الفنادق، وفي أعلاه مكان مطل على المدينة، في الدور الثامن عشر، منه يشاهد المرء أبرز معالمها، لأنه يدور خلال ٤٥ دقيقة إلى كل الجهات، ولهذا يقصده كثير من السياح وغيرهم - خرجت من الباب الخلفي لأشاهد الحديقة، ولكنني بعد أن تجاوزت الباب، وبلغت مدخل الحديقة صدمت بأبشع منظر، مياه

---

(١) طبع هذا الكتاب سنة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

راكدة في مجاريها، تنبعث منها الروائح الكريهة العفنة، وأوساخ متراكمة، تحت أشجار لم تمسس أغصانها المتشابكة يد التشذيب والاصلاح، أترى القوم رأوا مدينتهم حديقة كبيرة، فاستغنوا بها عن إصلاح الحدائق؟ لا أدري ولكن ينبغي أن يلاحظ أن الفندق يقع فوق تلّ مرتفع، وتلك الحديقة - أو المكان الذي وصفته - في حضيض ذلك التلّ، وما حوله يقل فيه العمران.

وآن وقت السفر من (كوالا لمبور) ظهر اليوم الثالث عشر من جمادى الأولى (٢٠ / ٤ / ١٩٧٩) وبعد مغادرة الفندق اتجهت إلى السفارة، ومنها اتصلت بالهاتف بأبي سليمان، حين علمت بأن مكتبه في بيته لضيق مقرّ السفارة، وكان في استقبال السّفير الكوريّ، فتحدث مع الأخ فايز الأسمري أحد موظفي السّفارة لكي آتي معه بعد زيارة أجمل مايزار في هذه المدينة وهو مسجدها، ولكنني وقد حاولت التخلّص من أبي سليمان فلم أستطع تخلصت من الأخ فايز، فنزلت قبله في المصعد، ثم سلكت طريقًا ضيّقًا لا تستطيع السيارة سلوكه. وبعد ذلك كان الذّهاب إلى المطار بعد ساعتين من عودتي من السفارة.

ولكن أتراني أفلتّ من هذا الرجل؟! لقد اتّفق وقت السفر ووصول رئيس حكومة (بنقلاديش) إلى المطار، وقد استقبل - كعادة استقبال الرؤساء - في المكان المعد لخروج المسافرين إلى الطائرة، قبل اقلاعها بدقائق، ماشعرت إلا بالرجل الذي هربت منه واقفًا ينهال علي بعبارات العتاب، ولم يجد الاعتذار! هنا مكان نستطيع الجلوس فيه (أبرد) من هذا المكان، ولن تقلع الطائرة بدون أن نعلم، و(أمر اللّه من سعة).

وفي أحد الأمكنة المخصصة لجلوس علِيَة القوم، ترددت عبارات التأنيب، مع تردد مايقدم للضيف المكرم من شراب وطعام.

ورعى اللّه أبا سليمان، إنه فرد في عصره، في النّبل وكرم الخلال، فماذا أقول عنه؟! [لقد أُصيب - رحمه الله - بداء عُضال، أَقْعَدَهُ وأثّر في سمعه ولسانه، وتَرَدَّد على أشهر مستشفيات العالم، فلم يكتب له الشفاء، فاختار الله له جواره] يوم الخميس١٧ / ٣ / ١٤٠٩[1]

---

(١) وللدكتور عبد الرحمن الشبيلي عنه مؤلف باسم "محمد الحمد الشبيلي أبو سليمان" جمع فيه بعض ما قيل عنه.

في تايلند (سيام)

وما كانت المسافة بين (كولا لمبور) و(بانكوك) طويلة ولهذا لم نحس بشيء من التعب.

واسم (تايلند) أطلق على هذه البلاد حديثًا فقد كانت معروفة إلى عهد قريب باسم (سيام) وكان حجاج سيام لهم شأن عند أهل مكة من المطوفين وغيرهم.

ومدينة (بانكوك) تقع في براح من الأرض، ولهذا فهي واسعة ولكنها غير نظيفة، ويخترقها نهر عظيم تتسرب إليه الأوساخ، وعلى شواطئ هذا النهر تقام أسواق من صناديق مصنوعة من الخشب، يقصدها السواح الذين تحملهم زوارق صغيرة، فتسير بهم بقرب الشواطئ، التي تمتد حولها أمكنة عرض البضائع.

ذهبت في صباح اليوم التالي لمشاهدة معالم هذه البلاد، ولكنني عندما شاهدت شدة الزحام على القوارب مع عدم نظافتها بل عدم الأطمئنان إلى السلامة، رجعت من الشاطئ بعد أن دفعت أجرة الرحلة كاملة.

وأجمل ما في هذه المدينة فنادقها، ومن أشهرها فندقان اثنان أحدهما يدعى (فندق مونتين، Montien) والثاني فندق الشرق (أورينتال) وهذا الأخير على شاطئ النهر وفيه بركتان للسباحة.

كان الجو في الأيام التي أقمناها في هذه البلاد (من ١٠ نيسان إلى ١٣ منه) شديد الحرارة، ولهذا فالمرء لايرتاح إلا في داخل الفندق حتى في المساء، وبعد غروب الشمس حاولت في إحدى الليالي أن أجلس على الشاطئ في (فندق الشرق) في مكان واسع صفت فيه مئات الكراسي وأضيء بالأنوار القوية، ولكنني وجدت مضايقة من البعوض.

وأجور الفنادق في حدود عشرين دولارًا أمريكيًا للغرفة الواحدة.

لم يلفت نظري في هذه المدينة سوى منظر الرهبان من البوذيين ونحلة هؤلاء هي الشائعة في تايلند مع انتشار مختلف النِحل.

لقد كان من عادتي الخروج من الفندق صباحًا، وإمضاء مايقرب من ساعة في رياضة المشي، فأبصرت على مقربة من الفندق طائفة من الناس غريبي الزي والمظهر، انهم يلبسون حللاً صفراء غير مخيطة، تتكون الحلة من قطعة من قماش قد ارتدى الواحد منهم بقسم منها وائتزر بالقسم الثاني، والرؤوس مكشوفة قد حلق شعرها، والأقدام عارية، كان اجتماعهم قرب معبد من معابدهم، وكانوا وقوفًا مصطفين، فذهبت حتى توسطتهم، لأنظر على مَ اجتمعوا، فإذا بنسوة تأتي كل واحد منهن بإناء كبير، مملوء طعامًا وفاكهة، فتقف بقرب مدخل المعبد أو تجلس، فيقبل إليها أولئك واحداً واحداً، وكل ماوقف عندها واحد منهم انحنت فقدم لها اناءاً مجوفًا له علاقة يحمله بها، فتغرف من الطعام وهو في الغالب من الأرز، وتضع فوقه شيئًا من التوابل، ثم تضع حبة برتقال أو منجة في ذلك الإناء، وتناوله ذلك الرجل بعد أن تنحني له مرة أخرى، فيأخذ اناءه ويمضي، وقد تقدم له غصناً فيه زهرة أو زهرتان من زهور كانت أحضرتها معها، ثم يأتي من بعده فتفعل معه كما فعلت للذي قبله، وعندما ينفد مافي إنائها يكون هناك من النسوة من يحل محلها.

لقد حاولت أن أقدم لواحد من هؤلاء نقوداً، فلما مددت يدي بها إليه أدار لي متنه وانصرف بعيداً عنيِ، فحاولت مع شيخ كبير السن كان جالساً فلما مددت يدي إليه أغمض عينيه، فطرحتها في حجره، فنفض رِدَاءَهُ وقام مهرولاً وتركها، بعد أن نظر إلي شزراً.

لقد كان منظر هؤلاء مؤثرًا في النفس، إنه يعبر عن عدم الاكتراث بالجسم بل بالحياة كلها، ولاأدري كيف لاينقرض هؤلاء الذين لايرى المرء أي أثر في أجسامهم للعناية بصحتهم؟

لقد وجدت نوعاً من التسلية في الذهاب صباح كل يوم إلى هذا المكان، والناس في هذه البلاد في مايظهر – طيبون، فأنت حين تجلس في أحد الأمكنة العامة تشاهد هدوءاً تامّاً وعندما تسير في الشوارع لاتجد شيئًا من المضايقات التي قد تحس بها في كثير من البلاد الشرقية.

ولاأدري فقد يكون هذا ناشئًا من بعد الفندق الذي سكنت فيه عن الأحياء الواقعة وسط البلدة. وأذكر أنني حين رجعت من شاطئ النهر - حين ذهبت لمشاهدة معالم المدينة - اضطررت للذهاب إلى الفندق مشيًا على القدم، لأنني لم أعرف اسم الفندق الذي أسكنه بعد، وكنت تركت عنوانه مع الرفاق الذين ذهبوا في النزهة النهرية، ولكنني في الصباح عند الخروج منه شاهدت بقربه مكتبي طيران هما مكتب الطيران الياباني ومكتب الطيران الهولندي فسرت في اتجاه القصد إليه حتى تعبت من المشي، فصرت أسأل من قابلت عن هذين المكتبين فما كنت أجد إجابة، وخاصة من أصحاب المحلات الذين يظهر أنهم يجهلون الكلمات الإنجليزية القليلة التي أتحدث بها ملحونة غير واضحة، حتى اهتديت إلى محل للسياحة، فلما سألت شابًا كان واقفًا عند مدخله سار أمامي بعد أن أشار إليّ لأرجع مع شارع طويل كنت قد أتيت منه وأن أتبعه ثم أشار نحو جهة كنت أظنها بعكس الجهة التي أقصدها، وفهمت منه أن المكان بعيد، فطلبت أن يكتب اسم الشارع الذي يقع فيه مكتبا الطيران واسم الفندق القريب منهما، ففعل ووقف بجانبي حتى مرت بنا سيارة أجرة فأوقفها فركبت فيها حتى أوصلتني إلى المكان الذي أقصده.

والحياة في هذه البلاد تتسم بالبساطة في كل شيء، ولاشيء يكدر صفوها سوى الاستهانة بالنظافة. وأكثر من يعمل في الأمكنة العامة - كالمطاعم والمقاهي - من النساء.

ولن يعدم المرء مشاهدة مختلف الأجناس من الشرق والغرب، ولاسيما العرب، في الفنادق الكبيرة. ولهذا فليس غريبًا أن يرى بعض المحلات المعنونة بالعربية.

إلى مدينة (دلهي)

وفي صباح الجمعة ١٦ جمادى الأولى ١٣٩٩هـ (٢٣ نيسان ١٩٧٩م) كان السفر من (بانكوك) قاعدة (تايلند) إلى مدينة دلهي، والمفروض أن تقلع الطائرة في العاشرة إلا ربعا فتأخرت إلى الساعة الثانية عشرة، فبقينا في المطار البعيد عن البلدة، حتى حان وقت السفر، وبعد ساعتين هبطت الطائرة في مدينة (دكا) في (بنقلاديش) وكان البقاء داخل الطائرة ساعة كاملة، ثم كان الاقلاع والوصول إلى مدينة دلهي بعد ساعتين والبقاء في الجمرك أربع ساعات، لم أشاهد في حياتي معاملة أسوأ مما شاهدته من موظفي الجمارك هنا، لم يتركوا شيئًا من أمتعتنا نحن الثلاثة بدون تفتيش دقيق، بل لم يتورعوا عن النظر إلى ماتتحلى به ابنتي وأمها، وتسجيل جميع ذلك، مما حملني على التفكير في عدم النزول في هذه المدينة ولكنني لم أجد أية وسيلة أتمكن بها من تحقيق مافكرت فيه، إذ لابد من إكمال عملهم سواء بقيت أو سافرت. كان النزول في فندق يدعى (موريا MAURYA) والأجرة لغرفة تسعنا نحن الثلاثة ٥٧٥ روبية، ويقع هذا الفندق في منتصف الطريق بين المطار وبين المدينة وهو نظيف ومريح.

وكان مما أذهب عن نفسي بعض أسباب الكدر والتعب – من جراء معاملة موظفي الجمرك السيئة أنني بعد أن أصبحت وخرجت من الفندق كعادتي مبكرًا. أعجبت بمنظر حديقة جميلة تحيط بالفندق وبعد أن خرجت منها واصلت السير بين مروج خضر، متجهًا صوب المدينة غير أنني لم أسر قليلاً حتى هاجمني أسراب من الذباب بحيث اضطررت للعودة إلى الفندق.

إن مدينة دلهي الجديدة جميلة من حيث سعة شوارعها وحداثة منازلها المنتشرة بين الحدائق التي تنتشر في جميع أرجاء المدينة، ولكن النظافة هنا كغيرها في كثير من المدن الشرقية، وتكاليف المعيشة ليست مرتفعة فنحن الثلاثة تناولنا عشاءاً في الفندق بنحو ١٥٠ روبية مايقارن ٢٠ دولارًا (الدولار = ٨ روبيات) وطعام الإفطار لنا الثلاثة يكلف ٢٦ روبية ولكن الأكل يُعَدُّ من أجود الأنواع.

وفي صباح اليوم الثاني خرجت من الفندق مبكرًا، اتقاءاً لما ضايقني بالأمس، فسلكت الطريق المتجه إلى المدينة، وهو شارع واسع، تحيط به الحدائق ذات الأشجار السامقة، التي تنتشر فوقها في الصباح أسراب من الغربان الصغيرة، ولكن أصواتها مزعجة بدرجة لاتتلاءم مع صغر أجسامها، مما ذكرني بدعاء بعض البادية: (ياالله سنَة ذباب ولا سنَة غراب) فالذباب عند البادية يكثر في أيام الخصب، حين يكثر اللبن والسمن وأنواع الغذاء الأخرى التي يحصل عليها البدوي من جراء سمن إبله أو غنمه، واستفادته منها للاستعاضة من أثمان مايبيعه لشراء مايحتاج إليه.

أما الغراب فإنه لايكثر في البادية إلا في زمن القحط، عندما لاتجد الماشية ماتقتات به فتموت جوعًا، فتتكاثر الغربان على جيفها، ولهذا كان أبناء البادية يتشاءمون بالغراب.

والتشاؤم من الأمور التي أبطلها الإسلام، بخلاف التفاؤل، فالرسول عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن.

وفي ضحوة هذا اليوم وكنت جالسًا في بهو الفندق أبصرت أخانا الأستاذ محمد أنعم غالب الذي عمل معي في صحيفة "اليمامة" مايقرب من عام حتى نزعت مني، وكان يتولى الإشراف على إدارتها وكنت غائبًا في بيروت.

كان الأستاذ أنعم جاء إلى هذه المدينة لحضور أحد المؤتمرات ممثلاً لحكومته (الجمهورية العربية اليمنية) وقد أنست بالاجتماع به، وأمضيناها سويعات قصيرة في المساء ثم في اليوم الثاني حتى سافرت.

لملوك المسلمين في الهند آثار عظيمة ومنها (تاج محل) في بلدة (أكرا) وبإلحاح من أم محمد ومن ابنتنا كان الذهاب إلى (أكرا) في القطار، ومسيرة نحو ساعة ونصف ثم بالسيارة مثل ذلك، وكانت رحلة شاقة، لم يخفف من مشقتها ماشاهدناه من عظم الآثار في تلك المدينة، بل زادنا تعبًا على تعب، مع عدم الحصول على غذاء تطمئن إليه النفس من حيث النظافة.

ولا أدري هل لي أن أنصح من يزور تلك البلاد ألا تفوته مشاهدة آثار (أكرا) ولكن عليه أن يرتب أمر رحلته ترتيبًا يحقق له أن يكون سيره وطعامه وشرابه وفق رغبته هو، إذا أراد الراحة ومشاهدة أجمل ماينبغي أن يشاهد في هذه البلاد.

وفي مدينة (دلهي) القديمة – وهي متصلة بالجديدة – آثار إسلامية كثيرة من المساجد والمدارس وغيرها، ولكن عدم الارتياح وشدة الحر هنا مما حال دون زيارة شيء منها.

ولقد استأجرت سيارة أجرة في يوم السبت وبعد أن مررت بمكان يدعى (نظام الدين) فيه مسجد عظيم قديم أدركني الظمأ، وكنت قد عرفت بأن دار السفارة السعودية ليست بعيدة لأنني زرتها يوم الجمعة فقيل لي: إن اليوم عطلة ولم أقابل أحداً أعرفه، فذهبت في هذا اليوم ولكن الحارس أبى أن يسمح لي بالدخول قائلاً: إن اليوم عطلة أيضًا إذ يصادف أحد الأعياد الرسمية هنا وغداً يوم الأحد عطلة أيضًا، وحتى الماء قال بأنه لايوجد لديه ماء للشراب.

ما كانت إقامتنا في هذه المدينة مريحة، فالحر شديد، وعلى ماتتصف به من جمال في مظهرها بحدائقها الكثيرة فإن المرء عندما يتوغل داخل المدينة لايشاهد شيئًا مما يثير في نفسه الإعجاب أو الاستحسان.

وقد يكون منشأ هذا أنني صدمت عند وصولي إليها فأصبحت متأثرًا بما حدث لي يوم وصولي للمطار أو أن الوقت ماكان ملائمًا لشدة الحر.



إلى بمبي

ولم تكن الرحلة متعبة لقصر المسافة، وإن كانت الطائرة من نوع يروض الجسم، وإن لم يكن محتاجًا للرياضة، ولن يحتاج المرء في المطار عند الوصول إليه سوى حدة النظر إلى أمتعته، إن لم يستطع إمساكها بكلتا يديه، مع الاستعانة ببقية جوارحه إن أمكن.

كان السكن في فندق على ساحل البحر، متوسط في المدينة يعد من خير فنادقها وماكانت زيارة هذه المدينة مقصودة، ولكن منها سيكون الاتجاه للعودة إلى الرياض.

سارعت في صباح اليوم الثاني لزيارة (القنصلية السعودية) لأقابل الأخ عبد الله الحمد الشبيلي وهو أخ حبيبنا أبي سليمان، فكيف لايزار، وقد وجدت القنصلية تغص بمن فيها من طالبي سمة الدخول في المملكة للعمل، لذلك كان التريث للانتظار وماكان طويلاً ثم كان اعتذار من الأخ عبد الله بأنه عندما أبلغ اسمي توهمني شخصًا آخر، شاركني في الاسم واللقب، وليست المرة الأولى التي يجني على هذا الاسم أو أجني به على غيري، أذكر أنني في عام ١٣٧٣ وكنت إذ ذاك معاونًا لمدير المعهد العلمي في الرياض الشيخ عبد اللطيف بن ابراهيم آل الشيخ - رحمه الله - وكان مقر المعهد إذ ذاك في بناية (أم قبيس) في الشمسية، على مقربة من مقر مجلس الوزراء وكان في (قصر الحمراء) وفي صباح يوم من الأيام بعد أن تكلم الشيخ عبد اللطيف بالهاتف مجيبًا إلتفت إلي هامسًا وقال: إن مدير الشرطة أخبره بأنه سيبعث ضابطين ليأخذاني إلى السجن ثم استوضح مني عن السبب، فأفهمته بأنني لاأعرف سببًا، ومن الخير لي أن أذهب الآن قبل حضور الضابطين إلى مجلس الوزراء للاستيضاح عن الأمر، ولكنني حين قابلت الشيخ صالح العباد رئيس الديوان إذ ذاك وأخبرته قهقه ضاحكًا بأعلى صوته، واتصل بمدير الشرطة وأفهمه أن المطلوب للحبس شخص آخر، وهو سمي لي وأذكر مرة أخرى أنه حدث مني ماستدعى إدخالي السجن فالقي القبض على سمي لي كان صاحب دكان لاصلة له بالأمر الذي عوقبت من أجله بالسجن وبقي فيه حتى حللت محله.

رأيت عند الأخ الشبيلي الأخ رشيد رضوان وكان من تلاميذي حين كنت أدرس في (مدرسة تحضير البعثات) في مكة المكرمة وكان مديراً للخطوط السعودية في بمبي فأخبرته بأنني أريد السفر إلى الرياض، وقد اتصلت بقسم الحجز في مكتب الخطوط فوعدني الموظف وعداً غير مؤكد لوقت السفر، وأحب أن أتأكد من ذلك فقال: تذهب الآن إلى مكتب الخطوط لتقابل المدير الذي حل محلي فقد نقلت إلى جدة وأصبح الأخ محمد العُصيل هو المدير.

ولقد أكرم اللقاء وأحسن المساعدة، ويسر لي ماأنا بحاجة إلى تيسيره في الرحلة إلى الرياض، بل غمرني بفضله، وكرم خلاله – أعني الأخ محمد العُصَيْل– .

وكرم الأخ أحمد بن عبدالله القاضي من الأسرة الكريمة المعروفة وهو ذو محل تجاري في مدينة بمبي – كرم فزارني في الفندق، وأخبرني بأن كثيراً من العرب الموجودون في هذه المدينة يجتمعون في المساء في (المدرسة العربية الكويتية) وهي مدرسة أنشأتها حكومة الكويت في أول الأمر لتدريس أبناء العرب اللغة العربية، ولكن لقلة الطلاب أصبحت نادياً يضم مكتبة ترد إليها الصحف العربية وبعض الكتب، ويرتادها الزوار كل يوم، ويشرف على ادارتها الشيخ عيسى ابن عالم الكويت الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، والشيخ عيسى يشتغل بالتجارة، وله ابن هو الشيخ يوسف وهو قنصل الكويت في بمبي.

لقد زرت تلك المدرسة، وكانت غير بعيدة من الفندق الذي أسكنه، فقابلت الشيخ عيسى وابنه يوسف، كما قابلت تاجراً من اليمن هو الشيخ أحمد زيد اليماني من عدن، وكان ذا اطلاع على ماينشر من الكتب التاريخية، وقد قرأ بعض مؤلفاتي، واطلعني على مقال له نشره في مجلة "الحوادث" اللبنانية تعقيبًا على مقال كتبه الشيخ محمد ابن أحمد النعمان حول مذكراته. وممن عرفت في بمبي والفندق الذي أسكنه يجتمع فيه بعض مشاهير العرب المقيمين هنا – الأخ عبدالله الحسيني قنصل حكومة قطر، انه هو الذي عرفني فأتى إليَّ وأخبرني بأنني كنت من مدرسيه في مدرسة

الأحساء. ثم اتصل بالسيد أزهار صديقي، مدير الفندق فندق (شرتون) الذي أسكن فيه فأوصاه بي خيراً، فكان أن صار يتعهدنا دائماً برعاية خاصة. ارتحت كثيراً أثناء اقامتي في بمبي ولعل هذا يرجع إلى أمرين أحدهما أنني كونت مجتمعًا من هؤلاء الإخوة الذين عرفتهم، وصرت ألتقي بهم في الفندق أو خارجه، والأمر الثاني أنني وجدت على الشاطئ الممتد أمام الفندق المكان الملائم لممارسة الرياضة المحببة إلى نفسي وهي المشي، فهذا الشاطئ ممتد آلاف الأمتار، وقد حددت المسافات بالأرقام، فكنت أبدأ السير من محاذاة باب الفندق واتجه على الشاطئ حتى أبلغ رقم ألفي متر ثم أعود فأقطع أربعة أكيال (٤٠٠٠ متر) في أقل من ساعة إنني أقطع الكيل الواحد بثلاثة عشر دقيقة، وأسرع في المشي ولاأخشى أن ينظر إليَّ أحد نظرة فيها شيء من الاستغراب أو الانتقاد، وطالما شاهدتِ كثيراً من الناس، من رجال ونساء يسيرون في ذلك المكان ومنهم من يجري جريًا فاقلدهم.

أثناء زيارتي للمدرسة العربية الكويتية جرت أحاديث حول الكتب وكنت طوال الرحلة منصرفًا عنها، وقدم لي الشيخ عيسى القناعي بعض مؤلفات والده، وقال لي الشيخ أحمد زيد اليماني: إن في مكتبة الجامع الكبير في بمبي مخطوطات. فحرك كل هذا في نفسي زيارة بعض المكتبات ومنها المكتبة العامة في بمبي ومكتبة الجامعة، ولكنني لم أجد فيهما من المخطوطات ماأثار رغبتي في الاطلاع عليه.

ثم ذهبت يوم الجمعة إلى الجامع الكبير ويدعى (جامع القصاب) ذهبت مبكراً فرأيت مكتبة ملحقة به تابعة للمدرسة المحمدية، ووجدت في المكتبة شيخًا كبير السن سمى لي نفسه (محمد اسماعيل كافري) وأخبرني بأنه كان صديقًا للشيخ يوسف الفوزان - رحمه الله - وزميلاً له وقت الدراسة، ثم اطلعني على فهرس المكتبة، فرأيت من بين مخطوطاتها ديوان الشاعر اليمني محمد بن حِمْيَرَ، وهذا الشاعر من أشهر شعراء عصره يقول فيه أحدهم مقارنًا بينه وبين شاعر المخلاف السليماني القاسم بن هُتَيْمِل:

أمـا قصائـد قاسم بن هُتَيْمِلٍ فمذاقها أحـلى من الـصـهباء
هـــو شاعر في فنّه فَـطِنٌ ولا كِنَّ ابن حِمْيَرَ سيد الشعـراء

وديوان ابن حِمْيَرَ رقمه في المكتبة (٤٢٠) وقد كتب في هامش الورقة الأولى منه (الذاهب من أوله اليسير) وأول مافيه قصيدة من قافية الباء وآخره (تم الديوان في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٧٨٦ برسم مالكه . . . عمر بن المعافا بن خليفة بن الوحاري) . وملحق به "شرح الخمر طاشية" والخط جيد .

• ومن الكتب التي طالعتها في تلك المكتبة "تاريخ اليمن" للرازي أوله الجزء الثالث من كتاب التاريخ، فيه ذكر قدم صنعاء وفضلها وذكر بنائها، وآخره في التراجم (ترجمة زياد بن جبل وروايته) وهو مخطوط سنة ١١٣٤ - وقد طبع الكتاب بتحقيق حسين العمري، ورأيت في المكتبة العامة في بمبي - وقد زرتها - مجموعاً يحتوي على كتاب "طيب أهل الكساء والفُلْك الذي على جودّي النجاة رسى" في سيرة الإمام القاسم وأولاده وآخرهم المهدي، وقد أُلِّف سنة ١١٣٣ ، ومؤلفه هو محسن بن الحسن بن القاسم بن أحمد ابن الإمام القاسم وآخره (تم الجزء الأول ويتلوه الجزء الثاني في شهر جمادى الأولى سنة ٦٥ بعد الألف بمحروس صنعاء بقلم مؤلفه محسن بن الحسن بن القاسم بن أحمد بن أمير المؤمنين) ويتحدث فيه إلى حوادث سنة ٩٢ بعد الألف .

وهو مجلد ضخم يقع في ٤٣٢ ورقة .

ورأيت في تلك المكتبة مع الكتاب الأول الذي رقمه فيها (٣٤٢) كتاب "الجوهرة المنيرة في جمل من السيرة" في أخبار مولانا . . . أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي جمعها الفقير . . . مطهر بن محمد بن المنتصر الهادي الجرموزي ويحوي تاريخه مفصلاً وفيه (فصل في سيرته نسبه ومولده) وذكر قبل ذلك (تقرر مع محمد باشا الصلح الذي كان قد عقده ولده سلام الله عليه) وذكر فيه الحوادث إلى سنة ١٠٥٤ وذكر وفاة المترجم ومراثيه وأولاده وهو مخطوط سنة ١٠٦٥ ، ويقع في مجلد

ضخم، ورقاته ٣٦٣ وقد أصاب بعضها بلل أثر في الكتابة. لقد حرصت على الحصول على صورة من "ديوان ابن حِمْيَرَ" فذهبت مع ناظر المكتبة (الكفوري) إلى رئيسه، فبالغ في مقدار الأجرة - ولعله فعل ذلك ليصرفني - ولكنني أبديت له استعدادي لدفعها، فقال: لابد من الاستئذان من جهة أخرى، وهذا لايتم قبل أسبوع ووعدني بأن يكتب إلي لكي أحول الأجرة بعد الموافقة على التصوير. ولكنه لم يفعل!

وقد أكرمني علماء (جامعة عليكرة الإسلامية) بانتخابي عضواً في (المجمع العلمي الهندي) - قبل رحلتي هذه - فكان أن طلبت من الأخ الاستاذ مختار الدين أحمد، أمين المجمع، وعميد كلية الآداب في تلك الجامعة، المساعدة في الحصول على صورة لذلك الديوان، الذي كان أخي مؤرخ جازان الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي حريصاً على الاطلاع عليه، فأفضل - وفقه الله وأكرمه - بتحقيق رغبتي.

ولما شاركت اللجنة التي عينتها الإدارة الثقافية في الجامعة العربية، لدراسة أحوال المخطوطات، وحين اجتمعت في الكويت كان مما اقترحت إرسال بعثة للهند، لتصوير جميع ما في تلك المكتبة من المخطوطات المهملة، ولتصوير ما في مكتبتي جامع صنعاء في اليمن، وكان الأخ القاضي إسماعيل الأكوع في تلك اللجنة، فعارض في تصوير مخطوطات اليمن، وطلبت بعث مختصين بترميم ما اعتراها من آثار القدم، ولكن ما قررته تلك اللجنة اصطدم بالعقبة الكأدى، وهي عدم استطاعة الإدارة الثقافية من الناحية المادية.

إلى الباكستان

في شهر شعبان سنة ١٣٨٢هـ اتصل بي الأستاذ عبد الله بلخير المدير العام للإذاعة والصحافة والنشر، وقال: سيسافر وفد صحفي إلى باكستان، إجابة لدعوة موجهة من الحكومة الباكستانية، وأنت مع الوفد. فأخبرته أن الأستاذ عمران بن محمد بن عمران سيمثل جريدة «اليمامة» في الوفد كالعادة في أكثر المرات، فقال: إن سمو رئيس مجلس الوزراء الأمير فيصل، سمَّاك أنت، ولهذا أرجو أن تمرَّ بي في المكتب ومعك جواز سفرك. فلما اطَّلعَ عليه قال: سنذهب إلى وزير الخارجية، وكان الأستاذ إبراهيم بن عبدالله السُّوَيِّل، وبيني وبينه صداقة على أساس معرفة قديمة، في البعثة العلمية في مصر، ثم لما تخرج في (دار العلوم)، وعاد، وعمل مدرسًا في (تحضير البعثات) و(المعهد)، كما كان والده الشيخ عبدالله بن سُوَيِّل من أصدقائي، فذهبت إليه في الخارجية، ظنًا أنه سيبلغني بأمر يتعلق بسفري، وبعد محادثة بينه وبين بلخير على انفراد، قدم له جواز سفري لتغييره. فقال: يحتاج إلى أمر من وزارة الخارجية، فتناولته من بلخير، وقلت: لا أسافر إلا بهذا الجواز.

الشيخ محمد الحمد الشبيلي -رحمه الله- : كان سفير بلادنا في الباكستان أبا سليمان الشيخ محمد الحمد الشبيلي، فلما عدت مع بلخير إلى مكتبه دعا أحد موظفيه، وأملى عليه برقية موجهة للسفير عن توجه الوفد، وموعد وصوله إلى (كراتشي) فرجوته عدم بعث تلك البرقية، بغية راحة أبي سليمان فقد أدركت أنه كان يرهق نفسه بكثرة ما يبذله في سبيل قيامه بالاحتفاء بإخوانه وإكرامهم، بطريقة فوق التصور، بحيث أنني كتبت مرة – لما سُئِلْتُ عن البلدة التي لا أهوى السفر إليها، فقلت: البلدة التي يكون الشيخ محمد الحمد الشبيلي فيها. وما ذالك إلا لما عرفت عنه مشاهدة وإخباراً بالنسبة لتصرفه المتجاوز للحد في الشهامة والكرم والنبل.

كان المرور ببيروت، ومنها إلى كراتشي، والوصول قبيل الفجر إلى مطارها في ليلة مقمرة، وإذا بي أشاهد من نافذة الطائرة أبا سليمان، عند مدخل المطار، وسرعان ما

استقبل القادمين ياسين طه، وأحمد محمد جمال، وحمد الجاسر على سلم الطائرة، ولم يستقبلنا أحد من وزارة الإعلام الباكستانية، الموجهة منها الدعوة، وها هو مكان الاستقبال فموظفوه يعرفون عن أبي سليمان ما يسرهم، وها هي ثلاث سيارات فيها سيارة السفير ،الذي لم يذهب حتى تفقد غرفة كل واحد، ودعا رئيس العاملين في الفندق، وأوصاه ببذل العناية، وتهيئة كل ما نحتاج، قائلاً له : هاؤلاء ضيوفي. وقال : إنه سيعود إلينا بعد أن نرتاح. قرب وقت الصلاة، فاليوم الجمعة، وسيكون الذهاب معه لأدائها.

الشيخ خليق الزمان : أتى أبو سليمان حين قرب الوقت، فذهب بنا إلى الجامع، وتقدم للصلاة والخطبة قبلها شيخ قارب الثمانين من عمره، أبرز ما لفت النظر منه عظم لحيته وطولها، ولم نفهم من الخطبة حرفًا، فهي بلغة (الأردو) وقراءته الفاتحة والآيات بعدها فيها لكنة، وعدم إخراج الحروف من مخارجها، وبعد الصلاة اجتمع حوله جمع غفير، وصار يتحدث بلغة لا نفهمها، فأدرك صاحبنا تململنا، فقام بنا.

قلنا لأبي سليمان : من هذا الشيخ الذي اخترت الصلاة معه؟! فقال : هذا عالم باكستان، مولانا خليق الزمان! وهو الذي أثارها حين نشرت « اليمامة » : مرحبًا برسول السلام – عن نهرو – لا على الصحيفة وصاحبها خاصة، بل على الحكومة السعودية، التي تجيز في صحفها نشر هذا الكلام الذي يُعَدُّ كفرًا، إذ يصف إنسانًا وثنيًا من عبدة البقر بأنه رسول، فكان أن استدعي سفير بلادنا، بعد قيام الصحافة الباكستانية بهجوم سَيِّئٍ. ولم تهدأ الحالة إلا بعد فترة من الزمن، حيث حللت محل السفير وعولجت الأمور بحكمة.

علمت وزارة الإعلام – من قبل السفير، وبقينا في الفندق الذي اختاره لنا، بعد أن هيأت لنا سيارة واحدة، ومرافقًا هو وكيل الوزارة، وكان يحسن اللغة العربية، وكان (البرنامج) الموضوع لهذه الزيارة مستغرقًا أكثر الوقت، منها زيارة رئيس الجمهورية (غلام محمد) وهو على جانب من اللطف والبشاشة، ولكنه لا يحسن إلا (الأردو)

واللغة الإنجليزية، وقد طرق بعض الموضوعات السياسية، إلا أننا أبدينا للمترجم أن كل واحد منا يمثل صحيفة لا مجال للسياسة فيها. فهي من شؤون الدولة.

في زيارة مولانا أبي الأعلى المودودي : أبدى الأستاذ أحمد محمد جمال الرغبة في زيارة الشيخ المودودي، ويظهر أن بينه وبين حكومته جفوة كما بدا من المرافق، فذهبنا إليه في بيته. فقال: أنا أعرف فلانا -يعنيني- وقد كان في إحدى زياراته المملكة، أقام في الرياض أيامًا يتردد عليَّ في الصباح، ويمضي فترة من الوقت، يوجه إليَّ أسئلة تتعلق بتحديد مواقع الغزوات والسرايا، الواردة في «السيرة النبوية» فأجيبه بما يظهر لي من معرفتها، ويسجل ذلك في دفتر معه فقلت له إذ ذاك: لعلك تنقله للعربية ثم ترسله إليَّ كي أُصَحِّحَ ما قد يكون وقع فيه من خطإٍ، فلم يصل إليَّ منه شيء، ولكنه قال عند مقابلته: أنت أستاذي في الآثار، وقد ذكرتك فيما كتبته عنها، وأرسلت لك نسخة منه باللغة الانجليزية، فأخبرته بأنني لا أحسنها، ولم يصل إليَّ ما بعثت.

سأله الأستاذ أحمد: لماذا لا يذهب إلي إفريقية لنشر الدعوة الإسلامية؟! فقال -ووكيل الوزارة يسمع-: لم تسمح لي هذه الحكومة (الفاجرة) بالذهاب!

لم يكتف الأخ أحمد -رحمه الله- بذالك، فعندما دعانا وزير الإعلام لمقابلته: قال للمترجم: سل الوزير لما لم تسمح الحكومة الباكستانية لمولانا أبي الأعلى المودودي بالسفر إلى افريقية لنشر الإسلام؟! قلت للمترجم: اترك هذا السؤال، وقل إن الوفد يشكرونكم على حفاوتكم وقد اجتمع ببعض العلماء ومنهم أبو الأعلى المودودي. وعند الرجوع عاتبني الأخ أحمد، فقلت له: المودودي باكستاني وليس من اللياقة أن نتدخل في أمر بينه وبين حكومته، وهَبْ أن صحفيًا باكستانيًا وجه مثل هذا السؤال لعبدالله بلخير بأمر يتعلق بك أو بي ألا يكون جوابه: ولما تتدخل في شأن من شؤوننا الخاصة، إلا أنه تمادى في اللجاج، ثم الجفوة بيننا فترة، ولكنها زالت.

كانت الحكومة إذ ذاك في بلدة تدعى (راول بندي) ففيها أمكنة معدة للوزارة، ولمختلف الدوائر، من عهد الاستعمار البريطاني، وقد قررت اتخاذ قاعدة للبلاد

(عاصمة) على مقربة منها هي (إسلام آباد) وقد خططت، ولكن لم يبدأ عمرانها، وهي على مقربة من نهر يدعى (راول) في مكان مرتفع فسيح.

أتاحَتْ لنا الحكومة الباكستانيه كثيراً من وسائل الراحة، على ما تعانيه من سوء حالة اقتصادية، فأزارتنا كبريات المدن، ومنها مدينة لا هور، التي احتفى بنا مدير جامعتها، وقدم لنا بعض مطبوعاتها العربية ككتاب ابن الفوطي في « الألقاب » وأجزاء من مجلتها، ومنها الجزء الذي نشر فيه الأستاذ عبدالعزيز الميمني « رسالة عَّرام بن الأصبغ السلمي » عن تهامة، كما زرنا (مَمَرَّ خيبر) الواقع بين دولتي باكستان وافغانستان، وفيه جرى الخلاف بينهما كل واحدة تدَّعيه، وأماكن أخرى منها موضع يضم كثيراً من الآثار الهندوسية، بصور منحوتة من الصخر، أو مصنوعة منه، تتوسطها صورة ضخمة لـ(بوذا) تمثل رجلاً عاريًا، وهذا الموضع في جهة مرتفعة شديدة البرودة، بدون أن نحتاط للاستعداد لزيارة ذلك المكان.

وفي ثالث يوم: أقام أبو سليمان حفلة عشاء لم يترك أحد من الوجهاء والأعيان من علماء ووزراء وسفراء إلا دعاهم.

الشيخ عبدالعزيز الميمني: وكان من بواعث سروري تلك الليلة أن كان من بينهم أستاذنا العلامة الشيخ عبدالعزيز الميمني، وقد سبق أن جرى تعارف بيني وبينه بالمكاتبة، فقد نشرتُ مقالاً في « مجلة المجمع العلمي العربي » بدمشق بنقد طبعة الأستاذ محمد عبدالسلام هارون، لرسالة عرَّام، وأوضحت تجاهل عبدالسلام لعمل الميمني في تحقيق الرسالة، مع أنه أشار إليه في مقدمة « نوادر المخطوطات » حين قدم له الشيخ سليمان الصنيع الرسالة لنشرها، فذكر أن الميمني سبق أن حققها ونشرها، ثم اطلع على عمله إذ قدم له الأستاذ رشاد عبدالمطلب نسخة من « مجلة جامعة لاهور » -كما قدم لي- فنشرها الأستاذ عبدالسلام بعد إطلاعه على عمل الشيخ الميمني، وهو عضو في (المجمع العلمي العربي) بدمشق، فلما اطلع على ما كتبت وجه لي رسالة شكر بواسطة الملحق الثقافي في سفارة باكستان[1].

---

(١) نشر المقال في مجلة المجمع، المجلد ٢٨ العدد ٣ ص٣٩٦ - ٤٠٢ شوال ١٣٧٢ والعدد ٤ ص٥٩٣-٥٩٩ محرم ١٣٧٣هـ.

وتكرر اللقاء بالشيخ الميمني، ودعاني إلى زيارته في بيته، فاطلعت على مكتبته، وجُلُّ ما فيها من الكتب من النوادر، مما نقله هو بخطه، أو أختاره بالتصوير، أو بعض المطبوعات القديمة، وكان ذا اهتمام بالغ بالبحث عن نوادر الكتب، وله أبحاث واسعة في وصف كثير منها نشر في أشهر المجلات العربية.

وعرفت ابنه عمر بن عبدالعزيز وهو المشرف على تنظيم مكتبة أبيه، إلا أن ثقافته إنجليزية، ولهذا فأسماء الكتب بالحروف اللاتينية، وهو لا يحسن من العربية سوى كلمات يسيرة.

وعلى ذكر اللغة الانجليزية فإنها هي اللغة المستعملة الرسمية في باكستان في الدوائر الرسمية والمدارس والجامعات، واللغة العربية قل أن يحسنها إلا بعض العلماء، والأساتذة ممن درس في بعض البلاد العربية، ولولا المترجم المرافق للوفد – وهو يجيد العربية، ويكتب بها بعض المقالات. وكان على جانب من الأدب وحسن الأخلاق – لما استطعنا التفاهم مع من نقابل.

الباكستان في ذلك العهد كانت قسمين باكستان الشرقية وباكستان الغربية، وكان من المقرر زيارة القسم الشرقي، وزيارة جامو وكشمير، ومَمَرّ خيبر.

وكان أبو سليمان – رحمه الله – قال لنا: إن المقصود من دعوتكم ليس لإكرامكم، وتهيئة الوسائل لمشاهدة ما قد قرر في (البرنامج)، ولكن يراد منكم عند زيارة (جامو وكشمير) وزيارة (ممر خيبر) أن تتحدثوا بما يؤيد حق الحكومة الباكستانية فيهما، وينبغي أن تلاحظوا أن حكومتنا على الحياد في الأمرين، وانتم لا تمثلون إلا صحفكم التي لا تخرج عن هذا.

إلى باكستان الشرقية: والذهاب إليها بحراً، إلى ميناء (دكا) ثم الانتقال من الميناء بواسطة عربات تتسع الواحدة لجلوس انسان واحد، ويجرُّها رجل، إلى موقف السيارات، مسافة تقرب من أربعة أكيال – ثم الذهاب بالسيارة إلى مدينة (شِيْتَا قُنقْ)

تتوسط أرضًا تزدان بنبات الشاهي، المشابه للقضب (القت) في مسافات واسعة، وتنتشر بينها الدارات (الفلل) من مخلفات الانجليز، وقد اكتظت بالسكان لكثرتهم، بحيث يتجاوز من في الدارة التي لا تتسع إلا لخمسة أكثر من خمسين نفسًا، وقد أخْلِيَتْ إحدى الدارات الجميلة الواسعة. وهُيِّئَ فيها ما يلزم للوفد، وهم خمسة بما فيهم المترجم وسائق السيارة.

ومع أن هذه البلاد على جانب عظيم من الخصوبة، بكثرة أنهارها، وانتشار مزارع الشاهي فيها إلا أنَّ البؤس يبدو ظاهراً بين السكان، والذي يقوم بقطف أوراق الشاهي نساء بائسات، تمضي الواحدة بياض نهارها في العمل مقابل أجر أقل من ربّية، تشتري حفنة من الأرز، وتطبخه مع الماء دون ما يصلحه، وهو طعامها في اليوم هي وأبناؤها. ويبدي أهل البلاد من الثناء على حالتهم الماضية ما يدل على أنهم خير مما هم فيه الآن. والأمراض بينهم منتشرة، فالبعوض منتشر بصورة مذهلة، ولسعه أشد من لسع النحل، بحيث أزعجنا ليلاً، فلم يَنَمْ إلا من يتحمل الحرَّ الشديد بغطاء ثقيل.

أقامت نقابة الصحفيين حفلة تكريم للوفد، تبارى فيها عدد من أصحاب جرائد مسماة بالترحيب، سوى مدير وكالة أخبار، وصاحب جريدة وكانت أسماء أعضاء الوفد الثلاثة كتبت أمام المَنصَّة، وكتب اسم كل صحيفة مع اسم صاحبها، ومنها «اليمامة» فأفرغ الخطيب ما في جعبته في النيل من هذه الصحيفة وصاحبها، وشمل بهذا حكومته وبلاده، وكان على الوفد أن يلقي كلمة شكر النقابة على هذا الاحتفاء، فتولَّيْتُ إلقاءها وكنت قد سجلت اسم ذلك الخطيب، وشاهدته حليق اللحية، وبعد أن أنهيتها، وأثنيت على الحكومة الباكستانية لما أضفت على الوفد من وسائل العناية والاكرام، طلبت من ذلك الخطيب الدنو من المنصّة، ووجهت إليه السؤال: من الذي كفر صاحب اليمامة؟ فقال: مولانا خليق الزمان فقلت: ما رأي مولانا خليق الزمان فيمن يحلق لحيته -مُشِيْراً إليه- فضج أكثر الحضور: كافر! كافر! وبهذا تخلصت من وَرْطة كدت أن أقع فيها!!

في مَمَرّ خيبر : عند بلوغ الحدود الباكستانية شاهدنا جنوداً، يقابلهم جنود آخرون قيل لنا إنهم من الأفغان، فرغبنا التقدم إليهم بالسيارة، فحذرنا الجنود الباكستانيون، وقالوا : إنهم سيؤذونكم! فقلت لصاحبِّي : لندع السيارة ونذهب مشاة! فكان ذلك، وإذا بمن حذرونا من أذاهم يقابلوننا بباقات من الزهور، وبالشراب المبرد، ويدعوننا للاستراحة في خيمتهم!

إلى (جامو وكشمير) : في مدينة (سْرِيْنَقَرْ) استقبلنا قائد المنطقة، ويدعى (خرشيد)، وفي مكان الاستقبال قُدِّم لنا نوع من المشروبات المحرمة، فانتبه المترجم -وهو وكيل وزارة الإعلام- فأخبره أننا مسلمون، ولا نشرب هذا، فغيِّر بعصير فواكه، وأُعِدَّ لنا غداء في العراء، لكثرته وكثرة حاضريه، وبعد الانتهاء أُدْخِلْنا مقر الإذاعة، وطُلب من كل واحد منا أن يتحدث عن مشاهداته في باكستان، وعن رأيه في (جامو وكشمير) فما كان مني ومن الأخ ياسين إلاَّ الثناء على حكومة باكستان، وشكر القائد خرشيد، وجميع أهل (سْرينقر) على الحفاوة التي قابلوا بها الوفد، ولم نتعرض لغير هذا. أما الأخ أحمد جمال، فقد استرسل في الحديث عن حق باكستان بهذه البلاد (جامو وكشمير) وهي جزء يحله مسلمون يجب ضمه وإلحاقه بباكستان، ونحو هذا.

بتنا تلك الليلة في (سِرِيْنَقر) وعندما أردنا الخروج في الصباح للعودة، إذا جماهير من الناس تقابلنا فتطوق أعناقنا بالزهور، وترحب بنا، وإذا عدد من الصحف قد أبرزت في صفحاتها الأولى ما معناه : أن الوفد الصحفي السعودي يقرر وجوب ضم كشمير إلى باكستان!

كانت العودة إلى كراتشي، وأثناء مقابلة أبي سليمان، وكان متأثراً مما نشرته الصحف، مع أنه سبق أن حذرنا من الخوض في هذا الأمر، فكان أن أبدى لي -بطريقة كلها لطف وأدب- بعض العتب، حتى أوضحت له حقيقة الأمر، ورجوته أن يطلب من الإذاعة كلماتنا مسجلة.

وكان الشيخ الميمني -رحمه الله- نصحني بالذهاب إلى الهند لزيارة مكتبات سماها، وذكر لي بعض ما فيها من نوادر الكتب[1]، وكتب معي لبعض العاملين في تلك المكتبات، يعرفهم ويوصيهم بي، فأظهرت رغبتي في السفر للهند، ودفعت جواز سفري لأبي سليمان ليبعث به لسفارة الهند لسمة دخول تلك البلاد، غير أنه -رحمه الله- اتصل بي وقال: إنهم ترددوا في منح السمة، والملحق الثقافي في السفارة الهندية يحسن اللغة العربية، والجواز عنده، وسيتصل بك بعد قليل، بناء على رغبته، ثم اتصل بي مبديًا تأثره مما نسب إلى الوفد الصحفي، فأظهرت له، أن كل واحد من الوفد يتحدث باسم صحيفته، والصحف هنا نَسَبَت القول للجميع خطأ، فطلب نشر هذا، فلما استشرتُ أبا سليمان قال: لا فنشره يغضب الحكومة التي دعتكم، ومن الخير عدم بحث الموضوع، وسأحاول مع الملحق الأمر، ثم اتصل بي وأخبرني بأنها لم تُجْدِ محاوَلَتُهُ حتى مع السفير نفسه !

وكان التأهب للعودة، سبقتها دعوة للغداء في بيت أبي سليمان، والجلوس في مكتبته، وهي تحوي مجموعة حسنة من الكتب فتناول كل واحد من الإخوة كتابًا يطالعه، فقال: كل هذه الكتب أحضرناها للتوزيع، فصدق الأخوان هذا، واحتضن كل واحد منهما عددًا منها، فدعا من وضعها في السيارة، وكنت رأيتُ «تفسير ابن جرير» بتحقيق أحمد ومحمود شاكر، فصرت أنظر إلى أي جزء نشر، فدعا الرجل ليحمله إلى السيارة فقلت: هو عندي في الرياض، فقال: خُذْ هذه النسخة وقدمها لمن يحتاجها! فأقسمت أن لا آخذها، ولكنني بعد نحو شهرين اتصل بي الشيخ محمد بن صالح بن سلطان، -وكان وكيل وزارة الدفاع- وقال: بأن عندنا لك صندوقًا أبعث من نسلمه له، وإذا في داخله ذلك التفسير!

وعند الخروج قال: إذا أراد أحد منكم أن يشتري شيئًا فسأرسل إليكم في الصباح أحد موظفي السفارة ممن يحمل جوازًا سياسيًا لكي يساعدكم في ذلك فقال: ياسين

---

(١) عن المخطوطات الإسلامية في المكتبات الهندية انظر جريدة «الحياة» ع١٢٩٥٦ في ٢/٥/١٤١٩هـ (٢٤/٨/١٩٩٨م).

أنا وصاني صديقي أحمد سراج في السفارة في بيروت أن آتي بثوب (ساري) لزوجته وقال أحمد : (أُوصيْتُ على دهن العود الطيب . وقبيل الظهر يبعث أبو سليمان ثلاثة صناديق صغيرة في كل صندوق ٤٨ قنينة من أنواع العطور المختلفة . لكل واحد منا صندوق، واثنى عشر نوعًا من (الساري) مما تلبسه النساء الهنديات !

الخاتمة: رحلة بين الرحلات

قد يقال: وماذا استفدتَ من تلك الرحلات التي تحدثت عن بعضها؟ وأي أثر أحدثته في نفسك؟ وبالإجمال كيف تتصورها الآن في ذهنك؟

من المدرك -بداهة- أن الأسفار أيًّا كانت، وإلى أية جهة من جهات العالم، هي من أقوى الوسائل لتوسيع مدارك الإنسان وتفتح ذهنه، باطلاعه على أحوال أناس يجهلهم، ومشاهدته بلاداً تختلف بطبيعتها عن البلاد التي عاش فيها، وفوق ذلك كله استزادته من معرفة أشياء كان يجهلها، مع ما يضاف من إمتاع الجسم بما قد يمنحه كثيراً من الصحة والنشاط، ومن إنعاش نفسه بما يستمتع به من جمال مظاهر الكون، وطبيعة البلاد، وتغير البيئات.

والأسفار -وإن كانت على وجه العموم- قد وُفِّرت جميع وسائلها بطرق مريحة، تمكن ذوي المقدرة من مشاهدة جميع أقطار العالم، في مدة وجيزة وفي غاية من الراحة والاستمتاع بما تتوق إليه النفس من أنواع التسلية، ولكنها - مع ذلك لا تزال (قطعة من العذاب[1]) لمحدودي القدرة، إذ سيعترض المسافر من هؤلاء كثير من المتاعب والمشاق، وقد يحدث له من اختلاطه ببعض من تضطره الحالة إلى الاختلاط بهم ما قد يسبب له بعض الضرر في نفسه أو ماله، فالناس هم الناس، في كل زمان ومكان، منهم الطيب والصالح والخَيِّر، ومنهم أضداد هؤلاء، ولابُد للإنسان من مخالطة بعض هؤلاء، مما تقضي به ضرورة الحياة، شاء أم أبى.

وليس القول بأن (الإنسان مدني بطبعه) على إطلاقه بل هو يتصف بصفتين من أبرز صفات الحيوان المتوحش، هما الظلم والجهل ﴿إنه كان ظلومًا جهولا﴾[2] ولكن حاجته إلى العيش في حالة اجتماعية لها أخلاقها وآدابها، ونظمها التي يُفْرَضُ عليه

---

(١) كما ورد في الأثر المنسوب للنبي ﷺ.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

التقيد بها، ثم ما اكتسبه من أنواع المعرفة لتنظيم حياته وفق حياة مجتمعه أيًّا كانت مصادر تلك الأنواع -هَذَّبَتْ من طباعه، بطرق مختلفة متفاوتة، فهناك من لا يزال يغلب على طبعه من آثار الوحشية، ما قد يحاول أن يهتبل غِرَّةَ غيره لإيقاع الضرر به، وهناك -وهم الأعم الأغلب- من صقلتهم التجارب، وأثرت في نفوسهم طبيعة الحياة الاجتماعية ومتطلباتها، فأدركوا ضرورة التقيد بنظمها وقوانينها التي بها تستقيم أحوالهم، وتنتظم حياتهم العامة بما ينفعهم.

والغربيون -بمن فيهم الأمريكان- قد تفوقوا في العلوم التطبيقية تفوقًا مكنهم من تغيير الحياة على وجه البسيطة، في جميع مظاهرها ووسائلها واحتياجاتها بمخترعات الحضارة من كل أنواعها مما يذهل ويدهش.

والتفوق في تلك العلوم أثر من آثار تنوع المعارف، وتقدمها في مختلف العلوم الأخرى، ولإدراكهم لمنافع تلك العلوم سعوا -جادين- بمختلف الطرق- لتهيئة جميع الوسائل لتسهيل نيلها، والاستزادة منها، فأكثروا من فتح المدارس، ومعاهد الدراسة التطبيقية، والجامعات بمختلف تخصصاتها، وأنشأوا النوادي المختلفة، ودور الكتب، ويَسَّرُوا ارتيادها للراغبين، ووفروا -مع كل ذلك- متطلبات إمداد الأجسام بطاقات حيوية، حين يعتريها السأم والملل من مزاولة الأعمال الجسمية أو العقلية الجادّة، لقضاء فترة من الوقت بالراحة ببعض الوسائل المنوعة، حركة أو مشاهدة، أو استمتاعًا.

والغربيون في كل ذلك، وإن لم يسبقوا الشرقيين في إدراك منافع بعضها، إلا أنهم بَرَّزُوا عليهم الآن فيها، ولكن ليس معنى هذا أنهم بلغوا مرحلة من التقدم الفكري والخلقي تبرزهم مبرئين من جميع النقائص الإنسانية، إنهم كغيرهم من بني الإنسان، ومن بينهم من بلغ في توحشه وغلظته ما أربى على الحيوانات المفترسة، ومنهم من يتمتع بقسط وافر من السمو الخلقي في مختلف تصرفاته.

ويأتي الحديث عن طبيعة البلاد، فأوربا على وجه الإجمال فيما شاهدتُ منها وهو

بعض جوانبها- تكثر فيها الأنهار والبحيرات، وتهطل الأمطار، وتنزل الثلوج بغزارة وكثرة، ولهذا غَلَبَ على تلك البلاد خصب أغلب أراضيها. ونمو الأشجار الباسقة التي تكوِّن كثيراً من الغابات، وتزدان الأرض بأنواع النبات، مما يجعلها في أغلب الأوقات - تمتع المرء بجمال طبيعتها، وهذا مما يكسب أهلها من الحيوية والقدرة على الأعمال ما امتازوا به على كثير من سكان أقطار العالم.

والولايات المتحدة من حيث طبيعة البلاد تشابه أوربا، وتكثر فيها الصحاري القاحلة، مما شاهدت بعضه سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) حيث كان السفر بالقطار من شيكاغو إلى كليفورنيا - أي من شرق البلاد إلى غربها، لإضراب الطيارين وقت السفر، وشاهدتُ في ولاية تكساس ما ذكرني بجبال الطائف وطبيعة أرضه.

أما مظاهر العمران فمن فضول القول الحديث عنها في تلك البلاد، ولكن مما يبالغ به بعض زائري تلك المدن وصف نظافتها التامة، وخلوها من الحشرات المؤذية، ولقد وجدت الأمر بخلاف هذا في أهم ما زرته منها كمدينة لندن، وباريس، وروما، وواشنطن، مما أشرت إلى بعضه.

وأهم من ذلك ما يوصف به بعض الغربيين من صدق وأمانة فهذا ليس عامًّا وسيأتي فيما سأعرضه مما حدث لي أثناء العلاج بعض ماله صلة بهذا. وذلك بالنسبة لأطباء يعدون من أرقى طبقات المجتمع ثقافة، فكيف بمن دونهم؟

ولعل القارئ لاحظ ما ذكرت عن (مكتبة بريل) في ليدن، أشهر مكتبة تُعنى بنشر الكتب العربية وتوزيعها في أوربا، حين اشتريت من أصحابها بعض مطبوعاتهم، فاستوفوا أكثر من أثمانها، ثم موقف أحد موظفيها معي، حين مررت على معرض الكتب التي اقامته المكتبة المذكورة في (جامعة السربون) أثناء انعقاد (مؤتمر المستشرقين) فسألته عن أحد مطبوعاتها، فذكر أنه سيبعثه إليَّ من (ليون) وطلب مني ثمنه، وكتابة عنواني في بلدي، فلما كتبت الورقة وقدمتها له، إذا به يحاول أخذ قلمي مني، وكذا عمل موظف الحافلة التي ركبت فيها من مطار (فرانكفورت) إلى المدينة

فدفعت مبلغًا من النقد ليصرفه. ويأخذ الأجرة التي أجهلها. فبخسني حقي، ولم أدرك ذلك إلا في الفندق، وصدق المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإنْ تَجِدْ
ذَا عِفَّةٍ فلعلَّةٍ لا يَظْلِمُ

وهذا عام في الغربيين والشرقيين.

ولن يعدم المسافر بعض الخَيِّرينَ، الذين لا يَضِنُّون عليه بأية مساعدة في جميع البلاد، كما حدث لي في مكتبتي المتحف البريطاني، ودير الاسكوريال في أسبانيا، ولكنني في الزيارة الثانية لمكتبة المتحف، وقد حل محل صاحبي الأول آخر عربي، فَقَدتُ ما عهدته في المرة الأولى، وفرق بين عالم يدرك قيمة العلم، وضرورة المساعدة على نشره وبين إنسان كالآلة- لا يعنيه في الأمر سوى الحفاظ على أدائه للعمل، الذي يجهل أهم غاياته، وهو تيسير الانتفاع بما هو مكلف بالقيام به.

هي لمحات قد يكون فيها تصوير جوانب لبعض تلك الرحلات.

على أن مما ينبغي إدراكه أولاً أنني لا أتحدث إلا عن بعض مظاهر الأشياء التي شاهدتها، حديث العابر، وليس لديَّ من الوسائل ما يمكنني من إدراك حقائقها، فذلك لا يتسنى إلا لِمَنْ مكث فترة من الزمن، مختلطًا اختلاطًا تامًّا بأهل البلاد، مشاركًا لهم في مختلف أحوالهم، مُتجهًا لهذا الجانب اتجاهًا كاملاً، وما أردتُ إيضاحه لا يعدُوْ لمحات عابرة، أثناء مرور سريع من إنسان قاصر الإدراك في بلاد يجهل فيها كل شيء، يضاف إلى هذا أنني كثيراً ما أسافر وحدي، ومن هنا فقد أتعرض لكثير من المتاعب، ولبعض المضايقات من بعض العامة، كالعمال الذين يتعرضون لمساعدة المسافرين، ولا يكتفون بما يقدم لهم من أجر، وكذا سائقي سيارات الأجرة، مما يحدث مثله في كل بلاد، لمسافر فردي، يُطمع فيه. ولن أشغل ذهن القارئ بأمر يدركه.

ولن يبلغ بي الأمر مجاوزة الحدّ فيما تحدثت به عن مشاهداتي في بعض أسفاري،

إذ أدرك قبل غيري بأنها لا تمد القارئ بما يتطلع إليه تَطلُّعَ استفادة، أو استزادة معرفة، فهي لا تعدو ما يشاهده أي مسافر قاصر الإدراك، غير أن المرء من طبيعته النظر لبعض تصرفاته نظراً مغايراً لما يبدو لغيره منه كما أشرت إلى هذا في المقدمة.

وهذه ملامح مما حدث لي في بعض تلك الرحلات إلى بلاد أوربا الغربية وأمريكا، وسأتبعها بعرض جوانب من رحلاتي إلى بلاد أوربا الشرقية، إذ كانت ذلك العهد تختلف بنظمها الاجتماعية، ومنها معاملاتها لزائريها.

ومن المعروف أن الناس مختلفون في طباعهم وأخلاقهم، وفي معاملاتهم، وأنواع سلوكهم مع الآخرين، والمسافر -في الغالب- يضطر إلى التعامل مع جميع طبقات المجتمع الذي يعيش فيه مع العالم والطبيب والمثقف فمن دونهم وهؤلاء ليسوا على حد سواء في أخلاقهم وسلوكهم ومختلف طباعهم.

وسأكتفي بعرض لمحات موجزة عن صلتي ببعض من يعدون من أعلى طبقات المجتمع علماً وثقافة كالأطباء والمثقفين، أمَّا من دونهم فهم كغيرهم في كل البلاد.

وقد أضيف إليها أمثلة لها صلة بما ذكرت في مختلف البلاد، فالناس هم الناس وإن اختلفت أجناسهم وتغايرت بيئاتهم ومجتمعاتهم.

قمت بعدة رحلات إلى أشهر المدن الأوربية، كمدينة (لندن) والأسكوريال، و(باريس)، أهمها للاستفادة والاستزادة من المعرفة، مشاهدة، واجتماعًا ببعض العلماء، واطلاعًا على أحوال العالم، وزيارة دور العلم، وخاصة المكتبات، للبحث عما يتعلق بمختلف أحوال العرب والمسلمين عامة من المخطوطات القديمة، والواقع أنني استفدت من هذه الرحلات، مع مالاقيته في كثير منها من المتاعب، فقد كنت في أغلبها أفضل السفر وحدي، وأنا لا أحسن إلا اللغة العربية، وقليل في تلك البلاد من يحسنها ممن أنال مساعدته أوقات الاحتياج.

ومما قَوَّى عزمي أنني كنت في مقتبل العمر، ومقبلاً على أمري برغبة قوية ونشاط

حيوي متجدد، فكنت لا اكترث مما قد يعترضني من المشقات، بل يزيدني اندفاعًا وعزمًا وتصميمًا لإدراك ما اتجهت إليه. فكان أن زرت أشهر المكتبات العامة في المتحف البريطاني ودير الاسكوريال. وفي اصطنبول، فاطلعت على كثير من نوادر المخطوطات واستطعت الحصول على صور عدد مما رغبت تصويره، مما تحدثت عنه في القسم الخاص لهذا من رحلاتي[1]. ومن تلك المخطوطات ما تمكنت من تحقيقه ونشره، كالجزء الأول من «أدب الخواص» لابن الوزير المغربي و«الأماكن» للحازمي، وكتاب نصر الاسكندري «الأمكنة والمياه والجبال والآثار».

ومن المدرك بداهة تفوق الغربيين في أهم فروع المعرفة، وخاصة العلوم التطبيقية، مما مكنهم من إثراء الحضارة الانسانية بمتطلباتها، من مختلف الصناعات الحديثة، ووسائل الحياة المتنوعة، ولإدراكهم لقيمة العلم، فهم أكثر حرصًا من الشرقيين لضرورة تيسير تحصيله بمختلف الطرق، ومنها تسهيل الاستفادة مما في المكتبات العامة.

واستفدت من زياراتي تلك البلاد لمجرد الاطلاع، وإدراك ما أتمكن من إدراكه مما يتصف به سكانها من خصائص مميزة بالنسبة لما أعرفه عن غيرهم، غير أن هذا لا يتسنى لمن لا تطول معاشرته واختلاطه بهم، وخاصة من كانت زيارته فترة قصيرة، وهو مع ذلك يجهل الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من معرفتهم، وهي لغتهم، ولهذا كانت تلك الاستفادة محصورة بمشاهدة المظاهر العامة وأبرزها طبيعة البلاد، وبعض أحوال السكان العامة.

ومن بواعث بعض أسفاري لتلك البلاد العلاج، فقد أقمت في بيروت نحواً من خمسة عشر عامًا، حتى حدثت فيه الفتنة الأخيرة بين سكانه، بعد إشعال أوراها من أعدائهم، فمكثت محصوراً وحدي في منزلي أيامًا، حتى تأثرت صحتي، فلما عدت إلى الرياض – في عهد الملك خالد بن عبدالعزيز، تغمده الله بغفرانه – وشاهدني عند السلام عليه قال: أنت بحاجة إلى علاج ولابُدَّ من سفرك إلى المستشفى الذي عُولجتُ

---

(١) «رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث» الصادر عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

فيه في (كليفلند) في الولايات المتحدة الأمريكية وأمر لي ومعي أم محمد - بتهيئة جميع الوسائل، للعلاج في ذلك المستشفى، ومكثت هناك فترة كدت خلالها أفقد الرؤية، فأجري لي علاج ناجح (عملية) في إحدى عيني. وحين عدت إلى الرياض، وأجري فحصها بعد مرور شهرين على العلاج نصحني الطبيب بالسفر إلى لندن لمراجعة طبيب عيون مشهور هناك، تبعث إليه وزارة الصحة مرضاها فيتولى علاجهم!

إلى لندن : تمت مراجعة الطبيب المختار في لندن، ولكنني لم أرتح لفحصه، فقد حضر إلي مندوب وزارة الصحة الدكتور محمد بن عمر الصائغ، في الوقت المحدد للذهاب إليه يوم عيد الفطر - الساعة الثالثة بعد الظهر، وقال : يحسن التأهب للسعي إلى الطبيب، فالانجليز دقيقون في مواعيدهم. وكان الحضور في العيادة قبل الوقت بربع ساعة، ولما أزف الموعد أخبر بنا الطبيب، ولكننا بقينا في الانتظار بعد ذلك ثلثي ساعة. وعند المقابلة قال : أزَّيك؟ فالتفتُّ إلى صاحبي وقلت : بان السببُ! فاستوضح الطبيب عما قلت : ولكنني أجبته بأنني مسرور من أنك تحسن اللغة العربية. فقال : نعم أقمتُ في القاهرة سنوات. . وبعد إجراء الفحص قال : تحتاج إلى (عملية) سريعة، فالضغط مرتفع، فأخبرته بأنني أجريتها قبل شهرين، وقدمت له التقرير. فقال : لقد عاد (ارتفاع الضغط)، ولم ينجح العلاج الأول، فداخلني الشك، فأردت التخلص بطريقة لبقة. فقلت : ألا يمكن إعطائي قطرة لاستعمالها لعل الضغط ينزل، وإلا تُجرى العملية وأن تكتب لي تقريراً بنتيجة الفحص؟ كتب التقرير ووصفة الدواء، وعدنا إلى الفندق. فطلبت الوصفة من الأخ الصائغ ومزقتها ونحن في السيارة. فاستغرب صاحبي عملي فقلت له : ألم تسمع حكاية المريض الألماني : كان أبناؤه يحضرون له الأطباء فيجرون فحصه وكتابة ما يرون لعلاجه، حتى سئم من كثرة الفحص، واستعمال الأدوية المنوعة، وما كان مرتاحًا لكثير من آراء أطبائه، مما دعاه آخر الأمر إلى أن رَفَضَ أن يؤتى له بطبيب، حتى ساءت حالته، ولكنه تحت إلحاح أبنائه وافق ففحصه الطبيب، ووصف لدائه أدوية حدد أوقات استعمالها. فأُحْضِرتْ له، وأخبر بأوقات استعمالها. ولكنه

على مرأى من أبنائه، وكان سريره بجوار نافذة مُطلة على نهر، تناول تلك الأدوية، ورمى بها فيه، وقابل استغرابهم وشدة عتابهم بقوله: الطبيب يعمل ليعيش، والصيدلي يبيع الأدوية ليعيش، وهو يريد أن يبقى مريضاً ليعيش!!

لقد عزمت -للاحتفاظ ببصرّي- على السفر إلى (كليفلند) حيث عولجت فيه. وكان الاتجاه من لندن إلى مدينة هيوستن، في أمريكا، فبناتي هند وسلوى ومُنَا يدرسن هناك، وأحتاج أن تذهب معي إحداهن إلى مستشفى كليفلند.

وفي هيوستن: زرت ثاني يوم من وصولي مقر البعثة التعليمية، فكان أنْ قابلت الأخ عبدالمحسن أبانمي، وعنده أحد موظفي المكتب، مستشار امريكي يدعى (وايت هدّ) وبعد استراحة وأحاديث بيننا يترجمها له الأستاذ (أبو نمي) دعانا للغداء في بيته غداً، فأخبرته بأنني سأسافر إلى كليفلند لعلاج عيني، قال: مستشفى كليفلند مشهور بعلاج أمراض القلب، أما أمراض العيون ففي هوستن مركز لعلاجها، من أشهر المستشفيات في أمريكا، وأعرف مديره، ومن الممكن أن أحدد لك موعداً، وأوصيه بك، فشكرته، ووافقت. وبعد يومين ذهبت في الوقت المحدد مع إحدى بناتي، فتولّى فحص النظر ذلك الدكتور، فأخبرنا بسلامة النظر، وأن العلاج في (كليفلند) كان حسناً، فأطلعته على تقرير الطبيب الانجليزي، فأعاد الفحص بعد استعمال عدد من القطرات، والمكث فترة من الوقت، ثم قال: العين سليمة والضغط مستقر، ولا حاجة لما في التقرير، بل المواظبة على استعمال القطرة التي كنتم تستعملونها.

لقد بقيت على ذلك أكثر من عشر أعوام، حتى أصيبت العين بالماء الأبيض فاحتاجت لعلاجه، وعلاج الماء الأزرق، وبعناية من الدكتورة سلوى الهزاع - من أقدر أطباء العيون في بلادنا في مستشفى الملك فيصل التخصصي، تولى العلاج الدكتور « ديوكر » في مستشفى الملك خالد للعيون، بطريقة مريحة ناجحة.

وفي المانيا: كان الدكتور محمد بن عبدالرحمن البواردي درس الطب في (ميونخ) وكنت مصابًا بمرض في القلب، فنصحني بالسفر إلى تلك المدينة، وسمَّى لي طبيبًا في جامعتها، وصفه بالمقدرة بمعالجة القلب، فكان السفر وإجراء الفحص من قِبَل الدكتور المذكور، فقرر أن شريانين من شرايين القلب بحاجة إلى تغيير، فترددت في الأمر، ثم عزمت على عدم إجراء ذلك. وعدت إلى الرياض، وواظبت على مراجعة المستشفى التخصصي، للفحص في أوقات مقررة مع استعمال ما وصف من أدوية.

وكان الصديق الأستاذ عبدالله الخيال يشكو مما أشكو منه، وقد راجع كثيراً من الأطباء. فأخبرته بمراجعتي طبيب جامعة ميونخ. فقال: أنا منذ سنوات أسافر لهذه الغاية إلى تلك المدينة. ففيها مستشفى خاص لأمراض القلب، لا أزال مرتاحًا لمراجعته، وسأسافر أنا وأم فائز قريبًا إلى هناك. فأبديت له رغبتي في السفر. فقال: الأمر يستلزم تحديد وقت المراجعة قبلها بفترة، وميعاد سفري قريب، فلنذهب معًا. وأم فائز تراجع أحد الأطباء هنا. وفي ذلك المستشفى أجريت الفحوص الشاملة من قبل عدد من الأطباء، وبعد ثلاثة أيام كانت مقابلة رئيس الأطباء، بعد عرض نتائج الفحوص تلك أمامه، والمترجم عربي، فنظر الطبيب إلي، وإلى الأوراق المتعلقة بي. ولم يَبْدُ لي من مظهره من قسمات وجهه الارتياح. فأبرزت له تقرير طبيب الجامعة، فنظر فيه، ثم قال ضاحكًا كلمة أضحكت المترجم الذي قال لي: حالتك طيبة، وواظب على استعمال الأدوية التي كنت تستعملها. وعد إلى بلدك. فسألته: لم ضحكتما؟ جَمْجَمَ قائلاً: لا شيء، فقلت: لستُ طفلا أخبرني بما قال! فقال: أنت وقد بلغت هذا العمر ينصحك بالعودة إلى بلادك دون تغيير شيء من شرايين قلبك وأضاف المترجم واحمد الله الذي أبلغك هذا العمر الطويل. لم يكن هذا الطبيب وقد شارف الثمانين إن لم تجاوزها – حكيمًا في تصرفه – فوارحمتاه لمرضاه.

لا أكتم القارئ أنني رقيق الشعور بدرجة تبلغ بي ما يُسَبِّبُ لي تغلب الوهم، واستيلاء الأفكار السيئة على نفسي، ولولا أنني أغالب جميع ذلك بمحاولة إزالة تلك

الأحاسيس بالانصراف –عندما تكاد تستولي على شعوري – إلى ما يخرجني إلى ما يشغل ذهني، وأكبر نعمة أتمتع بها هي الرغبة في المطالعة، رغبة تجعلني –في كثير من الأحيان– استغرق فيها، فأنسى ما عداها.

ليست مقدرة الطبيب بمقدار تمكنه من معرفة الأمراض، وتشخيصها، ووصف وسائل علاجها، جراحة، أو أدوية، ولكنها تكمن في التأثير على المريض، بما يساعده على الشفاء، بعد استعمال وسائله، وذلك بما يدخل الأمل على نفسه، بأنه سيشفى من مرضه!

كان العرب يسمون الطبيب حكيمًا، والحكيم هو الذي يضع الأمور مواضعها، والمريض عندما يحضر إلى الحكيم بحاجة إلى ما يدخل عليه الثقة والطمأنينة بأن علاجه لمرضه سيكون ناجحًا، وأساس ذلك إدخال الأمل عليه، وتقويته في نفسه، وإغلاق جميع المنافذ التي يتسلل منها اليأس، فهو مما يساعد على استشراء كل مرض بل هو الداء القاتل:

في (مايوكلينك): لقد أصبحت أحس في كل موضع من جسمي آلامًا، وساءت صحتي. ولا استبعد أن يكون أكثر ذلك من جراء تأثري، بعد مراجعة الطبيب في ميونخ.

وفي أول شهر صفر سنة ١٤١٨هـ أشار علي الجار الكريم الشيخ فراج بن شاكر العسبلي، بالسفر إلى مستشفى مايو، وأثنى على ما شاهد فيه من عناية بكل مريض، على حد سواء، مع وجود فروع متعددة للفحص والعلاج لمختلف الأمراض، وحسن معاملة. ورعاية تامة.

وفي ٣/٣/١٤١٨هـ – ٧/٧/١٩٩٧م، كان الوصول إلى المستشفى والسكن في فندق مُتَّصل به، وبعد استراحة يومين بدأت الفحوص الطبية في كل ما أشكو منه من أجزاء الجسم ومواضع أخرى اقتضى الأمر فحصها وإن لم أشك منها، مع إجراء

واستعمال مختلف آلات الفحص من تصوير وتحليل وقياس، وغيره وانتهى كل ذلك في خلال خمسة عشر يومًا في مواعيد دقيقة، في شُعَبٍ للعلاج والفحص متعددة، ولدى أطباء ذوي تخصص، فكانت النتائج كلها مطمئنة، فجميع الجسم سليم، والقلب بحالة جيدة، والنظر مستقر، وأثنوا على الطبيب (ديوكر) الذي عالجه، وعلى الدكتور (ماركس) الذي جبر كسرًا في رجلي اليسرى في (لوقانو) وعدلوا بعض الأدوية التي للقلب تعديلاً طفيفًا.

أما ما أشعر من آلام في القدمين والكفّين، فلقد كانت الطبيبة بعلاجه صريحة ولطيفة معي إذ قالت : هذا ليس خاصًّا بك، فلي ثلاثون عامًا أشكو منه، وأنا في سن ابنتك، وقد أعياني وأعيا غيري علاجه، والعلاج الطبيعي قد يخففه، بالماء الحار أو الكمادات الحارة، ومثل هذا قالته طبيبة اختصاصها بعلاج آلام المفاصل في مصح (اكلينك شلوز مامرن) وزادت : استعمال الرمل الحار مما يفيد في ذلك وأضيف : لقد جربته حين كنت في مدينة الخبر سنة ١٣٦٥هـ وما بعدها، حتى قابلت الأستاذ جاك بتلر، سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) في قصة تقدم ذكرها.

كانت جميع نتائج الفحوص الطبية تقدم عند انتهائها لطبيب يتولى إخبار مراجع المستشفى بها، وبما هو بحاجة إليه من علاج أو دواء، وكان هذا الطبيب يدعى(بول ميلر **Poul.s. Mueller**) وهو على جانب من اللطف والبشاشة، وسعة الصدر، أي هو حكيم حقًّا في جميع تصرفاته، لقد استقبلني طلق المحيا، مبتسمًا قائلاً : إنك تتمتع بصحة يغبطك عليها من هو في مثل سن أحد أبنائك من الأصحاء. فقد أبرزت جميع النتائج سلامة الجسم من جميع الأمراض، وصحة النظر، واستقرار حالة القلب، مما يستلزم الاستمرار باستعمال الأدوية التي قررها لك الطبيب في المستشفى التخصصي في الرياض، ونحن نتعاون معه، وبيننا اتصال عند الحاجة، أما الرِّجْلُ فيبدو أن مادة (الكلسيوم) في الجسم تحتاج إلى زيادة واثنى على الدكتور الذي تولى جبر كسرها في (لوقانو) ويدعى (اكسل ماركس Axel Marx) فأبديت رغبتي بالاتصال بطبيب

سميته في (كليفورنيا) قد عالج الدكتور عبدالعزيز الخويطر، من آلام في ركبتيه. فوعد بإرسال نتيجة الكشف مع تقرير الطبيب إليه، وقد تم ذلك، وبعد الاتصال به في (كليفورنيا) لتحديد موعد لمقابلته قال: لا داعي لهذا، فقد طالعت الصور واطلعت على التقرير، وليس لدي ما أضيفه، والآلام قد تزول بالعلاج الطبيعي.

لقد عدتُ من (مايو كلينك) بعد أن أمضيت فيها نحو خمسة عشر يومًا بحالة أخرى أسعد من حالتي منذ أكثر من عشر سنوات[1] بعد زيارة مستشفى القلب في ميونخ. فلقد غمر نفسي من الارتياح، والإحساس بزوال ما كان ينتابني من الأوهام والوساوس التي لا أهدأ معها بنوم، ولا أهنأ بطعام، ولا آنس بمقابلة أحد، ولا أميل إلى المطالعة والبحث، بعد أن كنت لا أجد غيرهما سلوة، وصِرْتُ أعيش بين من يحيط بي من الناس، وكأنني لست بينهم.

ولقد أقبلت على الحياة بشعور من الرغبّة دفعني للاهتمام بما أنا معنيٌّ به من جميع أموري، وما ذاك لزوال ما أشكو منه من الآلام الجسميَّة، بتعاطي أدوية أو اجراء أنواع من العلاج، مما لا يوجد إلا في ذلك المستشفى، وما كان أطباؤه بأقدر من غيرهم في التشخيص أو المعالجة ولكنه بالتغلب والسيطرة على إزاحة الكابوس الجاثم على صدري بكثرة الوساوس والأوهام من جرَّاء ما تصورته من نتيجة طبيب القلب الألماني، بعد أن أُخبرت بها غير صريحة.

أما في هذا المستشفى فما تأثرت من أية نتيجة كشف، أو معاملة أي طبيب ممن تولى فحص ما اشكو منه، فكلٌّ مَنْ قابلتُ منهم كان يتمتع بروح طيبة من الإدراك لحقيقة مهنته، وأنها محاولة إدخال السرور على نفس المريض ما استطاع، لهذا لم أستغرب كثرة مراجعيه، لا من البلاد الامريكية وحدها، بل من مختلف أقطار العالم، ومنهم من الإمارات العربية وهم كثيرون، وشاهدت عدداً من بلادنا من عنيزة اثنان من بيت القاضي، ومن شقراء ابن مقرن، ومن الرياض ابن سعيدان، وغيرهم.

---

(١) تقدم خبر تلك الرحلة ص ١١٦.

وكثرت زياراتي للبلاد الشرقية من أوربا، لكثرة ترددي على مدينة (استنبول) لما تزخر به من مكتبات، تحوي أكثر تراث العالم الإسلامي من المؤلفات، والسفر من هذه المدينة لا يكلف كثيراً من النفقة، ولا يرهق، فالقطار منها متصل بجميع الدول الأوربية وهي متصلة بالبلاد التركية، اليونان، فما بعدها، إلا أن السفر لم يكن لزيارة مكتباتها، ولكن للسياحة، وللعلاج نادراً. فكان مما زرت بعد اليونان من تلك البلاد بلغاريا ورومانيا والمجر وتشيكسلوفاكيا، وذلك أثناء إقامتي في بيروت، قبل عشرين عامًا، ولم أعن بكتابة مشاهداتي أثناء تلك الرحلات، وسأكتفي الآن بذكر ما علق في ذهني منها مما يتعلق بالعلاج.

إلى رومانيا : لقد كنت أشكو ضعفًا عامًّا في جسمي، فزارت بيروت أثناء إقامتي فيه طبيبة يظهر أن أصلها أرمني، تدعى (أنَّا أصلان) مكثت أسبوعين في أحد المستشفيات تعالج من نحو ما اشكو منه، ولم تتسنَّ لي مراجعتها، وصار الناس يبالغون في وصف مقدرتها في علاجها لكثير ممن راجعها، وراجت تلك الأيام حقن وأدوية كانت تصفها لمراجيعها، عرفت بها تدعى (إتش ثري .. H3) الحقن في العضل، والحبوب بالفم، ويبالغون في وصف فائدتها، وسرعة أثرها، مما أحدث لها صيت واسع، حتى قيل: إنها تعيد الشباب، فاستشرت أحد الأطباء عنها عن استعمالها، ولكنني تأثرت بكثرة ثناء الناس على الدكتورة، فسافرت إلى مدينة (بخارست) قاعدة رومانيا بالقطار، حيث كانت تقيم، فسمعت صيتها في بلادها أرفع مما يُتحدث به عنها خارجها، إذ كانت تتولى إدارة أكبرمستشفى في المدينة، كان يعمل فيه رئيس الجمهورية، وبعد المراجعة واجراء الفحوص الطبية من عدد من الأطباء. اتضح بعدها خلو جسمي من جميع الأمراض، وملاءمته لقبول الحقن والحبوب التي ستقرر لي استعمالها.

كانت تكاليف العلاج والمعيشة والإقامة -أيضًا- في تلك البلاد زهيدة، عندما تقارن بغيرها من البلاد الأخرى، وكان الجو معتدلاً، والإقامة في المسكن الذي اختير لي كغيري من كل قادم، وهو مريح. تولت (أنّا أصلان) غرز الحقنة الأولى في الفخذ، فلم أحس لها ألمًا، وقد هُيِّئ لي في المستشفى مكان أستريح فيه الفترة التي أحتاج فيها للراحة، وعلمت بأن الأمر لا يتطلب -مع الحقن- إلا استعمال حبة دواء كل يوم، وأن تتولى الدكتورة نفسها غرزي بالحقنة، وأستريح قليلاً، وما لم أَشْكُ ألمًا أو تأثرًا في الجسم فلا مانع من الخروج، والعودة إلى المستشفى الساعة التاسعة صباح كل يوم، وأن لا أمتنع عن أكل كل طعام أشتهيه.

مكثت أسبوعين أتردد على المستشفى، مع استعمال الحقن والدواء كل يوم، وكانت تصف حالتي بالتغير من حيث الاستفادة من ذلك العلاج، مع أنني لم أحس بشيء من ذلك. وبعد نحو شهر أخبرتها بعزمي على الرجوع إلى أهلي، فأظهرت لي أنني لا أزال بحاجة إلى الاستمرار بمراجعتها، غير أنني كنت مصممًا على العودة، فلما تبينت مني هذا، أمرت بأن أطالب بتكاليف العلاج، وقد أضيف إليه ثمن حقن وحبوب تكفي لشهرين، قالت لي: إنه لابد من استكماله، لكي تتضح لي بعد ذلك النتيجة السارة. وأنني إن لم استعملها سيتأثر جسمي، ولن أستفيد مما أجرت لي من علاج.

إلا أنه كان آخر عهدي بذلك الدواء حين قدمت بيروت، فعرضت الأمر على طبيب أثق به فنهاني عن استعماله.

لم أكن أول واحد، أو آخر قد انخدع بما قيل عن (أنا أصلان) فغيري كثير من بينهم ملوك ورؤساء جمهوريات، مثل (ديقول) وغيره.

ولقد كان من وسائل تسليتي فيما بعد مشاهدة رواية الممثل الفكه إسماعيل ياسين في الموضوع!.

ورحلة أخرى للعلاج نفسه إلى (تشكوسلوفاكيا) فأنا أشكو آلامًا في القدمين

والركبتين، فنصحني أحد الأطباء في بيروت بالسفر إلى (إيطاليا) ففيها مصحات طبيعية، تعالج بمياه حمامات ساخنة، وبكمدات حارة، فكان السفر بقطار الشرق المار بتركيا ثم اليونان، كالرحلة الأولى إلى (إيطاليا) سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) وقد زرت هذه البلاد، فارتحت من إقامتي فيها، وأَنِسْتُ بمقابلة عدد من المستشرقين، وارتحت بما لقيته في سفارة بلادنا من اهتمام وحفاوة، إلا أن الحالة تغيرت، فقد توفي بعض من كنت أعرف، مثل ماريا نلينو، وليفي دلافيدا، وأسند العمل في السفارة إلى سفير أجهله وهو أحمد بن خليل عبدالجبار[١]، وهو مثقف، ويقال عنه: إنه شاعر، والشاعر -في الغالب- كثيراً ما يستغرق في التحليق في أجواء الخيال، فينسى ما يحيط به أو ما هو مطلوب منه من الأعمال، تمت المقابلة في اليوم الثاني من مراجعتي السفارة، فكانت ملائمة لما تصورت عنه، إذ اكتفى بدعوة سيدة ايطالية، حادثها بالانجليزية، فدعتني بالعربية للخروج معها إلى مكتبها، ولعل السفير توهم أنني لما فاتحته عن الغاية التي جئت إلى هذه البلاد من أجلها، أنني أرغب منه المساعدة، وما قصدت سوى إرشادي للمكان الذي يتهيأ لي فيه العلاج، لقد قالت السيدة: لا أنصحك بالذهاب إلى المصحَّات الطبيعية هنا، فالبلاد ليست مأمونة، والتكاليف مرتفعة، وخير لك أن تذهب إلى (تشكوسلوفاكيا) فهي قريبة، وتتوفر فيها المصحات بأجور مناسبة.

كنت قد تأثرت من كزازة السفير عند مقابلته، فعزمت على السفر إلى أي بلاد كانت فقبلت رأي السيدة.

إلى تشيكوسلوفاكيا: في اليوم الثاني سافرت على احدى الطائرات الإيطالية إلى (براغ) وكنت أجهل حالة تلك البلاد، فعند وصولي المدينة اتجهت إلى فندق بقرب محطة الحافلات التي تنقل المسافرين من المطار إلى المدينة ويدعى فندق باريس، وفيه

---

(١) هو ابن خليل عبدالجبار - أمين صندوق وزارة المالية ذلك الوقت، رجل خيِّر، وعمه الأستاذ عباس عبدالجبار من أصدقائي، قد أسند إليه الإشراف على المطبوعات، ومراقبة مدرسي الحرم، وكان ذا حظوة لدى الشيخ عبدالله بن حسن، ويرافق ابنه محمدا في أسفاره للخارج، وهم جاويُّو الأصل.

تقدمت إلى موظف الاستعلامات، بجوار المصعد، أحمل حقيبتي الصغيرة، فتناولتها عاملة المصعد، ووضعتها فيه، ولكن الموظف أشار إلى مكتب أمامه، فموظفوه هم المسؤولون عن إعداد الغرف، لم أكن حجزت مقدمًا ففهمت منهم أنه لا توجد غرفة خالية، فلما رأت عاملة المصعد ما حدث أخذت بيدي وأوقفتني عند مكتب بباب الفندق، يتولى إسكان القادمين إلى البلاد، فوجدته مغلقًا، في تلك الأيام وقت اجتماع (البرلمان) والمدينة تغصُّ بالقادمين للمشاركة فيه، فأشارت لي بأن أدع الحقيبة، وأن أذهب مع الشارع العام، للبحث عن مكان، فأعياني البحث واحتجت للراحة. وكانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر، فدخلت أحد المطاعم، وبعد استراحة قصيرة تناولت خلالها ما احتجت تناوله من الأكل، خرجت فأبصرت بناية ضخمة، تخيلتها فندقًا. فدخلتها وسألت عن الاستعلامات، فأرشدت اليه في الدور الثاني، فأخبرت أحد موظفيه بحاجتي ببعض كلمات انجليزية، ولما لم يفهم مرادي أدخلني مكتبًا أشار صاحبه لي بالجلوس على كرسي بقربه، وتحدث بالهاتف فحضر رجل يسألني عما أريد باللغة العربية، وأخبر صاحبه، فاستغرق في الضحك وقال لي: ليس هذا فندقًا، هذا مقر أشهر شركة لـ(الكريستال) الزجاج الممتاز، ولكن حظك حسن، فهذا مديرها، وله مكانة هُنا، ومع أن العثور على مسكن هذه الأيام صعب، إلا أنه وعد أن لا تخرج من عنده حتى يهيئه لك، فاتصل المدير بالهاتف عدة مرات، ثم كتب ورقة قدمها لصاحبي العربي، الذي عرفت منه أنه من تجار ذلك النوع من الزجاج، من أهل عمّان، واسمه أحمد محمد العطار، وقال: انحلت المشكلة فلنذهب إلى من كتب إليه، فطلبت المرور بفندق باريس، فوجدت حقيبتي عند مدخل المصعد، كما عهدتها، ولدى الموظف الذي قصدناه قال: سنسكنك الليلة في (الجامعة) مع الطلبة في المساكن المخصصة لهم، سنخلي إحدى الغرف من أحدهم، وغداً الساعة الحادية عشرة صباحًا تحضر هنا، ونبحث لك عن سكن آخر، وكانت الغرفة على ضيقها نظيفة ومريحة، وقريبة مما احتاج إليه، ويبدو أن الطلاب معودون -بعد العشاء- على لزوم

غرفتهم بهدوء، ولهذا لم أشعر بأنني بينهم، وقضيتها ليلة هادئة، وفي الصباح تناولت في المطعم ما رغبت تناوله مبكرًا، وأمضيت فترة في المشي في حديقة الجامعة.

لم أدفع عن الطعام ولا عن المبيت شيئًا، وحوالي الساعة الحادية عشرة أمرني المشرف على تنظيف الغرفة، بأن أذهب معه، وحمل حقيبتي إلى سيارة خارج الجامعة، بعد أن طلب مني التوقيع على بيان يبدو أنه ما أنا مطالب بدفعه، وذهبنا إلى المكتب الذي بعثتني صاحبته للجامعة، وفيه دفعتُ ما طلب مني، وقالت لي -بالاشارة- سأبعثك إلى البحر!! وهي تضحك، وأوقفت إحدى سيارات الأجرة، وقدمت لسائقها ورقة، ولم يسر بي طويلاً، حتى شاهدت الشاطئ، وفيه (عَوَّامة) كبيرة، متصل بابها بالبر، القريب من الشارع، وإذا هي قد هُيِّئَتْ وأُعِدَّت إعداداً حسنًا. لتكون نزلا، وجهزت بجميع وسائل الراحة، وفي إحدى غرفها الواسعة كان المبيت بعد تناول ما طاب لي من عشاء، ولم أَرْتَحْ لمشاهدة بعض أنواع التسلية التي تزدحم صالاتها بالمشاهدين ومضى الوقت سريعًا، فاستغرقت في النوم فوق كرسي مطل على البحر داخل الغرفة.

أُحضر لي في الصباح ما اعتدت تناوله بعد طلبه ونزلت مبكرًا إلى مكان الاستقبال، فوجدت على مكتبه موظفًا يبدو أنه اطلع على جواز سفري، فقال لي باللغة العربية: لماذا حضرت إلى (براغ)؟ فأخبرته. فقال: إن الأمر يتطلب أن يفحصك طبيب مختص بما تشكو منه، بأمر من المكتب الحكومي المُعَد لذلك. فأخبرته بأنني أجهل هذا ولا أحسن أية لغة أتفاهم بها مع أحد هنا. فكتب لي ورقة وقال: هذا عنوان المكتب، وقد كتبت ما أنت بحاجة إليه، وستحال إلى الطبيب وبعد خروجك منه ائت هنا.

ولم تبلغ الساعة الحادية عشرة إلا وأنا عائد من الطبيب، معي منه تقرير، فقال صاحبي: أرسلك إلى مصحات تقع في بلدة (بِشْتَنِي) وتبعد حوالي الساعة عن (براغ) وبعد الغداء، إذهب إلى مكتب الطيران وخذ تذكرة إليها، وخذ حقيبتك معك، وسدد حساب الفندق، وكنت قد دفعت للمكتب مبلغًا مقابل الفحص وغيره، ولكنه زهيد.

مما لاحظتُ – عند دخول المستشفى وانتظار مقابلة الطبيب أن كل الجالسين حولي قد وضعوا أقدامهم في أكياس بيضاء، فوق الأحذية، سواي، فأشار إليَّ أحدهم لأفعل فعلهم، ولم يكتف بل أمسك بيدي وأخذني إلى باب المستشفى، فإذا في مدخله مكان مملوء بتلك الأكياس، وللمستعملة منها مكان توضع فيه عند الخروج.

ومع أنني لم أحسن مخاطبة الطبيب إلا أنه كان لبقًا، وذا عناية في الفحص، ولم يعرف بلادي، فظنني عراقيًّا.

وكان الذي هيأ لي الذهاب إلى المكتب المختص بترتيب شؤون القادمين للعلاج، سفير (تشكوسلوفاكيا) في دمشق، وهو يحسن العربية، وقد جاء لحضور اجتماعات (البرلمان) ولما استغربت قيامه بعمل موظف الاستعلامات في الفندق، وهو سفير، قال: عليَّ أن أقوم بأي عمل يُسْنَد إليَّ، ولا غضاضة في هذا ما دمت أخدم أمتي وبلادي.

وفي الساعة التاسعة النصف مساء كان الوصول إلى (بشْتَنِي) حيث المصحات، ومن المطار بالحافلة إلى البلدة، فنزل جميع من فيها وبقيت وحدي، فأتى إليَّ سائقها فقدمت له التقرير بتحويلي إلى المصح، وفي أقربها –وهي خمسة– أنزلني، وحمل حقيبتي، وقدم التقرير لموظف الاستعلامات، وأشار لي بالجلوس على أحد الكراسي، وبعد محادثة بينهما فهمت أن الموظف يَدَّعي عدم وجود غرفة خالية، إذ أتى السائق بحقيبتي ووضعها عندي وخرج، وصار ذلك الموظف يكرر الكلام والإشارات لي بالخروج، ولكنني أقابله بكل برود وبالإشارة بالتقرير الذي أحمله، فتركني، وطاب لي الجلوس حتى كاد يغشاني النعاس خلال ساعتين، وفي الساعة الثانية عشرة جاء موظف آخر حلَّ مكان الأول، فلما ذهب حملت حقيبتي وقدمت التقرير لهذا الذي قدم أخيرًا، فكلمني كلامًا فهمت منه سؤاله عن تذكرة العودة، وهل معي نقود؟ فأبرزت التذكرة، ومبلغًا من الشيكات السياحية. فسألني في أي دور ترغب السكن؟ فاخترت السادس، فأمر عامل المصعد بحمل حقيبتي، وقال في الصباح تجدني هنا! فكان ذلك، ولكنني أتيت قبل الساعة السابعة، فأمرني بالانتظار وفي السابعة أرشدني إلى مطعم

الفندق، وهو فندق فخم، ووسائل العلاج الطبيعي في أجنحة منه. وله حديقة واسعة مُنَسَّقة، وقد هُيِّئت بجنباتها أمكنة للاستراحة. وهذا أحد المصحات الخمسة والباقية على نسقه، والبلدة ليست بعيدت.

بعد تناول طعام الصباح عدت لصاحبي، فذهب بي إلى غرفة الطبيب الذي يجري الفحص، وتقرير نوع العلاج، فقدمت ورقة، أعدها موظف الاستعلامات، فلما نودي اسمي أدخلت على الطبيب.

تم الفحص الطبي، وتقرير أنواع العلاج، وتحديد مدته، وأوقات التدليك ووضع الكمادات الحارة فوق أمكنة الألم - وهي الظهر والقدمان والركبتان، وتنويع تلك الكمادات بين فوط، وطين أسود ذي رائحة غير مقبولة أشبه بما يسمى في نجد (الغَربة) التي تكون في قاع البئر وكلها بقدر ما يتحمل الجسم من الحرارة.

أما السكن والطعام وحسن المعاملة فعلى ما يرام، وتكليف كل ذلك ثلاثة وعشرون دولاراً أمريكيًّا في اليوم، ومدة البقاء في المصح ثلاثة أسابيع.

وكان مما ارتحت له السير في الصباح المبكر في تلك الحديقة الواسعة، ثم الجلوس على أحد المقاعد الوثيرة، بين أشجار ونباتات ينعش أريجها ويبهج منظرها، في فضاء واسع من الأرض، وبينما كنت جالساً كعادتي بعد أن أحتاج إلى الراحة بعد المشي، إذا بأحد المارة يشير إليَّ مُسَلِّمًا، ثم أتى إليَّ فإذا هو كويتي، أستاذ في إحدى المدارس، يدعى محمد ابن جمعة، وأصله - على ماقال - من أهل بريدة، أَحْضَرَ أباه للعلاج من مثل ما أشكو منه، وأخبرني انهما ساكنان في المصح الثاني، ولما عرف مكان الغرفة التي أسكنها قال: سأذهب الآن وأنقل سكننا بجوارك، فلما أخبرته بما قاسيته البارحة بشأن السكن، قال: (خَرَّبُوهم الربع) فاستوضحت منه فقال: إن جماعتنا أفسدوا معاملتهم بما يبذلون لهم من رشاوي (بخاشيش) وسينزلني صاحبك البارحة أنا وأبي في غرفة مجاورة لغرفتك، فتم هذا، ولم أسأله كيف تم!

يرتاد هذه البلدة كثير من مختلف الأقطار ومنها العربية، ومنهم من يتعاطى بعض أنواع التجارة، والعملة للعابثين بها حركة رائجة، فبينما الدولار الأمريكي يقابل بالسعر الرسمي من نقدهم بثلاثة، يشترى في السوق السوداء بسبعة، ولن يعدم المرء عربيًا يُسَارُّه: هل تبيع دولارات؟

ممن رأيت من بلادنا الشيخ سليمان بالغنيم(١)، وكنت عرفته أيام إقامتي في الأحساء سنة ١٣٥٨هـ فمررت أثناء سيري في الحديقة على رجل جالس يحدق بي نظره، فأشرت له بالسلام، فرد عليَّ، فتعارفنا، فكنا نتلاقى في هذا المكان، وكان نازلاً في فندق في البلدة (بِشْتَنِي).

ثم كانت العودة من هذه البلاد بالقطار إلى حلب، ثم بالسيارة إلى بيروت، والمعاملة في المصحات كانت منتظمة، ودقيقة، ولكنها بحاجة إلى ترتيب مقدم قبل السفر، فالذين يأتون للعلاج يحضرون جماعات تتولى شركات ترتيب جميع شؤونهم من مغادرتهم بلدتهم حتى عودتهم إليها، وإلا فإن القادم وحده مثلي سيتعب.

أما في بلغاريا: فترددت على (صوفيا) قاعدتها أربع مرات، الأولى مع الصديق إبراهيم شبّوح، والثانية بمفردي، والثالثة معي الأستاذ حسين بن سرحان، وهي الرحلة الأولى والأخيرة له إلى أوربا، والرابعة أنا والأستاذ عبدالله الخيَّال، ولا داعي للحديث عن الرحلات الثلاث أما الأخيرة فالمناسبة تدعو لذكر بعض ما حدث لي فيها في دخولي المستشفى.

كان السفر من بيروت جوًا إلى (بلغاريا)، وفي (صوفيا) - كغيرها من بلدان أوربا الشرقية في ذلك العهد تتولى إسكان القادمين مكاتب مخصصة لذلك، فيخير القادم بين السكن في أحد فنادق الدرجة الأولى، أو المتوسطة، أو مع أسرة، والأجور محددة، وليست مرتفعة، بل هي أقل منها في البلاد الأخرى، فكان الاختيار في أشهر

(١) توفي رحمه الله - في يوم الأحد ٥ / ١١ / ١٤١٦هـ وقد تمت المصاهرة بيني وبينه بعد ذلك فهو - رحمه الله- جد لسبطي إبراهيم بن خالد بن سليمان بالغنيم من ابنتي مُنا. وانظر الكلمة التي رثاه بها الأستاذ سعد الرويشد - «الجزيرة» العدد ٨٥٨٦ في ١٣ / ١١ / ١٤١٦هـ.

فندق في المدينة، برغبة من الرفيق، وذلك الفندق كغيره من حيث التنظيم والنظافة، في المدن الأخرى، مع انخفاض الأجرة.

وكنت عرفت في إحدى زياراتي رجلاً مسلمًا يدعى الدكتور حسن قلشي، فاتصلت به، فعرفنا على ما رغبنا زيارته، كالمكتبة العامة، وفيها مخطوطات عربية، ووجدنا فيها أحد إخواننا الدمشقيين، يقوم بوضع فهرس لتلك المخطوطات هو عدنان درويش، وزرنا المتحف وفيه بعض الآثار الإسلامية، وعلمنا من الدكتور حسن أن في المدينة أكثر من ثمانين مسجداً، مغلقة، ويسمح بزيارتها، كمتاحف. ومنها الجامع الكبير الذي قال: إنه لا يفتح إلا يومًا في الأسبوع وعند زيارته رأينا فيه إخوانًا لنا من أهل عنيزة، ويلاحظ أن تلك البلاد وأمثالها مما لا يسمح بزيارته إلا في أحوال خاصة، وعند مرور المسافر بها يعطى ورقة عند الدخول -تحل محل جواز سفره- وتسترجع تلك الورقة عند خروجه، ولا يكتب في جواز سفره ما يدل على أنه زار تلك البلاد.

وكان مما زرنا مصيف (فارنا) على ساحل البحر الأسود، من أشهر المصايف العالمية، وأجملها وكنا آخر فصل الصيف، فتغير الجو فجأة، فثارت العواصف واشتد البرد، وهطلت أمطار غزيرة، أعقبها سقوط الثلوج التي غمرت الشوارع فعندنا إلى (بلو غراد)، وكنت وصاحبي في أحد المقاهي وسط المدينة قبل ذلك فاضطررنا للعودة للفندق، ولسيارات الأجرة مواقف تحت اشراف مكاتب خاصة. والفندق ليس بعيداً، وقد أوشك الليل أن ينتصف، ففضلنا الرجوع مشياً، وكان المشاة يحاذرون المشي على طوارات الطرق، التي تراكم فيها الثلج، ويمرُّون وسط الشارع وكنت حين أتحسس بقدمي الثلج أجده صلبًا، فكنت أمشي فوقه في الطوار، فزلَّت قدمي، وسقطت وسط الشارع على جانبي الأيمن، فسارع اثنان من المارة فحملاني وقد قربنا من الفندق، حتى وضعاني في غرفتي، سهرت تلك الليلة من شدة ألم اليد، وفي الصباح قرر الطبيب الذي أحضر للكشف أن الذراع منكسر، وبحاجة إلى التجبير، في المستشفى فحملت إليه في سيارة إسعاف.

وفي المساء حضر المجبّر، وما شعرت إلا وقد جيء أمامي بحبل غليظ طويل، وبزنجي ضخم الجثة كريه المنظر، قيل لي: إن جانبي الذراع المنكسرين قد تراكبا، مما يستدعي جرّ الذراع ليستقيم، ويجري التجبير، وهذا الأسود هو الذي سيجر ذراعك بعد ربطك بالحبل لئلا تتحرك، فرفضت هذا، وآثرت الصبر على الألم حتى أسافر لبلدة يجري التجبير بصورة غير مرعبة، فما شعرت بعد اختفاء الأسود ومعه حبله عن وجهي إلا بفتاتين يمسحان الذراع برفق فارتحت لفعلهما، غير أنني لم أشعر إلا بكل واحدة تجر أحد طرفي الذراع، وبالاسود قد وضع الحبل فوق صدري، وكنت جالسًا، فاضجعني على السرير، وذهبت في إغماءة لم أفق منها إلا وقد تم كل شيء، ولا إخال الحيوان المتوحش يلاقي مثل هذه الشراسة !!

لم ننته بعد من رحلتنا إلا أنني بعد أسبوع خرجت من المستشفى، واستطعت المشي، فكان السفر لرغبة الرفيق الخيال إلى القاهرة، والطريف في الأمر أنه حدث خلل في الطائرة، اضطرها للنزول في بيروت وإمضاء ليلة فيه لإصلاح خللها، فكيف أفاجئ أهلي، ويدي معلقة فوق صدري، بتنا تلك الليلة في أحد الفنادق، ولم ير أحد منا أهله، إلا بعد العودة من القاهرة، واليد سليمة بعد مرور شهر.

لقد كانت البلاد جميلة وكذا جميع الدول الشرقية فيها، فهي لا تختلف عن غيرها من البلاد الأوربية إلا بنظمها الخاصة في ذلك العهد، ولا يبالغ المرء لو وصف تلك الأنظمة بأنها بدقتها وصرامتها، وحزم القائمين على تنفيذها، كان زائر تلك البلاد يعامل أحسن معاملة، حتى يشعر بالطمأنينة والراحة حتى يغادرها، إذا قدم بطريقة منظمة، وهي من حيث النظافة من شدة مراقبة المعنيين بها قد تفوق بعض البلاد الأوربية، ولكنها مع ذلك لا تخلو من وجود بعض الغرباء أو غيرهم من أهلها ممن قد يحاول إيقاع الأذى ببعض من يستغفله ممن يلتقي به.

وفي الشرق: ولم أزر من بلاد الشرق سوى اليابان، وهُنْق كُنْق، وتايبي – قاعدة، الصين الوطنية، وبلاد أخرى ذكرتها فيما تقدم، ولم أحتجْ إلى مراجعة طبيب سوى مرة

واحدة، أثناء رحلتي للباكستان، فقد كان مقرراً في تلك الرحلة زيارة مكان يحوي كثيراً من الآثار الهندية، في منطقة جبلية شديدة البرد، فكان الذهاب من مدينة راول بندي بالسيارة نهاراً كاملاً، وعند الرجوع أحسست أَلَمًا شديداً في متني وذراع يدي اليسرى، أسهرني، فأتى إليّ في الفندق وزير الصحة، بدعوة من وزارة الإعلام، فتولى إنسان معه تمريخ المتن والذراع، وأمرت بلزوم السرير ذلك اليوم، وقدم الوزير لي قنينة بحجم الأصبع الصغير، وبالغ في ذكر خصائص ما تحويه من دواء، لاستعماله، وهو كما قال: روح النعناع، أشبه بالدواء المعروف باسم (أبو فاس) فلم أجد لها أية أثر، وكان مع أحد الإخوة زجاجة من المروخ المعروف (الكسلز) فاستعمله عدة مرات فزالت الألم الذي حدث بسبب ما أصابني من برد، إذ كان زجاج نافذة السيارة المجاورة لمكاني -أثناء الرحلة- مكسور.

وعن نظافة بعض المدن التي مررت بها، في شوارعها، وفنادقها، ومطاعمها، فباستثناء طوكيو وهنق كنق وسنغافورة ينبغي للمسافر أن يكون حَذِراً في جميع أحواله من سكن ومطعم ومشرب، فهي كغيرها من بلاد الشرق، بل من جميع بلاد العالم الأخرى التي تلجئ بعض سكانها بعض ظروف الحياة إلى عدم العناية الكافية بمستلزمات النظافة.

وماذا في العالم العربي: وتدعو المناسبة وقد ذكرت ما ذكرت ببعض ما شاهدت في غيرها من البلاد، مما يُعَدُّ - من الجانب الحضاري، متقدمًا ومتفوقًا؟!

لقد حظيت أكثر الأقطار العربية بما حباها الله به من نعمة الثراء، بما اكتشف فيها منذ منتصف القرن الماضي الهجري من حقول النفط - الذي غير أساليب الحياة في هذه البلاد تغييراً مكن سكانها من مجاراة ركب الحضارة في العالم بخطوات حثيثة، فانتشر فيها التعليم، وكثر فتح مدارسه ومعاهده وجامعاته، على اختلاف تخصصاتها ومناهجها، واستفيد فيها من قُدرات العلماء من أطباء ومهندسين وغيرهم، وابتعث العديد من شباب البلاد لينهل من العلم في الجامعات المتقدمة، مما يسهم به في خدمة

مجتمعه من جميع وجوه احتياجاته، وخاصة العلوم التطبيقية كالطب والهندسة وغيرهما، وفتحت المستشفيات، وجُهزتْ بمستلزماتها من آلات حديثة، وتولى العمل فيها وفي الجامعات والمعاهد الصناعية نخبة من أولئك الشباب الذين عادوا إلى بلادهم بعد ما تزودوا من العلوم والمعارف ما يسدُّ حاجتها، بحيث سارت الحياة سيرًا يجاري سيرها في تلك البلاد المتقدمة.

ومع كل ما تقدم فلا تزال الحالة في كثير من أقطار العالم العربي تستدعي المزيد، لا في جانب من جوانب محاولتها للحاق بالركب الحضاري في العالم المتقدم، بل في جوانب متعددة، حتى ما يُعَدُّ قد نال قسطًا وافرًا مما يجد في سيره لمتطلبه بكل إمكاناته، لا يزال بحاجة إلى مواصلة العمل الجاد لتحقيق ما يصبو إليه، ولعل من أقوى البواعث في الاتجاه للعمل إدراك شدة الحاجة إليه.

من هنا فلا تزال الأقطار العربية بدون استثناء، ينتاب كثيرًا من أحوالها الخلل، ويعتريها النقص، كغيرها في مختلف البلاد الأخرى بصفة عامة، وكما قال أحمد شوقي:

فإنَّا لَمْ نُوَقَّ النقْصَ حتَّى
نُطالِبَ بالكمال (الآخرينا)(١)

لهذا فسأعرض أمثلة تحاكي ما تحدثت به عن بعض مشاهداتي في البلاد الغربية، وما حدث لي ممن قابلته من الأطباء، إنني أدرك كما يدرك من هو في مستواي من الإدراك القاصر، والمعرفة المحدودة أن الأطباء ليسوا متساوين في معرفتهم لحقيقة مهنتهم، ولا بالحرص على أدائها على خير الوجوه بالقدر المستطاع، وأن الطبيب لا يملك بَلْسَمَ

(١) صواب القافية (الأولينا) وغيرتها للمناسبة، والشاعر قال هذا عندما ذكر تسخير فراعنة مصر العمّالَ لبناء الأهرامات، فقبل البيت قوله:

ولَسْتُ بقائل ظلموا وجاروا   على الأجراء، أو جلدوا القطينا

الشفاء بيده ليقدمه للمريض عند الحاجة، وما على الطبيب إلا بذل جهده في فحص ما يشكو منه مراجعه، ثم يصف له من الدواء ما يلائمه، بطريقة لا تؤثر على مشاعره ولكن كثير من الأطباء يزيدون المريض مرضًا بسوء معاملتهم، لا بما يصفونه أو يقدمون له من علاج، وهم بسوء هذا التصرف لا يعلمون!

إن أولئك لا يدركون أن أقوى الوسائل لزوال ما يشعر به المريض تقوية الأمل، وإدخال السرور في نفسه، وأن أشد الأمراض، وأسوأها فتكًا وتأثيرًا في عدم الشفاء! هو إيجاد المنافذ للوهم والوساوس، فالمريض -في الغالب- شديد الحساسية، يلمح من نظرة الطبيب، ومن تغير قسمات وجهه ما يؤثر في نفسه، والطبيب القدير هو (الحكيم) كما يسميه العرب في جميع تصرفاته، ومنها نظراته للمريض، ومقابلته -مهما كانت حالته- بما يوجد الأمل في نفسه، كي يحدث فيها من الراحة والطمأنينة ما يكون من أسباب الثقة بالطبيب - ولعل فيما تقدم ما يشير إلى هذا، وسأحاول إيضاحه بما قد أعرضه.

في الرياض: أصبت بنزلة صدرية حادة، الزمتني الفراش أيامًا -فزارني بعض الأطباء- فاستعملت ما وصفوا من الأدوية، ومنها المضادُّ الحيوي، فقد أكد لي أحدهم ضرورة استعماله لئلا ينزل المرض إلى الرئة، وأوصاني بعدم التعرض للهواء، وإغلاق نوافذ الغرفة، فكنت أشعر بأن أقل تقصير في تنفيذ وصاياه قد أحدث زيادة بما أحس به من ألم.

وزارني - وأنا بتلك الحالة الدكتور عبدالله الوهيبي، الأستاذ في كلية الآداب بجامعة الرياض (جامعة الملك سعود) ثم عاد إليَّ مسرعًا ومعه الدكتور فالح الفالح مدير مستشفى الجامعة (مستشفى الملك خالد) فلما رآني أزال ما ركمته على جسمي من الأغطية خشية البرد -والوقت صيف- وأمر بنوافذ الغرفة ففتحت - ثم قال لي: لست مريضًا، وإنما أنت مصاب بزكام حاد، سيزول خلال أسبوع باستعمال هذا

الشراب مع هذه الحبوب، وكان أثناء ذلك متهلل الوجه طلق المحيًا، بما قوى الأمل في نفسي بصحة قوله، فلم يمض الأسبوع إلا وقد زال كل ما أشعر به.

لم يكن الطبيب الذي حذرني من البرد وخوفه من نزول الألم إلى الرئة، يريد لي إلا الخير، ولم يكن قوله مبنيًا على جهل، ولكن كان له مندوحة لو اكتفى بوصف الدواء، والتحذير من البرد، وعدم ذكر نزول الألم إلى الرئة، فقد سمعت بحوادث كثيرة عن ذلك. منها أن أولى بناتي أصيبت بنزلة سبَّبت لها ضيقًا في التنفس، وشدة السعال، وهما من أعراض ما أصبت به، فلما عرضتها على الدكتور حسني الطاهر كتب لها دواء، أكد ضرورة استعماله كما وصف، وإلا فستكون العاقبة نزول المرض إلى الرئة.. فكان التقصير في اعطائها الدواء، وإبداله بغيره لشدة مرارته، من أسباب وفاتها.

مرت بي فترة أُحسست خلالها بألم شديد في الأمعاء، فراجعت عدداً من الأطباء، فلم أستفد مما وصفوا لي من علاج، فنصحني أحد الإخوة بمراجعة الدكتور جاسر الجربش، وهو -فضلاً عن كونه من أصهاري- من أعز الأصدقاء، إذ استقبلني ببشاشته المعهودة، قائلاً: ماتشكو منه يسير علاجه، وليس بحاجة إلى ما ذكرت لي من كثرة الاتصال بالأطباء، واستعمال تلك الأدوية، وبعد الفحص التام الدقيق أخبرني بأن ما اشكو منه التهاب بالمصران الغليظ، ولم يمض أسبوعان على استعمال ما قدم لي من دواء إلا وقد زال ما سبَّب مراجعتي قبل ذلك عدداً من الأطباء.

وأصبت بآلام في صدري، مع سعال شديد، فاتصلت بدكتور صديق لي يدعى محمود كمال ذودة طبيب أطفال لاستشارته، فذهب معي إلى الدكتور التميمي المشرف على معمل الأشعة في الرياض، وبعد الفحص والتصوير أرسل النتيجة إلى الدكتور محمود، الذي اتصل بي وأخبرني بأن الدكتور التميمي يرى أن في رئتك تَدَرُّنا، وقد وصف لك دواء وحقنًا هي هذه. فدأبت على استعمالها نحو نصف شهر، وبينما أنا في مكتب حمود الخلف مدير شؤون الطيران في الرياض للسفر إلى جدة، إذا

بالدكتورين يوسف الهاجري - وكان إذ ذاك مديراً لمكتب وزير الصحة الدكتور حسن نصيف، ومعه الدكتور حسني الطاهر، حضرا لاستقبال وزير الصحة الباكستاني فقدم الشاهي للحاضرين فأخرجت الزجاجة لاستعمال الدواء، فأخذها الدكتور يوسف، وقال: ما هذا؟ هل أنت مصاب بالسل، فأخبرته بما حدث فقال: غداً الساعة الثالثة والنصف أحضر معك الصورة والأدوية في مكتبي في الوزارة، فلما طالع الصورة، رمى بالأدوية وقال: التشخيص غير صحيح، فبقع البياض التي في الرئة حادثة عن سببين، قلة البروتينات في الغذاء كاللحوم وغيرها، وعدم تنظيم مواعيد الأكل.

في مصر: أحسست بمغص شديد في الأمعاء بعد الأكل بنصف ساعة فوصفت لي من قبل أطباء باطنيين أدوية لم أجد لها أثراً، فسافرت إلى القاهرة، وراجعت أشهر طبيب باطني الدكتور محمد جعفر، ووجدت في عيادته الشيخ حافظ وهبة معه إحدى بناته، فلما انتهى من فحصها، أوصى الدكتور بي، ولكنه رأى بعد ذلك إحالتي إلى دكتور يدعى عرفان لتصوير الأمعاء، وكتابة تقرير قال عنه الدكتور جعفر: إنه يميل إلى أن عندك التهابات في الزائدة، ولهذا سأبعثك إلى الدكتور المختص بعلاجها لطفي عبدالسميع، جراح في القصر العيني، وأستاذ في كلية الطب.

وفي عيادة الدكتور لطفي، بعد أن تمددت على السرير للفحص، اتكأ بأصبعه بشدة فوق مراقّ البطن مما آلمني، فقال: عندك التهاب شديد في الزائدة الدودية، وتحتاج لاستئصال سريع، وبينما بدأت ألبس ثيابي وأفكر في الأمر قال لي: أتعرف الشيخ أحمد بابروك؟ فقلت: نعم هو مدير المحاسبة في وزارة المالية في بلادنا. قال: عالجت ابنته من مثل مابكَ فلم أستوف سوى مئة جنيه!! ولما هممت بالخروج قال: ينبغي أن تسارع للعلاج، فقبل أسبوع راجعني مريض مثلك فنصحته بسرعة علاجه، ولكنه سافر للاسكندرية، وأثناء الطريق الصحراوي انفقأت الزائدة ومات!! كان معي محمد أنعم غالب أحد الطلاب اليمنيين، فقلت: ما رأيك - وقد سمع كلام الطبيب - فقال: لا أنصحك بأن يتولى علاجك، وهنا طبيب باطني قدير، قد عالج ملك اليمن، ويتولى

الكشف على الطلاب اليمنيين مجانًا، وقد يقدم لبعضهم بعض الأدوية يدعى محمد إبراهيم، وعيادته عند (جامع أولاد عنان) في ملتقى شارعي إبراهيم باشا، وعماد الدين، فكان تحديد وقت الكشف، ومقابلته، وبعد فحص دقيق كتب دواء وشرابًا قال: استعمله وسيزول ما تحس به خلال شهر، فسألته عن الدكتور محمد جعفر، فقال أستاذنا، وعن الدكتورين عرفان ولطفي، فقال: معروفان، فقلت: إنهم يرون أنني مصاب بالتهاب الزائدة. قال: لا ولكن في المصران الغليظ، وقد كتبت لك العلاج، فاستعملته فزال ما أشعر به من ألم.

بعد ما جرى مع الطبيب لطفي عبدالسميع -وقد توفي قبل خمسة عشر عامًا- جعلني لا أطمئن إلى كثير من الأطباء، وكنت عشت في الظهران نحو خمس سنوات، وهي مجاورة للبحر، فجوها رطب، ولما انتقلت إلى الرياض عام ١٣٦٩ -وجَوُّها صحراوي جافٌّ، كنت إذا استيقظت من النوم أحس يبوسة في فمي، وحين أُسعل أشاهد ريقي متغيراً، وأشعر بنغزات في الصدر، فسافرت إلى القاهرة، وكنت أعرف طبيبًا يوغسلافيًا يدعى (جوت) طبيب أطفال، فطلبت منه ارشادي إلى طبيب للصدر، ليس عربيًا، فكتب لي ورقة إلى (أجزاخانة كلسكر)، في أول شارع سليمان باشا. فقال لي صاحبها: هاهو دكتور يوناني يدعى أغناطيوس مدير المستشفى اليوناني في هذا الشارع، وهو مختص بمعالجة أمراض الصدر.

كان مظهر العيادة يعبر عن مكانة هذا الطبيب الممتازة بما فيها من كثرة الآلات، مع قلة المراجعين، وبعد دفع جنيهين، والعادة أن المبلغ لا يزيد على جنيه واحد، وبعد اجراء ما أراد إجراءه من فحص قال لي: إنَّ المكاشفة بين الطبيب والمريض أهم الأمور في شفائه. وسأكون صريحًا معك، فأبديت له ارتياحي لهذا فقال: أنت مصاب بالسل، وبمرض الكبد، والقلب، ودرجة السكر مرتفعة إلى درجة الخطر. فقلت: إذَنْ ما العمل؟ قال: نبدأ بعلاج السل أولاً، ونعالج بعده الأمراض الأخرى، فوافقته فقال: عندي حقنة بأربعة جنيهات تحتاج إليها كل يوم، فإذا وافقت بدأت من اليوم الساعة الرابعة مساء.

فقلت: ألا احتاج إلى تحليل دم، وتصوير للصدر؟ قال: نعم وهذه ورقة لمحل (جيد أوغلو للتحاليل الطبية) في شارع محمد فريد، فكان الذهاب إليه، ولا تزال لافتته معلقة بقرب مكتب الخطوط الليبية منذ أكثر من خمسين عامًا، فكنت أتردد على الطبيب كل يوم لاستعمال الحقنة نحو أسبوعين. وفي أحد الأيام عند عزمي الذهاب إليه زارني الشيخ عبدالله القصيمي ومعه فهمي كرم، صديق له موظف في وزارة التعليم، فأخبرتهما وطلبت بقاءهما حتى أعود، وعندهما من يهيئ لهما القهوة. فسألني فهمي عما بي، فقلت: أنا بؤرة أمراض من السل فما دونه؟ قال: هل راجعت الدكتور عبدالعزيز سامي فهو طبيب عالمي بأمراض الصدر؟ فأجبته: يعالجني من قد يكون أقدر منه، الدكتور أغنا طيوس مدير المستشفى اليوناني. أقنعني فهمي بضرورة مراجعة من سمَّى، وبعد أسبوع تمكنت من تحديد الموعد لكثرة مراجعيه، فحضرت أحمل الحقنة والحبوب التي استعملها ونتيجة التحليل، وبعد اطلاعه قال: أنا لا أطمئن إلى أي تحليل يتم بغير طلبي، وها هي أوراق لمن أثق بهم من المحللين. إذا رغبت الذهاب إليهم، فتم هذا وأحضرت له تقاريرهم، فأخذ مني الدواء والحقنة. وقال: أنصحك بعدم استعمالها. وكل التحاليل تثبت خلو جسمك من جميع الأمراض وما حدث في حلقك وفي صدرك يحدث لكل إنسان من تغير الجوّ. فكأنما كشف عن قلبي ما جعلني أشعر بما حولي، وغمره بفيض من الارتياح والاطمئنان.

وفي بيروت كنت -ولا أزال- أشكو آلامًا مبرحة في أصابع يدي، راجعت منها عدداً من الأطباء في القاهرة وغيرها فكان أكثرهم يرى أنها من أنواع (الروماتيزم)، والأدوية قد تخففها، ولكن لا تزيلها، فذكر لي الأخ خالد سوبرة مدير مكتب صالح الصالح وجود طبيب في مستشفى المقاصد، على جانب كبير من الشهرة في علاج أمراض المفاصل، فكان الاتصال به، وبعد الفحص والتحليل والتصوير قال: تحتاج الأصابع إلى إجراء علاج جراحي (عملية) وإلا فإنها ستتقفع[1] -أي تتصلب فتعوج-

(١) من التقفع وهو اليبس والاعوجاج لعله مأخوذ من القفعاء وهي شجيرة ذات أغصان معوّجة متشابكة، بها توصف حلق الدروع.

فنهاني طبيب آخر عن هذا، فقبلت نصحه، وهاهي الأصابع سليمة منذ نحو ثلاثين عامًا.

وفي الرياض: حين سقطت فارتضّ قدمي، وفي قسم الإسعاف في المستشفى التخصصي أشرف على الكشف طبيب امريكي، ولكنه فظ غليظ، حين كان يضغط عليه فقال: القدم سليم، وينبغي أن تمشي عليه، في الوقت الذي لا أستطيع تحريكه، وليس بحاجة إلى ربط ولا دواء. ولا أشك أن تساهله في الكشف وعدم الاهتمام والعناية من أسباب ما أعاني في القدم من آلام طوال الفترة الماضية -أي نحو خمسة عشر عامًا-.

هي أمثلة أردت من عرضها إيضاح أن الأطباء كغيرهم من بني البشر في جميع البلاد. وأن البلاد الغربية مهما امتاز به سكانها من تقدم علمي، في مختلف شؤون الحياة، إلا أن ذلك لا أثر له في التغيير في الطبيعة البشرية، وما تلك الأمور التي ذكرت سوى حوادث فردية ليست خاصة بالأطباء، إنني أُدرك كغيري -أن قدرة الإنسان أي إنسان كان محدودة، طبيبًا كان أو غيره، وأن طباع الناس تختلف، فما يصلح من أدوية لإنسان قد يسبب المرض لآخر، وما على الطبيب إلا أن يصف لما اتضح له من مرض، ما يراه مناسبًا لعلاجه، وهذا مبلغ قدرته، لهذا ليس جديرًا بأن يوجه إليه شيء من العتب أو اللوم أو غيرهما فيما لو حدث خلاف ما توقع، مالم يثبت منه تقصير، وكما قال الشاعر:

والناس يَلحَوْن الطبيب وإنما
غلط الطبيب إصابة الأقدار

وعلم الطب لم يتوصل -بعد- إلى العلاج الناجع لجميع الأمراض.

هذا كله حق، ومن الأمور البدهية، غير أن ما يراد من الأطباء، بل من كل امرئ يشارك أبناء أمته في كل عمل نافع، أن يكون حكيمًا في معاملته، متوخيًا لمراعاة

أحوال الناس في أخلاقهم ومشاعرهم ومختلف طباعهم، ولأمر ما أطلق العرب على الأطباء لقب (الحكماء) دون غيرهم.

لقد تقدم الطب، فتوصل إلى علاج أكثر الأمراض، وقضى على أشدها فتكًا، وأعظمها ضرراً، وأوسعها انتشاراً، وأنشئت المستشفيات والمصحات العامة والمتخصصة للعلاج، وجهزت بأحدث الآلات التي بها يتمكن الطبيب من معرفة الكثير من الأمراض، ومعالجتها بأحدث الطرق، وليس هذا خاصًّا في البلاد الغربية، ومنها الأمريكية، بل أصبح عامًا في كل أقطار العالم، وكان للبلاد العربية -بعد أن انتشر فيها التعليم، وتقدم، ووجد من أبنائها من تخصص في أهم فروعه، ومنها علم الطب، كان لهذه البلاد من ذلك نصيبها، فأصبح أغلب سكانها ليسوا بحاجة إلى السفر لخارجها للعلاج، إذ يجدون في مستشفياتها، تحت إشراف أطباء من أهلها مالا يجدونه في المستشفيات الأخرى، وخاصة من حيث العناية التامة وتوفر كل وسائل العلاج.

مضى لي منذ أن أصبت بمرض القلب سبعة عشر عامًا، وأنا أتردد على (مستشفى الملك فيصل التخصصي) في أوقات محددة للفحص بإشراف أطباء ذوي مقدرة، ورغبة صادقة براحة المريض، وحرص شديد على العناية به، كالدكتور الزيادي والدكتور فوزي وغيرهما، وطول هذه المدة كانت حالتي الصحية مستقرة، وكثيرون غيري من مراجعي هذا المستشفى وغيره من مستشفيات وزارة الصحة، والدفاع والحرس الوطني وغيرها ينالون من اهتمام الأطباء في هذه المستشفيات، ومما يقدم لهم فيها من علاج ما يتميز عن أمثاله في البلاد الأخرى.

وفي (مستشفى الملك خالد التخصصي للعيون) حين اشتد ارتفاع الضغط في عيني من الماء الأزرق (الجلوكوما) مع الماء الأبيض، وبعناية فائقة متواصلة في الفحص من الدكتورة البارعة في طب العيون، الطبيبة سلوى الهزاع، وبتوجيهها تولى علاجي الدكتور (ديوكر) من أشهر الأطباء العاملين في ذلك المستشفى بنجاح، ويتردد على هذا المستشفى جميع المصابين بأمراض العيون، لا من أهل البلاد وحدهم، بل من

مختلف الأقطار العربية، فيجد جميع مراجعي أطبائه وأكثرهم من أبناء البلاد، مالا يجدونه من العناية في أشهر المستشفيات.

ومجمل القول: عما كان لتلك الرحلات من أثر في نفسي، أنني لم أقصد زيارة تلك البلاد لمعرفة أحوالها، أو مشاهدة ما تختص وتتميز به من مظاهر، وإنما قصدت تحقيق رغبات خاصة، إما للاستفادة بما تحويه مكتباتها العامة التي تعنى باقتناء المؤلفات العربية بما أتمكن من الاستفادة، مطالعة أو اقتناء بالتصوير، وإمَّا مراجعة مَنْ نصحت بمراجعته من الأطباء للعلاج. ومنها لمرافقة من هو بحاجة إلى مرافقتي من أقاربي، ولعلي أوضحت جوانب من تأثير ذلك في نفسي فيما تقدم، وما عدا ذلك فلست بِدْعًا من فئات البشر، التي لا تُعَدُّ كثرة، ممن شاهدوا ما مَرَرْتُ به من تلك البلاد، وعرفوها حقَّ المعرفة. ومن بينهم من تصدَّى للكتابة عن جميع أحوالها، بحيث لم يدع شاردة ولا واردة إلا أوضحها، عن إدراك تام، ومعرفة واسعة وشاملة، فكان من أثر ذلك تلك المؤلفات والرحلات، التي تفوق العدّ والحصر، أما ماحوته هذه الورقات فلا يعدو ما يدركه ويشاهده كل مسافر في سيره نحو غاية لا صلة لها بأحوال تلك البلاد، سوى ما ألجأته إليه الضرورة، مما لا يخرج عن مدلول قول الشاعر الجاهلي الحكيم[1]، قبل خمسة عشر قرنًا من الزمان:

ما أرانا نقول إلا مُعَارًا
أو مُعَادًا من قولنا مكرورا

---

(١) هو زهير بن أبي سلمى المزني.

الفهارس العامة

الموضوعات العامّة

الموضوع	الصفحة

في بعض البلاد الأوربية ١١٧-٢٣٥

في عاصمة الانجليز ١٢٨-١٥١

في البلاد السويسرية ١٥٢-١٦١

في المانيا ١٦٦-١٧٣

في ايطاليا ١٧٧ - ١٩٤

في فرنسا ١٩٥-٢٣٠

إلى أسبانيا ٢٣١-٢٣٧

إلى الشرق ٢٣٩–٣٠٠

إلى اليابان ٢٥٣–٢٦٤

يومان في (تيوان) قاعدة الصين الوطنية ٢٦٥-٢٦٩

إلى (هنق كنق) ٢٧٠-٢٧٦

في الفلبين ٢٧٧-٢٨٠

في (سنغافورة) ٢٨١ - ٢٨٣

إلى كوالالمبور ٢٨٤-٢٨٨

في تايلند (سيام) ٢٨٩-٢٩١

في الهند ٢٩٢ - ٢٩٩

إلى الباكستان ٣٠٠-٣٠٨

الخاتمة : رحلة بين الرحلات ٣٠٩ – ٣٤٠

أسماء الرجال والنساء

حرف الألف

حـرف الباء

حـرف التاء

حـرف الجيم

حـرف الحاء

حـرف الخاء

حـرف الدال

حـرف الذال

حـرف الـراء

حـرف الـزاي

حـرف السين

حـرف الشين

حـرف الصاد

حـرف الطاء

حـرف الظاء

حـرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حـرف الكاف

حـرف اللام

حـرف الميم

حـرف النون

حـرف الـواو

حـرف الـهاء

حـرف الياء

المواقع (المدن والقرى وغيرها)

حـرف الألـف

حرف الباء

حـرف التاء

حـرف الجيم

حـرف الحاء

حـرف الخاء

حـرف الدال

حـرف الذال

حـرف الراء

حـرف الزاي

حـرف السين

حـرف الشين

حـرف الصـاد

حـرف الضـاد

حـرف الطاء

حـرف العين

حـرف الغين

حـرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حـرف اللام

حـرف الميم

حـرف النون

حـرف الواو

(١) النزُل تعريب (البنسيون).

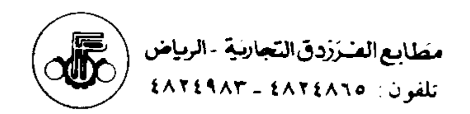
حـرف الهاء

حـرف الياء

الكتب والصحف والمجلات

بعض الأمم والقبائل والجماعات

[كثير من الأمم والشعوب تعرف باسم الأمكنة التي تسكنها، وقد تقدم ذكرها، أما المذكرون هنا فلمناسبة عرضت].


مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

مطبوعات حديثة:

دائرة معارف عن سير الثقافة خلال القرن الرابع عشر

مُعْجَمُ المطبُوعاتِ العربيّةِ في المملكةِ العربيّةِ السّعوديّةِ

تأليف

علي جواد الطاهر

في أربعة أجزاء

التَّعْلِيقَاتُ والنَّوَادِر

عن أبي عَليّ هارُون بن زَكَريا الهَجَريّ

في أربعة أجزاء

«الأَمَاكِن»

تأليف

الإمام الحافظ محمد بن موسى الحازمي (٥٤٨/٥٨٤هـ)

في جزءين



مجلة تعنى بتاريخ العرب وآدبهم وتراثهم الفكري

مجموعات كاملة منذ صدورها (رجب ١٣٨٦ هـ) حتى نهاية السنة الرابعة والثلاثين في (٣٤) مجلداً مع فهارسها الشاملة في (٣٢٤٧٤) صفحة،

تطلب هذه المطبوعات من إدارة مجلة «العرب»، ص.ب: ١٣٧ الرياض ١١٤١١

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

ردمك : ٩٩٦٠-٩١٩٧-٢-٢